

معبود الفجر

رواية

يو كيو ميشيما

دار الآداب

ترجمة
كاميل يوسف حسين

علي مولا



معبد الفجر

بحر الخطب - ٣

معبد الفجر

رواية: يوكيو ميشيما

ترجمة: كامل يوسف حسين

دار الأداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٣

القسم الأول

حلّ موسم المطر في بانكوك. وتشعّ الهواء برذاذ بديع، متواصل. وغالباً ما كانت قطرات المطر تتراقص في شعاع متألق من سني الشمس. وتبدّت للعيان، هنا وهناك، انفراجات من الزّرقّة. وحتىّ حينما كانت السّحب تتجمّع بكثافة بالغّة حول الشمس، فإنّ السّماء كانت تلوح باهرة الزّرقّة. وقبل قدوم عاصفة مطيرة، تنقلب السّماء، فتغدو مكفهرة على نحو حافل بالنّذر، ومترعة بالتهديد. ويلفّ ظلّ منذر بالشرّ المدينة الّتي تسودها الخضرة والسّقوف الخفيفة، ويتناثر فيها النّخيل.

يعود اسم المدينة إلى عهد عائلة أيوثايا المالكة، عندما أطلق عليها لأوّل مرّة اسم «بان» أيّ مدينة و«كوك» أيّ الرّيتون؛ بسبب أشجار الرّيتون العديدة الموجودة فيها. وهناك اسم قديم آخر، هو كرونج ثيب، أو «مدينة الملائكة». وهذه العاصمة الّتي تقع على ارتفاع أقلّ من ستّة أقدام فوق مستوى سطح البحر، تعتمد تماماً في المواصلات على القنوات. فعندما تشقّ الطّرق بمراكمّة التّربة، فمن المحتّم أن تظهر القنوات. وعندما يتمّ حفر الأرض، في غمار عمليّة بناء دار، تتشكّل البرك على الفور. وتتصل هذه البرك على نحو طبيعيّ بالغدران، وهكذا فإنّ هذه «القنوات» تنطلق في كلّ اتجاه، متدفّقة جميعها إلى المياه الأمّ الّتي تشكّل نهر مينام المتألق باللّون البنيّ الّذي يميّز بشرة سكّان المدينة.

وتقوم في قلب المدينة مبانٍ أوروبّيّة الطّراز، ذات ثلاثة طوابق وشرفات، وأبنية عديدة من القرميد، تتألّف من طابقين أو ثلاثة

طوابق، في المنطقة التي يتركز فيها الأجناب، وقد اجتثت الأشجار التي تحفّ بجوانب الطّرق، والتي كانت ذات يوم أجمل معالم المدينة، هنا وهناك، في غمار شقّ طريق رئيسيّ، وتمّ بصورة جزئية تعبيد بعض الطّرق. وتشكّل أشجار السنط التي تعترض أشعة الشّمس القويّة مجمعات من الظلّ، على امتداد الطّرق، تكسوها بخمُر الحداد السّوداء. وبعد عاصفة رعديّة، تدبّ الحيويّة فجأة في أوراق الشّجر المرتجفة في القيط، وتنتعش، وترفع رؤوسها.

وتذكّر المدينة المرء، من حيث ازدهارها، بمدينة من مدن جنوبي الصّين. وتشقّ زوارق ذات مقعدين لا حصر لعددها طريقها، وقد وضعت ظلات على الجوانب والمؤخّرة. وفي بعض الأحيان تقاد الجواميس من حقول الأرز القريبة من بانكوك عبر الشّوارع، والغربان ماتزال جائمة على مؤخّرتها. وهنا وهناك تلتمع في الظلّ البشرة المميّزة لشحاذ مصاب بالجذام، وكأنّها لطحّة قائمة. وينطلق الصبية عراة تماماً، بينما تستر البنات الصّغيرات عوراتهنّ بقطع مطوية من المعدن. وتعرض للبيع في السّوق صباحاً فواكه وأزهار مجلوبة من مناطق بعيدة. وأمام المصارف الصّينيّة تتألّق سلاسل من الذهب الخالص، وقد علّقت كأنّها حصر النّوافذ التي تحجب الضّوء.

ولكن عندما يُرخي المساء ستره تُترك بانكوك للقمر والسّماء المرقّشة بالنّجوم. وإلى جانب الفنادق المزوّدة بأنظمة مستقلة للإمداد بالتيار الكهربائي، فإنّ منازل الأثرياء، المزوّدة بمولدات للتيار الكهربائي، هي وحدها التي تتألّق على نحو بهيج هنا وهناك. ويلجأ معظم النّاس إلى الاستعانة بالمصابيح والشّموع. وتضيء شمعة وحيدة على امتداد اللّيل، في المذابح البوذويّة، في الدّور الخفيضة المترامية على

امتداد النهر، ويلتصع الطلاء الذهبي اللون لأيقونات بوذا وحده على نحو خافت في أعماق المباني المسقوفة بأخشاب الخيزران. وتحترق أعواد بخور بنية، غليظة، أمام التماثيل، ويأتلق ضوء شمعة من الدور الواقعة على الضفة المقابلة، ويعترضه بين الفينة والأخرى زورق مارّ، ملتف بالظلام.

في ١٩٣٩ - أي العام الماضي - غيرت سيام اسمها، رسمياً، إلى تايلاند.

لا يرجع السبب في تسمية بانكوك بفينسيا الشرق إلى أي تشابه خارجي بين المدينتين اللتين لا يمكن مقارنتهما، من حيث التصميم أو النطاق. وفي المقام الأول فإن كلاً منهما تستخدم أيضاً من القنوات للتقل المائي، ثم إن كلاً منهما تضم كثيراً من الصروح المقدسة. فهناك سبعمائة معبد في بانكوك.

تشمخ المعابد البوذية، المتعددة الطوابق، عالية عبر الخضرة، وهي أول ما يتلقى نور الفجر، وآخر ما يودع أشعة الشمس الغاربة، متغيرة مع النور إلى حشد من الألوان.

يُعدّ وات بنتشامابويت، المعبد المرمي الذي شيده راما الخامس تشولالونجكورن، في القرن التاسع عشر، أحدث المعابد وأفخمها، على الرغم من أنه صرح متواضع.

صعد العاهل الحالي، راما الثامن، أو الملك أناندا ماهيدول إلى سدة العرش في عام ١٩٣٥، وهو في الحادية عشرة من عمره، ولكنه سرعان ما مضى للدراسة في لوزان. وهو حالياً في السابعة عشرة من عمره، ومازال هناك، يكرّس نفسه لمواصلة الدراسة. وفي غيابه تولى رئيس الوزراء، لوانج فييون، سلطات مطلقة. وفي الوقت الحالي لا

يقوم البرلمان الشكلي إلا بمهمة استشارية فحسب. وقد اختير نائبان للملك، وكان أولهما، وهو الأمير أتشيتو آبار، لا يعدو أن يكون مجرد واجهة، بينما أمسك الثاني، وهو الأمير برود بانوما، بمقاليد السلطة الحقيقية.

وغالباً ما كان الأمير أتشيتو آبار، وهو بوذي ورع، يزور في أوقات فراغه معبداً أو آخر من معابد المدينة. وذات مساء جرى الإعلان عن عزمه على زيارة المعبد المرمرى.

كان المعبد الصرحي ينتصب شامخاً على ضفة غدير تحفه أشجار سنط طريق ناخون باثوم.

فتحت بوابات المعبد المرمرى البنية المحمرة التي يحميها زوج من الجياد الحجرية لها عوارض زخرفية تشبه السنة لهيب بلوري أشهب، بأسلوب الخمير القديم. وعلى كل من جانبي الممشى المستقيم، المرصوف بالحجر، المفضي من المدخل إلى المبنى الرئيسي الذي يحيطه نجيل متألق الخضرة كالزمرّد، انتصب سرادقان أقيما بأسلوب جاوة التقليدي الذي تميّزه أطراف السقوف المقلوبة إلى أعلى. وقُلمت أطراف أشجار السنط في المرجة بأشكال دائرية، وبدت أسود متدفقة بالحيوية والمرح، بيضاء اللون، على ظنف السرادقات، وهي تدهس السنة الذهب.

عكست الأعمدة البيضاء، المنحوتة من المرمر الهندي، والمنتصبة أمام المبنى الرئيسي مباشرة، والأسدان المرمريان، الحارسان، والدرايزين الخفيض الأوروبي الطراز، والواجهة المشيدة من المرمر كذلك، الأشعة المتألقة للشمس الموغلة غرباً، وشكلت لوحة بيضاء نقية أبرزت النماذج الزخرفية الثرية التي تتخذ من اللونين الذهبي

والقرمزيّ قواماً لها. خَطَطت الأَطْر الدّاخلية للنّوافذ، ذات القوس العلويّ المستدقّ القمّة، باللّون القرمزيّ، وأحيطت بالسّنة هب ذهبيّة، منمّقة، تعلو وكأنّها تلتهم النّوافذ. وحتّى أعمدة الواجّهة البيضاء زُيّنت باللّون الذهبيّ المتألّق الذي يعلو حيّات «ناجا» الملتفّة على ذاتها وهي تبرز دوغماً توقّع من تيجان الأعمدة. وحفّت صفوف من الحيّات الذهبيّة المرفوعة الرّؤوس بالسّقوف المتشاخّة باتجاه السّماء، والمؤلّفة من طبقة بعد أخرى من الأجر الصّينيّ الأحمر. وتألّفت أطراف كلّ سقف تابع من ذيول حيّات رفيعة، ذهبيّة اللّون، وكأنّها كعبان مستدقان في حذاء امرأة، تندفع إلى أعلى، وكأنّها في منافسة، نحو السّماء الزرقاء، إلى عليّين. تألّق كلّ هذا الذهب، على نحو قاتم للغاية، تحت الشّمس، مضيفاً المزيد من البهاء على بياض الحمام الذي جثم متكاسلاً على امتداد الجملونات.

ولكن عندما أجفّلت الطّيور البيضاء، واندفعت فجأة محلّقة إلى رحاب السّماء الصّاربة تدريجياً إلى الظلمة، لاحت في سواد جزئيّات دقيقة من السّناج. وكأنّما غدا سناج السنة اللّهب الذهبيّة، المتكرّرة في زخارف المعبد، طيوراً.

وفي الحديقة بدت أشجار النّخيل السّامقة وكأنّها تحجّرت في دهشة، ولاحت النّافورات التي تتخذ شكل الأشجار، وكأنّها أقواس ترمي بسهام خضرتها أبعد فأبعد نحو السّماء.

مضت النباتات والحيوانات والمعادن والأحجار والحمرّة الهندية وقد تداخلت في تناغم وأتساق، تمرح، وكأنّها في حفل سمر في النّور. وحتّى الرّؤوس المرمرية للأسود البيضاء التي تحرس المدخل، بدت لأعين الدّنيا جميعها مثل زهور عبّاد الشّمس. وإذ اصطفت أنياب

مشارية تشبه البذور في أشداقها المفتوحة، فقد لاحت وجوهها الأسيديّة
زهور عبّاد شمس بيضاء، غاضبة.

اقتربت سيّارة الأمير أنشيتو أبار، الرولز رويس، من المنطقة
الواقعة أمام البوابة. وكانت فرقة الشبان العسكريّة التي ارتدى
أعضاؤها الزيّ الرسميّ الأحمر، قد اصططقت في المرجة، قرب
السرادات، وراحت تعزف على آلاتها، وانتفخت أوداج أعضائها
البنيّة. وعكست الأفواه المتوهجة للأبواق بدقّة شخوص الشبان في
أزيائهم الرسميّة المتألّقة. ولم تكن هناك آلات موسيقيّة أكثر ملاءمة
منها تحت الشمس الاستوائيّة.

تبع خادم يرتدي معطفاً أبيض، ويتمنطق بحزام أحمر، الأمير،
رافعاً مظلة بلون العشب فوق الرأس الملكيّ. ودخل الأمير الذي
كان يضع الأوسمة والنياشين على سترته العسكريّة البيضاء، المعبد،
وبصحبه وصيف يتمنطق بحزام أزرق، ويحمل التقدّمات، وعشرة
من رجال الحرس الملكيّ.

كانت زيارته تستغرق عادة حوالي عشرين دقيقة. وخلال هذه
الفترة درج النظارة على انتظاره، في المرجة، متعرّضين لوقدة
الشمس. وأخيراً تناهى صوت عزف على كمان صيني في الحرم
الدّاخلي للمعبد، مختلطاً بقرع أجراس رقيقة، وانتقل التابع الذي
يحمل المظلة إلى الدّاخل، ورفعها، وقد اتّصل بطرفها مجمر لمعبد
ذهبيّ رقيق، حتىّ مستوى كتفه، ووقف أربعة من رجال الحرس
يعتّمون قبّعات تشبه أغطية رؤوس الكهنة، وقد تدلّت أطرافها على
أقفيتهم، مصطفيين على الدرج الحجري. وكان الدّاخل المحتجّب
عن الأنظار معتماً للغاية، بحيث لا يستطيع المرء أن يلمح وهج

الشَّموع هناك. وتصاعدت الأصوات التي ترتل سوترا، بسرعة، إلى مرحلة تعاطم الصَّوت، ثمَّ توقَّفت على قرع جرس واحد.

فتح الخادم المظلة الخضراء، رافعاً إيَّاهَا في إجلال فوق الأمير المغادر المكان، وأدَّى رجال الحرس التحيَّة العسكريَّة برفع سيوفهم. واجتاز الأمير البوابة مسرعاً، وركب الرولز رويس.

بعد فترة قصيرة انفضَّ جمع النظارة الذين راقبوا رحيل الأمير، وغادرت الفرقة الموسيقيَّة العسكريَّة المكان. وخيَّمت هدأة المساء، في رقة، على المعبد. ومضى بعض الكهنة الذين يرتدون ملابس في لون الزعفران، في نزهة إلى ضفة النهر، وراح البعض يقرأ، وانغمس آخرون في الحديث. طفت أزهار حمراء ذابلة، وثمار فاكهة متساقطة على سطح الماء، الذي عكس أشجار السنط المنتصبة على الضفة المقابلة والسَّحب الجميلة التي توشَّحت في السَّماء بالمساء. وغاصت الشمس وراء المعبد، والتفَّ العشب بالعممة. وفي نهاية المطاف احتفظت الأعمدة والأسود وواجهت المعبد المرمرية وحدها ببياض مسائيّ آفل.

* * *

وات بو

هنالك يتعيَّن على المرء أن يشقَّ طريقه عبر الحشود المتدفَّقة، وسط المعابد المتعدِّدة الطوابق، المنتمة إلى أواخر القرن الثامن عشر، والقاعة المركزيَّة التي شيَّدت في عهد راما الأوَّل.

شمس متوهَّجة. سماء لازورديَّة. ورغم ذلك فإنَّ الأعمدة الشَّهاء، الهاثلة، في قاعة المعبد الرئيسي الكبري، بدت ملطَّخة وكأَنَّها قوائم فيل أبيض.

زخرف المعبد المتعدّد الطّوابق بقطع صغيرة من الخزف الّذي يعكس سطحه النّاعم، المؤتلق، الشّمس. وثمّة في المعبد العظيم الأرجواني اللّون، طبقات بالغة الوضوح من الفسيفساء الزّرقاء وقطع لا حصر لها من الخزف، رسمت عليها أعداد هائلة من الأزهار ذات البتلات الصّفراء والحمراء والبيضاء على أرضيّة أرجوانيّة مزرقّة: سجّادة عجميّة من الخزف تتعملق ناهضة نحو السّماء.

على أحد الجوانب ينتصب معبد أخضر متعدّد الطّوابق. وتعتزّز كلبة جبلي، تتدلّى مترجّرجة في حركة بندوليّة أنداؤها الحمراء الورديّة ذات النّقاط السّوداء، على الممشى المرصوف بالحجر، وكأثما سحقتها مطرقة الشّمس.

في قاعة النيرفانا يريح تمثال مذهب هائل لشاكيّا موني مضطّجعاً كتلته من الخصلات الذهبيّة على وسادة تشبه الصندوق من الفسيفساء الزّرقاء والبيضاء والخضراء والصّفراء. وتمتدّ ذراعه الذهبيّة بعيداً لتسند رأسه، وعند النّهاية الأخرى للقاعة المعتمة يتوهّج عقباه الذهبيان.

لقد طُعّم باطنا قدميه بعرق لؤلؤ بديع، وفي كلّ مقطع دائري، وفي مواجهة خلفيّة سوداء رائعة الصّياغة، وباستخدام التطعيم بأصداف متألّقة، قزحيّة اللّون، صُوّرت ملامح من حياة بوذا، زخرفت كلّها بنباتات الفاوانيا، الأصداف، عناصر تجميل المذابح، قطع صخريّة متميّزة، أزهار اللّوتس النّاهضة من المستنقعات، الرّاقصات، الطّيور الغريبة، الأسود، الفيلة البيضاء، التنانين، الجياد، طيور التّم، الطّواويس، السّفن ذات الأشعة الثلاثة، التّمور، وطيور العنقاء.

تتألق التوافذ المفتوحة وكأنها عوارض نحاسية مصقولة. وتحت أشجار الزيزفون تمر مجموعة من الكهنة، في ثياب برتقالية زاهية، وقد تعرت أكتافهم اليمنى البنية اللون.

في الخارج، يبدو الهواء ذاته وكأنما أصابته حمى استوائية. وفوق البحيرة الرّاكدة بين المعابد المتعدّدة الطوابق، تترامى كتلة الجذور الهوائية لأشجار المنجروف الخضراء الملتزمة^(١). ويزجّي الحمام الوقت على جزيرة مركزية، ذات صخور طليت باللون الأزرق. وصوّرت فراشة هائلة على الواجهة الصخرية، وعلى القمة انتصب معبد أسود، صغير، جهم، متعدّد الطوابق.

ومعبد وات فراكيو هو المعبد الحارس للقصر الملكي، وقد اشتهر بتمثاله الرئيسي، تمثال بوذا الزمردي.

لم يلحقه ضرر قط، منذ تشييده في عام ١٧٨٥.

تتألأ جارودا ذهبية، نصفها امرأة والنصف الآخر طائر، وعلى كلّ جانب من جانبيها أعمدة مستدقة الطرف، مذهبة، تحت المطر، عند قمة الدرج المرمرّي. وتتألق بمزيد من البريق أحجار القمريد الخضراء الحواف، والمكسوّة باللون الأحمر الصّيني، تحت المطر الملتعم.

تكتسي جدران القاعة الرئيسيّة للمهاندا با بسلسلة من اللّوحات الجدارية التي تصوّر أحداثاً من ملحمة الراما يانا.

وبدلاً من راما الورع نفسه، فإنّ هانومان، القرد المتألّه، والابن

(١) ليس الحديث عن الجذور الهوائية هنا بغريب، فالمنجروف شجرة استوائية تتميز بظاهرة غريبة هي انبثاق جذور جديدة لها من أغصانها (هـ. م.).

المتوهج بالحويّة لإله الريح يظهر على امتداد القصّة المرسومة .
فالحسناء الذّهبيّة سبتا، ذات الأسنان المؤلّفة من زهور الياسمين،
يختطفها ملك الراكشاسا المخيف . ويخوض راماً معاركه العديدة
بعينين ثابتتين، متألّقتين .

قصور ملوّنة، آلهة في صورة قرده، ومعارك هولاء تظهر مقابل
جبال صوّرت على طريقة مدرسة جنوبي الصّين، أو بأسلوب لوحات
فينيسيا الأولى، القائمة، التي تصوّر المناظر الطّبيعيّة . وفوق المشاهد
الريفية القائمة يخلّق إلهه بألوان قوس قزح السّبعة، ممتطياً عنقاء .
ويسوط رجل يرتدي ثياباً مذهبة جواداً يكسوه قماش، ويقع بلا
حراك . وتوشك سمكة هائلة ترفع رأسها فوق البحر على مهاجمة
بعض الجنود الذين وقفوا فوق أحد الجسور . وعلى مبعده بحيرة ذات
لون أزرق شاحب، ويحتم هانومان مجرداً سيفه على شجيرة، فيما هو
يترصّد جواداً أشهب بسرج ذهبيّ، يمضي وثيداً، في صمت، عبر
غابة مظلمة .

- أتعرف الاسم الحقيقيّ لبانكوك؟

- لا، لا علم لي به .

- إنّه كرونج ثيب فرا مهاناكورن أمون لاتاناكوسين ماهنتر شيائايا

مافما بوب نوبالا راتشائاني بريلوم .

- ما الذي يعينه هذا كلّهُ؟

- من المستحيل، على وجه التقريب، ترجمته . فالأسماء التايلانديّة

تشبه زخارف المعابد في أنّها فخمة بلا ضرورة ومثقلّة بالأزهار،

ومزخرفة من أجل الزخرفة .

طيّب، إنّ كرونج ثيب تعني تقريباً «عاصمة» وبوب نوبار هي

«الماسة ذات الألوان التسعة» وراثشاثاني تعني «مدينة رحيبة» وبريلوم تعني شيئاً من قبيل «بهيجة». وهم يختارون أسماء وصفات مبالغاً فيها، ومترعة بروح المباهاة، ويضمونها معاً وكأنها حبات قلادة.

وفي غمار الردّ بـ «نعم» بسيطة على الملك يقتضي العرف السّاري في البلاد أن تقول: «فرايوت تشاو كا كولاب برومكسان سايكر او ساي كلامون». وهو ما ترجمته، على وجه التقريب، «خادمكم المتواضع، المطيع، ينحني إجلالاً لكم يا مولاي!». .

مضى هوندا، وقد استكن في مقعد من أسل الهند، يصغي لحديث هيشيكاوا بتفكّه بعيد عن التحيز.

كانت شركة منتجات إتسوي المحدودة قد بعثت بهذه الشخصيّة الموسوعيّة، وإن كانت على شيء من الغرابة، والرّثاءة، التي كان صاحبها، دوغما شكّ، فنّاناً، في وقت من الأوقات، ليعمل كمترجم ودليل لهوندا. وقد اعتبر هذا الأخير، وكان قد بلغ السادسة والأربعين من العمر، من قبيل المجاملة لنفسه أن يترك الأمور للآخرين، وبخاصّة في بلاد فائضة كهذه.

وقد جاء إلى بانكوك بطلب من شركة منتجات إتسوي. ذلك أنه إذا أبرمت صفقة على أساس القانون الياباني، ونشأ نزاع مع المشتري، خارج الأراضي اليابانيّة، فإنّه على الرّغم من إقامة الدّعوى أمام محكمة أجنبيّة، إلّا أنّها تحسم وفقاً للقانون الدوليّ المدنيّ. وفضلاً عن ذلك فإنّ المحامين الأجانب يجهلون، في الأحوال كافّة، القانون الياباني. وفي مثل هذه الحالات تتمّ دعوة مستشار ياباني بارز، لإيضاح الدّقائق القانونيّة اليابانيّة للمحامين المحليّين، والمساعدة على هذا النحو في تسوية الدّعوى.

وكانت شركة منتجات إيسوي قد صدّرت مائة ألف علبة من أقراص كالموس الواقية من الحمى إلى تايلاند في كانون الثاني (يناير). ومن هذا الإجمالي قُدِّر لثلاثين ألف علبة أن تتعرّض للتلف بتأثير الرطوبة، وفقدت لونها، وبالتالي فعاليتها. وكانت العلب تحمل تاريخ الصلاحية للاستخدام بما يتضمّن نقصاً في الفعالية عقب مدى زمني معين، ولكن ذلك لم يعد ذا جدوى بعد أن فسدت الأقراص. ومثل هذه المشكلات المدنية كان ينبغي حلّها بالإحالة على القانون الذي يتناول عدم الوفاء بالتعهد، ولكنّ المشترين تقدّموا باتهامات تتعلق بالغشّ الإجرامي الذي يقع تحت طائلة قانون العقوبات. وبالطبع، فإنه يتعيّن على شركة منتجات إيسوي، وفقاً للمادة ٧١٥ من القانون المدني، أن تتحمّل المسؤولية عن التعويض عن الأضرار الناجمة عن الإخلال غير الناجم عن الإهمال، بالنسبة لأيّ عيب في البضاعة التي توزّعها شركة عقاقير متعاقدة معها تعاقداً فرعياً. ولكنّ المسؤولين في الشركة ما كان بمقدورهم القيام بشيء دون مساعدة من محام ياباني قدير مثل هوندا، في موضوعات من هذا النوع الذي يتعلّق بالقانون الدوليّ المدني.

وقد خصّصت لهوندا غرفة في «أورينتال أوتيل» الذي ينطق أبناء البلاد اسمه «أورينتال أوتيل»، تطلّ على مشهد رائع لنهر مينام. وقد هُوّيت الغرفة بمروحة سقف بيضاء كبيرة. ولكن مع قدوم الليل كان من الأفضل الخروج إلى الحديقة الممتدة على ضفة النهر، والاستمتاع بالنسائم الأكثر برودة، بصورة نسبية، هنالك. وفيما هو عاكف على ارتشاف المشروب المقبل مع هيشيكاوا الذي أقبل للقيام بمهمة دليله هذا المساء، ترك رفيقه يتولّى إدارة دفة الحديث؛ فقد غلبه التعب، وحتىّ الملعقة أحسّ بأنها بالغة الثقل، بالنسبة لأصابعه، بل وكان

تجاذب أطراف الحديث عبثاً أثقل من الملعقة المطلية بالفضة .

على الضفة المقابلة راحت الشمس تغوص فيها وراء وات أرون ،
معبد الفجر . وملاً وهج مسائي يتخلل كل شيء السماء الرحبة ، فوق
مجاز الرؤية المسطح الذي تتيحه أدغال ثون بوري الذي لا يكسره إلا
برجان أو ثلاثة أبراج لها قمم مستدقة ، وتلفها الظلال ، في مواجهة
الأفق . وشأن القطن امتصت خضرة الغابة الوهج ، مغيرة إياه إلى
لون زمردني حقا . ومرت زوارق صينية تتحرك بالمجازيف ، وتجمعت
الغربان بأعداد كبيرة ، وهيمن لون وردي ملطخ على مياه النهر .

- الفن كله يشبه وهج المساء .

قالها هيشيكاوا ، راصداً ، على نحو ما يفعل دوماً عندما يتأهب
للإعراب عن رأي ، الأثر الذي ستركه كلماته فيمن يسمعه . وقد
أثارت نقاط الصمت تلك من ضيق هوندا ما يفوق ما أثارت ثرثرة
هيشيكاوا المتواصلة .

تبدى الملمح الجانبي لهيشيكاوا بوجنتيه المتميزتين باللون السيامي
الداكن ، والجلد المشدود على نحو شاحب ، خلافاً للسياييين ، فقد
مضى يتألق في أشعة الشمس الأخيرة التي ترامت من الضفة الأخرى
للنهر .

كرّر قوله :

- الفن وهج مسائي هائل . إنه التقدمة المحترقة لأفضل الأشياء
كأفة ، في عصر بعينه ، وحتى المنطق الأكثر وضوحاً الذي انتعش
طويلاً في ضوء النهار ، يقضي عليه تماماً الانفجار الباذخ المجرد من
المعنى في السماء المتوشحة بالمساء ، وحتى التاريخ المقدّر له ، فيما يبدو ،
أن يدوم إلى الأبد يحمل فجأة على إدراك نهايته . ويقف الجبال أمام

الجميع، فيجعل الجهد الإنساني بلا طائل تماماً. وأمام ألق المساء، أمام السحب المسائية المتدافعة، يتداعى كل الهراء الذي يدور حول «مستقبل أفضل» في التو. فاللحظة الزاهنة هي كل شيء، ويمتلئ الهواء بسم لوني. . ما الذي يبدأ؟ لا شيء. فكل شيء ينتهي.

ليس ثمة شيء له جوهر فيه. وبالطبع فإنّ لليل طبيعته الحقيقية: اللبّ الكوني للموت وللوجود غير العضوي. وللنهار أيضاً كيانه، فكل شيء إنساني إنما ينتمي إلى النهار.

ولكن ليس هناك جوهر في وهج المساء. فهو ليس إلا طرفة، طرفة لا معنى لها، ولكنها تؤثر في النفس، قوامها الشكل والضياء واللون. انظر!. . . انظر إلى السحب الأرجوانية! نادراً ما تقيم الطبيعة مادبة من لون باذخ كاللون الأرجواني. وسحب المساء هي إهانة لأي شيء متمسك بالآساق، ولكن مثل هذه الإطاحة بالانتظام ترتبط، على نحو وثيق، بانكسار شيء ما أكثر تجذراً بكثير، وإذا ما أمكن مقارنة سحابة النهار الشهباء الجلييلة بالتشدد الأخلاقي فإنّ هذه السحب المتمردة لا يربطها شيء بالأخلاق.

تنبأ الفنون بالرؤية الأعظم للنهاية، فهي قبل أي شيء آخر تمهد للنهاية وتجسدها. والأطباق الرائعة، والأنبذة الفاخرة، والأشكال الجميلة، والملابس الأنيقة - كل ألوان الترف التي يمكن أن يحلم بها أحد في عصر بعينه تدفع دفعا إلى رحاب الفنون. وكل الأشياء التي تنتمي إلى هذه النوعية كانت شكلاً من أشكال الانتظار. إنها شكل من خلاله يتم في أقصر وقت القضاء على كل حياة إنسانية وتدميرها. وذلك هو وهج المساء. ولأي هدف؟ من أجل لا شيء حقاً؟

وأكثر الأشياء رهافة، أكثر الأحكام الجمالية حساسية على أدق

التفاصيل - وأنا أشير إلى الأطراف الخارجية المراوغة على نحو يستعصي على الوصف لواحدة من تلك السحب البرتقالية اللون - إنما ترتبط بكلية الاختمار الهائل، وجوانبه الأكثر جوانية يتم التعبير عنها باللون، ولدى اتحادها بالجوانب الخارجية تغدو وهج المساء.

وبكلام آخر فإن وهج المساء هو تعبير، والتعبير وحده هو وهج المساء.

وفي غماره فإن أذن شعور إنساني بالحجل والنشوة والغضب والاستياء يتم التعبير عنه على صعيد سماوي. وفي خضم هذه العملية الكبيرة فإن ألوان الشؤون الإنسانية الداخلية التي لا تبدو للعيان عادة، يتم التخارج بها، ونثرها على امتداد السماء بأسرها. وأكثر ألوان الرقة والجسارة مراوغة تنضم إلى «آلام العالم» ويتحول الحزن في النهاية إلى حفل عرييد، قصير الأمد، وتجذب جميع جزئيات المنطق التي تمسك بها الناس في عناد خلال النهار، إلى الانفجار الانفعالي السماوي الهائل، وإطلاق العنان المدوي للعواطف، فيدرك الناس عدم جدوى كل الأنساق الفكرية. وتعبير آخر فإن كل شيء يجري التعبير عنه طوال عشر دقائق، أو خمس عشرة دقيقة على أقصى تقدير، ثم ينتهي كل شيء.

إن وهج المساء سريع، ويتسم بخصائص الانطلاق السريع العاجل، وربما يشكل أجنحة العالم. وشأن جناحي طائر غرّد ينقلب مكتسباً بألوان قوس قزح، وهو يرف بجناحيه مرتشفاً رحيق الزهور، فكذلك العالم يرينا لمحة موجزة من قدرته على التحليق عالياً، ذلك أن كل الأشياء تطير في وهج المساء مبتهجة، ومنتشية... ثم تهوي في النهاية إلى الأرض وتموت.

فيما كان هوندا يصغي ، على نحو متقطع ، لكلمات هيشيكافا ،
مضت السماء فوق الضفة المقابلة تغوص ، وثيدة ، في رحاب الغسق ،
تاركة ومضة واهنة على الأفق .

أوقد زعم أن الفن كله هو وهج المساء؟ ومع ذلك فهناك يتصب
شاغخاً معبد الفجر!

* * *

كان هوندا قد عبر النهر إلى الضفة الأخرى ، على متن زورق قام
باستجاره ، في وقت مبكر من صباح أمس ، وزار معبد الفجر .

وقد قام بذلك ، على وجه التحديد ، عند شروق الشمس ، وهو
أكثر الأوقات ملاءمة لذلك . وكان الظلام مايزال مخيباً ، والتقط
الطرف العلوي للمعبد المتعدد الطوابق وحده أولى أشعة الشمس التي
تغذ المسير نحو الشروق . وحفلت أدغال ثون بوري ، فيما وراء
المعبد ، بصيحات الطيور الصاكة .

وفيما هو يدنو من المعبد أدرك أنه مكسوب بما لا حصر له من قطع
الخزف الصيني الصغيرة ، ذات الوهج الأحمر ، أو الأزرق ، وتميز كل
طبق بدرابزين ، فالدرابزين الموجود في الطابق الأول بني اللون ، وفي
الثاني أخضر ، وفي الثالث أزرق ضارب إلى الأرجواني . وشكلت
الأطباق الخزفية الموضوعه هناك زهوراً : مثلت الصفراء منها القلوب
التي منها تمتد بتلات من الأطباق . وكان لبعضها قلب من كؤوس نبيذ
بلون الخزامى مقلوبة ، وهنا شكلت أطباق ذهبية بهيجة اللون
البتلات . وتصاعدت سلاسل من مثل هذه الأزهار إلى القمة .
وكانت الوريقات جميعها من الأجر . ومن القمة تدلت خراطيم أربعة
فيلة بيضاء ، على النقاط الأربعة الرئيسية .

كانت تكرارية المعبد وفخامته خانقتين، على وجه التقريب، وأعطى البرج المستدق باتجاه القمة بألوانه وألّقه وزخارفه المؤلفة من طبقات عدّة، المرء انطباعاً بطبقات عديدة من سياقات حلمية، تحوم فوق الرؤوس. وزيّنت قواعد الدّرج الشديد الانحدار، بكشافة، بحبال الزهور والرايات الزخرفية، وزوّد كلّ طابق بنقش محدود البروز لطيبور ذات وجوه بشرية. وشكّلت كلّ هذه العناصر معبداً متعدّد الطّوابق والألوان، سحق سطحه ذاته بطبقات من الأحلام والتوقعات والصلوات، كلّ طبقة منها مثقلة بطوابق أخرى تشبه الهرم، موغلة في تقدّمها نحو السّماء.

مع سقوط أشعة الفجر الأولى على نهر مينام، تحوّلت عشرات الآلاف من قطع الخبز الصغيرة إلى مرايا دقيقة، بمثل هذه العدد، أمسكت بعنان الضوء، وتألّق عارماً صرح هائل من عزق اللؤلؤ.

عمل المعبد المتعدّد الطّوابق طويلاً كجرس صباحيّ تقرعه الأضواء الثرية والألوان الصّداحة المستجيبة للفجر؛ فقد خلقت لتبعث جمالاً وقوّة وانفجاراً يشبه الفجر ذاته.

في نور الصّباح الغريب البني الضّارب إلى الصّفرة الذي ينعكس على نحو وردي في نهر مينام، عكس المعبد صورته المتألّقة، مؤذناً بمقدم نهار قانظ آخر.

- إنني على يقين من أنك زرت ما فيه الكفاية من المعابد. وأما اللّيلة فسوف أصبحك إلى مكان مسلّ.

قالها هيشيكاوا. وكان هوندا يحدّق شاردأً باتجاه معبد الفجر الذي لفّه الظلام تماماً الآن. وأضاف:

- لقد رأيت وات بو، وكذلك وات فراكيو، وعندما ذهبت إلى

المعبد المرمي كنت محظوظاً إذ شاهدت زيارة نائب الملك له . وصباح
أمس شاهدت معبد الفجر . وما من نهاية لزيارة المعابد، إن كنت
تهتمّ بذلك، ولكنّي أعتقد أنّك قد اكتفيت .
- إحم . أحسب أنّ الأمر كذلك .

قالها هوندا بغموض، متردداً في ترك الأفكار التي كان مستغرقاً
فيها بعمق تتعرّض للمقاطعة .

كان مستغرقاً في التفكير في يوميات الأحلام القديمة التي كتبها
كيواكي، والتي لم يلق عليها نظرة منذ زمن طويل، ولكنه جلس في
قاع حقييته، محدثاً نفسه بأنه قد يقرأها من جديد، للمساعدة في
ترجية وقت الفراغ خلال الرحلة التي يقوم بها . وبسبب الحرّ الذي لا
يطاق وشعوره بالتعب لم تنح له الفرصة للقيام بذلك حتى الآن .
ولكنّ الألوان الاستوائية، المتألّقة الواردة في وصف حلم قرأ عنه منذ
وقت طويل، كانت ماتزال متوهّجة بالحيوية في ذهنه .

لما كان هوندا مشغولاً للغاية حقاً فإنه لم يقبل الرحلة إلى تايلاند
لأسباب تتعلّق بالعمل بصورة خالصة، ففي خلال دراسته بالمدرسة،
وفي سنّ بالغة الحساسية، كان قد تعرّف، عن طريق كيواكي، على
أميرين سياميين وشاهد النهاية الفاجعة لقصة حبّ تشانترابا، وضياع
خاتم الأمير باتاناديد الزمردّي . وبسبب الإدراك الغامر لكونه مقدراً
له أن يكون مراقباً فقد حفظت الصورة المضيئة في ذاكرته، أخيراً، في
إطار قويّ ومكين . وقد عقد العزم، منذ وقت طويل، على أنه لا بدّ
له من زيارة سيام، ذات يوم .

ومع ذلك فإنّ هوندا، وقد بلغ السادسة والأربعين، أصبح من
ناحية أخرى، شديد الحرص، فيما يتعلّق بأدنى انفعال من انفعالاته .

فقد اعتاد، دونما وعي منه على رصد الخداع والمبالغة في هذه الانفعالات. وقد غرق في التّفكير في أنّ عاطفته الجارفة الأخيرة قد دارت حول إنقاذ إيساو، الفتى الذي اكتشف أنّه قد تناسخت فيه روح كيواكي، وتخلّى عن عمله في القضاء. ولم يؤدّ ذلك إلى شيء، ولم يعايش إلا شعوراً محطّماً بالإخفاق أقنعه تماماً بعبث إثثار الآخرين.

بعد أن تخلّى عن مثله العليا القائمة على نزعة إثثار الآخرين، أصبح محامياً أفضل ممّا كان قبلاً. وإذ تجرّد من العواطف فقد نجح في إنقاذ الآخرين، في قضيةٍ إثر أخرى. ولم يقبل أية مهمّة، إلا إذا كان الموكل ثرياً، بغضّ النظر عمّا إذا كانت القضية ممّا يندرج تحت القانون المدنيّ أو الجنائيّ. وازدهرت أحوال عائلته على نحو يفوق ما كانت عليه في حياة أبيه.

ليس المحامون البائسون الذين يتصرّفون كما لو كانوا الممثلين الطبيعيين للعدالة الاجتماعيّة، والذين يعلنون عن أنفسهم باعتبارهم كذلك، إلا قوماً سخفاء. وكان هوندا يدرك حقّ الإدراك ضوابط القانون، فيما يتعلّق بإنقاذ الناس. وبصراحة فإنّ أولئك الذين ليس بمقدورهم توكيل محامين ليسوا مؤهلين لمخالفة القانون. ولكن معظم الناس يرتكبون الأخطاء، ويتتهكون القانون، بحكم الضّرورة المحض أو الغباء.

وقد أتت أحيان على هوندا بدا له فيها أنّ إعطاء قواعد قانونيّة قياسية للغالبية الكاسحة من الناس ربّما كانت أكثر الألعاب التي ابتكرتها البشريّة صلفاً. فإذا كانت الجرائم غالباً ما ترتكب انطلاقاً من الضّرورة أو الغباء، أفلا يمكن للمرء الذهاب إلى القول بأنّ

العادات والأعراف التي استنتت على أساسها مثل هذه القوانين تتم كذلك بالحمق والغباء؟

بعد حادث عصابة الرّيح الإلهية لعهد شوا الذي انتهى بمصرع إيساو، وقع كثير من الأحداث المتمية إلى هذا النوع، ولكن الاضطراب الداخلي في اليابان توقّف مع وقوع حوادث ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٣٦. وظلّ حادث الصّين الذي بدأ عقب ذلك بوقت قصير، دوغما حسم، حتّى بعد خمس سنوات من القتال. والآن قدم التحالف الذي يضمّ اليابان وألمانيا وإيطاليا، قوّة دفع كبيرة، وأصبح خطر نشوب حرب بين اليابان والولايات المتحدة موضوعاً متداولاً في النقاش.

ولكن بما أنّ هوندا لم يعدّ معنياً بمرور الزمن أو المعارك السياسيّة أو دنو الحرب فإنّه لم يعد يشعر بأية انفعالات حيال هذه الأمور. فقد انهار شيء ما في سويداء فؤاده؛ وعلم أنّه لا قدرة له على الإمساك بمقاليد الأحداث التي مضت في طريقها كأنّها عاصفة مطيرة هادرة تفرّق كلّ شخص لا حيئية له، لاطمة دوغما تمييز فقاعات حظوظ الناس. ولكنّه لم يكن من الواضح، بالنسبة له، ما إذا كانت كلّ الحظوظ مثيرة للإشفاق في نهاية المطاف. وتمثّل نزوع التاريخ في الماضي قدماً عن طريق تحقيق رغبات البعض ورفض رغبات البعض الآخر. وأياً كان المدى الذي سيصل إليه المستقبل في إثارة الأسى والحزن فإنّه لا يثير بالضرورة شعور الجميع بخيبة الأمل.

غير أنّه لا يتعيّن على المرء، مع ذلك، أن يفترض أنّ هوندا قد أصبح شخصاً ذا نزعة عدميّة وكليية تماماً. فهو بالمقارنة بما كان عليه في الماضي أصبح مرحاً ومنطلقاً. وتغيّرت إلى حدّ كبير طريقته في الحديث التي كان شديد الحرص عليها خلال تولّيه منصب القاضي

وأصبح ذوقه في الملابس أكثر تحرراً، بل إنه ارتدى سترة رياضية ذات مربعات زخرفية، وشرع يروي النكات، ويتصرف بمزيد من رحابة الصدر. ولكن لم تعد الملاحظات الطريفة مما يطاوع شفتيه في يسر منذ قدومه إلى هذا البلد القائظ.

أوحى محياه الآن بالمكانة الجليلة التي تناسب سنوات عمره. وقد فقد، منذ زمن طويل، الملمح الجانبي المحدد بوضوح، الذي كان له في شبابه، وبشرته التي كان لها ذات يوم ملمس القطن المغسول، اتخذت، بعد أن عرف طعم الرفاه، ملمس الدمقس الصقيل. ولما كان يدرك حق الإدراك أنه لم يكن وسيماً قط، فإنه لم يداخله كلبية شعور بالاستياء حيال النقاب غير الشفاف الذي أسدله التقدّم في سنوات العمر على محياه.

وفضلاً عن ذلك فإنه يمكس بمقاليد مستقبله على نحو يفوق في ثقته بكثير ما يستطيعه أي شاب. فالسبب في أن الشباب يثرثرون كثيراً عن المستقبل هو أنهم لا يمتلكونه. والتملك بترك الأمور تمضي في أعتها هو سرّ من أسرار الملكية يجهله الشباب.

وكما أن كيواكي لم يؤثر في الأزمان التي عاشها فإن هوندا لم يؤثر في زمنه. ومحلّ العهد الذي لقي فيه كيواكي حتفه في ميدان معركة العواطف الرومانسية، يُقبل عهد جديد سيلقى الشباب فيه حتفهم في غمار معارك حقيقية. وكان النذير بمقدم هذا العهد هو مصرع إيساو. وبتعبير آخر فإن كيواكي وإيساو، الذي تناسخت روح كيواكي فيه، قد ماتا ميتتين متباينتين، في ميداني معركة متغايرين.

وهوندا؟ لم يكن فيه مؤشّر واحد للموت! ولم يحدث أن تساق للموت قط، كما أنه لم يحاول تجنب مقدّمه. غير أنه الآن وقد أصبح

فجأة هدفاً للسهام النَّارية التي توجهها الشمس الاستوائية المنهلة عليه عبر النَّهار المتطاول، بدت له الخضرة الجميلة الكثيفة الباذخة التي تحيط به من كلِّ الجوانب وكأنها يُحتمل أن تكون البهاء المذهل للموت نفسه. قال:

- منذ وقت طويل، ربما كان سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عاماً، عندما جاء أميران سياميان إلى اليابان للدراسة، حظيت بشرف معرفتهما، لبعض الوقت. كان أحدهما هو الأخ الأصغر لراما السادس، الأمير باتاناديد، والآخر هو الأمير كريدسارا، ابن عمه وحفيد راما الرَّابع. ترى ما الذي يقومون به الآن. لقد علقت الآمال على رؤيتهما عندما جئت إلى بانكوك، ولكنه يبدو من قبيل التَّجاوز أن افرض نفسي على أناس من المؤكَّد أنهم نسوي.

- لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟

قالها هيشيكاوا، البارز في كلِّ ميدان، مسارعاً إلى توجيه اللوم لهوندا على تحفظه، وأضاف:

- أيّاً كان ما تطلبه فإنَّ بمقدوري الوصول إلى حلّ.

- طيب، إذن، أعتقد أنه قد يكون بمقدوري رؤية الأمرين؟

- لا ينبغي أن أمضي إلى حدِّ قول هذا. فعَمَّها راما الثامن يعتمد عليها كثيراً. وهما معه الآن في لوزان. وقد مضى أكثر الأعضاء أهميّة في العائلة المالكة إلى سويسرا، والقصر خاوٍ.

- يؤسفني سماع ذلك.

- ولكن هناك إمكانيّة للقاء عضوة من أعضاء عائلة الأمير باتاناديد. إنها قصّة طويلة، فصغرى بنات سموه الملكي، وهي طفلة في حوالي السابعة من العمر، تقيم في بانكوك بمفردها مع وصيفاتها.

وتعدّ المسكينة عملياً حبيسة في دارة صغيرة يسمونها قصر الوردية .

- ولم ذلك؟

- سيكون من قبيل الإحراج للعائلة أن تصحب الطفلة إلى الخارج؛ إذ يعتقد أنها قاصرة عقلياً. وقد دأبت منذ ثمكها من المشي على القول: «لست أميرة سيامية حقاً، إنني تناسخ لروح ياباني، وموطني الحقيقي في اليابان». وهي ترفض تغيير قصتها، أياً كان ما يقوله الناس لها. وإذا ما اعترض أحد فإنها تنخرط في نوبة غضب عاصفة. وتقول الشائعة إن كل المحيطين بها قد سايروا وهمها، وجعلوها تصدق ما تشاء. والوصول إلى لقائها أمر بالغ الصعوبة، ولكن بما أن لك صلات بالأميرين الملكيين فإني أعتقد أن بمقدوري القيام بشيء ما، بحسب الكيفية التي سأتصل بها بالمسؤولين عنها.

بعد أن استمع هوندا إلى قصة الأميرة الصغيرة المسكينة المجنونة، لم يتأثر على الفور مندفعاً للسعي إلى لقائها.

عرف أنها ستكون في متناول يده وكأنها معبد ذهبي صغير متألق. وكما أن المعابد لا تخلق قط إلى البعيد، فقد شعر بأن الأميرة بدورها ستكون هنالك على الدوام. ومن المؤكد أن الجنون في هذا البلد سيكون مثل فنّ المعماري، أو رقصاتها المضجرة المتأنقة التي تتواصل في روعتها الخالدة. وحدث نفسه بأنه في يوم آخر، عندما تتغير حالته المزاجية، سيطلب مقابلتها.

ربما جاء هذا التسويف في أحد جوانبه من الفتور الذي يعايشه المرء في المناطق الاستوائية، وفي الجانب الآخر من إيغاله في العمر. فقد شرع الشيب يعمّ شعره، وكان يمكن أن تقلّ حدة نظره لولا أنه كان لحسن الحظ على شيء من قصر البصر منذ الطفولة. وما زال بمقدوره تسيير أموره بصورة طيبة دون الاستعانة بعوينات كبار السن.

مكّنه تقدّمه في العمر من استخدام القوانين التي علّمته التجربة إياها كمقاييس يقيس عليها الأمور، وكان بمقدوره أن يحدّد مسبقاً النتيجة التي ستصل إليها غالبية المواقف. وبالفعل فإنه باستثناء الكوارث الطبيعية، لا تقع الأحداث التاريخية، أيّ كان القدر الذي تبدو به غير متوقّعة، إلا بعد إنضاج طويل؛ فالتاريخ في تردّده يشبه عذراء في مقتبل العمر، قبل خطبة رومانسية. وبالنسبة لهوندا فقد كانت هناك على الدوام لمسة من الاصطناع في أيّ حادث يتطابق تماماً

مع رغباته، ويحدث بسرعة تدخل البهجة في النفس. ومن هنا فإنه إذا أراد أن يعهد بأعماله إلى قوانين التاريخ فإنه من الأفضل بالنسبة له على الدوام أن يتبنى موقفاً متحفظاً حيال كل شيء. وقد شاهد كثيراً من الأمثلة التي لم يستطع المرء فيها الحصول على شيء أرادته، وكان الإصرار بلا طائل في نهاية المطاف. وحتى الأشياء التي كان حرياً بالمرء أن يحصل عليها، لو لم يكن في حالة توق بالغ إليها، أفلحت في الانزلاق بعيداً؛ لأن التطلع إليها كان أكثر مما ينبغي. وبدا الانتحار معتمداً تماماً على رغبة المرء وتصميمه. ومع ذلك فقد اضطر إيساو إلى قضاء عام بكامله في غيابات السجن لكي ينفذه بنجاح.

ورغم ذلك، ولدى التفكير في الأمر، فإن إقدام إيساو على فعلة لاغتيال وانتحاره لاحاً كنجمة مساء برأقتين، نذيرين بحدوث شيء وسط كوكبات متأقمة من النجوم، وقد رادا الطريق المفضي إلى حادث السادس والعشرين من شباط (فبراير). ومن المؤكد أن القائمين بالاغتيال كانوا يأملون في طلوع الفجر، ولكن ما أقبل لم يكن إلا الليل. والآن، وأياً كانت طبيعة الأزمان، فإن ذلك الليل أوشك أن ينجلي، وأقبل صباح خانق متقلقل، صباح ما كان أي من أولئك الناشطين ليتخيله.

لقد أثارت المعاهدة التي وضعتها اليابان وألمانيا وإيطاليا الغضب في نفوس شريحة من الوطنيين، ونفوس أولئك الذين يؤيدون الفرنسيين والإنجليز، ولكن الغالبية العظمى من أولئك الذين يحبون أوروبا والغرب، بل حتى الدعاة العتيقو الطراز لفكرة عموم آسيا، سرّوا بها؛ فاليابان لن تزف إلى هتلر، وإنما إلى الغابات الألمانية، ولا إلى موسوليني، وإنما إلى مجمع الآلهة الروماني. كان حلفاً يجمع بين

الميثولوجيا الألمانية والإيطالية واليابانية، صداقة بين أرباب الشرق والغرب الجميلة، الذكورية، الوثنية.

ولم يخضع هوندا بالطبع قطّ لمثل هذا التحيز الروماني. ولكن الأزمان كانت، على نحو راعد، الأوقات الملائمة لمثل هذا الاتجاه، فيها شعر هوندا، وبدا جلياً أن حلماً ما يتشكّل. والآن، وفيها هو موجود هنا، بعيداً عن طوكيو، أسفرت الرّاحة والدّعة المفاجئتان، على نحو غريب؛ عن الإعياء، ولم يستطع القيام بشيء يحول دون هذا الانغماس في التأمل فيما مضى من أمور.

لم يكن قد تخلّى عن فكرته، تلك الفكرة التي شدّد عليها منذ وقت طويل، في حديثه مع كيواكي الذي كان في التاسعة عشرة من عمره: إنّ إرادة ربط المرء ذاته بالتاريخ هي جوهر القصد الإنساني. غير أن الخوف الفطري الذي ساور الفتى الذي لم يتجاوز عامه التاسع عشر، على شخصيته، قد تبين أنه في بعض الأوقات كان بمثابة النبوءة. ولدى إعلان مثل هذا المفهوم، كان هوندا في الواقع يعبر في ذلك الوقت عن اليأس من تكوينه هو نفسه. وقد زاد هذا الميل مع تقدّمه في العمر، وأصبح أخيراً داء مزمناً. ولكن شخصيته لم تتغيّر قط أدنى تغيّر. واستعاد ذكرى فقرة بالغة الفظاعة من الفصل الذي يدور حول الجزاءات الثلاثة^(١) في «رسالة عن إثبات الواقع» التي كانت بين نصّين أو ثلاثة نصوص بوذية أوصت بها رئيسة كاهنات معبد جيشو:

(١) المراد الجزاء في الحياة الرّاهنة، عن أعمال تمّ القيام بها بالفعل، وفي البعث التالي، عن أعمال يجري القيام بها حالياً، وفي حيوات لاحقة. (هـ. م.).

إنَّ تلذذ المرء باقتراف الشرِّ
مرده إلى أن الشرِّ ليس بناضح .

وهكذا فإنَّ هوندا استشعر سروراً كسولاً، استوائياً، حيال
الاستقبال الحافل الذي لقيه في بانكوك، وحيال ما سمعه، وما رآه،
بل وما تناوله، واحتساه. ولكنَّ ذلك لم يكن حقاً برهاناً على أنه لم
يخل من ذنب الأعمال الشريرة في عمره الذي دام نحو خمسين عاماً.
ومن المؤكد أن شره لم يكن ناضجاً كالثمرة ذات العبق المتأهبة
للسقوط من غصنها من تلقاء ذاتها.

تعرف هوندا في بوذية الثيرافادا التايلاندية بمفهومها البسيط عن
السببية الموجود في العرف البوذي الجنوبي على سببية قوانين مانو التي
أثرت فيه كثيراً وبعمق بالغ في شبابه. وعلى امتدادها تكشف الآلهة
الهندوكية عن وجوهها البالغة الغرابة. فحياة «الناجا» المقدسة
و«الجارودا» الأسطورية التي يتألف نصفها من هيكل عملاق والنصف
الأخر من نسر له جسم ذهبي ووجه أشهب وجناحان أحمران، والتي
تزین طنف المعابد، ماتزالان تحكيان قصص «ناجا ناندا»، الملحمة
الهنديّة التي تعود إلى القرن السابع، وورع الابن المرتبط بالجارودا
يدّعيه لنفسه الإله الهندوكي فيشنو.

منذ قدوم هوندا إلى هذه البلاد، ثار الفضول الفكريّ، الذي كان
يتمتع به من قبل، وحرص على اكتشاف الكيفية التي فسرت بها بوذية
الثيرافادا لغز تناسخ الرّوح. وقد كان هذا المفهوم هو الذي أتاح له
فرصة تنمية نزعة عقلانية بقيت نصف العمر جانبا.

يقول الفقهاء إنَّ الفلسفة الدينيّة الهنديّة تنقسم إلى ستّ مراحل:

١ - مرحلة الريجفيدا^(١).

٢ - مرحلة البراهمانا.

٣ - مرحلة الأوبانيشاد التي تمتد من القرن الثامن إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وهي مرحلة فلسفة الوعي الذاتي، أقرت كمثال

(١) ليس هذا المقطع إلا استطراداً آخر من استطرادات ميشيا العديدة التي أشرنا إليها في مقدمتنا للرباعية، وكما سبق لنا القول فإن مصدر قوة ميشيا لا يكمن في فهمه للتقليد الفكرية البوذية، وإنما في إلمامه بالطقوس الشتوية، على نحو ما بدا جلياً في «الجياد الهاربة». والتقسيم الذي يقدمه في المتن لا يعدو أن يكون تبسيطاً مدرسياً لا قيمة له، يعكس غير قليل من الخلل في الفهم والتفسير. وكلمة فيدا Veda تعني حرفياً «المعرفة المقدسة». ومن قلب التراتيل والصلوات الهندية القديمة نعت أقدم الكتابات الهندوسية المقدسة، وهي السامهيتا (أي المجموعات) وعددها أربع هي الريجفيدا، الساما - فيدا، ياجور - فيدا، أثارفا فيدا. وأدبيات الفيديا هي أعقد بكثير مما يشير إليه هذا التقسيم الرباعي المتن، فكل من هذه المجموعات الأربع أضيفت لها فيما بعد براهمانا أو أكثر، وهي بمثابة أطروحات تتضمن توجيهات عن الاستخدام الطقوسي الصحيح لترتيل وصلوات الفيديا، وبدورها أضيفت إلى البراهمانا الأارنايكا أو «كتب الغابة» التي توضح كيف يمكن لمن اعتصموا بالغابات وعجزوا عن تقديم الأضحيات الطقوسية أن يقوموا بالاستخدام السحري أو الطقوسي للتراتيل والصلوات، وبدورها أضيفت إلى كتب الغابة هذه مناقشات فلسفية تطرح الإطار العقلائي لكل الأفكار والأعمال، وهي «الأوبانيشاد» الشهيرة. ولأغراض التبسيط عمد الفقهاء إلى النظر إلى الفيديا، البراهما، الأوبانيشاد كما لو كانت تشكل كيانات من الأدب منفصلة عن بعضها، ولكن الهندوس في بعض الأحيان يصنعون مجموعات تخترق هذه الخطوط الفاصلة، فقد يجمعون معاً ١ - الريجفيدا ٢ - واحدة من البراهمانتين الملحقين بها، أي الأيتاريا ٣ - الأيتاريا أرانكايا المتضمنة في الأخيرة ٤ - ايتاريا أوبانيشاد. ويلاحظ أن الفقه الهندوسي يدرج أخيراً كل الأعمال التي ذكرناها هنا تحت عنوان الفيديا، ويشار إلى الأوبانيشاد، بصفة خاصة، باعتبارها الفيديانتا (ومعناها حرفياً: الأجزاء الختامية للفيديا). ولتابعة التفاصيل هنا وفي استطرادات ميشيا المقبلة، وهي عديدة في هذا الجزء من الرباعية نحيل القارئ المتخصص على المراجع التالية: Noss, John - 1 =

أعلى لها وحدة براهما، الأساس المطلق لكل الوجود، والأتمن^(١) أو النفس. وقد ظهرت فكرة دورة المواليد والوفيات - السمساره - بوضوح لأول مرة في هذه المرحلة، وعندما ربطت بالمفهوم القائل بأن الأعمال (كارما) تفضي إلى نتائج حتمية، ظهر قانون السببية. وبمزاوجة ذلك مع فكرة الأتمن ظهر إلى الوجود نسق فلسفي.

٤ - مرحلة انقسام بين المدارس الفكرية المختلفة.

٥ - مرحلة اكتمال البوذية الثيرافادية التي وقعت بين القرن الثالث والقرن الأول قبل الميلاد.

٦ - الأعوام الخمسة التي أعقبت ذلك، وشهدت نشأة البوذية المهايئية.

وتتمثل المشكلة في المرحلة الخامسة التي سُنّت فيها قوانين مانو. وقد دهش هوندا، حينما اكتشف في شبابه أن مفهوم السمساره قد طبّق حتى على التقنين. وقد كانت فكرة الكارما، على نحو ما تظهر في وقت لاحق في البوذية، مختلفة بصورة مميزة عن فكرتها في

B. Man's Religion - Macmillan - N. Y - 1974 P. 75 D. S. B. N. O - 02 = 388430 - 4.

2 - Hopfe, Lewis M. - Religions of the world - Macmillan - N. Y. 1983 - p. p 166 - 209 - O. S. B. N. O - 02 - 474740 - 8.

3 - Parrinder, Geoffrey - An Illustrated History of the world's Religions - Newnes - London - 1983 p.p 262 - 304 D. S. B. N. O - 600 - 33795 - 2.

(هـ. م.)

(٢) الأتمن Atman: المراد بها في التقاليد الفكرية الهندوسية، بأبسط المعاني، الذات الكونية التي انبثقت منها جميع النفوس.

(هـ. م.)

الأوبانيشاد: ويكمن الفارق في إنكار البوذية للأتمن، ذلك أن مثل هذا الإنكار هو جوهر هذه الديانة.

وتتجسد إحدى الخصائص الثلاث التي تميّز البوذية عن الديانات الأخرى في تجرّد كلّ الدرامات من الذات أو النفس. فالبوذية تدعو إلى القول بعدم وجود النفس، وتنكر الأتمن التي اعتبرت المكوّن الرئيسيّ في مكوّنات الحياة. انبنى على ذلك أن البوذية رفضت فكرة «الروح»، التي هي امتداد للأتمن إلى ما بعد هذه الحياة. فالبوذية لا تعترف بالروح، باعتبارها كذلك. وإذا لم يكن هناك جوهر محوريّ يسمّى بالروح في الكائنات، فليس هناك، بالطبع، شيء من هذا القبيل في المادة غير العضوية. ومثلما يتجرّد قنديل البحر حقاً من العظام، كذلك ليس هناك جوهر متأصلّ في صلب كلّ الخلق.

ولكن عندئذٍ يبرز السؤال الشائك: إذا كانت الأعمال الطيبة تؤدّي إلى وجود طيّب لاحق، والأعمال الخبيثة إلى وجود خبيث، وإذا كان كلّ شيء يعود حقاً إلى العدم، عقب الموت، فما هو إذن الجوهر المتناسخ؟ وإذا افترضنا أنه ليس هناك نفس، فما هو الأساس الذي تبدأ به دورة الموت والميلاد؟

تشكّل الأعوام الثلاثية من البوذية الثيرافادية مرحلة قوامها النزاع والصراع بين كثير من المدارس الفكرية، الأمر الذي لم يسفر عن نتيجة منطقية مرضية بالنسبة لمدرسة بعينها. واستشعر الجميع الحرج إزاء التناقضات والمفارقات الموجودة بين الأتمن التي تنكرها البوذية، والكارما التي ورثتها.

وللوصول إلى إجابة فلسفية، يمكن الاقتناع بها، على هذا السؤال، كان على الإنسانية، أن تنتظر المدرسة المهائنية المسماة

باليويشيكي، أو «الوعي وحده». ولكن عندما تطوّرت مدرسة ثيرافادا سوترانتيكسا، تمّ إقرار مفهوم «تعطير البذور» الذي وفقاً له يظلّ أثر العمل الخير أو الشرير في وعي المرء، متخلّلاً إياه تماماً، كما يتخلّل شذا العطر الملابس، وعلى هذا النحو يشكّل شخصيّة أو طابعاً. وكانت قوّة التشكيل هذه هي أصل نظريّة السببّيّة، وكان هذا المبدأ هو الإرهاص بأفكار اليويشيكي التي جاءت عقب ذلك.

والآن أدرك هوندا ما يكمن وراء الابتسامة التي لا تغيب، والعيون التي تسكنها الكآبة وقد ميّزت الأميرين السياميين. وكان ذلك شعوراً بفتور متناقل ذهبيّ بالنسائم المهدهدة، تحت الأشجار - التجنّب الدائب لأيّ نسق منطقيّ منظم. ومحاصرين، وشاعرين بالإعياء تحت الشّمس، مضى أبناء هذه البلاد ذات المعابد الفخمة والزهور والفواكه، يعبدون في إخلاص بوذا، ويؤمنون صراحة بتناسخ الأرواح.

وبغضّ النّظر عن الأمير كريدسادا فإنّ الأمير باتانانديد الذكيّ حظي على نحو مدهش بالذهن الحادّ الذي يميّز الفيلسوف. غير أنّ عنفوان عواطفه اكتسح أمامه أيّة نزعة عقليّة متجرّدة من سيطرة الهوى. وما زال هوندا يتذكّر، على نحو متدفّق بالحويّة، أكثر من أيّة كلمات فاه بها الأمير، مشهده وقد أغمى عليه في نهاية الصيْف، على مقعد في المرجة في دارة كيواكي الجنوبيّة، لدى سماعه نبأ وفاة الأميرة تشانترابا، وقد ارتمت ذراعه التي لوحتها الشّمس، متدلّية في عجز من المقعد الأبيض. ولم يستطع هوندا رؤية ما إذا كان وجه الأمير الذي استقرّ على كتفه قد كساه الشّحوب، ولكنّ أسنانه البيضاء المتألّقة كانت بادية للعيان بين شفّتيه المنفرجتين.

تدلّت أصابعه الطويلة الرشيقة التي خلقت لمداعبات الهوى
المراوغة، متراحية، وقد أوشكت على أن تمسّ عشب الصّيف
الأخضر، وكأنّما الأصابع الخمس كلّها تبعث للحظات في الموت المرأة
المتوفاة التي كانت مناط رغبته.

غير أنّ هوندا خشي أن لا تكون ذكريات الأميرين عن اليابان
سائرة للغاية، على الرّغم من أنّ مرور الزّمن يمكن أن يجعلها
يفتقدانها بصورة أكبر. فقد جعلت عزلتهما، والصّعوبات التي
واجهها مع اللّغة، والعادات المختلفة، وفقدان الأمير باتانانيد لحاتم
الزمردي، وموت الأميرة تشانترابا، من إقامتهما في اليابان شيئاً أبعد
من أن يوصف بأنّه ممتع. ولكنّ ما حال دون تفهّمهما تمثّل في نهاية
المطاف في الرّوح الحافلة بالتهديد والمضايقة، التي اتّسم بها فريق
المبارزة في مدرسة النّبلاء. ولم تؤدّ هذه الرّوح إلى تغريب الأميرين
وحدهما، وإنّما كذلك إلى تغريب الطّلاب العاديين، مثل هوندا،
وكيواكي، والشبان ذوي النزعة الليبرالية والإنسانية الذين ضمّتهم
جمعيّة شجرة البتولا البيضاء الأدبيّة. ومن سوء الطّالع أنّ اليابان
الحقيقيّة لم يكن من السّهل العثور عليها وسط أصدقاء الأميرين،
وإنّما كانت أكثر حضوراً وسط أعدائهما، وربّما كان الأميران ذاتهما
يدركان ذلك بصورة غامضة. يابان لا تعرف الحلول الوسط، فخورة
بنفسها، مثل محارب شاب يرتدي ثوباً من الحرير الأرجواني، ومع
ذلك فهي حسّاسة مثل فتى في مقبّل العمر يتحدّى خصمه لخوض
العراك، قبل أن يُدفع إلى ذلك بالتوبيخ السّاخر، ويندفع مهاجماً في
طريقه إلى مصرعه، قبل أن يقبل الإهانة. لقد كان إيساو مختلفاً عن
كيواكي؛ ذلك أنّه عاش في قلب هذا العالم المتطرّف، وآمن بوجود
الرّوح.

وإذ كان هوندا يدنو من عامه الخمسين فإنه يحظى الآن بميزة واحدة: فربما كان متحرراً من التزوع إلى التحيز. وكان متحرراً من السّلطة، فقد كان هو نفسه ذات يوم من رموز السّلطة، بل ومن العقل، بعد أن كان يوماً ما تجسيدا للنشاط العقلي.

وحتى روح فريق المبارزة في العقد الثاني من القرن، كانت روح شبّان يرتدون الزي الرسمي، وهي روح تخلّت العصر بأسره. وهوندا الذي لم يحدث قط أن كان جزءاً من تلك الرّوح، لم يتردّد بدوره الآن وقد علا به العمر، في مطابقة تلك الأيام المترعة بالشباب، في ذاكرته، مع روح عدوانية.

شكّل هذا المزاج الذي صفا ونقى أكثر من هذا، عالم إيساو، وهو عالم لم يشاركه فيه هوندا، في أيام شبابه، وإنما رصده من موقع الغريب عنه. ولم يستطع هوندا، وقد لاحظ كيف أن عقل إيساو الياباني الشاب قد دمر ذاته في غمرة اضطرابه في عزلة مطلقة، إلا أن يدرك أن ما سمح له بأن يحيا على النحو الذي عاشه كان قوة الفكر الغربي المستورد من الخارج. فالتفكير غير المخصب يجلب الموت.

وإذا كان المرء يرغب في أن يحيا فإنّ عليه ألا يتشبّث بالنقاء، على نحو ما فعل إيساو. وإنما على المرء ألا يعزل نفسه عن كلّ قنوات التراجع، وعليه ألا يرفض كلّ شيء.

لم يجبر شيء هوندا على التعمق في بحث مسألة اليابان الخالصة التي لا يحالطها ما سواها، قدر ما أجبره موت إيساو.

هل هناك من سبيل لمعايشة اليابان بأمانة غير رفض كلّ شيء، غير رفض اليابان المعاصرة والشعب الياباني؟ أليس هناك من سبيل آخر للعيش غير هذا السبيل البالغ الصعوبة، الذي ينتهي بأن يقتل المرء

ثمَّ يقدم على الانتحار؟ لقد خشي الجميع الردّ، ولكن ألم يقدم إيساو الدليل من خلال أعماله؟

لدى التأمل، يجد المرء أنه كانت هناك عند أنقى القبائل رائحة الدّم ووصمة الوحشيّة. وعلى العكس من الإسيان الذين حافظوا على رياضتهم القوميّة المتمثّلة في مصارعة الثيران، رغم اتّهامات محبي الحيوانات على امتداد العالم، فإنّ اليابانيين عندما عانت أمتهم ثقافة وأخلاقيّات جديدة، في نهاية القرن الماضي، صرفوا جهودهم للقضاء على العادات البربريّة التي درجت عليها أجيال سابقة. وكنتيجة لذلك فإنّ الرّوح القوميّة الأصليّة الخالصة تمّ إخضاعها، وراحت طاقتها تندلع بين وقت وآخر، في انفجارات للعنف، نفّرت النّاس وغرّبتهم بصورة أكبر.

غير أنّه أيّاً كان القناع المخيف الذي تتفّرع به الرّوح القوميّة فإنّها في حالتها الأصليّة ذات بياض لا سبيل للفساد إليه. وأدرك هوندا، في غمرة ترحاله في بلاد مثل تايلاند، بمزيد من الوضوح، يفوق ما كان في أي وقت مضى، بساطة الأشياء اليابانيّة ونقاءها، مثل ماء الغدير الصّافي الذي يمكن أن يلمح المرء عبره الحصى القابع في قاعه، أو أمانة طقوس الشنتو. ولم تكن حياة هوندا مشربة بمثل هذه الرّوح، فقد تجاهلها، شأن معظم اليابانيين، متصرفاً وكأنّها لا وجود لها، ومواصلاً البقاء بالهرب منها. وطوال عمره، تفادى الأشياء الأساسيّة والبسيطة: الحرير الأبيض، الماء البارد الصّافي، الورق الأبيض الزجاجيّ المتدبّي من عصا طارد الأرواح والمرفرف مع النّسيم، الحرم المقدّس الذي يميّزه التّوري، مقرّ الألهة في البحر، الجبال، المحيط الشّاسع، السّيف الياباني بصله المتلألئ البالغ النّقاء والحدّة. ولا

يقتصر الأمر على هوندا وحده، فالغالبية العظمى من اليابانيين الآخذين بمنهاج الحياة الغربي لم يعد بمقدورهم أن يطبقوا مثل هذه العناصر المغرقة في محليتها.

ولكن إذا كان إيساو الذي آمن بالروح، قد صعد حقاً إلى عليين - وكان هذا مثلاً للسبب الجيد المؤدي إلى نتيجة جيدة - إذا كان قد دخل دائرة الموت والميلاد وولد من جديد بشراً سوياً، فماذا يمكن أن تكون هذه العملية؟

الآن، وفيما كان يفكر هوندا في الأمر، أخذ يتساءل عما إذا لم يكن إيساو، عندما عقد عزمه على الموت، قد ساوره هاجس ما حول حياة أخرى. وقد بدا أن هناك مؤشراً ما على هذا. فعندما يكافح إنسان ليعيش حياته على هذا النحو النقي والمتطرف ألا يقاد على نحو طبيعي إلى افتراض وجود آخر؟

استعاد هوندا ذكرى المزار الياباني، وفي غمرة الحر جعلته الفكرة ذاتها يشعر بقطرات من الماء البارد الصافي على جبينه. وبالنسبة للزائر الذي يرقى الدرج الحجري، فإن التوري الذي يبدو مجرد إطار محدد بشكل جيد للمبنى الرئيسي للمزار، يتجلى لدى خروجه كما لو كان قد تبدل إلى إطار للسماة الزرقاء الصافية. من الغريب أن يضم إطار واحد مزاراً شامخاً من ناحية وسماة زرقاء خاوية من الناحية الأخرى. بدا شكل التوري كأنه شكل روح إيساو.

ذلك أن إيساو عاش حياة محددة على نحو جيد، تشبه التوري شموخاً وجمالاً وبساطة، وكان من المحتم أن تمتلئ في نهاية المطاف بالسماة الزرقاء الصافية.

أيّاً كان المدى الذي مضى إليه ذهن إيساو المحتضر، في ابتعاده عن

البوذية، فإن هذا اللغز ذاته بدا وكأنه يشير لهوندا محددًا العلاقة بين اليابانيين والبوذية. وبدا الأمر كما لو أنّ مياه نهر مينام المثقلة بالطمي ستصفى من خلال مصفاة من الحرير الأبيض.

في وقت لاحق من الليلة التي استمع فيها هوندا من هيشيكاوا لقصة الأميرة، مضى يبحث في حقيته في غرفته بالفندق، وأخرج يوميات أحلام كيواكي ملفوفة في حرير أرجواني.

كانت اليوميات قد قرئت وأعيدت قراءتها، وشرع الغلاف في التداعي. وقد قام هوندا، على نحو مرتبك، ولكن في حرص، بإصلاحه بنفسه. وكان خطّ كيواكي السريع الموحى بالشباب ما يزال نابضاً بالحياة، ولكن لون الحبر شحّب خلال الأعوام الثلاثين التي انقضت منذ كتابته.

نعم، تماماً كما تذكّر هوندا. لقد تراءى لكيواكي حلم مترع بالحويّة عن سيام، أدرجه في اليوميات بعد وقت قصير من زيارة الأميرين السياميين لداره.

اقتعد كيواكي كرسيّاً وثيراً في قصر لحق الإهمال بحديقته. وكان يعتمر «تاجاً ذهبياً، عالياً، مستدقّ الطرف، مطعماً بمجموعات من المجوهرات». وفي الحلم كان عضواً من أعضاء العائلة المالكة في سيام.

جثمت طواويس عديدة على العروق الخشبية، تاركة فضلاتها الشهباء تتساقط، وزين كيواكي أحد أصابعه بخاتم الأمير باتانايد الزمردّي. بدا «الوجه الجميل لصبيّة صغيرة» منعكساً على سطح الحجر الكريم. لا بدّ أنّ ذلك كان وجه الأميرة الصّغيرة، المجنونة، التي لم يرها بعد. ومن المفترض أنّ الوجه المنعكس على الزمردّة بعينه

المتكسطين كان وجه كيواكي نفسه. وبدا هوندا الآن أن الأميرة هي دوغما شكّ روح كيواكي، وقد تناسخت مروراً بإيساو.

لم يكن من غير المتوقع أن يترأى له مثل هذا الحلم، بعد استقباله للأميرين السياميين في داره، والاستماع إلى الحكايات الفاتنة التي سرداها عن بلدهما. ولكن، بعد تجارب عديدة، اضطر هوندا إلى تقبل الحقيقة القائلة بأن حلم كيواكي هو تجلٍ آخر لتناسخ روحه.

الآن غدا الأمر يفرض نفسه بنفسه. فمجرد التغلب على مشكلة المنطق الذي لا يستقيم، فإن كل شيء يتسوّق ويتألف. لم يقدر لإيساو أن يبلغ هوندا قط، كما أن الأخير لم يكتشف ما إذا كان إيساو قد ساورته أية هواجس أخرى. وربما كان إيساو قد حلم كذلك في ليالي سجنه بالفتاة الموجودة في المنطقة الاستوائية.

قام هيشيكاوا على تلبية احتياجات هوندا، خلال مكوث الأخير في بانكوك. ومضت القضية بشكل طيب، بفضل جهود هوندا. وكان قد اكتشف خطأ غير مقصود من جانب المشتريين.

فوفقاً للمادة ٤٧٣ من القانون المدني التايلاندي، المستمد من القانون الأنجلو سكسوني، لا يحتاج البائعون إلى تحمّل المسؤولية عن العيوب الموجودة في بضائعهم، في حالة أو أكثر من الحالات التالية:

١ - إذا كان المشتري مدركاً للعيب، وقت الشراء، أو كان يمكن أن يدركه لو أنه التزم بملاحظة البضائع بشكل عادي.

٢ - إذا كان العيب واضحاً وقت تسليم البضائع، أو إذا قبل المشتري البضائع، دون تحفظ.

٣ - إذا كانت البضاعة قد بيعت بالزاد العلني.

وفيما أوغل هوندا في تحرّيه للأمر، غدا من الواضح له أنّ المشترين يمكن أن يكونوا مذبذبين، بحسب الحالة الأولى أو الثانية. فإذا كان بمقدوره متابعة هذا الأمر والحصول على دليل كاف، فقد يُسقطون الاتّهامات .

وغنيّ عن القول إنّ مسؤولي شركة منتجات إتسوي قد شعروا بالامتنان، وأحسّ هوندا نفسه بالارتياح التام. وشعر بالميل إلى أن يطلب من هيشيكاوا المضيّ في تدبير لقاء له مع الأميرة. ولكنّ هيشيكاوا كان شخصاً مضجراً للغاية .

لم يحدث أن ساورت هوندا رغبة قطّ في مصادقة فنّانين، ولم يكن له قطّ صديق يمكن أن يوصف بأنه فنّان. كما لم يتوقّع أبداً أن يتمّ تقديمه إلى شخص هجر الفنّ في مكان ناء كهذا .

وكان أكثر إثارة للشعور بالضيق، إذن، أن يكون هيشيكاوا معيّناً كدليل للمسافر لم يعتد الترحال، دون أن يتردّد لحظة في القيام بكلّ ما يطلبه هوندا. وفضلاً عن ذلك فقد كان يمتلك ناصية كافة أنواع المداخل الخلفيّة في هذه البلاد، حيثما يكون الولوج عبر المدخل الأمامي مستحيلاً تماماً. كان حقاً دليلاً رفيع القدر، وكان هو نفسه يعلم ذلك .

ولكنّ هيشيكاوا استبقى ألوان التكلّف غير المقبولة التي قد تلتصق بفنّان، أيّاً كان ما قدّمه في الماضي من أعمال. لقد كان يعتمد في كسب معيشتة على العمل كدليل للمسافرين، ومع ذلك فقد كان في قرارة نفسه يزدرى الأشخاص المحافظين على القديم، الذين يمضيّ مبجلاً إليّاهم. وبما أنّ ذلك كان واضحاً بجلاء لهوندا، فقد رفّه عن نفسه بأن يكون الصّورة المجرّدة للشخص المحافظ الذي يعتقد هيشيكاوا

أنه مائل في إهابه، فراح يتحدث عمداً عن زوجته وأمه في اليابان، وعن تعاسته لعدم إنجابهِ للأطفال. واستمتع بمراقبة هيشيكاوا، وهو يمثل، دون أن تساوره أية شكوك، دور التعاطف معه.

وفي حقيقة الأمر فإن الفنانين الذين لم يكونوا بعيدين عن النضج فحسب، وإنما درجوا كذلك على ادعاء عدم النضج كوسيلة غير أمينة للتهرب من النقد الذي يوجه إلى أعمالهم، لاحوا مخلوقات فظيعة بلا حدود لدى مقارنتهم بالافتقار إلى النضج الخالي من الخداع الذي أفصح عنه كيواكي أو إيساو. وثمة فنانون اجترأوا وراءهم هذا الافتقار إلى النضج، على امتداد حياتهم... حتى الثمانينيات من أعمارهم. وبدا الأمر كما لو أنهم قد جعلوا من الأقمطة التي يلقون أنفسهم بها بضاعة يتجرون بها.

وإذا كان هناك ما هو أسوأ فإنه يتمثل في أشباه الفنانين، فغورهم الذي لا سبيل إلى وصفه، جنباً إلى جنب مع صياغتهم الخاصة للخنوع، تنبعث منها رائحة تميز الكسالى. وكان هيشيكاوا، ببساطة، حيواناً كسلان يعيش بالتعلق بالآخرين، ولكنّه راح يتظاهر بأنه الأرستقراطيّ الأنيق الملول الذي يجيا في خطّ الاستواء. وقد ضاق هوندا ذرعاً باعتياده القول، وهو في المطاعم، وقد أمسك بقائمة المشروبات الروحية في يده: «بما أنّ شركة إتسوي للمنتجات ستدفع الحساب، على أية حال...» وقف تلك اللحظة يمضي في طلب أكثر الأنبذة كلفة. ولم يكن هوندا مولعاً بالتبذير على الإطلاق.

وبينما تعلق هوندا بالأمل في ألا يوضع قطّ في موضع الدّفاع عن مثل هذا الرجل فإنه سيكون من قبيل مجافاة قواعد السلوك المرعية من جانبه، باعتباره ضعيفاً، أن يطلب إحلال شخص آخر محلّ دليله.

وفي كلِّ مرّة سأل مدير الفرع البدين هوندا فيها بغرفة الانتظار في المحكمة، أو خلال مأدبة عشاء: «هل يؤدي هيشيكاوا مهمته على نحو طيّب بالنسبة لك؟» كان يرّد قائلاً: «إنّه رجل قدير للغاية، نعم» مخفياً في كلماته شعوراً معيّناً بالمرارة. وبدا المدير راضياً بأخذ هذا الرّد على علّاته، وتملّك الضيق هوندا لأنّه لم يقم بمحاولة لقراءة ما بين السّطور.

مكّنت المعرفة الوثيقة بالعلاقات الإنسانيّة الخفيّة في هذه البلاد، وهي العلاقات التي تشبه أعشاب الأدغال، الشديدة الرّطوبة التي تتعفن تحت سطح الخضرة الذي يتألّق في الشّمس المتقدّدة - مكّنت هيشيكاوا من تنمية موهبته في تشمّم التعقّن في الشؤون الإنسانيّة، بأسرع من أيّ شخص آخر. وكان ذلك هو مصدر دخله. حيث يرخي أجنحته الذهبية القويّة التي تشبه أجنحة ذبابة على بقايا طبق المدير.

- صباح الخير!

أيقظ هوندا من نوم عميق صوت مألوف تناهى إليه عبر الهاتف الداخلي الموضوع إلى جوار فراشه، صوت سمعه كلُّ صباح - صوت هيشيكاوا.

- هل أيقظتك؟ أستمحك عذراً؛ فالناس في المحكمة لا يكثرثون بجعلك تنتظر عدّة ساعات، ولكنهم يقيمون الدّنيا ولا يقعدونها إذا لم يلتزم الزوّار بالمواعيد. وقد أتصلت بك مبكراً لنكون في الجانب الآمن. خذ ما شئت من وقت في حلاقة ذقنك. ماذا؟ طعام الإفطار؟ لا، لا، لا تشغل ذهنك بذلك. طيّب، الحقيقة أنّي لم أتناوله بعد. ولكنني أستطيع الاستغناء عنه. آه؟ في غرفتك معك؟

طيب. شكراً جزيلاً لك حقاً. سأقبل الدعوة، وأصعد إليك. هل أترك؟ خمس دقائق؟ أم عشرًا؟ طيب، بما أنك لست سيّدة، فربّما لا يتعيّن عليّ الحرص على الشكليات.

لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يتناول فيها هيشيكاوا إفطار فندق الأورينتال الفخم، المتعدّد الأطباق، على الطّريقة الإنجليزيّة، في غرفة هوندا.

بعد وقت قصير، دلف هيشيكاوا إلى الغرفة مرتدياً حلّة بيضاء جيدة التفصيل، من الكتان، وقد انهمك في التهوية على صدره بقبعة من طراز بنما. ثمّ توقّف متوازنًا تحت أجنحة المروحة الضّخمة البيضاء المتحرّكة في تناقل.

قال هوندا الذي كان مايزال يرتدي بيجامته:

- قبل أن أنسى، بم ينبغي أن أدعو الأميرة؟ هل من المناسب أن أقول لها: سموك؟
ردّ هيشيكاوا مؤكّداً:

- لا، لا! إنّها ابنة باتاناديد، وهو شقيق الملك. ولقبه هو برا أونج تشاو، وعليك أن تخاطبه بالإنجليزيّة بـ «Your Royal Highness» أيّ سموك الملكي. وأمّا الابنة فهي مون تشاو، وينبغي أن تدعوها بـ «سموك المبجّلة». على أيّ حال، لا تقلق؛ فسوف أتولّى كلّ شيء.

كان القيقظ الدّاهم قد غزا الغرفة بالفعل. وبعد أن ترك هوندا فراشه الذي بلّله العرق، ووقف تحت دفق ماء الدشّ البارد، أحسّ للمرّة الأولى بالصّباح على بشرته. وكانت التّجربة مثيرة للنشوة على نحو غريب، فهو الذي لم يتّصل بالعالم الخارجيّ قطّ من غير أن

يرشحه من خلال التفكير العقلاني، أخذ يحسّ في هذا الوقت من خلال بشرته. ومن خلالها وحدها يستشعر الخضرة المتألّقة للنباتات الاستوائية، أو اللون القرمزيّ لأزهار أشجار السنط، أو الزخرف الذهبيّ الذي يزين المعابد، أو الانتشار المفاجئ لزرقة الضوء، ويمكنه عبر ذلك فحسب أن يتّصل بالعالم من حوله. وكانت تلك تجربة غريبة تماماً بالنسبة له. الأمطار الدافئة والندس الفاتر. وكان العالم الخارجي سائلاً ثريّ الألوان، وبدا الأمر كما لو أنه يسبح فيه على الدوام. ترى كيف كان يمكن أن يتوقّع هذا كلّه في اليابان.

خلال انتظار هيشيكاوا طعام الإفطار مضى يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وكأنه أوروبي، ساخراً من لوحات المناظر الطبيعية المتذلة المعلقة على الجدار. وعكس كعبا حدائه الحديث التلميع زخارف السجادة، فيها هو يتخذ أوضاعاً مدهشة. وفجأة أحسّ هوندا بالسّام من اللّعبة التي يمثّل فيها هيشيكاوا دور الفنّان، ويؤدّي هو فيها دور المحافظ المتمسّك بالقديم.

التفت هيشيكاوا، فجأة، وأخرج علبه صغيرة مكسوّة بالمخمل القرمزيّ من جيبه. وقال مسلماً إيّاها لهوندا:

- ينبغي ألاّ تنسى هذه! سلّمها مباشرة للأميرة!

- ما هذه؟

- هديّة؛ فقد درجت العائلة المالكة على ألاّ تستقبل قطّ أحداً يصل

خالي الوفاض.

فتح هوندا العلبة، واكتشف خاتماً بديعاً محليّ بلؤلؤة.

- آه، فهمت. لم أفكر قطّ في ذلك. شكراً لتذكيري بالأمر. بكم

أنا مدين لك؟

- آه، لا شيء. ليس ذلك ضرورياً حقاً. فقد قلت لشركة منتجات إتسوي إنك بحاجة إليها للقاء مع أحد أعضاء العائلة المالكة. وعلى أي حال فقد يكون المدير التقطها بسعر رخيص من أحد اليابانيين. لا حاجة بك إلى القلق.

أدرك هوندا على الفور أنه لا ينبغي أن يطرح المزيد من الأسئلة في الوقت الراهن عن ثمن الهدية. ولكن لا ينبغي أن يتوقع من شركة منتجات إتسوي أن تغطي نفقاته الخاصة. لسوف يدفع الثمن للمدير. وربما حصل هيشيكاوا منهم على عمولة كبيرة، وسيتعين عليه أن يتجاهل ذلك، وأن يدفع الثمن لوكيل الشركة المحلي كائناً ما كان الأمر.

- طيب، إذن، إنني أتقبل لطفك بامتنان.

قالها هوندا وهو ينهض ودسّ العلبة الصغيرة في جيب السترة التي سيرتديها، سائلاً بصورة عرضية:
- بالمناسبة. ما هو اسم الأميرة؟

عقب هيشيكاوا، في اعتداد بالنفس، قائلاً:

- الأميرة تشانترابا. وقد سمعت أن الأمير باتانايد قد سمى ابنته الأخيرة على اسم خطيبة له ماتت منذ وقت طويل. تشانترابا تعني «سنى البدر». يا لها من مصادفة، إنها مجنونة!

في الطريق إلى قصر الوردية شاهد هوندا من نافذة سيارته بعض الفتية المنخرطين في حركة يواتشون، وهم يسرون مرتدين أزياء رسمية خاكية اللون، يشاع أنها استلهمت طرازها من قمصان هتلر السوداء. وأعرب هيشيكاوا، الجالس إلى جواره، عن شكواه من أن موسيقى الجاز الأميركية نادراً ما تسمع في المدينة هذه الأيام، وأن نزعة رئيس الوزراء فيبون الوطنية قد أحدثت فيما يبدو أثرها.

كان ذلك التحول من النوعية التي شاهدها هوندا بالفعل في اليابان. وكما أن الخمر تتحول ببطء إلى خل أو الحليب إلى خثارة، فإن الأمور التي طال إهمالها تتغير وتبدأ استجابة لقوى الطبيعة المختلفة. وقد عاش الناس طويلاً في خوف من حرية تفوق ما ينبغي ورغبة حسية موغلة في التطرف. نضارة الصباح بعد مساء امتنع فيه المرء عن معاورة الشراب، والفخر الذي يستشعره المرء لدى إدراكه أن الماء وحده هو الضروري، مثل هذه المسرات المنعشة والجديدة شرعت في اجتذاب الناس. وكانت لدى هوندا فكرة غامضة عما يمكن أن تفضي إليه مثل هذه الأفكار المتطرفة. وكان ذلك إدراكاً ولد من رحم موت إيساو. إن سيطرة الاتجاه الواحد على الذهن تفضي إلى الفساد.

استعاد هوندا فجأة ذكرى كلمات إيساو السكري المفتقرة إلى التماسك، قبل يومين من مصرعه: «بعيداً إلى الجنوب... في طقس حار للغاية... في سنى الشمس الوردية لأرض جنوبية...». والآن، بعد ثماني سنوات، ها هو ذا يهرع إلى قصر الوردية للقائه.

كانت فرحته فرحة أرض عطشى ومحمومة تنتظر وأبل المطر.

وبدا هوندا أنه في معايشة انفعالات من هذا النوع دفع به وجهاً لوجه مع ذاته الجوانية. وفي غمرة شبابه حكم على مخاوفه وأحزانه وعقلانيته بأنها جوهره الداخلي الحق. ولكن شيئاً منها لم يكن حقيقياً. وعندما سمع بانتحار إيساو استشعر نوعاً من الإحباط المفاجئ، بدلاً من الألم الحاد، النابع من الحزن، ولكن، مع مرور الوقت، تغير ذلك إلى سرور حافل بالتوقع، نابع من لقائه الوشيك له من جديد. وأدرك هوندا في قرارة نفسه أنه في لحظات كهذه لا تتضمن انفعالاته عنصراً إنسانياً واحداً. وربما كانت ذاته الداخلية قد حكمتها نشوة فذة لا تنتمي إلى هذا العالم. لا بد أن الأمر كذلك، لأنه هو وحده في حالة إيساو قد أفلت من حزن الفراق وألمه.

بعيداً إلى الجنوب... في طقس حار للغاية... في سنى الشمس الوردى لأرض جنوبيّة.

توقفت السيارة أمام بوابة فخمة ترامت وراءها مرجة رحبة. وترجل هيشيكواو أولاً، وحدث الحارس باللّغة السيامية وهو يسلمه بطاقة زيارة.

استطاع هوندا أن يرى من نافذة السيارة بوابة حديدية من مؤثرات زخرفية متكررة، تجمع بين الثمن والسهم، ووراءها راحت المرجة الخضراء الناعمة تمتص بهدوء الشمس المتقدة. ألقى شجيرتان أو ثلاث شجيرات، ذات زهور بيضاء وصفراء، شذبت لتأخذ شكلاً دائرياً، ظلها على النجيل.

رافق هيشيكاوا هوندا في اجتيازه البوابة .

كان المبنى أقلّ شأنًا من أن يوصف بأنه قصر، فلم يعد أن يكون بناء صغيراً مؤلفاً من طابقين، له سقف أردوازيّ طلي بلون مصفر شاحب . وباستثناء شجرة سنط كبيرة، على أحد الجانبين، تلتخّ الجدار بظلمتها الأسود القاسي، لم يلفت من وقدة الشمس الضارّة إلا المدى الأصفر .

لم يلتقيا بأحد فيما هما يمضيان عبر الطّريق المتمعج فوق المرجة . وفيما هوندا يدنو من هدفه، وعلى الرّغم من النّشوة التي كان يعرف أنّها ميتافيزيقيّة، ساوره شعور كما لو أن وقع قدميه كان وقع المخالب الحادّة لوحش من وحوش الأدغال وهو يطارد صيده بأنياب يسيل اللّعاب منها . نعم، لقد ولد لهذه المتعة وحدها .

بدا قصر الوردية ملتقاً في حلمه الصّغير العنيد، وعمق هذا الانطباع شكل المبنى ذاته، فقد كان أقرب إلى صندوق صغير، بلا أجنحة ولا ملاحق . وضّم الطّابق الأرضي كثيراً من النوافذ البايّة، بحيث تعدّرت معرفة المدخل . وقد أحيط كلّ منها بأطر خشبيّة منحوتة في شكّل ورود، فوقها مثمّنات من الزّجاج الأصفر والأزرق والأزرق النيلي، تحيط بنوافذ صغيرة زهرية الشكّل ذات لون أرجوانيّ وخماسية البتلات على طراز الشرق الأدنى . وكانت النوافذ الفرنسيّة المواجهة للحديقة نصف مغلقة .

وحمل الطّابق الثّاني عارضاً من زهور الزّنبق، وشكّلت ثلاث نوافذ تطلّ على الحديقة لوحاً ثلاثيّاً . وكانت النافذة الوسيطة أعلى من جارتيهما، ولكنها كانت محاطة بورديّات محفورة .

وتألّف المدخل الواقع عند قمة ثلاث درجات من نافذة فرنسيّة

منفذة بالتصميم ذاته. وما إن قرع هيشيكاوا الجرس حتى اختلس هوندا النظر في حذر عبر لوح زجاجي وردي صغير. وفي الداخل كان كل شيء مكتسباً بلون أحوالي قاتم، شأن قاع المحيط.

فتح الباب الفرنسي، ولاحت امرأة متقدمة في السن. وخلع هوندا وهيشيكاوا قبعتهما. وعلى الوجه البني ذي الشعر الأشيب بأنفه الأפטس، ارتسمت ابتسامة تحية، على نحو ودود، بالطريقة التايلاندية المميزة. ولكن الابتسامة لم تكن إلا تحية شكلية، لا أكثر.

تحدثت المرأة مع هيشيكاوا للحظات قلائل. وبدا أنه لم يحدث تغير في الموعد الذي رتب له.

صفت أربعة مقاعد أو خمسة في البهو الذي كان أصغر مما يناسب قاعة استقبال. وسلم هيشيكاوا لفافة للمرأة، وتقبلتها بعد أن ضمت كفيها توقيراً. ثم فتحت الباب الرئيسي ومضت بهما تواءاً إلى قاعة استقبال فسيحة.

بعد حر الضحى في الخارج، أدخلت برودة القاعة الراكدة، القابعة منذ وقت طويل، السرور على النفوس. ودعي الرجال إلى الجلوس على مقعدين صينيين يجمعان بين اللونين الأحمر والذهبي تدعمهما قوائم على شكل مخالب أسد.

خلال انتظار الأميرة، انتهز هوندا الفرصة لفحص الغرفة. ولم يكن هناك صوت إلا طنين ذبابة.

لم تكن قاعة الاستقبال تفضي إلى النوافذ مباشرة. وقد دعت قاعة للعب البليارد طابقاً مسروقاً. وكان العرش وحده مزخرفاً

بإسراف. وفوقه مباشرة علقت لوحة للملك تشولا لونجكورن في المنصة العلوية. وطلبت الأعمدة الكورنثية للقاعة باللون الأزرق مع تحديدات رأسية طعمت بالذهب، بينما زينت تيجان الأعمدة بالورود الذهبية على طريقة الشرق الأدنى، بدلاً من وريقات الأفتشوس المألوفة.

لقد كُرر نموذج الوردية الزخرفي بتعمد واضح على امتداد القصر. وكانت للقاعة المطلية باللون الذهبي، والمحددة باللون الأبيض، أعمدة مزخرفة بالورود الذهبية اللون. وتدلّت ثرياً هائلة الحجم من وسط السقف المرتفع، وقد زخرفت كذلك بورود ذهبية وببضياء. وعندما تطلع هوندا إلى قدميه رأى أنّ السجادة الحمراء مزخرفة بالوردية.

كان زوج من أنياب الفيل العاجية العملاقة وُضع وراء العرش - زوج متعاقب من الأهلة البيضاء - هو الزخرفة الوحيدة التايلاندية على نحو تقليدي. وتلاً العاج المصقول، المؤثر في النفس، بلون أشهب يميل إلى الصفرة في العتمة.

اكتشف هوندا لدى دخوله أنّ النوافذ الفرنسية لا تحتلّ إلا الجزء الأمامي من الدارة، وهو المواجه للحديقة الأمامية. وكانت النوافذ المفتوحة المطلّة على الحديقة الخلفية، وكان يحول ممرّ دونها، بارتفاع مستوى الصّدر فحسب. ومن خلال النوافذ الشبالية انسل نسيم خفيف.

وفيما كانت عيناه تحدّقان باتجاه النوافذ، لمح فجأة ظلاً أسود يرفرف بجناحيه، قرب زجاج النافذة. فأخذته الرجفة؛ إذ كان طاووساً أخضر. وجثم الطائر على عتبة النافذة ماداً عنقه الطويل الرشيق الذي يتألّق بلون ذهبي مخضر. وحاكت القمّة المتألّقة الريش، التي اعتلت رأسه التياه، الظلّ الرقيق لمروحة صغيرة.

همس هوندا في أذن هيشيكاوا، وقد استبدَّ به الضَّجر:

- ترى إلى متى يقوننا في الانتظار؟

- الأمر كذلك دائماً، وهو لا يعني أيَّ شيء، وهم لا يحاولون التأثير في نفسك، بشكلٍ خاصٍّ، بجعلك تنتظر، فلعلَّك تعلم الآن أنك في هذه البلاد لا ينبغي أن تتعجَّل الأمور. وفي أيام الملك أوراشيد نجل الملك تشولا لونجكورن، اعتاد جلالته أن يدلف إلى فراشه مع انبلاج الفجر وينهض في الأصيل، وساد البطء والتَّمهَل كلَّ شيء، وانقلب اللَّيل والنَّهار ليحلَّ أحدهما محلَّ الآخر.

واعتاد وزير شؤون الديوان الملكي الظَّهور في حوالي الرَّابعة عصراً والعودة إلى داره مع تنفَّس الصَّبح. ولكن ربَّما كان هذا هو أفضل سبيل في المناطق الاستوائية، فجمال هؤلاء النَّاس هو جمال ثمرة فاكهة، والثمرة ينبغي أن تنضج متكاسلة، وعلى نحو رشيق، وليست هناك ثمرة مجتهدة.

ضاق هوندا ذرعاً بخطبة هيشيكاوا التي همس بها وكانت ضافية شأن كلِّ أحاديثه. ولكن قبل أن يستطيع الالتفات بعيداً، لتجنَّب رائحة أنفاسه الخبيثة، عادت العجوز إلى الظَّهور، وضمتَّ كفيها في إجلال وأشارت إلى قرب مقدم الأميرة.

تناهى صوت يشبه الفحيح من النَّافذة حيث جثم الطَّاووس. ولم يكن ذلك هو صوت التحذير المستخدم في البلاط الياباني القديم للإشارة إلى مقدم أحد أفراد العائلة الإمبراطورية، وإنما كانوا ببساطة يبعدون الطَّاووس. وتردَّد صوت رفرقة أجنحة، واختفى الطَّائر. وشاهد هوندا ثلاث عجائز قادمات عبر الممرَّ الشمالي وقد سرن في صفٍّ مستقيم محفظات بمسافة متساوية بينهن. وقادت الوصيِّفة الأولى

الأميرة التي أمسكت كفّ الوصيفة بيد، وباليَد الأخرى مضت تداعب عقداً من الياسمين الأبيض. ومع اقتياد الأميرة «سنى البدر» ذات الأعوام السبعة نحو المقعد الصّيني الكبير القابع أمام نايي الفيل، جثت العجوز التي قادت الضيفين للتوّ عند الباب على الأرض، وانحنت بالطريقة المسماة بـ «الكراب» في لغة تايلاند. وكان من المفترض أنها تنتمي إلى مرتبة متواضعة.

أحاطت الوصيفة الأولى الأميرة بذراعها، وجلست معها على المقعد الصّيني الرئيسيّ. وأمّا الوصيفتان الأخرتان فقد جلستا على مقعدين إلى يمين العرش ويساره. وكانت المرأة الثالثة الآن بقرب هيشيكاوا. وأمّا المرأة التي جثت على الأرض فقد ألقى هوندا عندما أجال نظريه أنها اختفت.

قلّد هوندا هيشيكاوا الذي وقف وانحنى انحناء عميقة، ثمّ جلس على المقعد الصّيني الذي يجمع بين اللّونين الذهبيّ والأحمر. وبدأت النسوة قريبات من السبعين من العمر، ولاحت الأميرة وديعة أمامهنّ بأكثر مما هي سيّدة هنّ.

لم تكن الصّبية ترتدي «البانون» العتيق الطراز، بل قميصاً خارجياً من مادة بيضاء موشاة بالذهب، وتوّرة تايلانديّة من القطن المطبوع، تسمّى «باسين» وتشبه السارونج الماليزي، وقد انتعلت حذاءً أحمر اللّون، مزيناً بالذهب. وأمّا شعرها فكان قصيراً على الطّريقة التايلانديّة المميّزة. وكانت هذه القصّة التقليديّة بمثابة تكريم لعداري خورات الباسلات اللّاتي قمن قديماً، وقد ارتدين أزياء الرّجال، بحاربة جيش من الغزاة الكمبوديين.

لم يفصح محياها الجميل الموحي بالفطنة عن إشارة واحدة إلى

الجنون، وبدا الترفع في حاجبيها الرقيقين، المتسقين، وشفتيها، وجعلها شعرها القصير تبدو أقرب إلى أمير منها إلى أميرة، وحملت بشرتها تأثير لفتح الشمس الذهبي.

كانت المقابلة تعني بالنسبة لها تقبل علامات الإجلال من الرجلين، وبانتهاء هذا راحت تعبت بعقد ياسمينها، وتورجح ساقها على حافة المقعد المرتفع. وقد نظرت عمداً إلى هوندا، وراحت تهمس للوصيفة الأولى التي وبختها بكلمة واحدة.

بإشارة من هيشيكاوا، أخرج هوندا العلبه القטיפيية الأرجوانية التي تضم الخاتم ذا اللؤلؤة. وتم تمريرها إلى الوصيفة الثالثة، ثم عن طريق الوصيفة الثانية، إلى الوصيفة الأولى، على التوالي، وأخيراً استقرت في يد الأميرة. وبدا الوقت الذي انقضى والعلبة تشق طريقها إلى الأميرة، وكأنه يفاقم وقدة حر الصيف. وإذ كانت الوصيفة الأولى قد فحصت محتويات العلبه فإن الأميرة حرمت من البهجة الطفولية التي يثيرها قيامها بفتح العلبه بنفسها.

نحت أصابعها البنية الجميلة، في إهمال، عقد الياسمين، والتقطت الخاتم اللؤلؤي. وراحت تتفقداه باهتمام لبعض الوقت. واستمر هدوؤها غير المؤلف الذي لم يعن الانفعال أو الافتقار إلى الانفعال، وقتاً بالغ الطول، حتى إن هوندا بدأ يحدث نفسه بأن ذلك ربما كان أحد أعراض جنونها. وفجأة، لاحت ابتسامه تشبه فقاعة في الماء على محياها، مفرقة عن أسنانها البيضاء، الطفولية، غير المنتظمة، فأحس هوندا بالارتياح.

أعيد الخاتم إلى العلبه وأعطي للوصيفة الأولى. وتحدثت الأميرة للمرة الأولى بصوت صافٍ موحٍ بالدكاء، ثم انتقلت كلماتها عبر

الوصيفات الثلاث وكأنها ثعبان أخضر يتهاوج منتقلاً من فرع إلى آخر في الظلّ الذي تمسه الشمس وتلقيه أشجار النخيل، وبلغت هوندا في نهاية المطاف، بعد أن ترجمها هيشيكاوا. فقد قالت الأميرة: شكراً لك.

طلب هوندا من هيشيكاوا أن يترجم حديثه، وقال:
- كنت عبر وقت طويل معجباً بالعائلة المالكة التايلانديّة، وقد فهمت أنّ سموّ الأميرة الجليلة تحبّ اليابان بدورها. وإذا سُمح لي فيأني أودّ أن أرسل لها دُمية يابانيّة، بعد عودتي إلى اليابان. فهل ستقبلها؟.

كانت الجمل التايلانديّة التي نطقها هيشيكاوا بالغة البساطة، ولكن فيما كانت تمرّر عبر الوصيفتين الثالثة والثانية، أخذت تزداد طولاً وتعدّداً، وحين نقلت الوصيفة الأولى الفحوى إلى الأميرة بدت الجمل بلا نهاية.

وعندما عادت كلمات الأميرة إلى هوندا كانت مجردة من ألق الانفعال أو الجاذبيّة، بعد أن انتقلت عبر شفاه الوصيفات المجمعدة القاتمة. وبدا الأمر كما لو أنّ تعبيرات الأميرة الصّغيرة المتوهّجة بالحويّة قد تمّ امتصاصها ومضغها، في غمرة هذه العمليّة، من قبل أطقم أسنانهنّ العتيقة، دون أن يتركن إلّا نفاية كريهة لهوندا.

- إنهنّ يقرنن إنّ سموها الجليلة يسعدها أن تتقبّل عرض السيّد هوندا الرقيق.

وعندئذٍ وقع أمر غريب.

فاجأت الأميرة الوصيفة الأولى، على حين غرّة، ووثبت من المقعد، وقطعت الأقدام الثلاث التي تفصلها عن هوندا، وتشبّثت

بساقِيّ سرّوالمه . ونهض هوندا منزعجاً ، وصاحت الأميرة ، وهي تنتفض ، وماتزال على تشبّثها به ، وانخرطت في البكاء بصوت عالٍ . وانحنى . وأحاط بذراعيه كتفي الفتاة ، المنخرطة في البكاء الهستيريّ .

ارتبكت الوصيفات ، فعجزن عن إبعادها ، وتكاكأن معاً ، ورحن يتهامسنّ فيما بينهنّ ، دونما ارتياح ، وهنّ يحدّقن فيها . هتف هوندا بهيشيكاوا الذي وقف في ذهول :

- ما الذي تقوله الأميرة؟ ترجم!

ترجم هيشيكاوا بصوت حادّ :

- يا سيّد هوندا! يا سيّد هوندا! لشدّ ما افتقدتك! لقد كنت رقيقاً معي ، ومع ذلك فقد انتحرت دون أن أخبرك بشيء . وقد انتظرت هذا اللقاء أكثر من سبع سنوات لأعتذر لك . وقد اتّخذت شكل أميرة ، ولكنني يابانية حقاً ، وقد أمضيت حياتي السابقة في اليابان ، وذلك هو موطني الحقيقيّ . أرجوك ، يا سيّد هوندا ، عد بي إلى اليابان!

أخيراً ، أعيدت الأميرة إلى الكرسيّ ، واستعيد إلى حدّ ما الطابع اللائق بالمقابلة . وتطلّع هوندا ، من حيث وقف ، إلى الصبيّة ذات الشعر الأسود ، وكانت ماتزال منخرطة في البكاء ، وقد استندت الآن إلى الوصيفة الأولى . واستقرّ في فؤاده دفء الطفلة وعبرها اللذان كانا مايزالان يفوحان من ركبته .

طلبت الوصيفات إنهاء المقابلة لأنّ الأميرة تشعر بأنّها ليست على مايرام . ولكن هوندا رجاهنّ ، من خلال هيشيكاوا ، أن يسمحن له بطرح سؤالين موجزين .

كان السّؤال الأوّل هو :

- ما هو العام وما هو الشهر اللذان علمت فيه مع كيواكي بزيارة
رئيسة كاهنات معبد جيشو على الجزيرة الوسطى في بحيرة داره آل
ماتسوجاي؟

عندما نقل السؤال إلى الأميرة، رفعت وجنتيها المخضلتين بالدمع،
من حجر وصيفتها، وكأنها ماتزال غاضبة، وردت إلى الورااء خصلة
من خصلات شعرها التصقت بخدها.

وردت عن طواعية، قائلة:

- تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٢ .

دهش هوندا، في قرارة نفسه، ولكنه لم يكن على يقين من أنها قد
حفظت في ذاكرتها شأن لفيفة مصورة مضيئة، سجلاً واضحاً ومفصلاً
لوقائع حياتين سابقتين. ولم يكن واثقاً كذلك، على الرغم من كلمات
اعتذار إيساو التي انسابت ببلاغة فائقة، مما إذا كانت على علم
بتفاصيل خلفية الأمر وظروفه. وفي حقيقة الأمر فإن الكلمات الدقيقة
قد نددت من بين شفهي الأميرة المجردتين من الانفعال، وكأنها أعداد
التقطت ورتبت بصورة عشوائية.

طرح هوندا السؤال الثاني قائلاً:

- في أي يوم ألقى القبض على إيساو إنوما؟

بدت الأميرة وكأنها تغدو أكثر ميلاً إلى النعاس، ولكنها ردت بلا
تردد:

- أول كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٢ .

قالت الوصيفة الأولى وهي تنهض من مقعدها ضاغطة بهذا على
الأميرة لتغادر القاعة على الفور:

- ينبغي أن يكون في هذا الكفاية.

وثبتت الأميرة واقفة، وتسَلَّقت المقعد، وصاحت بهوندا بصوتها الحادّ، فوبَّخها الوصيفة الأولى همساً، وفيما الأميرة تواصل الصياح، تشبَّثت بشعر الوصيفة العجوز. وكان من الجليّ أنها تكرر الكلمات ذاتها، إذا حكم المرء من تماثل المقاطع الصوتيّة. وفيما أسرع الوصيفتان الثّانية والثّالثة للإمساك بذراعيها، شرعت تبكي في جنون، وصوتها الصّاك يتردّد صدها مرتدّاً عن السّقف السّامق. وبرزت من بين العجائز اللّاتي حاولن إنزالها أرضاً، ذراعها النّاعمتان المرنتان ممسكتين بما يصادفهما هنا وهناك. وانسحبت العجائز صائحات ألقاً، وازداد صوت الأميرة ارتفاعاً.

- ما الذي قالته؟

قال هيشيكاوا:

- إنّها تصرّ على دعوتك إلى القصر المنفرد في بانج با إن، حينما تذهب إلى هناك في زيارة، بعد غد والسيدات يحاولن منع ذلك، وسيحوّل الأمر إلى استعراض من نوع ما.

بدأت مناقشة بين الأميرة ووصيفاتها. وأخيراً، أومأت برأسها، وكفّت عن الصياح.

قالت الوصيفة الأولى، وأنفاسها ماتزال متقطّعة، وهي ترتّب ملابسها التي اضطرب هندامها، متحدّثة مباشرة إلى هوندا:
- بعد غد ستمضي سموها الجليلة بالسيارة إلى قصر بانج با إن للتنزه. والسيد هوندا والسيد هيشيكاوا مدعوّان للذهاب إلى هناك. ونودّ كثيراً أن يقبلا هذه الدّعوة. وبما أنّنا سنتناول طعام الغداء هناك، فسوف يكون من المناسب أن يصلا إلى هناك في التاسعة صباحاً.

وقام هيشيكاوا على الفور بترجمة هذه الدّعوة الرّسميّة .

وواصل هيشيكاوا في السيّارة خلال رحلة العودة ثرثرته المتطاولة إلى حدّ السّأم، متجاهلاً حقيقة غرق هوندا في التّفكير. وأفصح الافتقار للاكتراث بالآخرين، وقد عكسه هذا الفنّان الّذي صاغ ذاته على هواه، عن حساسيّته المتبدّلة. ولو أنّه ظنّ أنّ الحساسيّة خصلة محافظة لا ضرورة لها، ولو أنّه تمسّك بوجهة النّظر هذه، لتمتّع على الأقلّ بفضيلة التّناسق. ولكن هيشيكاوا كان في حقيقة الأمر يفخر برقّته وحساسيّته في مجال العلاقات الإنسانيّة، وقد ظنّ أنّها تتجاوزان رقة الأدلاء الآخرين وحساسيّتهم.

- كان ذكاء منك أن تطرح هذين السّؤالين. لم أتفهّم جليّة الأمر، ولكنك كنت تضعها موضع الاختبار، لأنّها أفصحت عن صلة وثيقة خاصّة، بتظاهرها بأنّها تناسخ لروح صديقك. أليس ذلك صحيحاً؟
ردّ هوندا بلا حماسه:

- تماماً.

- وهل كان الرّدان كلاهما صحيحين؟

- لا.

- أكان أحدهما على الأقلّ صحيحاً؟

- لا. يؤسفني أنّها كانا خاطئين.

كذب هوندا لكي يُترك وشأنه. وأخفت نعمة حديثه الموحية باليأس على نحو موات، الخديعة. وعندئذٍ أغرب هيشيكاوا في الضّحك، معتقداً أنّ هوندا قد صدقه القول.

- أذلك صحيح! كلاهما خاطئ؟ لقد قالت التّاريخيّن بجديّة بالغة. طيّب، ذلك أمر سيّئ للغاية. لم يكن موضوع تناسخ الأرواح إذن

أمقنعا للغاية. ومع ذلك فلم تكن بالغ الطيبة، إذ قمت باختبار مثل هذه الأميرة الصغيرة الجميلة، وكأنك تختبر قارئ طالع مدعياً على قارعة الطريق. وعموماً فإنه ليس في الحياة الإنسانية لغز. فاللغز يظل باقياً في الفنون فحسب، والسبب هو أن اللغز لا معنى له إلا في الفن.

دهش هوندا مجدداً حيال نزعة هيشيكاوا ذات المسار الواحد. ولمح شيئاً أحمر خارج نافذة السيارة، وأطلّ خارجاً فرأى نهراً وسط أشجار جوز الهند، ذات الجذوع المؤلفة من لون أحمر متقد لهباً. عند حواف الطرق المتمعجة، رأى لون أشجار البونسايانة القرمزي المدخن على امتداد ضفة النهر، وكانت تموجات الحرّ ترتجف بالفعل حول الأشجار.

انتقل هوندا إلى مشكلة إمكانية الوصول إلى قصر بانج با إن بغير هيشيكاوا، حتى وإن كان معنى ذلك أنه سيعجز عن التواصل بالحوار مع الأميرة.

تحققت أمنية هوندا على نحو غير متوقَّع . فقد قال له هيشيكاوا،
متفضلاً:

- لست في حالة نفسيّة تسمح لي بجلسة أخرى مع الأميرة
المجنونة، ولكنني إذا لم أذهب فسوف تواجه المتاعب، فالوصيفات لا
يتحدثن إلا كلمات قلائل من اللّغة الإنجليزيّة .

وخلافاً لعادته، ردّ عليه هوندا بقوله :

- لسوف أستمتع باللّغة التايلانديّة، كما لو كانت موسيقى، على
الرّغم من أنني لا أفهمها . وإني لأوثر ذلك على الضيق الذي تثيره
الترجمة في كلّ مرّة .

وقد علّق الأمال على أنّ هذا سينهي، بشكل أو بآخر، معاملاته
مع هيشيكاوا .

ولسوف يتذكّر هوندا مراراً وتكراراً فيما بعد النّزهة البهجيّة في
ذلك اليوم .

لم يكن بمقدور السيّارة أن تقطع إلا جانباً من الطّريق إلى قصر
بانج با إن . وأما باقي المسافة فيتمّ قطعها في زورق نزهة مصمّم على
الطراز الملكيّ، ينتقل عبر ممرّ مائيّ مؤلّف من كلّ من النّهر وحقول
الأرز التي يغمرها الماء . وبين الفينة والأخرى ينهض جاموس ماء من
غفوته في أحد حقول الأرز، ويشبّ فجأة فتلتع في الشّمس مؤخرته
المكسوّة بالطّمي . وعندما التّف الزورق حول غابة من أشجار
سامقة، ابتهجت الأميرة لمراى السّناجب العديدة وهي تمضي مسرعة

في هبوطها عن الفروع وتسلقها إياها على امتداد ضفة النهر. وفي إحدى المرات لاح للعيان ثعبان صغير أخضر، منتصب الرأس، وهو يتقافز من غصن خفيض إلى آخر.

ارتفعت القمم الذهبية المستدفة للمعابد فوق الأدغال، وقد طُي كَلَّ منها حديثاً باللون الذهبي بفضل تبرعات من يعتقدون ببركاتهما. وكان هوندا يعلم أن الوريقة الذهبية تصنع في اليابان، وتصدّر إلى تايلاند بكميات كبيرة.

استعاد، على نحو متوهج بالحياة، ذكرى اللحظات القلائل التي كَفَتْ خلالها الأميرة «سنى البدر» عن ثرثرتها الطفولية المتواصلة، ومالت دوغما حراك في مواجهة حافة الزورق، محدّقة بعينين شاردتين في الأفق البعيد. وقد اعتادت الوصيفات اللاتي انغمسن في مرحهنّ مثل هذا التصرف المزاجي، من جانب الصبية الصغيرة، فلم يبدین اهتماماً بها. ولاحظ هوندا على الفور ما كانت ترقبه فاضطرب كثيراً.

أخذت سحابة هائلة، ظهرت من وراء الأفق، تحجب الشمس. وكانت الشمس عالية في مسارها، وتعني أن تمدّ السحابة أطرافها التي تشبه المجسّات إلى بعيد لكي تحجبها. وتطاوت السحابة السوداء لتحجب الشمس تماماً، وأفلحت في هذا بشيء من الصعوبة. وكان الجزء الأكثر ارتفاعاً من السماء الزرقاء، فوق قرص الشمس، أبيض على نحو باهر، مكذباً الكثافة السوداء المترعة بالنّذر في المنطقة الأكبر سمكاً. ولم يكن ذلك هو كلّ ما هنالك، فقد جعل الامتداد السحابة رفيعة للغاية، وأسفر ذلك عن شقّ كبير في القسم السفلي منها، وقد تدفّق النور المؤتلق عبره، وكأنّما كان السطوع المؤتلق دماً يشخب، بلا انتهاء، من جرح هائل.

اكتسى الأفق البعيد بالأدغال المترامية خفيضةً، وشعت المقدمة
بخضرة وهاجة، كما لو كانت جزءاً من عالم آخر، متلقفة ألح
الشمس الذي انهلّ من شقّ السحابة. ولكنّ الأدغال البعيدة الواقعة
تحت الجانب السفليّ الأسود، كانت مثقلة بمطر بلغ من عنف انهاره
أنّ الضباب بدا كما لو كان ينهض صاعداً. وتواصل المطر وكأنه شبكة
مترامية من الفطر، وأخذ يلفّ الأدغال المظلمة ببخاره السديميّ.
وبدت شبكة المطر التي لم تغطّ إلا جانباً من الأفق النائي، جليّة
للعيان بصورة مميّزة، وكان بمقدور المرء أن يرصد الحركة الأفقيّة
للقطرات التي مضت الريح تجلدها. وبدا المطر الغزير وكأنه أودع
السجن، وقد تركّز في تلك المنطقة وحدها.

عرف هوندا، على الفور، ما الذي تتطلّع إليه الطفلة. فقد كانت
ترى، في وقت واحد، الزمان والمكان، وكانت المنطقة الواقعة تحت
المطر المنهمر تنتمي بمعنى آخر، إلى مستقبل أو ماضٍ ما تعجز العين
البشريّة عن رصده. ولأنّ يكون المرء تحت سماء صافية ويلمح بمثل
هذا الوضوح عالماً من المطر، فذلك يعني أنّ مراحل زمنيّة مختلفة
وأماكن متباينة قد تعايشت معاً. وقد سمحت السحابة المطيرة بلمحة
من الهوة بين الأوقات المنفصلة، وشهدت المسافة الرّحبة المدرجة في
الأمر على الفجوة الواقعة بين المكانين. وكانت الأميرة تحدّق في صدع
الكون العميق.

كان لسانها الصّغير الأحمر الورديّ، المبلّل يلحق في شروء، ولكن
بلهفة، الخاتم اللؤلؤيّ الذي أعطاها إيّاه هوندا - وكان حريّاً
بالوصيفة أن تويّخها لو أنّها لاحظتها. بدا الأمر كما لو أنّ الأميرة
الصّغيرة بلعقها اللؤلؤة تُشهد على تجلّي مثل هذه المعجزة.

بانج با إن .

أصبح هذا الاسم شيئاً يستعصي على النسيان .

أصرت الأميرة على الإمساك بيد هوندا وهي تسير معه، وتجاهلت تجهّات الوصيفات، وترك هوندا نفسه لليد الصّغيرة الرّطبة تقودها . ومضت به الأميرة التي تعرف هذه الأرض حقّ المعرفة، إلى دارة صينية، ثمّ إلى كشك فرنسي وحديقة على طراز عصر النهضة، وبرج عربيّ، وإلى بقعة وراء الأخرى، وأدخلت هذه المعالم كلّها السّرور على نفسه .

كان السرداق القائم الذي يتوسّط بحيرة اصطناعيّة فسيحة، جميلاً بشكل خاصّ، وكأنّه عمل فنيّ أقيم على الماء .

وقد غزيت الدّرجات الحجريّة الواقعة عند حافة الماء، فيما ارتفع منسوب هذا الأخير، وحجبت الدّرجة السّفليّة في أعماق البحيرة . واكتسى المرمر الأبيض في الماء باللّون الأخضر، من جرّاء الأشنة . ولفّ عشب مائيّ ذاته متكوراً، مغطّياً المرمر بفقاعات صغيرة . وأرادت الأميرة سنى البدر أن تغمس يديها وقدميها في الماء، ولكنّ وصيفاتها منعها تكراراً من القيام بذلك . ولم يستطع هوندا فهم كلماتها، ولكن بدا أنّها تعتقد أنّ الفقاعات، شأن خاتمها، هي لآلئ أرادت أن تجمعها .

عندما أوقفها هوندا هدأت للتوّ، وجلست على الدّرج الحجريّ إلى جواره، وراحت تنظر إلى المصلّى الذي بدا أنّه يطفو في وسط البحيرة .

ولم يكن مصلّى حقّاً، وإنّما سرداق لا يستخدم إلّا كاستراحة خلال رياضة الانطلاق بالزّوارق . وفي الدّاخل كان المكان خاوياً، على نحو

ما يمكن للمرء أن يرى، عندما تباعد هبات النسيم ما بين الستائر الصفراء البرتقالية الناصلة.

كان المبنى البسيط محاطاً بجدران من كتل خشبية سوداء مموهة بالذهب. ومن خلال الفرج بدت خضرة الشاطئ الآخر، والسحب المتواجدة، والسماء المثقلة بالضوء جلية للعيان. وفيما هوندا يحدّق في هذه البانوراما، اتخذت السحب الرائعة والغابة الجلية، من خلال حاجز الكتل الخشبية، مظهر صورة مؤلفة من شرائح رأسية من الألوان سامقة على نحو غريب. وبالطبع، كان سقف السرداق الصغير مزخرفاً إلى حدّ كبير، إذ إنه مشيد من أربع طبقات من القرميد الصيني، تجمع بين الأحمر الطوي والأصفر والأخضر، ومن قمة رفيعة مستدقة متألفة من الذهب، كانت تخرق السماء الزرقاء.

لم يستطع هوندا تذكر ما إذا كان قد فكّر في الأمر وقتذاك، أم أنّ رؤية السرداق قد تزوجت مع رؤية الأميرة، في وقت لاحق. ولكن تحوّلت الكتل الخشبية الرشيقة المحيطة بالسرداق في ذهنه إلى أجسام من الأبنوس لفتيات راقصات يتأهبن للحظة للاندفاع في الرقص، وقد تزيّن بكثير من الحلى الذهبية المخرّمة، واعتمرن قبعاتهنّ المستدقة الأطراف.

كلّ الأحداث التي يعاد تجميعها، والتي تقع دونما تواصل شفاهي - ولاسيما تلك التي لا تبذل خلالها محاولة خاصّة لإقامة صرح هذا التواصل - تصبح بلا جهد لوحات عديدة جميلة منمنمة، تدرج كلّها في أطر ذهبية مزخرفة. وقد انقضى الوقت الذي أمضاه هوندا في قصر الوردية، على نحو لا ينسى، في ذاكرته؛ بسبب تلك اللحظات من البهجة الجمالية. وكان يحدث فجأة أن تنبثق في بعض الأحيان شرائح من مثل هذه اللحظات المضيئة وتشكّل لوحات مؤقتة للأميرة الصغيرة: الاستدارة الطفولية ليدها الممتدة إلى الفقاعات اللؤلؤية، على الدّرج المغمور في الماء؛ الخطوط الدّقيقة النظيفة التي تعلق أصابعها وراحتيها، سواد شعرها الفاحم القصير المتهدّل على خدّها، الأهداب الوطفاء التي توشك أن تتسم بالشّجن، وعلى جبينها الأسمر انعكاس الماء متألّفاً وكأنّه عرق اللؤلؤ بإزاء الأبنوس الأسود. كان الوقت ممّا يتألّق فيه الوهج، والهواء في الحديقة يحفل بطنين النحل، والسيدات المنتزهات يغلب عليهنّ مزاج مرح كذلك. وكان جوهر اللحظة كالمرجان جميلاً ومعرّضاً للعيان. ومع ذلك فقد اجتمعت في تلك اللحظات سعادة الأميرة البريئة التي لا تشوبها شائبة، وسلسلة الأحداث الدّموية المترعة بالعذاب، التي حفلت بها حياتها السابقتان، وكأنّها السّموات الصافية المطيرة التي تعلق الأدغال النائية، والتي شاهدها وهما في طريقهما إلى القصر.

أحسّ هوندا وكأنّه واقف في قلب الزّمان، في قاعة هائلة أزيلت منها كلّ الفواصل. وكانت قاعة رحبة توحى بالحرية ولا تشبه

المساكن الدنيوية التي اعتاد على الإقامة فيها. هنالك انتصبت أعمدة سوداء في مجموعات متقاربة، وأحسّ، على وجه التقريب وكأنّ عينيه وصوته يمكن أن تبلغ مساحات لا سبيل إليها عادة. وفي هذا الامتداد الكبير الذي خلقتة سعادة الأميرة، ووراء حشد من الأعمدة السوداء، وقف كيواكي وإيساو، ووفرة من الظلال الأخرى، المتناسخة، القابعة بأنفاس لاهثة وكأنّها منخرطة في لعبة الغميضة.

ضحكت الأميرة مجدّداً، وكانت في غمرة لهوها بتبسم على الدوام. ولكن غالباً ما كانت لثتها الرطبة، الحمراء الوردية، تلتمع فجأة، عندما تفتّر عنها، في ضحك حقيقيّ. وفي كلّ انطلاقة ضحك كانت تنظر عالياً إلى محيا هوندا.

ولدى وصول الوصيفات العجائز إلى بانج با إن، سارعن بتنجية التزامهنّ بالشكليّات جانباً. ونسين لياقتهنّ المتصلّبة، وغرقن في الضحك، وانطلقن عدوّاً في أرجاء المكان، بمعنويات عالية. وإذ غاب الالتزام بالشكليّات فقد أصبح عمرهنّ المتقدّم هو العنصر الوحيد الباقي من تقيدهنّ بالمراسيم. وانهمكن جميعاً في التقاط ثمار الكوثل، تماماً مثل ببغاوات شرهة، مجمّدة، تتجمّع حول ملء كيس من البذور. وأخذن كذلك يهرشن حيثما شعرن بالرغبة في حكّ أجسامهنّ، دافعات بأيديهنّ تحت أطراف تنانيرهنّ. ومضين في التثرثرة بجلبة، وهنّ يتمايلن متبخترات، في غمرة تقليدهنّ للفتيات الراقصات. ومدّت إحدى أولئك الراقصات المحنّطات بشعرها الأبيض الذي يشبه الشعر المستعار فوق وجهها البنيّ، فمها الذي لوّنته ثمار الكوثل، فاغرة إيّاه، في انخراطها في الضحك، ورفعت مرفقيها الحادّين، دافعة بهما جانباً، وهي ترقص، فألقت العظام

الجافة البادية لذراعيها الخشتين صوراً حادة من ظلال بلازاء خليفية
من السماء الزرقاء، بطبقاتها الباهرة من السحب.

تحدثت الأميرة، وفي الحال تحركت السيدات في نشاط، وأحطن
بالطفلة، واندفعن مبتعدات بها كأنهن زوبعة، تاركات هوندا
المندهش وحيداً. وقد أدرك مغزى تصرفاتهن عندما رأى المبنى الصغير
الذي كان مقصدهن. فقد أرادت الأميرة الذهاب إلى الحمام.

أميرة تمضي إلى المرحاض! أدرك هوندا الإطباقة الحادة للعاطفة التي
أخذت بخناقها. فقد تصوّر من قبل أن له طفلة صغيرة وأحسّ بشعور
الأب نحوها، ولكنّه، إذ لم يقدر له قطّ الإنجاب، فقد كان خياله
قاصراً على الدوام. وكانت استجابته للفكرة الجذابة، المتمثلة في
ذهاب الأميرة الصغيرة إلى الحمام إدراكاً حميماً للحم والدم، وتجربة
انفعالية جديدة تماماً بالنسبة له. وتمنى لو أنه كان بمقدوره أن يمسك
بفخذي الأميرة البيّتين، الناعمتين، بيديه وهي تتبول.

بدت على شيء من الخجل، لبعض الوقت، عقب عودتها، إذ
لزمت الصمت وتجنّبت النظر إليه.

وبعد الغداء لعبوا بعض الألعاب في الظلّ.

لا يستطيع هوندا الآن أن يتذكّر كيف تواصلت الألعاب. لقد غيّب
بعض الأغنيات البسيطة التي تدفع إلى السأم مراراً وتكراراً، ولكنّه
كان يجهل معناها.

كان بمقدوره أن يتذكّر فحسب ذلك المشهد الذي وقفت الأميرة
فيه متوسطة المرجة التي رقشتها الشمس، تحت الأشجار، وحولها
جلست الوصيفات الثلاث العجائز على هوائن، وقد رفعت إحداهنّ
ركبتها، وتربعت الأخرى. وبدت إحداهنّ وكأنّها تشارك في اللعبة

لمجرد أن تكون ودودة. فقد واصلت تدخين طباق ملفوف في بتلات اللّوتس. واحتفظت أخرى بزجاجة ماء مطلية باللّك، مطّعمة بقواقع اللّائى بجانب ركبتهما، تحسباً لاحتياج الأميرة التي طالما شكت إليها من الظّماً.

ربّما كانت للعبة صلة ما بالرامايان؛ فقد قلّدت الأميرة هانومان، حينما تقلّدت فرع شجرة، وكأنه سيف، متّخذة وضع شخص أحذب، وأمسكت أنفاسها، على نحو مضحك. وكلّما صفقت السيّدات وغنّين شيئاً ما، قامت الأميرة بتغيير وضعها. وبإمالة رأسها قليلاً فقد بدت كزهرة رقيقة تومئ للنسيم العابر، أو كسنجاب يتوقّف ليرفع رأسه وسط رحلاته عبر أغصان الأشجار. وتحوّلت من جديد إلى الأمير راما، وأشارت في جرأة نحو السّماء بالسّيف الذي أمسكته بذراع قائمه، رشيقه، ممتدّة من قميصها الخارجيّ الأبيض، المقصّب بالذهب. وفي تلك اللّحظة، انطلقت حمامة جبلية مسرعة أمامها، فحجبت بجناحيها عيّاها، ولكنها لم تتحرّك. واكتشف هوندا أنّ الشجرة السّامقة المتطاولة وراءها هي شجرة زيزفون. وأصدرت الأوراق العريضة المتدلّية من أطراف الفروع الطويلة فوق النباتات الكاوية حفيفاً لدى كلّ لمسة رقيقة من لمسات النّسيم.

ازداد شعور الأميرة بالسّخونة، وبتدمّر بالغ طلبت من السيّدات شيئاً، فتشاورن فيما بينهنّ، ونهضن واقفات، وأشرن إلى هوندا. وغادر الفريق ظلّ الأشجار، وانتقل إلى مرسى الزّورق. واستنتج هوندا أنّهن في طريقهنّ للعودة إلى الدّار، ولكنّه كان مخطئاً، فقد أصدرت السيّدات أمراً إلى النّوتي فأحضر في أعقابها قطعة كبيرة من قماش قطنيّ مطبوع.

أمسكن بالقماش، وانتقلن، على امتداد الشّاطئ بجذور المنجروف

الملتقمة فيه إلى أن وجدن بقعة أكثر انزعالاً . رفعت اثنتان من السيدات تنورتيهما، وخاضتا في الماء ممسكتين بطرفي القماش وبسطناه تماماً، حتى بلغ الماء مستوى الردف، لصنع ستار يحول دون الرؤية من الشاطئ المقابل . وصحبت السيدة الباقية الأميرة التي تجردت الآن من ملابسها . وانعكس الضوء من الماء على فخذي العجوز الهزليتين .

صاحت الأميرة بابتهاج عندما لمحت أسماكاً صغيرة كانت قد تجمعت حول جذور المنجروف . ودهش هوندا، إزاء تصرف الوصيفات وكأنه ليس موجوداً، ولكنه افترض أن ذلك لابد أن يكون بدوره من قواعد السلوك التايلانديّة . فجلس عند جذع شجرة على الضفة، وأخذ يرقب الأميرة وهي تستحم .

لم تكن لتلزم الهدوء قط، وإذ أنارتها أشعة الشمس المتراقصة، عبر خطوط القماش القطني المطبوع، فقد أخذت تبتسم باستمرار لهوندا، ولم تبذل جهداً لإخفاء بطنها الطفوليّ السمين، وهي تنثر الماء على السيدات، وكانت إذا وبخنها هربت مبتعدة . ولم تكن مياه النهر الرّاكدة صافية، فقد اكتست بلون بنيّ مصفرّ يشبه بشرة الأميرة، ولكن حتى هذا الماء تحوّل لدى نثره إلى قطيرات شفافة متألّقة في الضوء النافذ من القماش القطني المطبوع .

ما إن رفعت الصبيّة الصّغيرة ذراعها، حتى تطلّع هوندا تلقائياً، بتدقيق، إلى جنبها الأيسر، عند صدرها الصّغير المسطح الذي تحجبه ذراعها عادة . ولكنه لم ير الشّامات الثلاث السوداء التي كان يتعيّن أن تكون هناك . وأخذ يحدّق في تلك البقعة حيث أمكنه التحديق، إلى أن اغرقت عيناه، ظاناً أنه ربّما كانت الشّامات الخفيفة لا تبين في البشرة التي لوحتها الشمس .

وصلت القضية التي يتولاها هوندا إلى نهاية غير متوقعة عندما قام المدعي، وقد أدرك أنه في وضع لا تحمد عقباه، بإسقاط الاتهامات فجأة. وكان بمقدوره العودة إلى الوطن على الفور، ولكن شركة منتجات إتسوي أرادت، تعبيراً منها عن امتنانها، أن تقدم له مكافأة إضافية، في صورة رحلة ترفيهية. وقد رغب في الذهاب إلى الهند، وأعرب عن هذه الرغبة، وردت الإدارة بأن تلك ربما كانت آخر فرصة تتاح لإنسان للذهاب إلى الهند، إذ لاحت في الأفق مؤشرات اقتراب الحرب، ووعده المسؤولون بأن تبذل كل مكاتب إتسوي قصارى جهدها لتضمن له أشكال الراحة كافة. وابتهل هوندا ألا يترتب على ذلك، النوع عينه من الاهتمام الذي فرضوه عليه بتخصيص هيشيكاوا دليلاً له.

بعث هوندا بكلمة إلى أسرته في اليابان. وانغمس، في الحال، في متعة إعداد توقيت برنامجه بمساعدة جدول مواعيد هندي، يوضح توقيت رحلات سفن بخارية لا تسافر بسرعة تتجاوز أربعة عشر أو خمسة عشر ميلاً في الساعة. وأدرك مستعيناً بخريطة أن الأماكن التي رغب في زيارتها - كهوف أجاتتا وبنارس الواقعة على نهر الجانج - متباعدة على نحو هائل، بحيث شعر وكأنه يوشك أن يغشى عليه. ومع ذلك، فإن كلاً من هذه الأماكن اجتذب الإبرة المغناطيسية لرغبته في اكتناه أسرار المجهول بالقدر ذاته من القوة.

وتراخى عزمه على الاستئذان من الأميرة سنى البدر، إذ ووجه بالضيق النابع من اضطرابه إلى طلب قيام هيشيكاوا بالترجمة بينهما.

وكتب متذرعاً بالاستعدادات العاجلة لرحلته كلمة شكر على أوراق الفندق، على الرحلة الخلوية إلى بانج با إن، وبعث بها إلى قصر الوردية، عن طريق مبعوث خاص، وذلك قبل لحظات من مغادرته.

وتميزت رحلة هوندا إلى الهند بتجارب مترعة بالألوان، ويكفي مثلاً على ذلك وصف أصيل مؤثر على نحو عميق في النفس أمضاه في كهوف أجاتا ومرأى بنارس الذي يهز الروح. وفي هذين المكانين شاهد هوندا أشياء بالغة الأهمية، أشياء جوهرية بالنسبة لحياته.

شمل برنامجه رحلة بالسفينة إلى كلكتا، ثمّ السفر اليوم بكامله بالقطار إلى بنارس التي تبعد مسافة ثلاثمائة وخمسين ميلاً، ورحلة بالسيارة من بنارس إلى مغولسراي، ثمّ يومين بالقطار إلى مانجاد، وأخيراً رحلة أخرى بالسيارة إلى أجانتا. كانت كلكتا، في أوائل تشرين الأول (أكتوبر)، تضحّ بمهرجان دورجا السنويّ.

للربة كالي، أكثر الآلهة حظوة في مجمع الأرباب الهندوسي، وتمتّعاً بإجلال خاصّ في البنغال وأسام، أسماء وتجسيدات لا حصر لها، تماماً كما هو شأن زوجها شيفا، ربّ الدمار. والدورجا هو أحد تجلّيات كالي، غير أنّ ولعها بالولوغ في الدماء أقلّ بروزاً فيه. وقد رفعت مجسّمات عملاقة للربة في كل مكان من أرجاء المدينة، وأبرزتها هذه المجسّمات في غمرة قيامها بمعاينة ربّ جواميس الماء، وقد صُوّر حاجبان جميلان غاضبان على المحيا الباسل. وفي الليل، كانت الجموع ترفع آيات التّوقير إلى المجسّمات النّاهضة، في حدّة، بإزاء الأنوار الباهرة.

تعدّ كلكتا مركز عبادة كالي، مع معبدها المسمّى كاليجات، ويتحدّى النّشاط الدائر هناك، خلال هذه المهرجانات، الخيال. وفور وصول هوندا إلى المدينة قام بالاتّفاق مع دليل هندي، وبزيارة للمعبد.

جوهر كالي هو «شاكتي»، وهي كلمة معناها الأصلي «الطّاقة». وهذه الربة العظيمة، أم الأرض، تشعّ على كلّ الرّبّات، على امتداد

العالم، سُمِّوها باعتبارها أمًّا، وبهاءها الأنثوي، وقسوتها المقيتة، وبهذا تغني طبيعتهنَّ الربَّانية. وتُصوِّر كالي على هيئة الموت والدِّمار، ولاشكَّ أنَّها العنصران الجوهريان للشاكتي، وهي تمثِّل السَّوء والكوارث الطبيعيَّة، وقوى طبيعيَّة أخرى مختلفة تجلب الموت والدِّمار للأشياء الَّتِي تنبُض بالحياة. وجسمها أسود، وفمها أحمر من الدَّم، وتُحَلِّي الأنياب النَّاتئة من شفيتها وعنقها بقلادة مؤلِّفة من الجماجم البشريَّة وكثير من الرُّؤوس الَّتِي اجتثت لتوها. وهي ترقص بجنون على جسم زوجها الَّذي يرقد ممدداً في وهن. وهذه الرِّبة الظمأى للدِّماء تجلب الأوبئة والكوارث، بمجرد شعورها بالظَّمأ، والتقدِّمات المستمرَّة، في صورة أضحيات، ضروريَّة لتهدئتها. ويشاع أنَّ التضحية بنمر تروي ظمأها لقرن من الزَّمان، والتضحية بإنسان تروي ظمأها لألف عام.

زار هوندا معبد كاليجات ذات أصيل ممطر شديد الحرارة والرَّطوبة. وأمام المدخل تدافعت حشود من النَّاس مصدرة ضوضاء هائلة، تحت المطر، بينما راح الشَّحاذون، في كلِّ مكان، يتوسَّلون مطالبين بالصدقات. كان حرم المعبد صغيراً للغاية، والمعبد نفسه مكتظاً بالنَّاس، وتجمَّع حشد منهم حول المزار، بقاعدته المرمرية، وهم يتدافعون إلى الأمام وإلى الوراء، وقد بلغ من زحامهم أنه لم يبق موضع لقدم. وتلاَّأت القاعدة المرمرية بلون أبيض على نحو خاص، ولكنَّها تلطَّخت بالطمي البنيِّ من أقدام المتعبدين الَّذين كانوا يحاولون التسلُّق عالياً، وبرشاشات الزنجفر الَّذي يتعيَّن أن يوضع على جباههم مع البركات. وبدا ذلك كاضطراب حافل بالتدنيس، ولكنَّ الرِّحام الخائق تواصل متطاولاً.

راح كاهن امتدّت ذراعه السّمراء خارج المعبّد يرسم نقاطاً صغيرة مستديرة من الزنجفر الأحمر على الجباه التي مدّها المتبتّلون الذين ألقوا بعملات معدنيّة في الصّندوق. وفي الحشد الضّاعط لأولئك الرّاعبين في التجمّل على هذا النّحو، كانت هناك امرأة ترتدي سارياً أزرق اللّون، أغرقه المطر فالتصق بجسمها، موضحاً استدارات ظهرها وعجزيتها، ورجل يرتدي قميصاً من الكتّان الأبيض، كانت رقبتة كومة من التجاعيد السّمراء اللّامعة. وكانوا جميعاً يتدافعون نحو طرف أصبع الكاهن الأسمر، المطيّ باللّون الأحمر. وذكّرت حركاتهم ونوبات نشاطهم وإخلاصهم هوندا بالحشد المصوّر في لوحة «منح صدقات القديس روكو» من إبداع المصوّر أنيبال كاراشي، أحد مصوّرِي المدرسة الانتقائيّة البولونيّة. غير أنّه في الجزء الداخليّ من المعبد، الكابي حتى خلال النّهار، ارتجف في ضوء الشّموع تمثال للإلهة كالي، بلسانها الأحمر البارز، وقلادتها المؤلّفة من الرّؤوس المجتزّة حديثاً.

سار هوندا وراء دليله إلى الحديقة الخلفيّة بأحجارها غير المنتظمة وقد أغرقها المطر وشغلت مساحة تقلّ عن أربعائة متر مربّع. وألقى قلّة من النّاس هناك. وقد انتصب عمودان كأنّهما جانبا بوّابة خفيضة ضيّقة، وعند قاعدتيهما حوض من الحجر المنحوت. وكانت هناك بقعة معزولة تفصلها الفواصل وكأنّها مكان للاغتسال، ثمّ إلى جانبها مباشرة نسخ أصغر منها، ولكنّها تماثلها على وجه الدّقة. وقد بلّل المطر العمودين، وفي الحوض الموجود عند قاعدتيهما بركة دماء، ولطّخت بقع من الدّمار ماء المطر على الأرضيّة الحجريّة. وأوضح الدّليل هوندا أنّ الموضع الأكبر هو المذبح الذي يضخّ فيه بجواميس

الماء، وأنه لم يعد يستخدم. وأما النسخة الأصغر منه فهي التي تستخدم للتّضحية بالماعز، وبصفة خاصّة خلال المهرجانات المهمّة، مثل مهرجان دورجا. وسوف تذبجها هنا أربعمائة من الماعز.

عندما تطلع هوندا إلى مؤخّرة معبد كاليجات، ولم تكن في السّابق بادية بوضوح للعيان بسبب الحشود الملتفة حولها، وجد أنّ قاعدتها وحدها هي المشيّدّة من المرمر الأبيض الخالص، وأنّ المصاطب المركزيّة والمصليّات المحيطة بها مزخرفة بموزاييك مؤلّف من قطع آجر ملوّنة، على نحو متألّق، تشبه آجر معبد الفجر في بانكوك. وقد غسلت الأمطار التراب عن الزخارف الزهريّة الرّائعة والعريسات المؤلّفة من طواويس غاضبة، وتعملقت في تيه الصّروح الملوّنة، على نحو متألّق، فوق الرّكام الملطّخ بالدم في الأسفل.

تساقطت قطرات كبيرة في رذاذ متقطّع، وخلق الهواء الثقيل بالماء لدى حمله إلى الدّاخل دفناً سديماً.

رأى هوندا امرأة لا تحميها مظلة من المطر تقبل لتجثو في إجلال أمام المذبح الصّغير. وكان لها الوجه المستدير المخلص الذكّي الذي كثيراً ما يجده المرء بين النّساء الهنديّات، في أواسط العمر. وتبلّء ساريتها ذو اللون الأخضر الفاتح بالمطر، وكانت تحمل غلاية نحاسيّة صغيرة تضمّ ماء مقدّساً من نهر الجانج.

صبّت المرأة الماء على الأعمدة، وأوقدت المشعل الزبّي الذي يعمل حتّى عندما يكون المطر منهمراً، ونثرت حولها زهوراً قرمزيّة صغيرة من جاوة، ثمّ جثت على الأرض الحجريّة الملطّخة بالدم، وشرعت في الصّلاة، على نحو محموم. ولاحت للعيان البقعة الحمراء المقدّسة على جبينها، من خلال الشّعر الذي التصق بتأثير الماء خلال

صلاتها المترعة بالنشوة، لاحت وكأنها بقعة من دمها تقدّمت بها
أضحية وقرباناً.

تأثّر هوندا بعمق، وفي الوقت نفسه امتزجت مشاعره باستفطاع
يستعصي على الوصف قريب من النشوة. وفيما هو يمحّص مشاعره
تراجع المشهد المترامي حوله، ولم يبق إلا شبح المرأة الضارعة، وقد
تركّز في البؤرة على نحو حادّ، وأوشك أن يكون رهيباً. وما إن أصبح
وضوح التفاصيل وشعوره بالفظاعة قاهرين للغاية، بحيث أنه شعر
بالعجز عن التّعامل مع أيّ منها، حتّى اختفت المرأة على حين غرة.
وظنّ للحظة أنه لا بدّ أن يكون وهماً. ولكن لا؛ فقد رآها تسير
مبتعدة، عبر البوابة الخلفيّة غير الموصدة، بعربساتها المصنوعة من
الحديد. غير أنه لم تكن هناك صلة بين المرأة التي كانت غارقة في
ضراعتها، والمرأة التي كانت تمضي بعيداً.

اقتاد طفل جدياً صغيراً التمتع نقطة قرمزيّة مقدّسة على غرّته
المبلّلة الخشنة الوبرة. وفيما صبّ الماء المقدّس في الحوض، هزّ الجدي
رأسه، وتقافز بقائمتيه الخلفيتين، محاولاً الهرب.

ظهر شاب له شارب يرتدي قميصاً ملطّخاً، وأخذ الحيوان من
الطفل، وفيما هو يضع يده على عنقه بدأ الجدي يتغو، على نحو مثير
للسفقة، يوشك أن يبعث في النفس الضيق، مضطرباً، ومتراجعاً،
واضطرب الشّعر الأسود الذي يعلو كفه تحت المطر. ودفع الشاب
عنق الجدي عنوة بين جانبيّ المذبح، وقد جعل الوجه إلى أسفل
غارساً كتلة خشبيّة سوداء بينهما دفعها إلى موضعها فوق الحيوان
السّجين. تراجعت الضحية بمؤخرتها، واضطربت في يأس، وراحت
تتغو، على نحو يثير الشفقة. وجه الشاب سيفه الهلاليّ الشّكل،

وحافته تتلألاً بلون الفضة تحت المطر، فهوى في رقة، وتدحرج الرأس المقطوع إلى الأمام، والعينان مفتوحتان على اتساعهما، واللسان المبيض نائقاً على نحو غريب، وظلّ الجثمان على الناحية الأخرى من جانبي المذبح، ومقدمته ترتعش في رقة بينما قائمته الخلفيتان تلتطمان في جنون حول صدره. وتدرجياً تهافتت الاختلاجات العنيفة، مثل حركات بندول تتقلص مع كلّ ترجّح، وكان الدّم الذي انبثق من عنقه قليلاً نسبياً.

أمسك القصاب الشاب بالجمدي المجرد من الرأس من قائمته الخلفيتين، وانطلق عدواً عبر البوابة. وفي الخارج، علقت الجديان المضحى بها على خطافات وقطعت أشلاء، وأفرغت أجوافها بسرعة. وجثم جمدي آخر مجرد من الرأس تحت المطر عند قدمي الشاب. وكانت قائمته الخلفيتان مازالان ترتجفان وكأنه على أعتاب كابوس رهيب. لقد تمّ اجتياز الخطّ الفاصل بين الحياة والموت الذي رسم لتوه هذه البراعة البالغة ودونما ألم، وبغير وعي على وجه التقريب، وظلّ الكابوس وحده ليعذب الحيوان.

كانت براعة الشاب في استخدام السيف شيئاً متميزاً. وكان يتبع بإخلاص، ودونما انفعال، عرف هذه المهنة المقدّسة، وإن كانت مقبته. وقد تقاطرت القداسة بطريقة طبيعية للغاية، كالعرق، من الدّم الذي يلطّخ قميصه المتسخ، من أعماق عمق عينيه الصّافيتين، ومن يديه الكبيرتين اللتين تشبهان أيدي الفلاحين. ولم يلتفت إليه رواد المهرجان الذين اعتادوا هذا المشهد، وجلست القداسة بيديها وقدميها الملطّختين وسطهم.

والرأس؟ لقد قُدّم أضحية على مذبح تحميه ظلّة خشنة واقية من

المطر داخل البوابة. ونثرت زهور حمراء على المشعل المتقد تحت المطر، واحترقت بعض بتلاتها. وكانت تلك نار المعبد المكرسة لعبادة براهيم. وقد ربت سبعة رؤوس جديان سوداء أو ثمانية قرب النار، وبدا كل منها أحمر مفتوح النهاية وكأنه زهرة من زهرات جاوة. وكان أحدها هو الرأس الذي كان يثغو قبل دقائق. ولاحت خلفه امرأة، جثمت خفيضة، وكأنها تحوك في إصرار، ولكن أصابعها السمراء كانت تنزع بدأب الأطراف الناعمة الملتزمة من البطانة الداخلية للجلد الذي كان يكسو أحد الجديان.

خلال رحلة هوندا إلى بنارس، تداعى إلى ذهنه مراراً وتكراراً مشهد التضحية .

كان مشهداً حافلاً بالضجيج والحراك، وكأنه في معرض التأهب لشيء آخر. وساوره شعور بأن طقس التضحية لم ينته هنالك على الإطلاق. ولاح الأمر كما لو أن شيئاً قد بدأ، وأن جسراً قد شيد إلى شيء محتجب عن العيان، أكثر قداسة، وأعظم فظاعة، وأرفع سموً. وبتعبير آخر فإن سلسلة الطقوس كانت تشبه سجادة حمراء ممتدة، فرشت ترحيباً بكائن يستعصي على الوصف، كان آخذاً بالاقتراب .

بنارس هي قدس الأقداس . إنها بيت مقدس الهندوس . ففي الموضع الذي يتقوس فيه نهر الجانج، صانعاً هلالاً رائعاً، ومتقبلاً ثلوج الهيمالايا الذائبة، المقبلة من حيث يقيم الرب شيقا، تقع على ضفته الغربية مدينة بنارس التي كانت تدعى قديماً فارناسي .

إنها مدينة مكرسة لشيقا، زوج كالي، وقد اعتبرت المدخل الرئيسي للفردوس . وهي كذلك مقصد الزوار الذين يشدون الرحال إليها من كافة أنحاء البلاد . والنفحة الفردوسية تتحقق على الأرض، من خلال الاستحمام في الماء، عند هذا الملتقى الخمسة أنهار هي الجانج ودوتابابا وكريشنا وجامنا وساراسقاتي .

وتتضمن نصوص الفيدا المقطع التالي عن التأثير الفعال للماء :

الماء علاج

الماء يبرئ الجسم من علله

وعلاؤه حيويّة .

الماء حقاً شفاء

ويشفي من كلّ الأمراض والشّورور .

وفي مقطع آخر، نقرأ مجدّداً:

الماء مترع بالحياة الخالدة .

الماء حماية للجسم .

الماء يجترح معجزات في الشّفاء .

لا تنسوا قطّ قوى الماء الهائلة؛

فهي علاج للجسم والروح .

وعلى نحو ما تجري الإشادة به في هذين المقطعين فإنّ الطّقس النهائيّ من بين الطّقوس الهندوسية التي تبدأ بتطهير الفؤاد بالصّلاة، وتنقية الجسم بالغسل بالماء، يتمّ القيام به على عدد لا يحصى من الأغواط، والغوط درج ينزل بواسطتها إلى النهر .

وصل هوندا إلى بنارس في الأصيل، ورثب أمتعته في الحال، واستحمّ في غرفته بالفندق . ثمّ رثب أمر الاستعانة بأحد الأدلاء . ولم يساوره شعور بالتعب، بعد رحلته الطّويلة بالقطار، ووجد أنّ نزعته الفضوليّة، المترعة بالشّباب على نحو غريب، قد دفعته إلى حالة ذهنيّة مرحة، لا يقرّ له معها قرار . وتخلّل سنى الشّمس الخائق كافّة الأرجاء، خارج نوافذ الفندق . وساوره شعور بأنّ بمقدوره، في التّوّ واللّحظة، أن يكتنه سرّ هذا السنى، بالاندفاع إلى رحابه .

ومع ذلك فإنّ بنارس كانت مدينة القذارة الشّديدة، جنباً إلى جنب مع القداسة البالغة . فعلى جانبي الأزقة الضيقة التي لا تنفذ إليها أشعة الشّمس، تزاومت حوانيت الأطعمة المقلوة والفظائر

والعرّافين وبائعي الحبوب والطّحين، وصدرت عن المنطقة بأسرها رائحة قويّة لا يخطئها الأنف، مخلوطة بالرطوبة والمرص. وفيما يجتاز المرء هذه الأزقة، ويصل إلى الميدان المرصوف بالحجر قرب النهر، تتجمّع حشود من المتسوّلين المجذومين المتربّصين، وقد أقبلوا من كلّ حذب، كزوّار للمدينة المقدّسة، وها هم الآن يستجدون الصدقات وهم ينتظرون الموت. رفوف من الحمايم. سماء أواخر الأصيل المتقدّمة. جلس أحد المجذومين، وقد وضع أمامه علبه من الصّفيح تحتوي على قطع قليلة من النقود النحاسية، وقد احمرّت العين الوحيدة التي بقيت له وتقيّحت، على حين بدت ذراعاه اللتان ذهبت أصابعهما كجذعي شجرتي توت مجتئين، وقد ارتفعا إلى السماء الغاربة شمسها.

حفلت المدينة بالتشوّه من كلّ نوع، فقد انطلق الأقرام يجوبون أرجاءها مسرعين، وتراصت الأجسام وكأنّها كتابة عتيقة لم يكنه أحد سرّها، وغاب عنها أيّ مغزى مشترك. وبدت مشوّهة، لا بسبب الفساد والتناثر، ولكن لأنّ الأشكال التعسة الملتوية ذاتها كانت تمجّ بحدة وباندفاع محموم قداسة تعافها النفس. وحمل الدّم والبول، وكذلك اللقّاح، آلاف الذبابات السميّنة المتألّقة الجامعة بين اللّونين الأخضر والذهبي.

على الجانب الأيمن من المنحدر الذي يفضي إلى النهر، ضربت خيمة ملوّنة، وقد حملت شارة مقدّسة، ووضعت جثث ملفوفة في القماش إلى جوار الجمع الذي مضى يصغي إلى عظة انهمك كاهن في إلقائها.

كان كلّ شيء يجري على غير هدى. وتحت الشمس تكشّفت

حشود من أكثر حقائق اللحم البشري قبحاً، بما يواكبها من فضلات بشرية، ورائحة تعافها النفس وجراثيم وسموم. وحوماً كل شيء في الهواء وكأنه بخار يتصاعد من حقيقة واقعية مألوفة. بنارس. إنها قطعة من سجادة بشعة إلى حد التألق. سجادة صارخة تفيض على نحو بهيج ليلاً ونهاراً بالمعابد والناس والأطفال - خمسة آلاف معبد، معابد مكرسة للهوى، بأعمدة حمراء وجداريات من الأبنوس الأسود، تصور كافة الأوضاع الممكنة للمضاجعة، دار الأرامل التي تنتظر ساكناتها الموت، وهن يرتلن السوترات ليلاً ونهاراً. . . سكان، زوار، مارون على عجل، موت، أطفال كساهم الجدرى، أطفال يحتضرون متشبثين بصدور أمهاتهم.

انحدر الميدان نحو النهر مفضياً بالزوار، على نحو طبيعي إلى أكثر الأغواط أهمية، وهو الذي يعرف باسم «داسا سقاميدا» أو «التضحية بالجياد العشرة»، إذ تقول الأعراف المتوارثة إن براهما قد ضحى بعشرة جياد ذات مرة هنالك.

كان النهر الممتد بمياهه الوفيرة، المائلة إلى الحمرة، هو نهر الجانج! ومضى الماء الثمين المقدس الذي ملأ الغلايات النحاسية الصغيرة، ليصب على جباه الوريين والأضحيات في كلكتا، يتدفق عبر النهر العريض، أمام عيني هوندا، وليمة باذخة على نحو لا يصدق من القداسة.

كان من المنطقي تماماً أن ترعها هنا، على قدم المساواة، نفوس المرضى والأصحاء والمشوهين والمحتضرين بالبهجة الذهبية. وكان من المنطقي تماماً أن تتضخم الهوام والذباب وتلفها البركة، وأن يملئ التعبير الشامخ على نحو مميّز والموحي بالمعاني وهو يعلم ملامح الهندود،

أن يمتلئ هنا بالتوقير، بحيث يخلو من المعاني. وراح هوندا يتساءل كيف يمكنه دمج عقله بشمس الغسق المتقدة، بالرائحة التي لا تطاق، وبنسائم النهر التي تشبه أبخرة المستنقع. كان من المشكوك فيه أن بمقدوره أن يغرس نفسه في هواء الغسق الذي انتشر في كل مكان، مثل نسيج صوفي غليظ نسج من الأصوات المرغمة، والأجراس التي تقرعها الأيدي، وهيمنة الشحاذين، وأنين المرضى. وقد خشي من أن منطقته قد يمزق هذا النسيج الكامل، شأن حدّ سكين مرهف.

بدا أن من المهم تجاهل الأمر، فحدّ سكين المنطق الذي نظر إليه باعتباره سلاحه منذ يقاعته، قد تمّت المحافظة عليه بمشقة، وذلك في ضوء الثلمات التي أصابته من خلال تجلي كلّ تناسخ جديد. والآن لم يعد أمامه من خيار إلاّ التخلي عنه، دون أن تلاحظه عين، وسط الجموع العارمة التي كساها الغبار والجراثيم.

انتصبت مظلات عديدة، تشبه الفطر، على الأغواط لوقاية المستحمين، ولكنها كانت الآن خاوية في معظمها وقد نفذت أشعة الشمس المائلة للمغيب تحتها، إذ مرّ وقت طويل على موعد الاستحمام الذي وصل إلى ذروته عند الشروق. وانحدر الدليل نحو الشاطئ، وشرع في التفاوض مع أحد النوتية. فلم يملك هوندا إلاّ الانتظار جانباً طوال المساومة المتطاولة على نحو يدعو للسأم، شاعراً بالحديد المحمى المنصب من الشمس المائلة للمغيب، وهو يلهب ظهره.

في النهاية انطلق الزورق الذي يقله ودليله، مبتعداً عن الشاطئ. كان الغوط المعروف باسم داساسقاميدا يقع، على وجه التقريب، في وسط الأغواط العديدة، على امتداد الضفة الغربية للجانب. وغالباً ما كانت زوارق النزهة تنحدر جنوباً لمشاهدة الأغواط الأخرى، ثم تعود

صعداً لتصل إلى الأغواط الواقعة إلى الشمال من داساسقاميدا .

تعرّضت الضفّة الشرقيّة للإهمال على نحو مؤلم، في حين كانت الضفّة الغربيّة تعتبر مقدّسة . وقد قيل إنّ من يقطنون هنالك ستتناسخ أرواحهم في أجسام حمير؛ ومن ثمّ فقد تجنّب الجميع تلك الضفّة، فلم يكن هناك ظلّ لدار، ولا ترامت في البعيد إلاّ خضرة الأدغال الحفيضة .

ما إن شرع الزورق بالانحدار جنوباً حتّى حجبت المباني شمس المغيب الوهاجة، ولم تفسح المجال إلاّ لهالة من ألق تلفّ المشهد البديع الذي شكّلته الأغواط العديدة الباهرة بأعمدتها المتطاولة في المؤخّرة وبالذّور المقامة فوق أعمدة ترفعها عن الأرض . وحده غوط داساسقاميدا ومن خلفه الميدان سمحا للشمس الغاربة بالنفّاذ . وكانت السّماء التي كساها المغيب تعكس بالفعل لونها الورديّ الهادئ على النّهر، وقد ألقّت الأشرعة الماضية لطيتها ظلالاً غسقيّة على الماء .

كان ذلك وقت الألق الغامر الغامض، قبل حلول ظلمة أولّ الليل . إنّه وقت يتملّك الضّوء ناصيته، وتتبدّى فيه الخطوط الخارجيّة لكلّ الأشياء بكماها، وترتسم كلّ حمّامة بتفاصيلها ملوّنة، وقت يصطبغ فيه كلّ شيء بلون ورديّ يميل إلى الصّفرة، وقد بدا ناصلاً يهيمن عليه تناسق فاتر بروعة لوحة مرسومة بين الانعكاس على صفحة الماء والوهج في السّماء .

تعدّ الأغواط كيانات كبيرة مناسبة على وجه الدقّة لهذا النوع من الإضاءة . فهي تتألّف من درج هائلة، كدرج القصور أو المعابد الكبرى، تفضي إلى الماء، ووراء كلّ غوط ينتصب جدار هائل من كتلة واحدة من الصّخر . ولا تعدو الأعمدة والعقود التي تشكّل

خلفية الغوط أن تكون أعمدة هائلة ذات قواعد وتيجان. وللعقود نوافذ مصمتة. والدّرج وحده هو الذي يتمتّع بجلال مكان قدسي. وبعض التيجان كورنيثة الطراز، بينما البعض الآخر توفقي تماماً على النمط المألوف في الشرق الأدنى. وعلى الأعمدة رسمت خطوط بيضاء يصل ارتفاعها إلى أربعين قدماً، أيّ الارتفاع الذي وصلت إليه المياه في كوارث الفيضان السنوية، ولاسيما في الكوارث التي ذاع صيتها المشؤوم في عامي ١٩٢٨ و١٩٣٦. ونأت فوق الأعمدة المرتفعة على نحو مذهل، عقود مثبتة من طرف واحد، ومخصّصة لمن يقطنون فوق الأسوار، وجثمت صفوف من أعشاش الحمام على الدرابزين الحجري. وتراخت على السقوف هالة من شمس المغيب أخذ وهجها يذوي تدريجياً.

أخذ زورق هوندا يدنو من أحد الأغواط ويعرف باسم «كيدار»، وهناك مضي رجل يصيد السمك بشبكة قرب زورقه. ساد الهدوء غوط كيدار، وغرق المستحمّون الناحلون، ذوو الأبدان الأنوسية وكذلك المتفرّجون الواقفون على درج الغوط في ترتيب الصلاة والتأمل.

لفت نظر هوندا رجل كان قد هبط في وسط الدّرج الهائل، وأوشك على الاستحمام، ووراءه انتصب صفّ من الأعمدة الحمراء، وفي الوهج المتراجع بدا كلّ شيء واضحاً، ومحدّداً، وصولاً إلى الشقوق المزخرفة في تيجان الأعمدة. وكان يقف في قلب القداسة، غير أنه كان موضعاً للتساؤل عمّا إذا كان يمكن وصفه على الإطلاق بأنه رجل. فقد كانت المفارقة كبيرة بين بشرته والأجسام السوداء للكهنة الحليقين المحيطين به. كان رجلاً طويلاً مهيباً. وقد لاح أنه وحده المتمتّع ببشرة حمراء وردية مشعة.

كان شعر صغير أشيب يعلو رأسه، وأمسك بيده اليسرى مئزرًا
أحمر قانيًا ثقيلًا يلتفت حول خاصرتيه. وأمّا ما عدا ذلك فكان امتدادًا
وافراً من العري الأحمر الورديّ المتراخي قليلاً، وبدت عيناه شاردتين
على نحو مترع بالنشوة، وكأنّه لا وجود لأحد حوله، ومضى يحدّق
ساهماً في السّماء فوق الضّفة الأخرى. وامتدّت يده اليمنى نحو السّماء
في ضراعة، ولاحت بشرة وجهه وصدرة وبطنه بيضاء مورّدة نضرة في
ضوء الغسق، وعزله نبهه تماماً عمّا حوله. ولكن بقايا البشرة السّمراء
المتميّة إلى هذا العالم بقيت هنا وهناك على عَضُدَيْهِ، أو ظهري كَفَيْهِ،
أو فخذيه، وقد شارفت على التسلّخ، ولكنها ماتزال تشكّل بقعاً
وأثاراً وخطوطاً. وجعلت هذه البقايا جسمه الأحمر الورديّ المتوهّج
يبدو أكثر مهابة. لقد كان مصاباً بالجدام.
دَفَّ رُفٌّ من الحمايم محلّقاً.

وفيما شرع الزورق في شقّ طريقه صعوداً في النّهر انتقل حراك طائر
أصابه الفزع إلى الطيور الأخرى، في التوّ، وأخذ الاصطفاق المفاجئ
للأجنحة العديدة هوندا على غرّة، فانترع انتباهه من خضرة أشجار
الزيزفون المترامية، حتّى لتبلغ سطح النّهر بين الأغواط العديدة. وقد
قيل إنّ كلّ رقيقة تستضيف على امتداد عشرة أيام روح أحد
الراحلين توّاً، فيما هي تنتظر مبعثها.

تجاوز الزورق بالفعل داساسقاميدا، ومضى يمرّ بحذاء دار
الأرامل، وهي لا تعدو أن تكون بناء شيدّ من الحجر الرملي الأحمر،
قرب النّهر. وقد زخرفت أطر النّوافذ بفسيفساء تجمع بين اللّونين
الأبيض والأخضر، وطلي الدّاخل باللّون الأخضر. وانساب البخور
من النّوافذ، وكان بالوسع سماع أصداء الأجراس وتراويل «الكيرتانا»

وهي ترتدّ عن السّقف وتنداح إلى سطح النّهر. ها هنا تجمّعت الأرامل من أرجاء الهند كافّة، لينتظرون ملاقاتة الموت. وإذ هيمن عليهم المرض، ورحن ينتظرون الخلاص، المترّب على الفناء، فقد كانت الأيّام الأخيرة لهم في «موموكشو بهافان» أو «دار السعادة» هي أكثر الأيّام سعادة بالنسبة لهم. لقد كان كلّ شيء قريباً على نحو موافٍ. وكان غوط المحرقة يقع إلى الشّمال مباشرة، بينما ارتفعت فوقهن مباشرة القمّة المستدقة الذهبية لمعبد الحبّ النيبالي، الذي مجدّد فنّ النحت عليه الأوضاع الألف للمضاجعة.

لاحت لعيّن هوندا لفافة يكسوها القماش طافية إلى جوار الزورق، ولاحظ أنّ الشّكل والحجم والطول توحي بأنها تضمّ جثة طفل في الثانية أو الثالثة من العمر، وقيل له إنّ الأمر كذلك، على وجه الدقّة.

ألقي نظره على ساعته فألفاها قد تجاوزت الخامسة بأربعين دقيقة. وقد راح الغسق يستجمع قواه. وفي تلك اللّحظة رأى ناراً بوضوح أمامه. وكانت نار محرقة غوط ماني كارنيكا الجنائزية.

تألّفت المحرقة التي تواجه نهر الجانج من منصّات خماسية الطبقات، تختلف في العرض، وتقوم على قاعدة على الطّراز الهندوسي. وتكوّن المعبد من مجموعة من الأبراج ذات ارتفاعات متباينة، تحيط ببرج مركزيّ كبير، ولكلّ مبنى منها شرفة مقنطرة، على الطّراز العربيّ، تأخذ شكل بتلة اللّوتس. ولما كان هذا المجمع الهائل البنيّ اللّون ملطّخاً بالدخان، وكان يرتفع على أعمدة صرحية، فإنّه كلّما اقترب زورق هوندا منه لاح هيكله الهائل الكئيب الملتفّ بالظلال نتاجاً لهلوسة مترعة بالنّذر في السّماء. ولكن مجالاً فسيحاً من

الماء المثقل بالطمي كان مايزال يمتد بين الزورق والغوط . وعلى سطح الماء الضارب إلى القتام تدفق طافياً فيض من تقدمات الزهور - من بينها زهور جاوة الحمراء التي رآها في كلكتوا - والبخور كالنفاية، وتلاعبت على سطح الماء الصورة المقلوبة لللسنة اللهب المتصاعدة من المحرقة الجنائزية .

دفت، في اضطراب، الحمايم التي تساوي إلى الأبراج، مختلطة بالشّرر المنبعث عالياً إلى عنان السماء التي اكتسى أديمها بلون قاتم الزرقة تمسه لمسة رمادية .

انتصب كهف حجري، يعلوه السخام، قرب الماء، ووضعت زهور أمام تماثيل شيئا وإحدى زوجاته، وهي ساتي التي ألفت بنفسها إلى اللهب، حفاظاً على شرف زوجها .

حملت زوارق عديدة أكواماً عالية من الحطب جلبت للمحارق الجنائزية، وألفت مراسيها في المنطقة فأبعدت زورق هوندا عن قلب الغوط . ووراء النار المتقدة على نحو وهّاج، بدا لهب صغير للعيان عميقاً تحت بهو المعبد المقنطر . وكان هذا هو اللهب المقدس الخالد الذي تتلقى كل محرقة جنائزية نارها منه .

سكن النسيم النهري، وجثمت فوق المنطقة حرارة خانقة . وشأن أرجاء بنارس كافة، ساد الضجيج، لا الصمت، ها هنا كذلك، واختلط بالحركة الدائبة للناس، والصيحات، وضحك الأطفال، وترتيل السوترات . ولم يكن الناس وحدهم هم الذين راحوا يستحمّون، وإنما تبعث كلاب مهزولة الأطفال إلى الماء . ومن الأعماق المظلمة، بعيداً عن النار، هنالك حيث يغمر الماء أقصى أطراف درج الغوط، لاحت فجأة، واحداً إثر الآخر، الظهور المتألقة للجواميس

التي تجمعها معاً الصيحات المرقعة الصادرة عن القائمين على شأنها. وفيما هي ترقى الدّرج مترنحة، راحت النيران الجنائزية تنعكس على صقال ظهورها المبتلة بالماء.

في بعض الأحيان، كان دخان أشهب يلفّ اللهب، وتلوح السنة حمراء متقدّة من خلال انكسارات في كثافة الدخان الذي يتصاعد إلى شرفات المعبد، ويدوم، كأنه كائن حيّ، في أعماق المبنى المظلمة.

شكّل غوط ماني كارنيكا الحدّ الأقصى في التطهر، فهو المحرقة العلنية المقامة في الهواء الطلق، التي يجري كلّ شيء فيها جهاراً على الطريفة الهندية. غير أنه كان مترعاً بشيء مقيت يثير الغثيان، هو العنصر المكوّن الحتمي لكلّ الأشياء التي يعتقد أنها مقدّسة ونقية في بنارس. وكان هذا المكان دونما شكّ بمثابة مؤشّر لنهاية العالم.

أسندت جثة ملفوفة في قمّاش أحمر إلى منحدر يسير من الدّرجات، غير بعيد عن كهف شيفّا وساتي. ولقد عُمرت في مياه الجانج، وهي تنتظر الآن دورها لكي يتمّ إحراقها. وأفصح القماش الملفوف حول الجثة عن كونها لامرأة؛ فقد كان القماش الأبيض يقتصر استخدامه على جثث الرّجال. وراح الأقارب ينتظرون مع كهنة حليقي الرؤوس، تحت خيمة، ليضطلعوا بواجبهم المتمثل في إلقاء الزبد والبخور على الجثة بعد إشعال المحرقة. وفي اللحظة عينها وصلت جثة ملفوفة بقماش أبيض، محمولة على عفة متخذة من الخيزران، ومحاطة بكهنة غارقين في تراتيلهم، وبالأقارب كافة. ومضى كثير من الأطفال وكلب أسود يطارد بعضهم بعضاً. وكما هو ملحوظ في آية بلدة هندية فإنّ الأحياء جميعاً كانوا يتدفقون حياة ويحدّثون قدراً يعتدّ به من الصّمت.

بلغت السّاعة السادسة . وارتفعت السنّة اللّهب فجأة في أربعة مواضع أو خمسة . ولما كان الدّخان يدفع باتجاه المعبد فإنّه لم تصل الرّائحة الخبيثة إلى مكانه في الزورق، ولكنّه استطاع رؤية كلّ شيء بجلاء .

إلى أقصى اليمين كان الرّماد كلّه يجمع، ويترك، لينساب مع ماء النّهر . ولم يَعدْ هناك وجود للعناصر الفرديّة المميّزة، الّتي تشبّثت في عناد بكلّ جسم، وعلى هذا النّحو فإنّ رماد الجميع، الّذي اختلط وانحلّ أخيراً في الماء المقدّس، يعود إلى العناصر الأربعة المكوّنة، وإلى رحاب الكون الفسيح . واختلط الجانب الأسفل من كوم الرّماد، على نحو لا مجال معه للفصل بأرض المنطقة الرّطبة، قبل أن ينزلق إلى الجانج . ذلك أنّ الهندوس لا يبنون مقابر .

استعاد هوندا فجأة الرّعدة الّتي اخترمته، في مقبرة أيوياما، عندما زار قبر كيواكي، والشّعور بالفرع الّذي ساوره إزاء يقينه من أن كيواكي ليس موجوداً بالقطع تحت شاهد القبر .

سجيت الجثث في النّار، واحدة إثر أخرى . وفيما كانت الأربطة الّتي تحيط بالجثث تحترق، والأكفان البيّضاء والحمراء تلهتهمها النّار، كانت ترتفع ذراع سوداء فجأة، أو تقلقل النّار جيّة، وكأثما صاحبها يتقلّب في نومه . وأمّا الجثث الّتي توضع على المحرقة أولاً فتحوّل إلى اللّون الرّماديّ القاتم . ويمكن عبر الماء سماع أزيز يشبه ما يصدر عن إناء به ماء يغلي . ولا تحترق الجماجم بسهولة، فيمضي القائم على أمر الحرق دوماً في مسيرته، دافعاً بسارية من الخيزران، مخترقاً الجماجم الّتي ماتزال تحترق، بعد وقت طويل من تحوّل باقي الجثّة إلى رماد، وتعكس الأوتار في ذراعيه السوداوين القويتين اللّتين تدفعان السّارية

بقوة لتخترق الجماجم السنة اللهب، بينما أصوات التهشم التي يحدثها، يتراجع صداها مرتدّاً عن جدران المعبد.

التقدم الوئيد لتطهير الجثة، إعادة أجزائها إلى العناصر الأربعة المكوّنة لها. . . اللحم البشري المقاوم، ورائحته العبيّة المتطاولة في بقائها بعد الموت، شيء أحمر يفتح في السنة اللهب، شيء برّاق يتقلّب، جزيئات ذرورية سوداء تتراقص عالياً، مع الشرر الناري. كان هناك حراك ملتصع في اللهب، وكأنما ثمة شيء يجري خلقه. ومن وقت لآخر، حينما ينهار خشب الحريق فجأة، محدثاً ضجيجاً، ويختفي جانب من النار، يعمد القائم على أمر المحرقة إلى تكويم المزيد من الخشب. ومن حين لآخر، ودونما انتظار، تتقافز عالياً السنة لهيب سامقة، حتى لتوشك أن تعلق شرفة المعبد.

لم يكن ثمة حزن. وما بدا قسوة، يغيب معها الفؤاد، لم يكن في حقيقة الأمر إلاّ بهجة خالصة على نحو فعلي. فلم يكن السمسارة والبعث معتقدين أساسيين فحسب، وإنما كانا يتقبّلان بالفعل كجزء من الطبيعة التي تجدد نفسها باستمرار أمام عيني المرء: حقل القمح والنباتات التي تنمو فيه، الأشجار تعطي ثمرتها. وكان بعض العون من الأيدي البشرية ضرورياً، تماماً كما أنّ الحصاد والزّرع يتطلبان تدخلاً بشرياً. لقد ولد الناس، ليأخذوا دورهم في هذا التقدم الطبيعي.

في الهند، يرتبط مصدر كلّ ما يبدو مجرداً من القلب بنشوة خفيّة هائلة مخيفة! وقد كان هوندا يخاف من إدراك مثل هذه النشوة. ولكن بعد مشاهدة ضروب التطرف القصوى التي صادفها، عرف أنّه لا ينبغي أن يفيق من الصدمة أبداً. لقد بدا الأمر كما لو أنّ بنارس

بأسرها قد نكبت بجذام مقدّس، وأنّ بصره ذاته قد أصابته عدوى هذا المرض الذي لا يُرجى شفاؤه.

ولكنّ انطباع هوندا عن رؤية المطلق لم يقدر له الاكتمال، حتى حلول اللّحظة التّالية، وهي لحظة لطمت فؤاده بانفعال بلّوريّ حادّ، قوامه الرّعب.

كانت اللّحظة الّتي التفتت فيها البقرة المقدّسة نحوه.

في هذه المحرقة، كانت هناك بقرة شهباء، وهي من تلك الحيوانات المقدّسة الّتي يسمح لها بأيّ شيء في أيّ مكان بالهند. وكانت البقرة المقدّسة الّتي اعتادت على النّيران، قد دفعها القائم على المحرقة بعيداً، ووقفت خارج مطال ألسنة اللّهب مباشرة أمام بهو المعبد المقنطر الّذي لفّه الظلام. وفي الدّاخل جثم سواد تامّ، وبدا بياض الحيوان موحياً بالرّهبة، ومليئاً بحكمة سامية. عكس البطن الأشهب ألسنة اللّهب المتقدّة، ولاح كأنه ثلج بارد من ثلوج جبل هيمالايا، مضى يستحمّ في ضوء القمر. كانت مركباً نقيّاً من ثلج لا سبيل إلى اجتيازه ولحم شامخ في جسم حيوان. وكسا الدخان ألسنة اللّهب، وفي بعض الأحيان كانت الحمرة تسود، ليحجبها من جديد الدّخان المدوّم.

عند ذاك، على وجه الدّقة، حوّلت البقرة المقدّسة وجهها الشّامخ إلى هوندا، من خلل الدخان الغائم المتصاعد من الجثث المحترقة، وتطلّعت إليه مباشرة.

ما إن فرغ هوندا من تناول طعام عشائه في تلك اللّيلة حتى ترك رسالة مفادها أنّه يرغب في المغادرة قبل فجر الغد، وأغفى مستعيماً بقلنسوة للنوم.

تجمّعت حشود من التهاويل والأوهام في أحلامه. ومست أصابع
أحلامه مفتاح نغم لم يسبق لها قطّ أن عزفت عليه، فأحدثت أصواتاً
غريبة. وشأن مهندس، فحصت كلّ أركان الكون القائم حتى الآن
 والمعروف لديه. وفجأة لاح جبل ميوا السّاجي، ثمّ صخرة المنتهى،
 وهي صخرة جاثمة، قوامها الفزع، على القمّة التي يجيا عليها الآلهة،
 والدّم يتدفّق من صدع، وتنهض الرّبة كالي، وقد برز لسانها القاني.
 نهضت جثّة محترقة في صورة شابّ جميل، وقد خصف على شعره
 وأدنى خاصرته أوراقاً نقيّة، على نحو متألّق، من شجرة السكاكي
 المقدّسة، ثمّ تحوّل المشهد القذر عند المعبد، في التوّ، إلى الرّحّب
 البارد لمزار ياباني مكسوّ بحصى نظيف. راحت كلّ الأفكار وكلّ الآلهة
 معاً تدير يد عجلة السمسارة العملاقة. ومضى القرص الهائل، وكأنّه
 غمام حلزوني، يدور وثيلاً، حاملاً حشوداً من النّاس الّذين
 انخرطوا، إذ غابت عن وعيهم آثار السمسارة، في السّعادة، أو
 الغضب، أو الحزن، أو البهجة، تماماً كأولئك الّذين يعيشون حياتهم
 اليوميّة، وقد تجرّدوا كليّة من الوعي بدوران الأرض. وكان الأمر
 شبيهاً بعجلة حديدية دوّارة في اللّيل، زينت كلّها بالأضواء في حديقة
 ملاهي الآلهة.

ربّما كان الهنود يعلمون هذا كلّه. وقد تعقّب هذا الخوف هوندا
 إلى أحلامه ذاتها. وكما أنّ حقيقة دوران الأرض لا ترصد قطّ من
 خلال أيّ من حواس البشر، ويكاد يمكن إدراكها بالمنطق العلميّ،
 فرّبما كان السمسارة والكارما والبعث ممّا لا سبيل إلى رصده، من
 خلال المنطق والإدراك العاديين، وإنّما من خلال قوّة فائقة، من نوع
 ما، منطوق حدسي، فائق يتميّز بالدقّة والمنهجية، على نحو بالغ. وربّما
 جعل هذا الإدراك الهنود يبدون فاتري الهمة للغاية، وشديدي المقاومة

للتقدّم، ومجرّدين إلى حدّ بعيد من كلّ الانفعالات الإنسانيّة - البهجة والغضب والحزن والفرح - التي تعدّ معايير مألوفة لعجم عود البشر العاديين.

كانت تلك، بالطبع، الانطباعات التقريبيّة التي خالجت مسافراً خدش على وجه التقريب سطح هذه الأرض. والأحلام غالباً ما تشمل أرفع مستوى للرموز، وأشدّ الأفكار سوقية وابتدالاً. وربما كان هوندا يتابع في أحلامه عادة قديمة درج عليها حينما كان قاضياً: فقد أطلّت دونما قصد عمليّة فاترة مضجرة. بدت عاداته المهنيّة وشخصيّته شبيهة بلسان قطة بالغ الحساسيّة للطعام الساخن، الأمر الذي يجبره على أن يقوم، في الحال، بتبريد آية عناصر دافئة، وغير محدّدة، وتحويلها إلى طعام مجمّد ذهنيّاً. وربما كان يستخدم هذه الآليّة الدفّاعيّة، التلقائيّة، القديمة، ذاتها، شأن آخرين كثيرين ممن يلزمون الحذر على نحو خاص في أحلامهم.

وعلى نحو يفوق بكثير التباس الحلم وغرابته، كان ما رآه في المواقع لغواً أعظم بالنسبة له، لغزاً راح يرفض بعناد الفهم، أو التفسير. وعندما استيقظ من نومه، أدرك أنّ حرارة هذه الحقيقة قد راوحت في مكانها بوضوح في جسمه وذهنه. وساوره شعور بأنّه أصابته حمى استوائية.

غير بعيد عن الضوء المعتم، الصّادر عن المكتب الأماميّ في نهاية بهو الفندق، وقف مرشده المتحمي يمازح ويضاحك خادم الفندق المنوب ليلاً. وتعرّف على هوندا، وهو يدنو في حلّته الكتانيّة، فانحنى في إجلال، عن بعد.

كان السبب الذي دفع هوندا إلى مغادرة الفندق قبل الفجر هو

رؤية الحشود وهي تنتظر لتبتهل مع مشرق الشمس عند الأغواط .

كرست مدينة بنارس لمفهوم الواحد من بين الكثيرين، وحدة براهما، الذي كان رباً سامقاً، متجاوزاً، بحكم كونه الواحد الذي يحتوي الكثيرين . وكان قرص الشمس تجسيداً لالهيته، وكان بهاؤه الرباني في سمته لحظة إطلال الشمس فوق الأفق . وقد عوملت مدينة بنارس المقدسة والسما على قدم المساواة في الديانة الهندية . وقال بانديت شانكارا ذات مرة: «عندما وضع الرب السماء وبنارس في الميزان، رجحت كفة بنارس الثقيلة، غائصة إلى الأرض، وعلت السماء الأخف وزناً» .

ويرى الهندوس الوعي الأسمى بالرب السامق في الشمس، ويعتبرونها رمز الحقيقة المطلقة . وهكذا، فإن بنارس مترعة بالتبتل والصلاة لقرص الشمس . ووعي الناس يجرر ذاته من القواعد التي تحكم الأرض، وهكذا فإن بنارس ذاتها تسمو، من خلال تأثير الصلاة .

خلافاً للأمس، كان غوط داساسفاميدا يزخر الآن بجموع حاشدة من الناس، وراحت الشموع تحقق تحت المظلات التي لا حصر لها، في غبش ما قبل شروق الشمس . وفي السماء، فوق أدغال الشاطئ الآخر للنهر، تحايلت لمسة موحية بمقدم الفجر الوشيك، تحت طيات السحب .

كان الناس قد وضعوا المقاعد، تحت كل مظلة كبيرة من المظلات الخيزرانية، وزينوا الحجر القضيبى، رمز شيفا، بالزهور الحمراء، وراح البعض يخلط مسحوق الزنجفر في هاونات صغيرة، استعداداً لطلاء جباههم، بعد الاستحمام، وإلى جوارهم راح كهنة مرافقون

يمزجون هذه العجينة بماء الجانج، في أوعية نحاسية، كرسّت، وبوركت في المعبد. وهبط البعض بالفعل الدرج ليكونوا في الماء لدى ملاقة الشروق. وبعد ترديد التراتيل للماء، الذي مضوا يحفنون منه بأيديهم، غمسوا أجسامهم بكاملها فيه، على مهل. وراح البعض ينتظر الشروق، جاثياً تحت المظلات.

فيما كان ضوء الفجر الأول ينتشر فوق الأفق، اكتسى المشهد الممتد عند الغوط ملمحاً خارجياً ولوناً، وشرعت أردية الساري التي ترتديها النسوة وبشرتهم وزهورهنّ وشعرهنّ الأشيب وإصاباتهم بالجرّب وأوعيتهم النحاسية في الصّراخ بألوان زاعقة، وراحت سحابات الصّباح المعذّبة تغبّر شكلها على مهل، وتتداعى فاسحة السبيل للنور الزّاحف. وأخيراً، وبينما لاح طرف شمس الصّباح الزّنجفريّة، فوق الأدغال الخفيضة، ندت على حين غرة تنهيدة، مترعة بالإجلال، من شفاه النّاس الذين امتلأ بهم الميدان، حتّى لتوشك أكتافهم أن تحتكّ بهوندا. وجثا بعضهم خاشعاً.

ضمّ أولئك الذين كانوا في الماء راحات أيديهم متقابلة، أو فتحوا أحضانهم، ضارعين للشمس الحمراء التي تصاعدت تدريجياً لتعرض قرصها كاملاً. وارتمت خلال أبدانهم بعيداً، عبر أمواج النهر الذهبية المائلة إلى اللون الأرجواني، فبلغت أقدام الواقفين على الدرج. وتردّدت أصداً ابتهاج عظيم، تصاعدت نحو الشمس المتألّفة فوق الشاطئ المقابل. وفي غضون ذلك، تقدّم النّاس، واحداً إثر آخر، إلى النهر، وكأبما أرشدتهم يد خفيّة إلى ذلك.

والآن، راحت الشمس تتألّق فوق الأدغال الخضراء. والقرص القرمزيّ الذي سمح للعيون بأن تتناهبه، تحوّل الآن، في لمحة عين،

إلى حشد من الألق الذي يترفع رافضاً أن يمنح أحداً حتى لمحة
عابرة. فقد غدا بالفعل كرة نابضة من اللهب، مترعة بالوعيد.
وفجأة، أدرك هوندا جلية الأمر، فقد كانت تلك هي الشمس
التي تراءت على الدوام لإيساو في حلمه الانتحاريّ!.

قدّر للبوذوية أن تعرف التدهور، في الهند، في أعقاب القرن الرابع الميلاديّ. وقد قيل عن حقّ إنّ الهندوسية قد خنقتها في غمرة عناقتها الودود. وشأن المسيحية واليهودية في فلسطين، والطاوية في الصين، كان على البوذوية أن تعرف النفي من الهند لكيّ تصبح ديانة عالمية. وكان من الضروري بالنسبة للهند أن تتحوّل إلى ديانة شعبية أكثر بدائية. واحتفظت الهندوسية على نحو تعوزه الحماسة، باسم بوذا في ركن قصيّ من مجمع آلهتها، حيث تمّ الاحتفاظ به باعتباره التجليّ التاسع من تجليات فيشنو العشرة.

ويعتقد أنّ فيشنو عشرة تجليات: ماتسايا، السمكة، وكورما، السلحفاة البرية، وفارها، الخنزير البري، وناراسيمها، الأسد، وفامانا، القزم، وباراشوراما، وراما، وكريشنا، وبوذا، وكالكي. وبحسب ما يقوله البراهمة فإنّ فيشنو قام عن عمد، متخذاً هيئة بوذا، بإدخال ديانة منشقة، بحيث يتمّ تضليل معتنقي الهندوسية، وعلى هذا النحو يقدم للبراهمة فرصة العودة بهم إلى رحاب الديانة الحقّة حسب تصوّرهم، أيّ الهندوسية.

وهكذا فإنّه، جنباً إلى جنب مع تدهور البوذوية، تحوّلت معابد الكهوف الواقعة في أجاننا إلى أطلال دارة، ولم تصبح معروفة للعالم إلّا بعد ذلك باثني عشر قرناً، أيّ في عام ١٨١٩، حينما اتّفق أن مرّت بها وحدة من وحدات الجيش الإنجليزيّ.

وكانت الكهوف الحجرية السبعة والعشرون المتخذة في صخور نهر واجورا قد حُفرت على ثلاث مراحل: في القرن الثاني الميلاديّ،

والقرن الخامس والقرن السابع، وباستثناء الكهوف الثامن والتاسع والعاشر والثاني عشر والثالث عشر، فقد أخذت معابده خلال مرحلة الهينايانا. وأما باقي الكهوف فهي تنتمي إلى عهد بوذية الماهايانا.

وبعد أن زار هوندا الأرض المقدسة للهندوسية، رغب في التوجه إلى أطلال البوذية التي لم يعد لها الآن وجود في الهند.

كانت أجاتتا هي مقصده الذي لا بد له منه. وبشكل من الأشكال كان هذا قراراً مقدراً له.

ودعمت هذه الفكرة الحقيقة القائلة بأن الكهوف نفسها، والفندق وما يحيط به، كل ذلك كان هادئاً وبسيطاً، إلى أبعد الحدود، ومجرداً من الجموع الحاشدة.

ولما لم تكن هنا تسهيلات للإقامة حول أجاتتا، فقد حجز هوندا في فندق بأورانج أباد، وفي ذهنه أن يزور الموقع الهندوسي في إلورا إذ لم تكن أورانج أباد تبعد إلا ثمانية عشر ميلاً عن ذلك الموقع، بينما كانت تقع على مسافة ستة وستين ميلاً من أجاتتا.

حجزت شركة منتجات إتسوي لهوندا أفضل غرفة في الفندق، ووضعت أفخم سيارة رهن إشارته. وأثارت هذه الامتيازات، جنباً إلى جنب مع التوفير الذي لزمه السائق السخي حيال هوندا، سخيمة السياح الإنجليز النازلين بالفندق. وأحس هوندا في ذلك الصباح، في غرفة المائدة، وقبيل الانطلاق في الجولة التي تستغرق اليوم بكامله، بالتحالف الصامت المترع بالعداء الذي وحّد صفوف الإنجليز في مواجهة السائح الآسيوي الوحيد. بل لقد تمّ الإعراب عن هذا الموقف صراحة، عندما جلب النادل طبقاً من اللحم المقدّد والبيض إلى مائدة هوندا، قبل أن يقدم الإفطار لأيّ شخص آخر. وعندئذٍ

قام كهل يبدو عليه الصّلف، وله لحية مشدّبة بعناية، وكان ولاشكّ ضابطاً متقاعداً في الجيش، وكان يجلس إلى جوار زوجته إلى المائدة المجاورة، باستدعاء النّادل وتقرّيعه بحدّة، وفي إيجاز فظّ. وعقب ذلك كان هوندا آخر من قدّم له الطّعام .

من شأن مسافر عاديّ أن يشعر في الحال بالامتعاض حيال هذا الموقف، بيد أنّ هوندا كان ممّن يرفضون بعناد السّاح للانزعاج بأنّ يساورهم حيال التّفاه من الأمور. ومنذ زيارته لبنارس، امتدّ غشاء سميك عصيّ على الفهم، فلفّ فؤاده وأخذ كلّ شيء ينزلق ساقطاً بعيداً عنه. ولما كان التبجيل الذي عامله به النّادل هو يقيناً نتيجة هبة وفيرة نفحته بها شركة إتسوي، فإنّ مثل هذه الحادثة لم يؤثّر قطّ في الكبرياء المترفّعة التي اكتسبها خلال عمله بالقضاء .

وقفت بانتظار هوندا السيّارة السوداء، الجميلة التي نظّفها ولمّعها باجتهاد أكثر من خمسة من العاملين في الفندق ليس لديهم ما يقومون به غير ذلك، وانعكست الزّهور العديدة في الحديقة الأماميّة للفندق على صقال سطحها المتألّق. وإذ ركبها هوندا فقد انطلقت سريعاً، عبر سهول غربي الهند الجميلة .

لم يبدُ في المدى الرحب كائن بشري واحد. وفي بعض الأحيان، كانت الأشكال اللدنة ذات اللّون البنيّ القاتم للنّمس، تتموّج مضطربة في ماء المستنقع القريب من الطّريق، أو تنطلق مسرعة، عابرة الطّريق أمام السيّارة، أو تتطلّع إليه مجموعة من القردة، من ذوات الذّيول الطّويلة، من بين الأغصان .

استيقظ أمل في النقاء في فؤاد هوندا، فقد كان التطهّر، على الطّريقة الهندية، مقرّراً للغاية، وكانت القرابين المقدّسة التي شاهد

تقديمها في بنارس ماتزال في أعماقه وكأنها حُمى تعصف به، فتاقت
نفسه إلى حفنة من ماء ياباني غير بارد.

أدخل الامتداد الفسيح للسهول الارتياح في نفسه. ولم يكن ثمة
حقل أرز، أو غيره من الحقول المزروعة، وإنما سهول لانهائية،
جميلة، تمتد إلى البعيد، وترقشها الظلال الزرقاء القائمة لأشجار
السنت. وكانت هناك مستنقعات وغدران وزهور صفراء وحمراء،
وفوق هذا كله، امتدت سماء متألفة وكأنها قبة هائلة.

لم يكن ثمة ما هو عجائبي، أو متطرف، في هذا المشهد الطبيعي.
وأخذت الخضرة الباهرة تمجج، على نحو متألق، شعوراً فاتراً يوحى
بالرغبة في النعاس. وترك السهل ذاته أثراً مهدّئاً في نفس هوندا الذي
سفعت فؤاده ألسنة لهب رهيبة مفعمة بالندى. وبدلاً من رشاس دم
القرابين، دفء طائر بلشون، عذري البياض، محلّقاً من الدغل.
وأخذ البياض يكتسي، في بعض الأحيان، بالعتمة لدى مرور
البلشون أمام الظل الأخضر القائم، ولكنه سرعان ما كان يلوح
ببياضاً خالصاً من جديد.

بدت السحب أمامه في السماء ملتفة على نحو رقيق، وومضت
حوافها غير المنتظمة بوهج حريري. وكانت الزرقة عميقة لا يسر لها
غور.

وغني عن القول إن جانباً كبيراً من الارتياح الذي استشعره هوندا
جاء مع إدراكه أنه سرعان ما يلج أرضاً بودية، حتى على الرغم من
أن البودية لم يعد لها وجود منذ زمن بعيد.

ومن المؤكد أنه بعد أن عايش رمز الكون العجيب والمتنوع الذي
تمثله بنارس، فإن البودية التي يحلم بها كانت منعشة كالثلج وساورة

بالفعل شعور مسبق بالسكينة البوذية المألوفة حيال هدوء السهول المشع نوراً.

غمره الحنين فجأة، فها هو يعود من مملكة صاحبة تهيمن عليها الهندوسية المترعة بالحياة، إلى بلاد مألوفة تحفل بأجراس المعابد، أرض حاق بها الخراب، ولكنها اكتسبت من خلال ذلك الخراب نقاء وطهراً. وفيما عكف على التفكير في بوذا الذي ينتظر عودته من رحاب المطلق الذي عايشه في بنارس، شعر بأنه قد لا يُقدَّر له أبداً أن يتوقع المطلق في البوذية. وفي هداة العودة إلى الدار التي حلم بها، ساوره إحساس بقرب لا يريم مما بدأ يفنى تدريجياً. فبعيداً باتجاه السماء الجميلة، الزرقاء على نحو متوهج، كانت توشك على الظهور مقبرة البوذية ذاتها، رحاب نسيانها. وحتى قبل أن يراها استشعر بوضوح البرودة المعتمة، وهي تهدئ ذهنه المتقد، برودة الكهوف الصخرية، وشفافية الماء هناك.

كان ذلك نوعاً من تهافت القصد. وربما كان قبح اللون وتهالك اللحم والدم قد دفعاه إلى السعي وراء ديانة أخرى حجرت نفسها في العزلة. بل إن الانقطاع البسيط الخالص قد أوحى به الأشكال التي اتخذتها السحب في البعيد. إنه ها هنا وهم الظل، وربما جاء مكافأة من حياة سابقة، في خضرة الأشجار الجميلة الوارفة. وفي عالم الهدأة الصباحية المطلقة هذا، وباستثناء الاهتزاز الكسول لمحرك السيارة، أخذ مشهد السهول الرقيق يتكشف ويبدأ وراء النافذة، وحمل بثبات وعلى مهل فؤاد هوندا إلى موثله.

بعد انقضاء بعض الوقت، وصلت السيارة إلى حافة مسيل يعترض بحدّة امتداد السهل الفسيح. وكانت تلك هي الإشارة

الأولى إلى أجاننا. وانطلقا بالسيارة على امتداد الطريق المتعرج، الهابط نحو قاع نهر واجورا المتألق في قرار الممر الضيق كأنه نصل سكين.

لقد غصّ المقهى الذي توقّف هوندا عنده لينال قسطاً من الراحة، بالدّباب. وشرع يتطلّع من النّافذة الواقعة أمامه مباشرة، وعبر الميدان، إلى مدخل الكهوف. وساوره شعور بأنّ الدّخول على الفور بدافع من الاستسلام لنفاد صبره من شأنه أن يجور على الهدوء الذي ينشده. وابتاع بطاقة بريد، وأمسك بقلمه الحبر بيد رطبة، ومضى يحص برهة صورة الكهوف التي طبعت، على نحو غير متقن، على صدر البطاقة.

ومن جديد كانت هنا، كما في بنارس، مسحة من الضّجيج. ووقف حول المكان أناس سمر يرتدون ملابس بيضاء، وقد أطلّ الارتياح من عيونهم. وأخذ أطفال مهزولون يتصايحون في الميدان وهم يبيعون القلائد، كهدايا تذكاريّة، وامتلاً الفراغ بأشعة صفراء باهرة تصل إلى كلّ زاوية مظلمة. وعلى مائدة في الغرفة المعتمة كانت هناك ثلاث برتقالات معصورة، تهالك عليها الدّباب. وانبعثت من المطبخ رائحة الطّعام المقلي الحريفة. وكتب هوندا اسم زوجته رايمي وعنوانها على بطاقة البريد، ولم يكن قد كتب لها شيئاً منذ بعض الوقت، ثمّ أضاف:

«لقد جنّت إلى هنا لزيارة المعابد الكهفيّة، في أجاننا. والجولة توشك أن تبدأ. وليس بمقدوري شرب عصير البرتقال الموضوع أمامي لأنني أرى حافة الكوب مرقّشة بآثار الدّباب. ولكن لا تقلقي، فأنا شديد الحرص على صحتي. الهند مدهشة حقّاً. أمل أن تستمرّ عنايتك بكلّيتك. مع حبّي لأمي.»

أيمكن اعتبار هذه البطاقة رقيقة؟ إنه يكتب على الدوام بالطريقة ذاتها. وقد جعله الحنين والعاطفة اللذان شرعا في الاحتشاد مثل غيمة في فؤاده، يقرّر فجأة أن يكتب. ولكنه عندما حاول تجسيد ما يشعر به في كلمات، انقلبت عباراته، على نحو لا سبيل إلى تمييزه، إلى عبارات عادية وجافة.

لسوف ترحب رايي على الدوام بعودته، بابتسامتها الهادئة التي ارتسمت على شفثيها عند رحيله، مهما كان عدد السنوات التي يتركها فيها وحيدة باليابان. وعلى الرغم من أن شعرها قد يحمل خصلات قلائل أخرى دب إليها المشيب منذ رحيله، فإن المحيا الذي ودعه وذاك الذي سيحييه لدى عودته سيتطابقان تماماً، شأن زخرفين متطابقين على ردي كيمونو يستخدم في المناسبات الرسمية.

جعلت لمسة من متاعب الكلية التي تعاودها، الصورة الجانبية لوجهها تبدو غامضة وكأنها صورة بدر يلوح في نور النهار. وبدت له هذه السياء الآن، وهو يتذكرها، أكثر ملاءمة للتصور في الذاكرة منها للرؤية في الواقع. وبالطبع فإنه ما من أحد يمكنه أن يكره امرأة كهذه. واستشعر في قرارة فؤاده ارتياحاً عميقاً وهو يكتب بطاقة البريد، فأخذ يعرب عن شكره بقوة ما تستعصي على التسمية. وكان ذلك ارتياحاً يختلف كلية عن تأكد المرء من أنه موضع حب.

بعد أن كتب البطاقة دسها في جيب السترة التي كان قد خلعها، وهب واقفاً، فلسوف يرسلها بالبريد من الفندق. وفيما هو ينطلق عبر الميدان الذي غمرته الشمس، تبعه الدليل منحرفاً عنه قليلاً وكأنه موكل باغتياله.

نقبت الكهوف الحجرية السبعة والعشرون، في نقطة وسيطة، في

الصَّخُورِ المِطْلَّةِ على نهر واجورا، حيث تراكمت طبقات عديدة من النباتات الشائكة. وبدءاً من التهر فإن المنحدر يأخذ بالإيغال تدريجياً في الانحدار، ماضياً من الصَّخُورِ إلى التَّجِيلِ، ثمَّ يغدو صخرة جرفية تكسوها غيضة أشجار. وربط ممشي صخري أشهبُ المداخل بالكهوف.

كان الكهف الأول هو «الشائتايا» أو المعبد. وكانت هناك أطلال أربعة معابد وثلاثة وعشرين «فيهارا» أو مسكن للرهبان. وكان الكهف الأول واحداً من المعابد الأربعة.

وعلى نحو ما توقع تماماً، كانت للهواء داخل الكهف برودة الفجر الغائم. ولاحت جلية للعيان أيقونة كبيرة لبودا، في مختل يتوسط المكان، فبدا الشكل الناعم السطح جالساً في وضع زهرة اللوتس، في الانعكاس الصادر عن المدخل الذي انسلت منه حزمة من الضوء في مساحة ممسحة للأقدام. ولم يكن هناك ما يكفي من الضوء لإنارة الجداريات المرسومة على السقف والجدران المحيطة بالزائرين. وأخذ الشعاع المنبعث من المصباح النقال الذي أمسك به الدليل، ينتقل مهتزاً هنا وهناك، وكأنه خفاش من ضوء يحوم حول الكهف. ومضت تصاوير مزيج غير متوقع من الرغبات الدنيوية تلتمع مراراً وتكراراً أمام النواظر.

بدت نسوة نصف عاريات اعتمرن تيجاناً ذهبية، وقد التفت سارنجات ملونة صول أردافهن، في أوضاع مختلفة في بقعة الضوء. وكانت غالبيتهن تمسك بسوق زهور اللوتس. ولاحت وجوههن جميعاً متشابهة كوجوه الأخوات. وكانت الأعين البالغة الطول والمائلة، نصف مغمضة، وقد تقوست فوقها أهلة من الحواجب، وخفضت الخياشيم المنفرجة قليلاً من برودة أنوفهن المستقيمة المترفعة. وبدت

الشِّقَّة السَّفلى شَهوانِيَّة، بينا لاح الفَم مطبقاً وكأنه قُيد عند الطَّرفين .
وذَكَر كلَّ شيء هوندا بما سيكون عليه وجه الأميرة سنى البدر في
بانكوك، عندما تشبَّ عن الطُّوق . ويكمن الفارق بين هؤلاء النسوة
والأميرة الصَّغيرة بوضوح في أجسامهنَّ النَّاضجة . فقد كانت نهودهنَّ
عناقيد من الرِّمان النَّاضج توشك على الانطلاق، وتهدلت حولها
قلائد من الذَّهب الرَّفيع والفضَّة والأحجار الكريمة وكأنها ياسمين
يتدلَّى على ثمرة متشبَّثاً بها . وكانت بعضهنَّ مضطجعات، وقد لاحت
ظهورهنَّ مفضحة عن التقوُّس المتحلَّب شهوة في أردافهنَّ، وكشفت
بعضهنَّ عن بطون شهوانِيَّة وافرة يكاد يغطِّيها سارنج قصير .
وانهمكت بعض النسوة بالرَّقص ولاحت أخريات في غمرة النَّزع
الأخير . وفيما انتقل ضوء المصباح من بقعة إلى أخرى، مصحوباً
بثرثرة الدَّلِيل الَّتِي لا تتوقَّف وهو يرَدِّد كلماته المعهودة، اختفت
النسوة، واحدة وراء أخرى في رحاب الظَّلام .

وبينما كان هوندا يخرج من الكهف الأوَّل غير سنى الشَّمس
الاستوائية، وكأنه جرس يقرع بعنف، الجداريات في الحال إلى
أوهام . وإذ يتأمل المرء الأمر، في ضوء النَّهار، يساوره شعور بأنَّه قد
زار الكهوف في ذكرى طال نسيانها . والشَّيء الوحيد الَّذِي صوَّر
الواقعيَّة هو نهر واجورا الَّذِي مضى يتألَّق في الأسفل، ومشهد
الصَّخور الحديدية .

وكالمعتاد، ضاق هوندا بثرثرة الدَّلِيل اللَّامباليَّة . وهكذا ترك
الأخريين يمضون قدماً، وظلَّ وحيداً، لبعض الوقت، في أطلال
فيهارا المهجورة، وقد تجاوزه الدَّلِيل في برودة، وتجاهله تماماً السَّياح
الأخرون .

مكّنه غياب كلّ شيء من أن يطلق العنان لخياله المحلّق . وقد خدم الفيهارا هذا الغرض بشكل جيّد . فلم تكن هناك أيقونة ولا جداريّة، وأنما أعمدة غليظة سوداء فحسب، تنتصب على جانبي الكهف كليهما . وانتصب منبر في قلب مُحْتَلٍّ مظلم على نحو خاصّ، بينما امتدّت مائدتان حجريّتان كبيرتان من المدخل إلى الخلفيّة . وانسرب الضوء إلى الدّاخل، وبدأ كما لو أنّ الكهنة قد نهضوا لتّوهم ليتنشّقوا الهواء العليل في الخارج، تاركين المائدتين الحجريّتين اللّتين يستخدمونها للدراسة وتناول الطعام على السّواء .

أراح غياب اللّون ذهن هوندا، على الرّغم من أنّه عثر بعد البحث بعناية على بقعة من طلاء أحمر ناصل، في موضع صغير منخفض، في المائدة الحجريّة .

أكان هنا شخصٌ غادر المكان لتّوه؟

ومن عساه يكون؟

وقف هوندا وحيداً، في برودة الكهف . وأحسّ كما لو أنّ الظلمة حوله شرعت تتهاشم فجأة . وأيقظ فيه خواء الكهوف المجرد من الزّخرف واللّون ربّما للمرّة الأولى منذ قدومه إلى الهند، شعوراً بوجود عجائبيّ . فما من شيء كان أكثر واقعيّة، على نحو مترع بالحويّة، بالنّسبة لجلّده - وهو برهان جليّ على وجود حديث العهد - من الحقيقة القائلة بأنّ هذا الوجود قد تقلّص وفني وانقضى . لا، بل هو وجود شرع بالفعل يتشكّل وسط رائحة العفن الفطريّ التي كست كلّ حجر في الكهف .

اعتراه انفعال يشبه الذي يساور الحيوان . كأنّه مزيج من النّشوة والقلق طالما استشعره حينما كان شيء ما يتشكّل في ذهنه، وكان ذلك

هو انفعال الثعلب الذي يقترب من الضحية، على مهل، بعد أن يكون قد اشتّم رائحتها من بعيد. ولم يكن على يقين من جليّة الأمر، ولكن يد ذاكرته المحلّقة بعيداً أحكمت قبضتها عليه، بالفعل، في قرارة ذهنه، فامتلاً فؤاده بمشاعر التوقّع.

خرج من الفيهارا، وشرع بالسّير في النّور الخارجيّ نحو الكهف الخامس. كان الدّرب يشكّل قوساً عريضاً، وامتدّ مجاز ضيق أمامه، وترامى المشى الواقع أمام الكهوف متداخلاً ما بين بعض الأعمدة المنتصبة في الصّخور. وكانت الأعمدة مبتلّة، إذ كانت تقع وراء شلالين. وكان هوندا يعرف أنّ الكهف الخامس قريب، فتوقّف ليلقي نظرة عبر الوادي على سلسلة الشلالات الصّغيرة.

اعترض مسيل أحد الشلالين فانهالت مياهه على سطح الصّخر، بينما انهار الشلال الآخر في مسيل فضي لا يعرف الانقطاع. وكان كلّ منها ضيقاً تنهال مياهه من ارتفاع شاهق. وتردّد بجلاء، مرثداً عن الصّخور القريبة، صوت الشلالات المنحدرة مياهها عبر الصّخور ذات اللون الأخضر المصفرّ لنهر واجورا. وباستثناء التجاوير المعتمّة التي تشكّل مداخل الكهوف، كان كلّ شيء وراء الشلالين، وعلى جانبيهما، متألقاً: أجمات أشجار السنط ذات اللون الأخضر الفاتح، الزهور الحمراء، المطلة على حوافّ الماء، السنى المتألق، المتلاعب على الشلالين، وقوس قزح الذي تشكّل في الغمام: ورقت منداحة إلى أعلى وأسفل فراشات صفراء عديدة، وكأنّها تتشبّت بالخطّ المستقيم لنظرة هوندا المحدّقة وهو يرقب الماء.

تطلّع هوندا إلى قمّة الشلالين فدهش لارتفاعهما المذهل. فقد كانا من الارتفاع بحيث أحسّ بمشاعر من يجيا في عالم ينتمي إلى بعد

آخر. وكانت خضرة الصخر على جانبيهما قائمة بفعل الأشنة والسرّخس، ولكنها كانت عند القمة خضرة فاتحة. وكانت هناك أيضاً بعض الصخور الجرداء، وبدا ألق الخضرة النباتية ونعومتها وكأنها لا يتتميان إلى هذا العالم. وانطلق فتى أسمر يرعى الماشية هناك. وفي الأعلى، في السماء المطلقة الزرقة نهضت وفرة من السحب المتوهجة في فوضى رائعة.

كان ثمة صوت، بيد أن التجرد التام من الأصوات انعقد له لواء الهمينة. وما إن ران الصمت حتى تناهى إلى مسمع هوندا صوت الشلالين. وسحره التنقل على التوالي بين السكون وخرير الماء.

تاق إلى الوصول إلى الكهف الخامس، حيث كان الماء يتلاطم، ولكن شعوراً بالرّهبة أمسكه في موضعه. وبدا من اليقيني تقريباً أنه ما من شيء ينتظر هناك. ومع ذلك فقد تهاوت كلمات كيواكي المحمومة الهاذية في ذهنه وكأنها قطرات ماء:

- سأراك من جديد، إنّي أعرف ذلك، تحت الشلالات.

كان قد اعتقد، منذ ذلك الحين، أن كيواكي كان يشير إلى شلالات سانكو على جبل ميوا. ولربّما كان الأمر كذلك. غير أنه خطر لهوندا أن الشلال المطلق الذي قصده لا بدّ أن يكون هذين الشلالين في أجاتنا.

كانت السفينة «البحار الجنوبيّة» التابعة لشركة إتسوي للملاحة المحدودة، وقد غادر هوندا الهند على متنها، سفينة شحن مزوّدة بست قمرات. وكان الموسم المطير قد انتهى فأخذت السفينة تشقّ طريقها عبر خليج سيام الذي ترامى ممتدّاً في غمرة نسيم الرياح الموسميّة الشماليّة الشرقيّة. وبعد أن مرّت بالقرب من باكنام، عند مصبّ نهر مينام، مضت صعداً في النهر باتجاه بانكوك باحثة عن مدّ مناسب. ولاحت السّماء، بلا مطر، في هذا الثالث والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، في زرقة الخريف.

أحسّ هوندا بالارتياح لعودته إلى المدينة المألوفة، من أرض تحفل بمثل هذا الوباء. فقد صفا ذهنه، ولكنّه حمل على كاهله قرأً ثقيلاً من الانطباعات المخيفة عن رحلته، وظلّ منحنياً على حاجز ظهر السفينة العلويّ، على امتداد الرحلة، والوقر يثقل ضاغطاً بعمق في طبيّات فؤاده.

مرّوا بمدمرة تابعة للبحريّة التايلانديّة، غير أنّه لم يكن ثمة أثر لحياة بشريّة على امتداد الضفّة الهادئة التي كستها أشجار جوز الهند، والمنجروف، وأدغال القصب. وإذ شرعت السفينة آخر الأمر بالاقتراب من مقصدها، وفيما بانكوك إلى اليمين، وثون بوري إلى اليسار، فقد لاحت للعيان، على ضفّة ثون بوري، الدّور العالية المرفوعة على قوائم، وفوقها سقوف أنّحذت من سعف النّخيل، وبدت جلود فلاحى البساتين السّمراء تحت وريقات الشّجر المتألقّة، وهم

عاكفون على العناية بأشجار الموز، والأناناس، وجوز الجندم، وغيرها من الفواكه .

احتشدت أشجار جوز التامول التي يؤثرها السمك المتسلق، في أحد أركان البساتين . وتذكر هوندا، عندما لمحها، الوصيفة العجوز التي كانت تمصغ التامول الملفوف في وريقات الكيما، وقد صبغت فمها باللون الأحمر . لقد حظر فييون ذو الميول التحديثية استخدامه بالفعل . ويبدو أن السيدات العجائز قد ألقين عنهن كآبة الخضوع لهذا القيد بمضغ جوز التامول، بعيداً عن العاصمة، في بانج با إن .

غدت القوارب التي تدفع بالمجاديف، والمحملة بالماء، أكثر عدداً . وفي النهاية، شكّلت قلاع السفن التجارية، والعبارة للبحار، غابة تترامى في البعيد . وكان ذلك هو خلونج توي، مرفأ بانكوك .

أضفت الشمس الغاربة ألقاً غريباً على الماء المثقل بالطمي، وجعلته يبدو بلون الورد المحترق، وأضافت المزيد من التقرح اللوني إلى البقع الزيتية، الأمر الذي ذكر هوندا بالسطح الناعم لبشرة المجذومين الذين رأهم مراراً وتكراراً في الهند .

وفيما كانت السفينة تدنو من الرصيف، تعرّف هوندا على مدير فرع شركة منتجات إتسوي البدين، واثنين أو ثلاثة من الكتبة، ومدير نادي اليابان، ووراءهم هيشيكاوا وقد بدا كما لو كان يختبي وسط الناس الذين يلوحون بقبعاتهم مرحين . وساوره على الأثر شعور بالاكئاب .

ما إن نزل هوندا إلى البر حتى انتزع هيشيكاوا حقيبة الأوراق من جانبه، قبل أن تتاح الفرصة لكتبة شركة إتسوي للقيام بذلك، وتصرف بخنوع واجتهاد لم يسبق لهما مثيل .

- مرحباً بعودتك، يا سيّد هوندا، أسعدني أن أراك تبدو في خير حال على هذا النحو. لا بدّ أنّ الرّحلة إلى الهند كانت شديدة الوطأة عليك.

لم تبد هذه التحيّة مهذّبة للغاية، بالنّسبة لمدير الفرع. وهكذا تجاهل هوندا التعقيب عليها، وأعرب عن شكره للمدير.
- أدهشتني دقّة الترتيبات التي أعددتها في كلّ مكان، خلال الرّحلة. فشكراً لك. لقد سافرت على نحو ما يسافر ملك متوجّج.
- إنّك الآن تعرف حقّ المعرفة أنّ إتسوي لن يوقفها شيء من نوع قيام بريطانيا وأميركا بتجميد أرصدتنا.

في السيّارة التي مضت تهب الطّريق إلى فندق الأورينتل، لزم هيشيكواوا الصّمت، ممسكاً بحقيبة الأوراق، في المقعد المجاور للسائق. بينما انطلق المدير يتحدّث عن تدهور مشاعر الرأي العام في بانكوك، خلال فترة غياب هوندا، ونصحه بالحرص لأنّ الجمهور الذي هيمنت عليه الدعاية الإنجليزيّة والأميريكيّة، قد غدا شديد العداء لليابانيين. وشاهد هوندا، من نافذة السيّارة حشوداً من الفقراء لم يكن يراها عادة، وهي تندفق منداحة في الشوارع.
- مع انتشار الشّائعات عن غزو وشيك من جانب الجيش الياباني، وتدهور النّظام المحليّ، أقبل عدد هائل من اللاّجئين إلى بانكوك، من حدود شبه جزيرة الهند الفرنسيّة.

وأما الاقتضاب العمليّ، على الطّريقة الإنجليزيّة، من جانب إدارة الفندق، فلم يطرأ عليه أدنى تغيير. وبعد أن استقرّ هوندا في غرفته واستحم بالماء البارد، شعر بأنّه أفضل حالاً.

كان الفريق المصاحب للمدير ينتظر، في البهو المواجه للحديقة،

انضمام هوندا إليه لتناول طعام العشاء. وقد جلس أعضاؤه تحت المروحة الكبيرة البطيئة الدوران التي كانت الخنافس ترتطم بها أحياناً محدثة ضجيجاً.

وفي طريق هوندا من غرفته إلى الأسفل، لاحظ متأملاً السلوك المتسم بالصلف من بعض مَنْ يُطْلَق عليهم لقب السادة المهذبين اليابانيين، في جنوبي آسيا، وهم جماعة أخذ يذكر نفسه بأنه ينتمي إليها هو أيضاً. لقد كانوا محرومين تماماً من أية سمة محررة، ومقربة من الخلاص.

مضى يتساءل: لماذا؟ ولسوف يكون من الملائم بصورة أكبر القول إنه في تلك اللحظة أدرك هوندا، حقاً، وللمرة الأولى، قبحهم. . . وقبحه أيضاً. كان من الصعب تصديق أنهم هم أنفسهم يابانيون، كأولئك الشبان الرائعين من أمثال كيواكي وإيساو.

كان ملبسهم بدهم الكتانية الإنجليزية الرائعة وربطات أعناقهم، يخلو من اللوم. ومع ذلك فقد كان كل منهم يستروح الهواء بتعجل أبعد ما يكون عن الرزانة والوقار، وقد تدلّى من أيديهم الخيط الياباني، بخرزته الوحيدة السوداء المرتبطة بالمروحة. وراحت الأسنان الذهبية تلتصق لدى ابتسامهم، كما كانوا جميعاً يضعون عيونات. وانهمك الرجل الأول في الحديث، بتواضع زائف، عن واقعة ترتبط بعمله، ومضى مرؤوسه يصغون للقصّة القديمة التي سمعوها مرّات عديدة، وهم يومئذ برؤوسهم مردّدين تعليقاتهم الأزلية: «ذلك ما أدعوه بالشجاعة الحقيقية. . . الإقدام الحقيقي» وانغمسوا في النسيمة عن النساء المتسكعات، وامكانية نشوب الحرب، ثم تحوّلوا إلى التهامس عن صلف العسكريين. وكان كل شيء يتردّد بنغمة ترتيل

السُّوترا المتكرّر الذي لا يعرف التوقّف في المناطق الاستوائية، ومع ذلك فقد حفل بحيويّة مثيرة. وعلى الرّغم من فتور الهمة الذي عايشوه في أعماقهم على الدّوام، وبرغم توقّهم لحكّ ظهورهم، وتقاطر العرق منهم فقد أرغموا أنفسهم على الجلوس باستقامة متصّلين، مستعيدين بين الفينة والأخرى، في ركن قصيٍّ من وعيهم، مباحج اللّيلة الماضية، بما صاحبها من خوف من مرض سرّيّ تصحبه قروح تشبه سوسنات المستنقعات الحمراء اللّون. وربّما كان الأمر راجعاً إلى تعب هوندا، من جرّاء رحلته، ولكنّه لم يتعرّف إلى نفسه باعتبارها واحداً منهم، عندما نظر قبل دقائق قلائل في المرآة، في غرفته، فلم يرَ إلّا انعكاس صورة رجل في السّادسة والأربعين من العمر، انغمس ذات يوم في مسائل الحقّ، ثمّ أخذ يكسب عيشه من السّوارع الخلفيّة للعدالة، صورة وجه لرجل عاش أكثر ممّا يجب.

مضى يحدث نفسه، متشبّثاً بأطراف الثّقة التي استردّها سريعاً وهو يهبط الدّرج المكسو بسجّادة حمراء، بين المصعد والبهو: «إنّ قبحي هو قبيح خاصّ. وعلى أيّة حال فإنّني رجل انتكاسيّ يميل إلى العودة للعدالة، ولست كهؤلاء التجّار».

في تلك اللّيلة، وبعد ارتشاف عدّة أقذاح من النّبذ في مطعم اشتهر بتقديم المأكولات الكانتونيّة، وأمام هيشيكاوا، قال المدير بصوت عالٍ هوندا:

- يشعر هيشيكاوا على نحو فظيع بالقلق لما سبّبه لك من المتاعب، ومن جرّحه شعورك. ويبدو أنّه شديد الحساسيّة، في هذا الأمر، فبعد رحيلك مضى يحدثني، كلّ يوم، عن مدى شعوره بما اقترف من

خطأ، وكيف أنّ الأمر يقع على كاهله. إنه يوشك أن يكون عصائياً في هذا الصدد. أعرف أنّ له نقاط ضعفه، ولكنني عهدت إليه بمهمة قضاء أمورك لأنّه مفيد للغاية. ويخامرني شعور بالمسؤولية عن أيّ إحساس بعدم الارتياح قد يكون ساورك. لسوف ترحل في غضون أربعة أيام أو خمسة - فقد حجزنا لك مقعداً على متن طائرة حربية - وقد بذل هيشيكاوا الكثير من الجهد لتحقيق ذلك. وهو يقول إنه سيبدل قصارى ما في وسعه لإرضائك. وسوف أطلب منك، يا سيّد هوندا، أن تتحلّى بالكرم، وأن تسامحه وتتقبّل خدماته في المدة الباقية من إقامتك هنا.

تحدّث هيشيكاوا، على الفور، من الجانب الآخر من المائدة، وكأنّه يناشد هوندا:

- سيّدي، أرجوك أن تعفني كما تشاء، فقد أخطأت.
قالها، وحنى رأسه حتّى أوشك أن يمسّ المائدة.
أوقع الموقف الشّعور البالغ بالكآبة في نفس هوندا.

كان من الممكن تفسير كلمات المدير على نحو يبيّن معه أنّه ما يزال على اعتقاده بأنّه اختار دليلاً سياحياً جيّداً لهوندا، ولكن بالحكم من خلال موقف هيشيكاوا فلا بدّ أنّه من الصعب إلى حدّ بعيد إرضاء هوندا، وأنّه إذا غير دليله فإنّه سيريق ماء وجه هيشيكاوا. ومن هنا فإنّه لم يكن هناك أمام هوندا ما يمكن القيام به إلّا ترك هيشيكاوا يبتلع شعوره بالهوان ويواصل العمل معه طوال الفترة الباقية حتّى رحيله. وكان خير سبيل لتحقيق هذا هو التظاهر بأنّ الخطأ في كلّ شيء يقع على كاهل هيشيكاوا. وهكذا فإنّ هوندا لن يناله رشاش من هذا الأمر.

شعر هوندا بالحنق لحظة، ولكنه أدرك في اللحظة التالية أنه لن يكون في صالحه أن يرفض الاقتراح الذي تقدّم به المدير، فلا يمكن أن يكون هيشيكاوا قد اعترف من تلقاء نفسه بأمثلة فعلية لارتكابه الأخطاء. وفضلاً عن ذلك فإنه عاجز فطرياً عن إدراك السرّ في أنه كان مكروهاً. غير أنه من المحتم أنه قد أحسّ بأنه كذلك، ولا بدّ أن يكون تقلّبه الأمر بطريقته القاصرة، قد قرّر القيام بشيء ما للتخفيف من تردّي وضعه. ولا بدّ أنه قد جعل المدير يقف في صفّه، بحيث يقول ما قاله من أمور تفتقر إلى الحساسية.

كان بمقدور هوندا أن يغتفر للمدير البدن افتقاره للحساسية، ولكنه ما كان باستطاعته اغتفار تلاعب هيشيكاوا، الصفيق المتشعّج بالحساسية البالغة الذي عمد إليه لدى شعوره باستياء هوندا.

غمره، فجأة، شعور بالرغبة في العودة إلى الوطن، في اليوم التالي بالذات. ولكن تغيير البرنامج عند هذا المنعطف سيفسّر بجلاء باعتباره خطة صبيانية للانتقام، تعود إلى كراهيته لهيشيكاوا. وأدرك أنه ليس أمامه خيار آخر، ذلك أنه بإظهاره للسّاحة في البداية غداً مجبراً على أن يكون أكثر سّاحة الآن.

طيّب. كان كلّ ما يستطيع عمله هو معاملة هيشيكاوا وكأنه آلة صماء. وقد احتجّ، باسماً، بأنّ اعتذار المدير لا ضرورة له أبداً، وأنه خلال الأيام القليلة المقبلة سيعتمد كليّة على هيشيكاوا في مساعدته في شراء الهدايا، والبحث عن الكتب، والقيام بالترتيبات اللاّزمة لزيارة قصر الوردية لوداع الأميرة. وأحسّ بالرضا، على الأقلّ حيال خداعه الممتاز المتمثّل في إخفائه، على نحو حاذق، مشاعره الحقيقيّة عن المدير.

تغيّر موقف هيشيكواوا بالفعل .

لقد اصطحب هوندا أولاً إلى مكتبة رُتبت فيها على نحو متناثر، مثلما هو الحال في متاجر باعة الخضر التي توشك أن تخلو تماماً ببيع، كتب ذات أغلفة ورقية غير متقنة الطبع، باللّغة الإنجليزيّة، أو التّايلانديّة، فوق منصّة للعرض. وفي السّابق كان هيشيكواوا يقوم بازدراء بمناقشة مستوى الثّقافة التّايلانديّة، ولكنّه ترك هوندا يختار دون أن يتلفّظ هو بكلمة واحدة.

لم يستطع العثور على أيّة كتب تتناول البوذيّة الثيرافاديّة التّايلانديّة، وكان الأولى الأيّم يجد أيّة كتب بالإنجليزيّة عن السّمسارة والتناسخ. ولكنّه اجتذبه ديوان محدود الصّفحات، صدر، فيما يبدو، على نفقة صاحبه، مطبوعاً على ورق رديء النّوعيّة، وقد حال لونه غلافه الأبيض، فضرب إلى البنيّ، وتجمّدت أطرافه، من تأثير تداوله بين الأيدي. وقرأ المقدّمة المكتوبة بالإنجليزيّة فأدرك أنّ الديوان مجموعة قصائد نظمها، بعد وقت قصير من الثّورة البيضاء التي نشبت في تموز (يوليو) ١٩٣٢ شابّ شارك، على ما يبدو، في الثّورة. وقد أعرب الشّاعر عن خيبة الأمل التي أعقبت الثّورة التي كان على أتمّ الاستعداد للتضحية بحياته من أجلها. وبالمصادفة فإنّ الديوان كان قد صدر في العام الذي أعقب موت إيساو. وفيما هوندا يقرب الصّفحات أدرك، من خلال المادّة المطبوعة النّاصلة، أنّ إنجليزيّة الشّاعر كانت بعيدة عن الكمال:

منذا كان بوسعه أن يعرف؟

أنّه من توضيحات الشّباب المكرّسة للمستقبل

لن تبرز إلّا هوام الفساد.

منذا كان بوسعه أن يعرف؟

أنه في الحقول التي تنثر فوقها الحطام التي وعدت يوماً بميلاد جديد .

لا تبرعم إلا نباتات السخيمة والشوك .
سرعان ما تمدّ الهوام أجنحتها الذهبية ،
والرياح التي تجتاح الأعشاب ستنتشر الطاعون .
وفي فؤادي يتجلى العشق الذي أكنّه لأرضي ،
أكثر حمرة من أزهار السنط تحت المطر ،
فجأة ، بعد العاصفة ، على الطنّف ، الأعمدة ، والدرايزينات
يتناثر عنف الطغيان الأشهب .

وحكمة الأمس تلفّ بالغيوم في حمامات الرياح المترفة
ويُحجّب ثوريّ الأمس في محفة من الدمقس الموشى .
لن يطراً ماهو أفضل ،
في إقليميّ كابين وبتاني ،

حيث الخضرة الوارفة لشجر الكمثرى المزهرة وخشب الورد
والمانيقان ،

والياسمين المتسلّق والورد ذي الأشواك والقرنفل يحفّ الدروب ،
حيث الشمس والمطر ينحدران على الأدغال الكثيفة ،
كما لو أنه ، في بعض الأحيان ، وطئ قطعاً من الفيلة في سعيه للماء
عظامي تحت أخفافه .

لن يطراً ماهو أفضل من
قيامي ، بيديّ هاتين ، بانتزاع هلال زوري القاني
المتألق في الشجيرات الندية النامية في حمى الأشجار العملاقة
منذا بوسعه أن يعرف؟
منذا بوسعه أن يعرف؟

إني أغنيّ أنشودة حزينة

أثرت قصيدة اليأس السياسيّة هذه تأثيراً عميقاً في نفس هوندا، وحدث نفسه بأنّه ليس بمقدوره العثور على ما هو أفضل منها لتهدئة روح إيساو. أليس الأمر كذلك؟ لقد لقي إيساو حتفه، دون أن يفجّر الثورة التي حلم بها طويلاً، ولكن لا شك في أنّه كان حريّاً به أن يعايش شعوراً أعظم بخيبة الأمل، لو أنّ الثورة قد وقعت. موت في النّجاح، موت في الفشل - لقد كان الموت هو الأساس الذي قامت عليه أعمال إيساو. ولكن قدر الإنسان التّاعس أنّه ليس بمقدور المرء انتزاع نفسه من الزّمان. والقيام دوّما انفعال بمقارنة موتين، عند منعطفين مختلفين، بهدف اختيار أحدهما أو الآخر. وليس بمقدور المرء الاختيار، عن طريق إعطاء أولويّة متعادلة لموتٍ بعد معايشة الشّعور بخيبة الأمل في أعقاب قيام ثورة، ولموتٍ يسبق معايشة هذا الشّعور. فلئن مات المرء قبل أن يعاني من خيبة الأمل، فسوف يغدو من المستحيل الموت بعد هذه المعاناة، والعكس صحيح، فلئن مات المرء بعد معايشة الشّعور بخيبة الأمل، فإنّ الموت قبل هذه المعايشة يغدو محالاً. ومن هنا فإنّ كلّ ما يستطيع المرء القيام به هو أن يتخيّل نفسه في الميّتين، في المستقبل، ويختار الميته التي يأمره حدسه باختيارها، وقد اختار إيساو الموت قبل أن يستطيع الشّعور بخيبة الأمل أن يضرب أطنابه. وقد أفصح اختياره الرّؤيويّ عن حكمة الشّباب الصّافية التي تمّتع بها إنسان لم يتولّ قطّ أدنى مقاليد السّلطة السياسيّة.

ولكنّ الشّعور بخيبة الأمل واليأس - الذي يشبه رؤية المرء للجانب الآخر من القمر ويهيم على الثّوريّ الذي كلّل بالنّجاح - يجعل من الموت مجرد مهرب من برّية موحشة هي أسوأ من الموت ذاته. ومن هنا فإنّه أيّاً كان الإخلاص الذي واكب موت الشّاعر،

فمن المحقق أنه يتعين النظر إليه باعتباره انتحاراً مرضياً وقع في أصيل ثورة مترع بالإعياء .

ولهذا السبب أراد هوندا أن يهدي هذه القصيدة السياسية لإيساو .
فإيساو لقي على الأقل مصرعه وهو يحلم بالشَّمس، ولكن الصِّباح في هذه القصيدة نكأ جرحاً، متقيحاً، تحت قشرة متصدّعة . غير أن خيطاً لانهاية له امتدّ بين موت إيساو والجسور واليأس الكامن في هذه القصيدة السياسيّة، وقد اتَّفَق أن كلا الأمرين وقعا في الفترة ذاتها . وربما كان يمكن العثور على الأفضل بعينه والأسوأ بذاته، على أجل الأوهام وأقبحها عن المستقبل الذي ضحى الناس بحياتهم من أجله، في المكان نفسه . وأما ما هو أكثر إثارة للفرع فهو أنها ربما كانا شيئاً واحداً . فما حلم به إيساو وما كان على استعداد لتقديم حياته من أجله تعين أن يكون اليأس الذي وجد تعبيراً عنه في هذه القصيدة، ذلك أنه كلما كانت بصيرته أكثر اتساعاً وعمقاً كان موته أصفى .

كان هوندا يعلم يقيناً أنه مال إلى رؤية الأمور على هذا النحو لأنّ الهند قد سحرته بِرُقِيَّتِها السحرية . فقد فرضت على تفكيره سطحاً متعدّد الطبقات، شأن بتلات اللّوتس، وما عادت تتركه يفكر على نحو بسيط ومباشر . وربما كانت المرّة التي أقدم فيها بإرادته على الاستقالة من سلك القضاء ليساعد إيساو - وعلى الرغم من أنه حرّكه في هذا الاتجاه بقوة شعوره بالندم على عدم تمكنه من مساعدة كيواكي - المناسبة الأولى والأخيرة - في حياته - التي كان فيها محباً للغير، ومكرّساً نفسه له بمزيد من التّصميم . ومع ذلك، وعلى الرّغم من جهوده، فإنّه لم يتمكّن من الحيلولة دون مصرع إيساو العبيّ . ولم يبق أمامه بعد ذلك إلا أن يقلب أفكاره عن التناسخ إلى عكسها، وأن يرى مستقبله خارج إطار السّمسارة . وقد كانت الهند، الهند

الرّهية، هي التي أسقطت الإيماءة الأخيرة إلى هوندا الذي وجد أنه من الصّعب على نحو متفاهم أن يستشعر الانفعالات «الإنسانية».

وسواء في غمرة النجاح أو الفشل فإنّ الزّمن سيفضي، عاجلاً أو آجلاً إلى الشّعور بخيبة الأمل. ولئن بقي الإدراك المسبق لحيية الأمل تلك هو إيّاه لا غير، فإنّه يغدو مجرد نزعّة تشاؤميّة. والأمر المهمّ هو التصرف بناء على هذا الإدراك المسبق، حتّى من خلال الموت. ولقد حقّق إيساو ذلك على نحو رائع. فمن خلال التحرك وحده يمكن أن يرى المرء عبر الأسوار الزجاجيّة التي شيّدت عند مقاطع مختلفة في مسيرة الزّمن، أسواراً زجاجيّة لا سبيل إلى اعتلائها بالجهد الإنسانيّ، ولكن يمكن الرؤية عبرها من الجانبين، على السّواء. وفي الرّغبة المتلهفة، في التّوق، في الأحلام، في المثل العليا، يغدو الماضي والمستقبل متعادلين في القيمة والنّوعيّة، ذلك أنّهما متساويان.

وكان سؤالاً يطرح عمّا إذا كان إيساو قد لمح مثل هذا العالم، في لحظة موته. ولم يعد بمقدور هوندا أن يبعد عن ذهنه، الآن وهو يوغل في العمر، ما إذا كان سيكتشف ما يتعيّن عليه أن يواجهه في لحظة موته. فمن المؤكّد، على الأقل، أنّه في تلك اللّحظة نظر إيساو الكائن وإيساو الذي سيوجد أحدهما في عيني الآخر مباشرة. وبهذه البصيرة أدرك إيساو الكائن روعة المحتجب على الجانب، وتطلّعت عيناه هناك عبر هذا الجانب. بمزيد من التّوق. ومن المؤكّد أيضاً أنّ إيساو الكائن قد استبصر مجد إيساو المستقبل، وتطلّعت عيناه إيساو الآتي إلى الوراء، بمزيد من الحنين نحو الكائن البريء الذي لم يعايش بعد هذا المجد. وبالمرور عبر وجودين لا سبيل إلى عيشهما من جديد، تواصل الإيساوان، من خلال السّور الزجاجيّة. وقد أشار الشّاعر السياسيّ

إلى الصّلة الخالدة بين الشّاعر الّذي استشعر الحنين إلى الموت، بعد أن شقّ طريق الحياة، والشّاب الّذي مات رافضاً أن يشقّ هذا الطّريق. ولو أنّ ذلك كان صحيحاً، فما الّذي آل إليه ذلك الّذي رغبا فيه بتلك الشّدّة البالغة، كلّ بطريقته الخاصّة؟ وكانت نظريّة هوندا الّتي لم تتغيّر منذ عهد الشّباب أنّ التّاريخ لا يمكن دفعه قُدماً بماء اختيار البشر، وإنّما الطّبيعة الجوهريّة للإرادة البشريّة قوامها أن تغدو منغمسة في التّاريخ.

وراح يتساءل: كيف يمكنه أن يهدي هذه القصائد، وهي أنسب هديّة، إلى روح إيساو؟

هل من الأفضل أن يعود بالكتاب إلى اليابان، ويقدمه عند قبره؟ لا، فقد كان يعلم تمام العلم أنّ قبر إيساو خالٍ.

من المؤكّد أنّ خير سبيل هو إهداؤه إلى الأميرة الصّغيرة الّتي زعمت صراحة أنّها إيساو وقد بعث من جديد. لسوف تكون الرّسول الأسرع الّذي يمكن الاعتماد عليه أكثر من غيره. لقد غدا هوندا الآن حامل الرّسائل السّريع الخطو، الّذي يمضي مجتازاً سور الزّمن.

ولكن مهما كان مدى ذكائها فهل يمكن أن تفهم طفلة في السّادسة من عمرها اليأس الكامن في مثل هذه القصائد؟ وعلاوة على ذلك فإنّه فيما تأخذ تناسخ إيساو مثل هذا الشّكل الواضح هذه المرّة، عانى هوندا من مرارة الارتياب، ثمّ إنّّه لم يستطع رؤية الشّامات الثلاث الصّغيرة على جسم الأميرة الجميل الأسمر، حتّى في رابعة النّهار.

وبعد أن قرّر هوندا أن يحمل مع الدّيوان، على سبيل الهدية، سارياً هنديّاً من نوع رائع، طلب من هيشيكاوا الاتّصال بقصر الوردية. فتمّ إبلاغه بأنّ الأميرة ستستقبله في قاعة الملكات، في قصر

تشاكري الذي ستفتحه خصصياً له، لأنه مغلق، منذ بعض الوقت،
بسبب غياب الملك.

غير أن الوصيفات وضعن شركاً صارماً، فخلال رحلته إلى الهند،
راحت الأميرة تنتظر بقلق عودته إلى تايلاند، مصرة على أنها سوف
تصحبه إلى اليابان لدى عودته. وقد أعربت عن شكواها من أن
وصيفاتها لم يقمن بشيء استعداداً للرحلة، فهدأن من روعها بالتظاهر
بالقيام بالترتيبات. ومن هنا فإنهن يرغبن في ألا يشير هوندا، خلال
المقابلة، إلى رحيله، وأهم من ذلك إلى موعد ذلك الرحيل، وأن
يتظاهر بأنه سيواصل البقاء في تايلاند.

أطلّ اليوم التّالي الذي كان مقرّراً أن يرحل هوندا فيه إلى اليابان، صافياً على نحو بديع. لكنّ الريح ركّدت؛ فغدا الجو شديد الحرارة.

مرّ هوندا وهيشيكاوا قرب مقرّ الحرس الملكي، في حوالي السّاعة التاسعة، تلبية لموعد الاستقبال الذي حدّدت السّاعة العاشرة موعداً له، وهما يعانيان أشدّ العناء بتأثير ربطة العنق والسّتر.

شيّد القصر الذي صمّمه مهندس معماري إيطالي، في عام ١٨٨٢، في عهد الملك تشولا لونجكورن، وكان من حيث الطّراز مزيجاً رائعاً من الطّرازين الباروكي الجديد والسيامي.

تألّقت في معالم القصر واجهة مركبة، على نحو مذهل، توشك أن ترحل في رحاب الهلوسة، تنتصب في مواجهة السّماء الاستوائية الزّرقاء. وأياً كان مدى إيغال الطّراز في الطّابع الأوروبي فإنّ الواجهة المتألّقة والمزخرفة، على نحو مفرط، كانت لها تلك السّمة المتوهّجة والخانقة التي تميّز فنّ العمارة الاستوائي الآسيويّ. وكانت فيلة برونزية تحمي قاعدة الدّرج المرمرّي المتصاعد في رشاقة، إلى اليمين واليسار. وكان المدخل الرئيسيّ على غرار البانثيون في روما. وضمّ المثلث الهائل الذي يعلو الأقواس صورة ملوّنة للملك تشولا لونجكورن. وحتىّ في ذلك الموضع كان الطّراز أوروبياً باروكياً جديداً على نحو خالص، تميّزه النقوش البارزة، المرمرية، والذهبيّة. ولكنّ فيما نظرة المرء تتصاعد إلى الطّابق الذي يعلو ذلك، فإنّه يرى جناحاً على الطّراز

السيامي شامخاً في قلب بهو مُعمَّد يتألف من أعمدة مرمرية، وردية، كورنثية الطراز. وكان السقف يشبه رقعة الشطرنج، ولونه يراوح بين الأحمر الداكن والذهبي، على أرضية بيضاء، والبناء كله يبرز على نحو مؤثر وكأنه برج سفينة، وقد حمل شعار عائلة تشاكري المالكة، وهو الشمعدان الزيني. وشمخت الطوابق العلوية، حتى قمة البرج الذهبي، في شكل أهرام من السقوف المشابكة والمتداخلة ذات الطابع السيامي الأصيل، باللونين الأحمر والذهبي، وأحجار القرميد المزخرفة عند الحواف تشير إلى السماء الزرقاء، وكأنها الأكتاف التي ترفعها الرافعات عالياً. ولاح أن الجواهر الحقيقي الكامن وراء قصر تشاكري هو سحق القاعدة المكيئة، الباردة على نحو عقلائي والأوروبية الطراز تحت وطأة الأحلام الملكية الاستوائية - المركبة على نحو متزايد، والملونة دوغما داع. . وهي تبعث على الجنون. وبدا الأمر كما لو أن كابوساً مستدق الطرف، له مخالب حادة، وأجنحة ذهبية وحمراء متألقة، قد جثم فوق جذع ملك متشامخ، بارد، أبيض.

توقف هيشيكاوا، ومسح العرق عن وجهه المرفوع عالياً، وقال:

- أيفترض أن يكون هذا جميلاً؟

- سواء أكان جميلاً أم لم يكن، فما الذي يعنينا منه؟ لقد دعينا

لرؤية الأميرة فحسب.

أخاف جفاف هوندا غير المتوقع، في التو، هيشيكاوا الذي تطلّع إليه وقد ارتسم الخوف في عينيه. ولم يفه بالمزيد. وأحس هوندا بالأسف لأنه لم يستخدم هذه الوسيلة الفعالة منذ بداية زيارته لبانكوك.

هس ضابط الحرس الذي كان بمثابة دليل لهما، مفضياً بأنه كان من قبيل العناء البالغ، بالنسبة لهم، أن يفتحوا القصر المغلق منذ

زمن طويل، لا شيء إلا للترفيه عن الأميرة، المتقلبة المزاج. واستجابة لغمزة من هيشيكواو سارع هوندا إلى دس مبلغ مناسب في جيب الضابط.

ما إن فتحت الأبواب الهائلة حتى تبَدَّت للعيان قاعة معتمة، اصطفت على أرضها الفسيفسائية المرقشة ذات الأسود والأبيض والرَّمادي، قرابة عشرين مقعداً أبدعت على نمط الروكوكو وجعلت حوافها من خشب الماهوجني. وحملت وصيفة مألوفة المظهر عن الضابط مسؤولية إرشادهما، ومضت بها إلى باب كبير يقع إلى اليمين وقد امتدَّت وراءه قاعة من قاعات القصر حسنة الإضاءة، مرتفعة السقف على طراز أوروبي محض، وقد تدلَّت منه الثريات، وامتدَّت فيها موائد من المرمر الإيطالي مزخرفة بنقوش زهرية، ووضعت حولها مقاعد من طراز لويس الخامس عشر، تجمع بين اللونين الأحمر والذهبي.

علقت على الجدران لوحات بالحجم الطبيعي، لزوجات الملك تشولونجكورن الأربع وللملكة الأم. وأوضح هيشيكواو أن ثلاثاً من الزوجات كنَّ شقيقات. وقد رسمت اللوحات جميعها بالأسلوب الفيكتوري، بريشة مصوِّر غربي، وكشفت وجوههنَّ عن تكامل الفنان، وشجاعته الرهيبة، وأكاذيبه المجردة من الحياء، وختله، وإخلاصه، وتملَّقه - كلُّ ذلك تعايش مثلما تتعايش الأمواج والرَّمال، عند حافة الماء، في هامش الواقعية. وعادلت الرشاقة شبه الكثبية التي تليق بعائلة مالكة، النزعة الشهوانية الجاثمة التي توحى بها بشرة موضوعات اللوحات الداكنة، وضُيَّب الإحساس الاستوائي بالملابس والخلفية، دوغماً قصد، الصورة السطحية التي تبدو واقعية، وكساها بطابع خيالي.

كانت الملكة الأم، ثيب سيرين، امرأة أرستقراطية اكتسبت الحكمة، ووُثِيَّ مِحْيَاها بالكبرياء الوحشية القائمة على نحو يفوق الأخرى. وسار هوندا على مهل، وهو يفحص بدقة كل لوحة يمرُّ بها، وعلم من هيشيكاوا أنَّ الزوجة الأولى، الملكة بريفايم هي صغرى الشقيقات الثلاث. وبعدها جاءت الملكة سوينج واتانا، ثم الأخت الكبرى، الملكة سوناثا. وبدا أنه من المسلم به لدى الجميع أنَّ الأخت الكبرى هي أكثرهنَّ جمالاً.

علقت صورة الملكة سوناثا في أحد أركان القاعة، وقد بدت شبه محتجبة وسط الظلال. وبدت فيها واقفة إلى جوار نافذة، وقد ارتاحت إحدى يديها على مائدة، وفي الخارج كان بوسع المرء أن يرى السماء الزرقاء الغائمة، وقد امتلأت بسحب السماء، فيما ناءت أغصان البرتقال بالثمار.

على المائدة وضعت مزهرية على شكل برعم وردة، مجزعة السطح، تضمُّ زهرة لوتس صغيرة، وإلى جوارها إبريق من الذهب وكؤوس للشرب. وبدت قدما الملكة الجميلتان الحافيتان تحت طرف رداؤها الذهبي. ومن إحدى كتفي سترتها الوردية تدلى شريط زيني ممتد، والتمتع وسام كبير على صدرها، وأمسكت بمروحة من العاج. وعكست شراية المروحة والسجادة معاً وهج المساء القرمزي.

أذهل مِحْيَاها الصَّغير، البالغ الجاذبية، هوندا. ومن بين اللوحات الخمس حمل هذا المِحْيَا، على نحو ما، شبهاً ملحوظاً بمِحْيَا الأميرة سنى البدر، فقد كانت هناك الشفتان الناضجتان المكتنزتان عينهما، والعينان اللتان تحملان شيئاً من القسوة، والشعر القصير. وتلاشى الشبه بعد أن حدَّق في اللوحة لبعض الوقت. ولكن بعد برهة زحف

هذا الانطباع، وكأنه الغسق، عائداً من ركن من أركان القاعة،
فاقتنع من جديد بالشبه - الأصابع الصغيرة السمراء السريعة الحركة
التي تمسك بالروحة، اليد المقوسة التي ترتاح على المائدة، وأخيراً
العينان والشفتان التي كانت طبق الأصل لنظيرتها في محيا الأميرة.
ولكن فيما يغدو الشبه أوضح ما يكون، فإنه، مثل الساعة الرملية،
يشرع في الانزلاق مبتعداً، على نحو لا سبيل إلى مقاومته.

في تلك اللحظة فتح باب داخلي، ولاحت الوصيفات العجائز
الثلاث وقد اصطحنن الأميرة. توقّف هوندا وهيشيكاوا في موضعهما
وانحنيا انحناء عميقة.

بدا أن ذلك الأصيل في قصر بانج با إن قد أذاب جليد أفئدة
الوصيفات، إذ لم تستوقف إحداهنّ الأميرة وهي تنطلق مسرعة نحو
هوندا، وقد ندت عنها صيحة فرح عارم. ومثل حمامة تلتقط حبات
متناثرة انهمك هيشيكاوا في ترجمة الدفق المنهمر من الكلمات التي
انسابت على لسانها:

- كانت رحلة طويلة. . . وكنت وحيدة. لماذا لم تكتب لي كثيراً؟
أيهما بها عدد أكبر من الفيلة. . . تايلاند أم الهند؟ لست أريد
الذهاب إلى الهند، بل أريد العودة إلى اليابان.

ثم التقطت الأميرة يد هوندا ومضت به إلى ركن أمام لوحة الملكة
سونانثا.

قالت، متباهية:

- هذه هي جدتي.

تطوّعت الوصيفة الأولى بالإيضاح، قائلة:

- لقد وجّهت سموّ الأميرة الجليلة الدّعوة إلى السيّد هوندا لزيارة

قصر تشاكري لأنها أرادت خصصياً أن تريه هذه اللوحة الجميلة .
- إنني لم أرث من الملكة سونانثا إلا جسمي ، وأما فؤادي فقد أقبل
من اليابان ، ولذا فإن عليّ حقاً أن أترك جسمي هنا ، وفؤادي وحده
ينبغي أن يعود إلى اليابان . ولكن يتعين عليّ للقيام بذلك أن أموت .
ولذا فإنني سأضطر إلى أن أصحب جسمي معي ، مثل طفلة تصحب
دميتها المفضلة . أتفهم ما أعنيه يا سيد هوندا؟ فداتي الجميلة التي
تراها ليست حقاً إلا الدمية التي أحملها معي .

ونظراً للطريقة الصيانية التي تحدّثت بها ، فلا بدّ أنها قد تحدّثت
على نحو يقلّ في تعقيده عمّا ترجمه هيشيكواوا ، ولكن فيما كانت
تحدّث أثر صفاء عينيها الجادّتين في فؤاد هوندا ، حتّى قبل أن يفهم
ما تقوله .

- هناك دمية أخرى .

قالتها الأميرة دون أن تكثرث ، كالمعتاد ، بما يعتقد الكبار ، وتركت
جانب هوندا ، وتحركت مسرعة إلى وسط القاعة ، حيث اتخذ ضوء
الشمس شكل نوافذ تغطّيها أعمدة متصالية . وتابعت بناظرها في وقار
امتداد المعترشات الزاحفة ، ثمّ الزهور بشكلها الزخرفيّ الزهريّ
المعقد ، وكانت هناك انقطاعات في الزخرفة ، على المائدة التي كان
صدرها يكاد يصل إليها ، وواصلت حديثها وكأنها تردّد أنشودة :

- هناك دمية أخرى ، تبدو مثلي تماماً ، في لوزان . ولكنّها أختي
الكبرى ، وهي ليست دمية حقاً ، فجسمها تايلاندي ، وكذلك
فؤادها . إنّها مختلفة عني ، فأنا يابانية في الحقيقة .

تلقت الساري وديوان الشعر بابتهاج ، ولكنّها اكتفت بتصفّح
صفحات قلائل من الذبوان ، دون أن تواصل النّظر فيه ، وأوضحت

إحدى الوصيفات، على نحو يشي بالاعتذار، أن الأميرة لا تستطيع بعد القراءة باللّغة الإنجليزيّة. وهكذا فإنّ اختيار هوندا لم يحقّق الهدف منه.

وبناء على إلحاف الأميرة فقد تحدّث هوندا لبعض الوقت عن رحلته إلى الهند، وسط الطّابع الرسميّ المتصلّب الذي تتّخذه القاعة. ولاحظ الدّموع والحزن في عيني الأميرة وهي تصغي إليه منتشية، وشعر بتأنيب الضّمير حيال فكرة إخفاء نبأ قرب رحيله عنها.

أخذ يتساءل عن الوقت الذي سيتمكّن فيه من رؤية الأميرة مرّة أخرى. فمن المؤكّد أنّها ستنضج لتغدو امرأة بالغة الجمال، ولكن قد لا تتاح له فرصة رؤيتها أبداً. وربّما كانت تلك هي فرصته الأخيرة. وقد يختفي سريعاً من ذاكرتها لغز التّناسخ وكأنّه ظلّ فراشة تعبر بستاناً استوائياً غمره الأصيل. ربّما كانت روح إيساو التي أترعت بالأسى والنّدم، من جرّاء خوض غمار الموت، دونما كلمة وداع لهوندا، قد استعادت شفّتي الأميرة الصّغيرة المجنونة، لتقدّم اعتذاراً ودفاعاً عن نفسها. وكان من الأيسر على هوندا أن يغادر بانكوك معتقداً هذا.

ازدادت عينا الأميرة تدريجياً تندياً بالدّمع، فيما كانت تصغي للقصص التي شرع هوندا يرويها. ولا بدّ أنّها جاسماً ينذر برحيله قد ساورها. وكان قد تخيّر بعناية طرائف مسليّة تناسب الأطفال ليحكّيها لها، ولكنّ الحزن، في عينيها، مضى يزداد غوراً.

كان هوندا ينطق في كلّ مرّة جملة فيترجمها هي شيكاوا، مضيفاً إليها إشارات بيديه. وفجأة اتّسعت عينا الأميرة دهشة، ورمقت

الوصيفات بغضب هوندا الذي لم يخطر بباله ما كان يجري .
فجأة، أطلقت الأميرة صرخة صاكنة، وتشبّثت بهوندا، فنهضت
الوصيفات، وحاولن انتزاعها بعيداً عنه، ولكنّ الطفلة ألصقت
وجنتها بساقيه وانخرطت في البكاء بصوت عالٍ .

لقد تكرّرت دراما الزيارة السابقة . وأخيراً، أفلحت الوصيفات في
إبعاد أحدهما عن الآخر، وأشرن لهوندا بمغادرة القاعة . وفيما
هيشيكاوا يفسّر هذه الإشارة لهوندا، أوشكت الأميرة الباكية على
التشبّث به من جديد، فانطلق مسرعاً وسط الموائد والمقاعد، والصبية
تجدّ في أثره، والوصيفات يتعثرن وراءها وهنّ يطاردنها من ثلاث
جهات . وتهاوت المقاعد من طراز لويس الخامس عشر مرتطمة
بالأرض، وتحوّلت قاعة القصر إلى ما يشبه ساحة للعب الغميضة .

وبعد لأيّ حرّر هوندا نفسه، واجتاز مسرعاً القاعة الأمامية،
وهبط الدّرج المرمريّ إلى المدخل الوسيط . وهنالك تردّد في المغادرة
النّهائية، وهو يصغي للصرخات الحادة التي راحت الصبيرة تطلقها،
فيتردّد صداها مرتداً عن سقف القصر العالي . قال هيشيكاوا مستحشاً
إيابه :

- الوصيفات يُهنّ بنا أن نمضي مسرعين لسوف يعتنين بها بشكل
من الأشكال . فهيّا بنا ! .

اندفع هوندا مسرعاً عبر الحديقة الأمامية الفسيحة وهو يتصبّب
عرقاً .

قال هيشيكاوا لهوندا الذي كان مايزال يلهث، عندما شرعت
السيّارة في الانطلاق :

- إنّي آسف . لا بدّ أنّ الأمر قد أدهشك .

ردّ هوندا، محاولاً التّخفيف عن نفسه، بتجفيف عرقه بمنديل
أبيض كبير:

- لا، فهو يحدث في كلّ مرّة.

- لقد قلت للأميرة إنك أردت العودة من الهند بالطائرة، ولكنك لم
تستطع الحصول على مقعد في طائرة حربيّة.

- لقد قلت ذلك حقّاً.

وأوضح هيشيكاوا، في برودة، وقد بدا بجلاء أنه لا يساوره شعور
بالذنب:

- لقد قمت بترجمة سيّئة في ذلك الموضع. فلم أفكر في الأمر،
وأبلغتها بالحقيقة. قلت لها إنك عائد إلى اليابان، ولكن لما كنت
ستستقلّ طائرة حربيّة فإنه لم يكن بوسعك الحصول على مقعد لها،
وهكذا فليس بمقدورك أن تصحبها معك. وذلك هو السرّ في أنها
أحدثت تلك الضجّة. وتوسّلت إليك ألاّ تذهب، أو أن تصحبها
معك. وبدت الوصيفات في أشدّ حالات الغضب لأنك لم تفِ
بوعدهنّ. والخطأ كلّ يقع على كاهلي، ولست أعرف كيف أعتذر لك.

كان النقل الجوي المنتظم بين اليابان وتايلاند قد استُهل منذ عام، أي ١٩٤٠، ولكن بعد أن بدأت اليابان بإرسال المراقبين إلى الهند الصينية للسيطرة على طرق الإمداد لشيانج كاي شيك، لم يعد أبناء الهند الصينية يقاومون، وافتتح خط جوي جنوبي جديد، مروراً بسايجون، جنباً إلى جنب مع النمط القائم بالفعل، والممتد من تايبيه إلى بانكوك، مروراً بهانوي.

كان هذا الخط خطأً مدنياً تديره شركة الخطوط الجوية لليابان العظمى. ولكن شركة منتجات إيسوي اعتبرت استخدام الطائرات الحربية عملاً أكثر حيطة، في نقل الزوار المهمين. ولم تكن هذه الطائرات توفر أكثر الرحلات بعثاً للشعور بالراحة، ولكنها كانت سريعة، وتستمد قوتها من محركات ممتازة. وفضلاً عن ذلك فإن الطائرة الحربية تُشعر أصدقاء المسافرين الذين قد يحضرون إلى المطار لاستقباله أو وداعه بأنهم في جولة رسمية، وتظهر في الوقت نفسه مدى تأثير شركة إيسوي ونفوذها في الدوائر الحربية.

أحسّ هوندا بالأسف لمغادرته المناطق الاستوائية. وعندما تلاشت المعابد الذهبية، في محيطها الغابي النائي، شرعت إمكانات الوقوع على مؤشرات للتناسخ هناك تبدو وكأنها حكاية شعبية، أو حلم. وبسبب صغر سن الأميرة الشديدة فإن الأمر كله قد لا يتجاوز أنشودة أطفال، على الرغم من البراهين العديدة التي توافرت له. فهو لم يعرف قصة حياتها، ولا عنصر السبب والنتيجة في البداية المفاجئة للأميرة، ولا كيف ستكون نهايتها، على نحو ما أتبع له أن يعرف في حالتي كيواكي

وإيساو. وقد شاهد أحداثاً في حياة الطفلة الصغيرة فحسب، وكأنه يرقب الدفق الزهري الغريب في مهرجان يمرّ أمام عينيّ مسافر مترعتين بالفضول.

ما أغرب أن يكون حتىّ اجتراح المعجزة قد اقتضى العادي والمألوف! وفيما كانت الطائرة تقترب من اليابان، أدرك هوندا بارتياح أنّه عائد إلى الروتين اليوميّ المألوف، وأنّه قد أفلت من معجزة هوندا بنارس. لقد فقد، أخيراً، لا عمليّة الاستنباط المنطقي وحدها، بل فقد كذلك معياراً لمشاعره. لم يساوره شعور خاصّ بالأسى لتركه الأميرة، كما لم يحسّ بالضيق، أو بأيّ انفعال آخر حيال الضباط الذين انغمسوا على متن الطائرة في نقاش محتدم عن الحرب المقبلة.

من الطبيعيّ أنّه أسعده أن يرى زوجته في المطار، وعلى نحو ما توقع فقد أحسّ بأنّ هوندا الذي غادر اليابان، وهوندا الذي عاد إليها، قد اندججا على الفور في إهاب الشخص الذي لم يعرف التغيّر شيئاً إليه. وشكّل محيا زوجته الناعس الأبيض المتورّم بعض الشيء عنصراً مساعداً في إحداث هذا الاندماج، واختفى الفاصل الزمنيّ بين مرحلتيه هاتين، وبدا أنّ الجرح الغائر المفتوح الذي أحدثته رحلته الهندية قد اختفى، دون أن يخلف وراءه أثراً.

وقفت زوجته في مؤخّرة جمع الأصدقاء الذين أقبلوا لاستقباله وقد أزال الشال الكابي في تدرّجه اللوني عن كتفيها.
- مرحباً بعودتك.

انحنّت له بحبيّة، دافعة تحت أنفه بخصلات شعرها المألوفة التي تعيد تصفيفها بنفسها بعد كلّ تمّوج دائم تقوم بعمله في دار للتجميل لا ترتاح لأسلوبها في تمويج الشعر. وفاح من شعرها ذلك العرف

الخاصّ الذي يوحي باستخدام مادّة كيميائيّة بعينها .
- الأمّ بصحة جيّدة، ولكن اللَّيلي أصبحت أشدّ برداً، ولم أرد أن
تصاب بنوبة برد. وهي تنتظر، بصبر نافذ، في الدّار .

أحسّ هوندا بدفق من الشّعور بالحنان والرّقة عندما تحدّثت رايب
عن حماها من غير أن يطلب منها ذلك، إلّا أنّه لم تكن في صوتها لمسة
توحي بالاضطرار إلى الحديث. ها هي الحياة قد عادت من جديد إلى
ما ينبغي أن تكون عليه تماماً .

قال هوندا وهما في طريقهما إلى الدّار بالسيّارة :
- أريدك أن تمضي إلى متجر كبير بأسرع ما يمكن، ربّما غداً، وأن
تبتاعي دمية .
- طيّب .

- لقد وعدت أميرة صغيرة قابلتها في تايلاند بأن أرسل لها دمية
يابانيّة .

- دمية عاديّة لها قصّة شعر طفلة صغيرة؟
- أصبت . فلست أظنّ أنّي سأرسل دمية كبيرة . . . دمية بهذا
الحجم .

قالها هوندا مادّاً يديه أمام صدره وبطنه، ليشير إلى الحجم
المطلوب . وكان للحظات قلائل قد فكّر في إرسال دمية على شكل
صبيّ رمزاً لتناسخ روح فتى، ولكنّه حدّث نفسه بأنّها ستبدو غريبة،
وقرّر العدول عن ذلك .

وقفت أمّه لاستقباله في دهليز الدّار، في هونجو، وقد أحكمت
لثّ كفتيها المحتيتين في كيمونو حريريّ مخطّط . وكانت قد صبغت
شعرها الذي قصّته قصيراً فغدا فاحم السّواد، ومرّ ذراعاً نظارتها

الذهبية فوقه . . . وحَدَّث هوندا نفسه بأنه سيقترح عليها، ذات مرّة،
ألا تضع النظارة على هذا النحو، ولكن أياً كان الوقت الذي يخطر
بباله فيه أن يقترح عليها هذا فإنه لا يبدو الوقت المناسب أبداً.
سار بصحبة أمّه وزوجته على الأرض التي كسيت بالحصر إلى
الغرفة الداخليّة لداره الرّحبة المألوفة التي كانت الآن معتمة وباردة.
وأدرك أنّ طريقته في السّير تشبه طريقة أبيه الرّاحل، حينما كان يعود
إلى داره .

- أحسست بالارتياح كثيراً لتمكّنك من العودة قبل اندلاع
الحرب، فقد كنت قلقة عليك .

قالتها أمّه التي كانت يوماً عضوة شديدة الحماس في العصبة الوطنيّة
النسائيّة، وراحت تلهث وهي تمضي عبر الدّهليز الذي اكتسحته
لفحات رياح اللّيل الباردة . ولقد كانت العجوز تخشى الحرب .

بعد استراحة دامت يومين أو ثلاثة أيّام، استأنف هوندا رحلته إلى
مكتبه في مبنى مارونوتشي، وبدأت أيّامه الحافلة، وإن غمرها
السّلام . وسرعان ما أيقظ الشّتاء اليابانيّ ذهنه الذي حاكى طائراً
شتائياً موسميّاً - ومن الطّبيعي أنّه لم ير ذلك الطّائر، في جنوب شرقي
آسيا - كركياً هاجر من جديد إلى الخليج المتجمّد لفؤاده، لدى عودته
إلى اليابان .

في صبيحة الثّامن من كانون الأوّل (ديسمبر) أقبلت زوجته إلى غرفة
النّوم لإيقاظه، وقالت في هدوء :

- أسفة لإيقاظك قبل الموعد المعتاد .

- ماذا هناك؟

- اندلعت الحرب بيننا وبين الولايات المتّحدة، وقد أعلن ذلك توّاً

عبر المذياع . . .

قالتها رايبى ونبرة الاعتذار لإيقاظه في مثل هذا الوقت المبكر
لاتزال ترافق صوتها.

في ذلك الصباح، وتأثير الانفعال حيال الأنباء التي أذيعت عن
الهجوم على بيرل هاربور، لم يستطع أحد في المكتب العكوف على
العمل. ودهش هوندا للضحك المتواصل، والخالي من الشعور
بالمسؤولية الصادر عن الفتيات في المكتب، وأخذ يتساءل عما إذا لم
تكن النساء على علم بطريقة للتعبير عن ابتهاجهن الوطني غير القيام
بذلك من خلال النشوة الحسية.

حلّ موعد تناول طعام الغداء. وناقش العاملون بالمكتب إمكانية
الذهاب معاً إلى ميدان القصر الإمبراطوري. وبعد السماح لهم
بالانطلاق، أغلق هوندا المكتب، وانطلق وحيداً للقيام بجولة
الأصيل، فقادته خطاه، من تلقاء ذاتها، نحو الميدان الواقع أمام
القصر الإمبراطوري.

بدا أنّ الجميع في منطقة مارونوتشي قد خطرت لهم الفكرة ذاتها،
فازدحمت الجادة العريضة بالمارة.

حدّث هوندا نفسه، متفكّهاً، بأنّه الآن في السادسة والأربعين من
العمر، ولم يبق شيء من الفتوة أو القوة أو العاطفة الخالصة سواء في
كيانه البدني أو الروحي، ولربّما تعيّن عليه، في غضون عقد من
الزّمان، أن يستعدّ لمواجهة الموت، وربما كان أكثر من محتمل ألاّ يلقى
حتفه في الحرب. لم يكن قد تلقى تدريباً عسكرياً، وحتى لو كان قد
تلقاه، فليس هناك مجال لخطر استدعائه إلى الميدان.

كان كلّ ما عليه هو أن يقبع في موضعه، ويصفق للأعمال الوطنية

التي يقوم بها الشباب. وهكذا فقد انطلقوا لقصف هاواي! كان عملاً متألّفاً أبعده سنه عنه تماماً.

ولكن هل الأمر متعلّق بالسّن وحدها؟ لا. فلم يكن مؤهلاً أساساً لأيّ تحرّك بدنيّ.

شأن الآخرين جميعاً، عاش هوندا من خلال الاقتراب من الموت خطوة فأخرى، ولكنّه لم يكن يعرف أيّ سبيل آخر، ولم يسبق له قطّ أن انطلق عدواً. وذات مرّة حاول إنقاذ حياة رجل، ولكنّه لم يحدث قطّ أن كان في موقف تمسّ فيه الحاجة إلى جهود شخص آخر لإنقاذه. فقد كان يفتقر إلى الطابع الذي يجعل من الممكن إنقاذه. ولم يسبق له أن دفع الآخرين إلى الشعور بأزمة وشيكة، بحيث يحسّون بأنهم مجبرون على مدّ يدهم بالعون، ومضطرون إلى محاولة إنقاذ ذلك الشيء المحدد، المجيد، الذي يتربّص به الخطر.

لسوف يكون من قبيل المبالغة القول بأنّه شعر بالغيرة من الانفعال الذي ثار حول الهجوم على بيرل هاربور. فقد أصبح أسيراً للاقتناع الأنانيّ، والكثيب، بأنّ حياته ستنتهي من الآن فصاعداً على نحو قاطع، ولن يقدر له قطّ أن يحقّق العظمة. ولكن هل رغب في ذلك حقاً في غمار حياته؟

ومن ناحية أخرى، فإنّ كلّ الأعمال المتألّقة والبطوليّة تلاشت أمام هلوسة بنارس. ترى هل يرجع ذلك إلى أنّ لغز التناسخ قد طغى على ذهنه، وسلبه شجاعته، وجعله يدرك عبث كلّ الأعمال الجسورة، وعلمه في النهاية أن يسخر معرفته بالفلسفة من أجل حبّ الذات؟ وشأن رجل يسير عند حواف وهج المفترقات الناريّة، أحسّ

هوندا بأن ذهنه ينكمش في عنف من مرأى مثل هذه الاندلاعات
الجماعية المفاجئة المحتمدة.

كان يمكن رؤية الأعلام الصغيرة من بعيد والأيدي تلوح بها،
وسماع صيحات «يجيا الإمبراطور» وهي تدوي أمام القصر
الإمبراطوري. فاحتفظ هوندا في الميدان المرصوف بالحصى بمسافة لا
بأس بها، تفصله عن المتظاهرين. ولاحظ عن بعد لون العشب
الذأوي الذي يكسو ضفتي الخندق المحيط بالقصر، واللون الشتائي
الجهم الذي كسا أشجار الصنوبر. ومرّت به فتانان ترتديان سترات
العمل في المكاتب الزرقاء اللون وكانتا ضاحكتين وقد أمسكت
إحدهما بيد الأخرى، وانطلقتا مسرعتين نحو الجسر الممتد عند
مدخل القصر، وقد التمعت أسنانهما البيضاء وتألقت رطبة باللعب
تحت أشعة الشمس. أحدثت الشفاه الشتائية الجميلة المقوسة التي
ندت عنها ضحكات الفتاتين شقاً مؤقتاً جذاباً دافئاً في الهواء الصافي،
وهما تمرّان قرب هوندا. ولا بد أن الأبطال في الطائرات القاذفة
يحملون أحياناً بمثل هذه الشفاه، على وجه الدقة. فالشباب دوماً على
هذا الحال، يسعون إلى الأكثر صلابة، ومع ذلك يجتذبهم الأعظم
رقة. ترى أيمن أن يكون الموت هو الأعظم رقة الذي يسعون إليه؟
لقد كان هوندا نفسه ذات يوم شاباً واعدأ، ولكنه لم يكن بالشاب
الذي يجتذبه الموت.

تحوّل الفراغ المرصوف بالحصى، والممتد تحت شمس الشتاء، في
عيني هوندا إلى ميدان رحب قاحل، وعادت متوهجة إلى ذاكرته
اللقطة التي تضمها الصورة الحاملة عنوان «في جوار معبد توكوري:
صلاة على أرواح ضحايا الحرب»، وكان كيواكي قد أطلعه عليها قبل
ثلاثين عاماً، وأخذت الآن تطفئ بقوة فائقة على المشهد الممتد أمامه،

واحتلت في النهاية وعيه بأسره. لقد كانت تلك نهاية حرب، وها هي ذي بداية حرب أخرى. وعلى أية حال فقد كان ذلك وهماً حافلاً بالندر.

تحدرت الجبال هوناً، وقد لفها الغمام، لتسمق على مراحل متتابعة إلى يسار الصورة، بعيداً عن السهل الرحب الذي وقف فيه الجنود. وأما إلى اليمين فقد شمخت، في البعيد، ترقشها أجمات الأشجار، لتتوارى في الغبار الأصفر الذي خيم على الأفق. وهنا امتدت بدلاً من الجبال مجموعات من الأشجار تزايد طولها مع انتقال العين يمينا، وأطلت سماء مصفرة عبر الفواصل القائمة بينها.

تلك كانت خلفية الصورة. وأما في القلب فقد انتصب جليّ التفاصيل النصب الخشبي غير المطلي، والمذبح الذي علتة الأزهار وتموجت في الرّيح أطراف القماش الأبيض الذي يكسوه، وأحاط به ألوف الجنود وقد نكسوا الرؤوس.

رأى هوندا الصورة بوضوح بالغ. ومن جديد عادت إلى وعيه الأصوات الصّارخة «يحيا الإمبراطور» والأعلام المتموجة. وتركت الرؤية في فؤاده حزناً يستعصي على الوصف.

خلال الحرب، كرس هوندا وقت فراغه بكامله لدراسة السمسارة والتناسخ، واستشعر متعة في البحث الدائب عن الكتب العتيقة التي تعالج هذين الموضوعين. ومع أطراد التدهور التدريجي في جودة الإصدارات الجديدة، زادت الرفاهية المضمخة بالغبار، التي ينبعث الشعور بها في متاجر الكتب المستعملة، خلال الحرب. فهناك فحسب تتوافر عن طواعية المعرفة وممارسة هواية تتجاوز العصور. وبالمقارنة بالزيادة في تكلفة كل شيء فإن ثمن كل من الكتب اليابانية والغربية ظل منخفضاً.

حصل هوندا على معلومات غزيرة من هذه المجلدات التي حفلت بنظريات غريبة عن دورات الحياة وإعادة البعث.

وقد نسبت إحدى هذه النظريات إلى فيثاغورس، الفيلسوف الأيوني المنتمي للقرن الخامس قبل الميلاد. ولكن أفكاره عن دورات الحياة قد تأثرت بالأسرار الأورفية التي اجتاحت بلاد الإغريق بأسرها في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. وقد تطورت الديانة الأورفية بدورها من عبادة ديونيزوس التي أشعلت نيران الجنون، على امتداد القرنين اللذين سبقا ذلك، وحفلا بالحروب والاضطرابات. وتشير الحقيقة القائلة بأن الإله زيوس قد جاء من آسيا، واندمج بالأم الأرض وطقوس الزراعة، على امتداد بلاد الإغريق، إلى أن الاثنين قد استمداً من مصدر واحد حقاً. ومازال شخص الأم الأرض المتوهج بالنشاط يحيا في إهاب كاليجاتي التي رآها هوندا في كلكتوتا. وأما ديونيزوس فقد جسّد دورة حياة الطبيعة التي تجلّت في أرض

تراقيا الشماليّة. لقد وصل مع بداية الشتاء، ومات في ذروته، وبعث مع الربيع. وأياً كان الشخص المتدفق حياة وشهوة، ألذي قد يتربا ديونيزوس في إهابه، فإنه يظلّ تجسيدا لأرواح الغلال الشابة التي لا يعدو أدونيس أن يكون واحداً منها، شباب يتسمون بالجمال، ويلقون حتفهم قبل الأوان. وكما أنّ أدونيس قد اتّحد، على نحو لا سبيل إلى الشك فيه، بأفروديت، فإنّ ديونيزوس قد اتّحد على النحو ذاته بالأمّ الأرض، في طقوس صوفيّة تؤدّى في كثير من البلاد. وفي دلفي قدّس ديونيزوس مع الأمّ الأرض، وما الإله الرئيسيّ في عبادة ليرنا الصوفيّة إلاّ السلف المقدّس لكلّ منها.

لقد جاء ديونيزوس من آسيا. وتضرب عبادته التي جلبت معها السُعر، والانغماس في الملذّات الحسيّة، وأكل لحوم البشر، والقتل العمد، جذورها في آسيا، وقد طرحت مشكلة بالغة الأهميّة، هي مشكلة الرّوح. ولم يسمح اشتداد تدفّقات هذه الدّيانة بشفافيّة العقل ولا بالشكل المتناسك والجميل لأيّ من الإنسان أو الله، فقد كانت ديانة تهاجم خصب الحقول الإغريقيّة في الجمال الأبولوجيّ لتلك الحقول، وكأنّها سرب من الجراد تظلم من جرّائه السّماء، وتحتجب الشّمس، ويبعد الحقول ويلتهم محاصيلها. ولم يستطع هوندا إلاّ أن يقارن ذلك بالتّجربة التي خاض غمارها في الهند.

كلّ ما هو مقيت - الفسوق، الموت، الجنون، الوباء... كيف تأتي أن تغوي كلّ هذه الأشياء فؤاد الإنسان وأن تستدرج الرّوح إلى الخارج؟ ولم يتعيّن على الرّوح أن «توجد» متخلّية عن مستقرّاتها السّهلة، العتمة، الهادئة؟ ولم يأبى الفؤاد الإنسانيّ أن يقع في رحاب السكون الهادئ؟

ذلك هو ما وقع في التاريخ وللأفراد. ولئن لم يتحرّك البشر على

هذا النحو، فذلك مرده إلى أنهم قد شعروا يقيناً بأنه ليس بمقدورهم المساس بكمال الكون. . ومحمورين، شعثاً، ممزقين ثيابهم، كاشفين عن عوراتهم، والدم يشخب من اللحم النيء في أفواههم، لا بد أن البشر قد شعروا بأنهم يمثل هذه الأعمال يمكنهم أن يخذشوا سطح ذلك الكمال.

كانت تلك حقاً هي التجربة الروحية للحماسة الدينية، أي كون المرء عامر النفس بالله، والخروج من النفس، وهي التجربة التي قام الأورفيون بالارتقاء بها، وإضفاء الطابع الطقوسي عليها.

وشكّلت تجربة الخروج من النفس ما حوّل الفكر الإغريقي إلى مفهوم السمسارة والبعث. وكانت «النشوة» هي أعمق مصدر نفسي للبعث.

تقول الميثولوجيا الأورفية إن ديونيزوس قد أطلق عليه اسم ديونيزوس زاجريوس، وكان زاجريوس هو ابن زيوس وبرسفونيه، ابنة الأم الأرض، وكان الابن الأثير لدى أبيه، وكان من المقرر أن يكون خلفاً له، وحاكماً للكون، في المستقبل. ويقال إنه عندما وقع زيوس، أي السماء، في هوى برسفونيه، أي الأرض، حوّل نفسه إلى ثعبان هائل، دالاً بذلك على جوهر الأرض، لكي يبادلها الحب.

وقد أثار حبه لتلك الفتاة سخيمة زوجته هيرا. فاستدعت التيتان القابعين تحت الأرض، وقام هؤلاء بإغواء الوليد، زاجريوس، مستخدمين لعبة لتحقيق هذا الغرض. وما إن تمّ أسره حتى قتل، ومترق إلى أشلاء، وطهي، والتهمة التهاماً، وقدمت هيرا القلب وحده لزيوس. وبدوره أعطى زيوس القلب لسيملي، وولد ديونيزوس جديد.

وفي غضون ذلك استشاط زيوس غضباً من فعلة التيتان، فهاجمهم بالرعد والبرق، وعندما حاق الدمار بهم تماماً، ولد الإنسان من رمادهم.

وهكذا فقد أُعطي البشر الطابع الشرير الذي كان للتيتان، وامتلكوا في الوقت نفسه العناصر الجديرة بالإله، وقد نقلت عبر لحم زاجريوس الذي التهمه التيتان. وبناء على هذا فإن الأورفين ذهبوا إلى أن الإنسان ينبغي أن يعيد ديونيزوس، بالخروج من ذاته، وإعادة تكريس أصله القدسي، عن طريق عبادة ذاته. ويتواصل طقس الوليمة المقدسة في الطقس المسيحي الخاصّ بالقربان المقدّس.

ويبدو أن الموسيقي أورفيوس الذي قتلته نساء تراقيا، ومزقته أشلاء، قد أعاد تجسيد موت ديونيزوس. وأصبح موته وبعثه وأسرار هاديس مبادئ أورفية مهمّة.

وبما أن الأرواح الهائمة التي غادرت أجسامها عن طريق الخروج من النفس، كان من المعتقد أنها قادرة على القيام بالاتصال لوقت قصير بأسرار ديونيزوس، فقد كان البشر يدركون بوضوح الانفصال بين الجسم والروح. فلقد تشكّل لحمهم من رماد التيتان المترع بالشرّ، وعانقت روحهم عطر ديونيزوس الخالص. وفضلاً عن ذلك فإن المذهب الأورفيّ علّم أن المعاناة الأرضية لا تنتهي بالموت الحسيّ. فالروح التي تبارح جسمها تجد نفسها مضطّرة، بعد ذلك، لفضاء بعض الوقت في هاديس، قبل أن تعود إلى الظهور على الأرض، وتتناسخ في جسم إنسان آخر، أو حيوان. وهكذا كان مقدراً عليها أن تنطلق في «دوائر الحياة» التي لا نهاية لها.

والروح الخالدة، وهي أصلاً قدسية، يتعيّن عليها أن تمضي عبر هذا الدرب المظلم؛ بسبب خطيئة الجسم الأصلية، أي قتل التيتان

لزاجريوس. وحياء الإنسان على الأرض تضيف المزيد من الخطايا، وهي تجدد نفسها. وهكذا فإنّ البشر عاجزون دوماً عن الإفلات من المعاناة، في غمار دورة حياتهم. والإنسان لا يبعث، بالضرورة، في هيئة بشريّة، وإنما بحسب جسامه خطاياها، فقد يبعث في صورة حصان، أو خروف، أو طائر، أو كلب، أو حيّة قدرها أن تزحف في التراب.

وقد تمسك الفيثاغورسيون الذين وصفوا بأنهم خلفاء الأروفين، وعزى إليهم القيام بتطوير النظريّات الأورفيّة، بالمبادئ الفريدة الخاصّة بالبعث السّمساري والنّفس الكوني.

واستطاع هوندا أن يرصد أثراً للمبدأ الأخير في مفهوم الملك ميلندا عن الحياة والرّوح، وكان قد تأمّل طويلاً في الفلسفة الهندية. كما حمل شهباً بالنزعة الصّوفيّة للشنتوية القديمة.

ولدى مقارنتها بالمرح الذي يوحى بأجواء الحكايات الشعبيّة وتتضمّنه مجموعة «الجاتاكا»، وهي مجموعة حكايات مستمدّة من الحيوانات المختلفة التي عاشها بوذا، في صميم البوذية الثيرافاديّة، فإنّ نظريّة البعث الغربيّة التي أتشحت بسواد الكآبة الأيونية، أصابت هوندا بالكآبة، على الرّغم من الحقيقة القائلة بأنّها جاءت من مصدر واحد. ومن هنا فإنّه مال إلى أن يعير أذنأ صاغية هرقليطس الذي ذهب إلى القول بأنّ كلّ الأشياء تواصل التغيّر^(١).

(١) أليس طريفاً حقاً أن يشير ميشيا الذي كان مولعاً بالفكر والأدب الإغريقيين، إلى أنّ هوندا، في غمرة اهتمامه بفهم التناسخ، أعار أذنأ صاغية هرقليطس، بينما يعلم كلّ من يهتمون بالفلسفة اليونانية أنّ الشذرة الحادية والثمانين هرقليطس نصّها الحرقي: «عن فيثاغورس) كبير الغشاشين». ويقول الشّراح إنّ هرقليطس اعتبر فيثاغورس كبيراً للغشاشين، على وجه الدقّة، لأنّه يقول بتناسخ الأرواح؟! (هـ. م.)

تمتزج الحماسة الدّينيّة والخروج من النّفس في فلسفة الوحدة
الانتقاليّة التي تقول بأنّ الواحد هو الجميع، وأنّ الواحد مستمدّ من
الجميع. وفي المساحة التي تتجاوز الزّمان والمكان تختفي الدّات،
ويسهل تحقّق الوحدة مع الكون، ويستطيع الإنسان أن يصبح كلّ
شيء من خلال هذه التجربة الإلهيّة. فالإنسان والطّبيعة والطّير
والحيوان والغابات التي تصدر أوراق أشجارها الحفيف تحت لمسات
النّسيم والغدران التي تتألّق بقشور السمك والجبال المتوجّه الهام
بالسحب والبحار الزّرقاء المرقّشة بالجزر - كلّها بوسعها أن تفصل
ذواتها عن وجودها المرتبط بالأرض، وأن تتوحّد في تناغم. ولقد كان
مثل هذا العالم هو الذي تحدّث عنه هرقليطس.

الأحياء والموت

الأيقاظ والنّيام

الشّيوخ والشّباب هم جميعاً واحد

فعندما يتغيّر الأولون يصبحون الأخيرين

وحيثما يتحوّل الأخيرون من جديد يصبحون الأوّلين.

الإله هو النّهار واللّيل

الإله هو الشّتاء والصّيف

الإله هو الحرب والسّلام

الإله هو الخصب والمجاعة

فهو يتحوّل إلى أشياء عديدة.

النّهار واللّيل واحد

الطّيبة والخبث واحد

والبداية والنّهاية واحدة في الدّائرة.

تمثّل هذه الشذرات سمو فكر هرقليطس، وعندما أطلع هوندا

عليها خطف سناها بصره، وشعر بنوع من الاعتاق، ولكنه لزم في الوقت نفسه الحذر، خوفاً من أن ينحى بأسرع مما ينبغي الكفين اللتين غطى بهما عينيه المبهورتين، وكان مردّ ذلك إلى أمر محدّد، هو خشيته من أن يصاب بالعمى. وثمة أمر آخر، فقد شعر بأنه ما يزال أقلّ نضجاً في حساسيته وأفكاره من أن يتقبّل مثل هذه الإضاءة التي لا تعرف الحدود.

لهذا السَّبب أشاح هوندا بناظره بعض الوقت، ورُكِّز على دراساته
لنظريَّات السَّمسارة والتَّناسخ التي جرى إحيائها في إيطاليا، في
القرنين السابع عشر والثامن عشر.

لقد آمن توماسو كامبانيلا، وهو راهب عاش في القرنين السَّادس
عشر والسَّابع عشر، بنظريَّة عن دورة الحياة والتَّناسخ. وقد لقي هذا
الفيلسوف المهترق المتمرِّد الترحيب من فرنسا، بعد أن قضى تسعة
وعشرين عاماً في السَّجن. وهناك عاش سعيداً ومكرِّماً للغاية، خلال
السَّنوات الأخيرة من عمره. وعندما ولد لويس الرَّابع عشر، أهدى
إليه أطروحة، زعم فيها أنَّ الميلاد الملكي برهان على صحَّة نظريته
عن التَّناسخ.

تعلَّم كامبانيلا النظريَّة البراهميَّة الخاصَّة بالسَّمسارة والتَّناسخ، من
بوتيرو، وفي رحابها اكتشف أنَّ الأرواح تتناسخ، حتَّى في القردة، أو
الفيلة، أو الغربان. ومستعيراً الاعتقاد الفيثاغورسي بخلود الرُّوح
والتَّناسخ، عرَّف سكَان عمله الرئيسيَّ الموسوم «مدينة الرُّوح» بأنهم
ينبغي أن يكونوا: «رجال حكماء قدموا من الهند أصلاً، ليتجنَّبوا
تخريب المغول وفظائعهم». ودعاهم «براهمة فيثاغورسيين»، غير أنَّه
ترك اعتقادهم بالسَّمسارة ملتبساً. وذهب إلى القول بأنَّه بعد الموت لا
تمضي الرُّوح الإنسانيَّة إلى الجحيم أو المطهر أو النِّعيم.

ويقال إنَّ ديوانه الموسوم «سوناتات فوقازيَّة» يشير على نحو غامض
إلى السَّمسارة، وقد أعرب في هذه القصائد عن مشاعر الأسف:
«ليس بمقدوري الاعتقاد بأنَّ من شأن موتي أن يجلب التحسَّن

للشريّة، وفي غالب الأحوال فإنّه حتّى إذا أمكن تجنّب البؤس، فإنّ الشرّ يزدهر على نحو يتجاوز ما كان عليه في السّابق. إنّ الحواسّ الإنسانية تواصل الحياة إلى الأبد، بعد الموت، ومثل هذه الحواسّ تنسى المعاناة التي خاضت غمارها أثناء الحياة في رحاب هذا العالم. وإذا كنّا لا نستطيع حتّى أن نعرف ما إذا كانت حيواتنا السّابقة قد أمضيت في عذاب أو في سلام فكيف سنعرف أيّ شيء عمّا بعد الحياة؟»

وفي مفارقة مع الابتهاج العامر الذي شاهده هوندا في بنارس، فإنّ الأوروبيّين الذين كتبوا عن التناسخ، أثار شعورهم بالاكْتئاب ما في هذه الحياة من ضراء وحزن. وفضلاً عن ذلك فإنهم لم يسعوا إلى الفرحة، فيما بعد هذا العالم، وإنّما كان كلّ ما ينشدونه هو النسيان.

ومن ناحية أخرى فإنّ الفيلسوف المنتمي إلى القرن الثامن عشر جيوفاني باتيستا فيكو، المعارض العنيد لديكارت، قد تحمّس للقول بالتناسخ والعودة إلى الأبدية، وجعلت منه شجاعته ونزعت الكفاحية في خوض غمار صراعه، سلفاً لنيثشه الذي كان يؤمن بالأراء ذاتها. وقد قرأ هوندا بسرور فقرة من أعمال فيكو أشاد فيها باليابانيين، باعتبارهم شعباً ذا نزعة بطولية، على الرّغم من أنّه لم تتوافر له إلاّ معرفة بعيدة عن الوضع باليابان. «يرثي اليابانيون البطل، على نحو ما كان الرّومان يفعلون في عهد الحروب البونوية، وهم لا يعرفون الخوف في الأمور الحربية، ويتحدّثون لغة مشابهة للغة اللاتينية».

وقد فسّر فيكو التّاريخ من خلال مفهومه للعود. وذهب باختصار إلى القول بأنّ كلّ حضارة تصل إلى مرحلتها النّهائية «بوحشية مقصودة» تعدّ أسوأ بكثير من «الوحشية الطّبيعية» التي كانت تصفّ بها في السّابق. وهذا النوع الأخير من الوحشية يعني السّداجة

النَّبيلة. وأما النوع الأوَّل فيشير إلى خبث متَّسم بالجبين، وإلى نزعة احتياليَّة دفينَّة. وهكذا فإنَّ «الوحشيَّة المقصودة» أو «الوحشيَّة المتحضرة» ينبغي بالضرورة أن تفتى، بعد قرون من التقدُّم، وذلك من خلال تجرُّد «الوحشيَّة الطَّبيعيَّة».

وساور هوندا شعور بأنَّ مثلاً على هذا يمكن العثور عليه في تاريخ اليابان الحديثة القصير.

لقد آمن فيكو بنظام الكون على نحو ما تطرحه الكاثوليكيَّة، ومع ذلك فقد كان قريباً من نظريَّة السببيَّة من خلال الكارما. وقال على نحو لأدرِّي: «إنَّ الإله الخالق يشكُّل مع المخلوق كيانين منفصلين. وسبب الوجود وجوهر الأشياء مفرد في كلِّ كيان، ومن هنا فإنَّ المخلوق هو كيان مختلف تماماً عن الألوهيَّة، فيما يتعلَّق بجوهره».

وإذا ما اعتقد المرء أنَّ المخلوق - ذلك الذي يبدو كياناً - هو دراما وذات كونيَّة، وإذا ما اعتبر أنَّ سبب وجود المخلوق هو الكارما، فإنَّ الخلاص يغدو، إذن، تحقيق كيان الخالق في بُعد آخر.

وذهب فيكو في لاهوته إلى القول بأنَّ الخلق الرِّباني قد تغيَّر «داخلياً» إلى المخلوق و«خارجياً» إلى المادَّة. وهكذا خلق العالم في الموعد المناسب. وقال كذلك إنَّ بمقدور الرُّوح الإنسانيَّة، باعتبارها انعكاساً للإله، إدراك مفهوم اللاتناهي والأبد، وإنَّها خالدة. إنَّها لا تقتصر على الرُّوح، وينبغي على ذلك أنَّها ليست محدودة ولا مقيَّدة بالزَّمان. ولكنَّه لم يقدِّم إجابة على السَّؤال الذي يدور حول السَّبب في أنَّ الكيان الذي لا يعرف القيود ولا الحدود، تقيِّده أشياء محدودة، وزعم أنَّ هذا أمر لا سبيل إلى معرفته. ولكن تلك هي النقطة التي ينبغي أن تبدأ عندها حكمه نظريَّة السَّمسارة والتَّناسخ.

ولدى التأمل في الأمر فإنه من المدهش أن لا ترفض الفلسفة
الهنديّة، وهي تشدّد بإصرار على قوّة المعرفة، الخيال ولا الأحلام،
وأن لا تتطوّر قطّ نزعتهما اللأدرية الخاصّة.

عندما اكتشف هوندا أنّ تراثاً غريباً عن البعث قد تناقله في وهن مفكّرون قلائل منعزلون، حدّث نفسه متفكّهاً بأنّه كان من الطّبيعي تماماً أن يبدو الملك ميليندا الذي حكم شمال غربي الهند، في القرن الثاني قبل الميلاد، وقد نسي كلّية الفلسفة الفيشاغورسيّة المنتمية إلى بلاد الإغريق، عندما التقى بالحكيم ناجا سينا، وأمطره بالأسئلة. وقد كان عظيم الاهتمام، ومتشكّكاً في الوقت نفسه، في النظريّات البوذيّة، الأكثر عمقاً، والمتعلّقة بالسّمساره وتناسخ الأرواح.

يستهلّ الجزء الأوّل من كتاب «أسئلة الملك ميليندا»، على نحو ما يظهر في الترجمة اليابانيّة لمجموعة المبادئ البوذيّة، بالوصف التّالي لعاصمة ملك ذلك الحاكم:

«على هذا النّحو تناهى إليّ ما سمعت: في أحد الأقاليم الّتي استوطنها الإغريق، كانت هناك مدينة يقال لها ساجارا، وهي مركز عظيم للتّجار والتّجارة الخارجيّة، وتتميّز بجبال أرجوانيّة ومياه صافية وحدائق وغابات وحقول، وتشكّل جنّة طبيعيّة على الأرض تسرّ النّاطرين، وأهلها مخلصون في تمسّكهم بالدين. وفضلاً عن ذلك فإنّ أعداءهم طردوا جميعاً بعيداً، فلا يساورهم أدنى شعور بالافتقار إلى الأمن، أو الوقوع تحت طائلة القهر. وقد أحيطت قلعة الملك بالتحصينات وبكثير من الأبراج والبوّابات الجانيّة الهائلة الّتي يخضع مرآها القلوب، وبأسوار شهباء سامقة، وخنادق عميقة، وتكاملت الحراسة المتوافرة لها. وصمّمت ميادين المدينة وتقاطعات طرقها وأسواقها على النّحو الأكثر ملاءمة، وامتلأت المتاجر، الزيّنة على نحو جميل، بعروض تجارة ثمينة لا حصر لها. وتضفي عدّة مئات من

المستشفيات التي تعالج النَّاسَ بلا مقابل جلاً وعظمة على المدينة، بينما شمخت ألوف من الدُّور والقصور السَّامقة وكأنَّها جبال الهيمالايا مطاولة للسَّحب. وفي شوارع المدينة تتبدَّى جموع النَّاسِ، ويلوح الرِّجال كأشجار الصنوبر والنَّساء كالأزاهير، جنباً إلى جنب مع رجال دين ومحاربين ومزارعين وتجار وأقنان، وأناس من كلِّ الطَّبقات، وينطلقون في جماعات.

ويكرم المواطنون وفادة الفقهاء والمعلِّمين المنتمين إلى الأديان والمذاهب كافَّة. وهكذا فإنَّ ساجارا تبدو موثلاً للحكماء والدَّراسين من كلِّ الاتجاهات. وكذلك في الشُّوارع يقف بين متجر وآخر تجار ملبوسات جاهزة، ذات مقاسات صغيرة وكبيرة، يتعاملون بأقمشة منسوجة في بنارس، يطلق عليها اسم «خوتباري» وكلِّ أنواع الملابس والمنسوجات الأخرى، وبنوع عبير فواح من سوق الزَّهر والبخور فيطهر هواء المدينة. وثمة متاجر أخرى تتعامل باللالئ وغيرها من الجواهر التي يغوص من أجلها الغواصون في البحر بالسلع المصنوعة من الذهب أو الفضة أو النحاس أو الحجر. ويبدو الأمر كما لو أنَّ المرء قد خطا وسط منجم للجواهر، يخطف الأبصار، ثمَّ إنه عندما يتَّجه المرء نحو منعطف آخر يجد متاجر رجة للحبوب والأدوات المنزليَّة تمتلئ ببضائع لا تقدر بثمن، ويعثر على متاجر لجميع أنواع المأكولات والمشروبات والفظائر، فليس ثمة ما ينقص المدينة. وباختصار فإنَّ ساجارا تنافس أوتارا كورو في الثراء، ويضاهي ازدهارها ازدهار أراكامندار، «مدينة السَّماء».

وإذ كان الملك ميليندا شديد الثِّقة بالنَّفس، بارعاً في فنِّ الخطابة، فقد ازدري الهنود باعتبارهم من سقط المتاع الثَّقافي. وقد التقى للمرَّة

الأولى في هذه المدينة المجيدة التي تسلب اللب بالحكيم ناجاسينا
الذي كان حكيماً يفوق الملك ذكاء وصفاء ذهن .

سأله الملكُ الحكيم قائلاً :

- أيها الحكيم، عندما أدعوك ناجاسينا، فمن عسى تراه يكون
ناجاسينا على وجه الدقة؟

ردّ الحكيم بسؤال :

- وماذا تظن أنّ ناجاسينا يمكن أن يكون؟

- أيها الحكيم، أظنّ أنّ الحكيم هو ما يوجد داخل جسم، أنه
حياة أو روح تدخل ذلك الجسم كريح أو نفس .

ذُكرت إجابة الملك هوندا بنظرية فيثاغورس الخاصة بالنفس
الكويني، أي أنّ كلمة النفس في اللغة اليونانية القديمة كان يراد بها
«النفس». وإذا كانت النفس الإنسانية نفساً، فإنّ الإنسان يستمدّ
تماسكه من الهواء وهكذا فإنّ الكون بأسره يتماسك بفعل الهواء
والنفس. وقد كانت تلك هي النظرية الأيونية الخاصة بالفلسفة
الطبيعية.

سأل الحكيم الملك عن السرّ في أنّ نفس من ينفخ في محارة أو ناي
أو قرن لا يعود بعد إخراجه قطعاً، ومع ذلك فإنّ من يخرجها لا يموت .
فعجز الملك عن الردّ، وعندئذ أدلى ناجاسينا بقول أشار إلى الفارق
الأساسيّ بين الفلسفة اليونانية والفلسفة البوذية :

- إنّ الروح ليست نفساً. وهذا الأخير، إذ يستنشق أو يطرد، لا
يعدو أن يكون طاقة الجسم الكامنة، أو القوة.

شعر هوندا، على الفور، بأنّ بمقدوره التنبؤ بالحوار الذي سيعقب
ذلك، وهذا الحوار يظهر بالفعل في الصفحة التالية من ذلك الكتاب
المشار إليه .

«سأل الملك الحكيم قائلاً:

- أيها الحكيم هل يبعث أيّ أحد وكلّ أحد بعد الموت؟

- البعض يبعثون، والبعض لا يبعثون.

- أيّ نوع من الناس عساهم يكونون؟

- أولئك الذين ارتكبوا الخطايا سيبعثون، وأمّا من تجرّدوا من

الخطايا، واتّسموا بالنّقاء، فلن يبعثوا.

- أترأى ستبعث أيّها الحكيم!؟

- لئن التصّقت في فؤادي بالحياة، فسوف أبعث عندما أموت،

ولئن لم يقدر لي ذلك فلا مبعث لي.

- فهمت.

وانطلاقاً من هذه النّقطة اتّقدت رغبة متوهّجة في التعلّم في فؤاد الملك ميليندا. وراح يطرح بالحاف سؤالاً بعد آخر، عن السّمسارة والتّناسخ، ولاحق الحكيم بالانقضااض التحقيقيّ الرأسي المتضمّن في المحاورّة الإغريقيّة، مطالباً بالبرهان على «انعدام النّفس» الذي تقول به البوذيّة والسّؤال المتعلّق بالسّرّ في أنّ البشر الذين لا يملكون «نفساً» يمضون عبر السّمسارة، والجوهر الذي يخضع لقانون السّمسارة. ذلك أنّه إذا كانت السّمسارة تحدث من خلال سياق قوامه الأسباب والنتائج ويؤدّي فيه السّبب الجيّد، من خلال المكافأة، إلى نتيجة جيّدة، والسّبب السيّئ إلى نتيجة سيّئة - فلا بدّ أنّ هناك جوهرأ مضيئاً، خالداً، مسؤولاً عن الأعمال السيّية. ولكن الأتمن، أو النّفس الكونيّة التي اعترف بها في أيام «الأوبانيشاد» وأنكرت تمام النكران في تعاليم الأبهيدارما تميّز المدرسة التي ينتمي إليها ناجاسينا. وبسبب المذهب وبسبب جهله بالنّظام التفصيلي لمدرسة «الووعي وحده» التي تطوّرت فيما بعد، اكتفى ناجاسينا بالردّ قائلاً:

- ليس هناك موضوع سمساري كالجوهر.

ولكن هوندا رأى جمالاً، لا سبيل إلى وصفه، في المثل الذي ضربه
ناجاسينا لشرح السمسارة والتناسخ، وهو مثل الشمعة النحيلة
المقدسة التي لا يظل لها على حاله في المساء، وعند انتصاف الليل،
وفي الفجر، ومع ذلك فإنه لا يختلف بالمثل، وهو يواصل اتقاده على
الذبالة نفسها طوال الليل. فالوجود الكارمي للفرد ليس وجوداً
جوهرياً، وإنما هو مجرد تتابع لظواهر مشابهة للهب.

وهكذا علم ناجاسينا أن الزمان هو وجود السمسارة ذاته،
بالطريقة التي ناصر بها تقريباً الفلاسفة الإيطاليون هذه الفكرة بعد
ذلك بقرون عديدة.

لم يكن إلاً أمراً طبيعياً أن يختار الملك ميلندا كاهناً بوذياً كرفيق في هذه المحاورات. ذلك أنّ الحاكم، بحكم كونه أجنبيّاً، مستبعد بالضرورة من رحاب الهندوسية. فقد كانت هذه الديانة ترفض على نحو تعسفيّ مَنْ وُلد خارج نظام الطوائف الهندي، سواء أكان ملكاً أم لم يكن.

وكان هوندا قد صادف للمرة الأولى كلمتي «السّمساره» و«التناسخ» منذ ثلاثين عاماً في دار كيواكي ماتسوجاي، حيث قام، بعد سماعه عظة رئيسة دير جيسو، بقراءة «قوانين مانو» في الترجمة الفرنسيّة التي أنجزها لوي ديلانشامب. وقد أورثت هذه القوانين التي سنّت بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثاني بعد الميلاد، فكرة السّمساره التي تكرّست في بداية القرن الثامن قبل الميلاد في «الأوبانيشاد» بما تتضمّنه من إيمان بوحدة براهما والنفس الكونيّة. وجاء في نصّ «البرهادا رانياكا أوبانيشاد» ما يلي:

«حقاً إنّ من يأتي عملاً طيباً يصبح خيراً، ومن يقترف عملاً سيئاً يصبح شريراً، فالمرء يغدو نقيّاً من خلال نقيّ الأعمال، ويسودّ وجهه من خلال الأثام. ولهذا يقال: إنّ الكائن البشريّ يتركّب من الكاما، أو الرّغبة، والمرء إذ يتبع الكاما إنّما يخلق الإرادة، وبتابعه الإرادة يخلق الكارما، ومن خلال الكارما تكون السّمساره».

وباستعادة أحداث الماضي فإنّ تجربة هوندا في بنارس ربّما كانت مقدّرة قبل وقوعها، منذ ذلك اليوم الذي عرف فيه قوانين مانو وكان في التاسعة عشرة من عمره. فهذه القوانين تضمّ كلاً من الدّين

والأخلاق والعرف والقانون، ابتداءً من خلق السماء والأرض، وانتهاءً بالسَّمسارة. وخلال حكم البريطانيين للهند سمحوا، عن حكمة، باستمرار العمل بهذه القوانين، باعتبارها قواعد عمليّة بالنسبة للهندوس القاطنين هناك.

وبعد قراءة ثانية للقوانين تمكّن هوندا للمرّة الأولى من وضع يده على أصل الابتهاج والعبادة اللذين شاهدهما في بنارس، فقد قرأ في الفصل الأوّل الهائل وصف ميلاد براهما، الجدّ الأعلى للعالم بأسره، وفيه أنّ إلهاً وجد على نحو عفوي قد طرد عماء الظلمة، وبدأ في التألّق. وفي البداية، خلق الماء وغرس بذرة فيه، فنمت البذرة، وأصبحت بيضة ذهبية. وبعد ذلك بعام كسر البيضة، ومنها ولد براهما. وكان الماء الذي غذا الإله هو ماء بنارس.

يصنّف مبدأ التناسخ، المتضمّن في قوانين مانو، البعث الإنسانيّ باعتباره ينقسم على وجه التقريب إلى ثلاثة أنواع. ثلاث طبيعات تحكم أجسام كافّة الكائنات ذات الحسّ: الحكمة (ساترافا) وهي بهيجة وجميلة ومترعة بالعواطف النقيّة المتألّقة، وتبعث في صورة إله. الجهل (راجاس) وهو يحبّ المشاريع الخاصّة بالأعمال، وبعيد عن الجسم، ويميل إلى اتّباع الأعمال الخبيثة، ومدمن على الملذّات الحسيّة، ويبعث في صورة إنسان. الغضب (تاماس) وهو يتبع حياة الولوغ والتحلّل والقذارة والقسوة وعدم الإيمان والشرّ، ويبعث في صورة حيوان.

وتُدْرَج التعديّات التي تجلب التناسخ في صورة حيوانات، بصورة تفصيليّة: إنّ قاتل البراهمي يُلجج جسم كلب أو خنزير أو حمار أو جمل أو بقرة أو ماعز أو خروف أو غزال أو طائر، والبراهمي الذي يسرق

مألاً من براهمي آخر يُبعث ألف مرّة في صورة عنكبوت أو حيّة أو
سحليّة أو حيوان مائيّ، ومن يقتحم فراش شخص نبيل يُولّد مائة
مرّة في هيئة عشب أو شجيرة أو كرمة أو حيوان لائح. ومن يسرق
الحبوب يصبح جرداً. وسارق العسل يصبح قرادة خيل. وسارق
الحليب يُولّد في هيئة الطير. ومختلس النبات يصبح كلباً، وسارق
اللحم يُبعث في هيئة الكوندور، وسارق اللحم الدسم يغدو طائر
غاق. وسارق الملح يتناسخ في صورة صرّار الليل. وسارق الحرير
يصبح حجلاً. وسارق الكتان يُبعث ضفدعاً، ولصّ القطن يغدو تمّاً،
وسارق البقرة يغدو إجمانة، ومختلس البخور يتحوّل إلى فأر مسك،
ولصّ الخضر يغدو طاووساً، وسارق النار يصبح بلشوناً، ولصّ
الأثاث يعسوباً، ولصّ الجواد نمراً، وخاطف المرأة دّباً، وسارق الماء
وقواقاً، ومختلس الفاكهة قرداً.

استندت البوذية الثيرافادية التايلاندية، مع ذلك، إلى المبادئ الساذجة المتعلقة بـ «الجاتاكا» أو «قصص الميلاد» في مجموعة المبادئ البوذية الجنوبية التي احتفظت بالكثير من طابع نصوص بالي الأصلية، بل لم يكن من الأمور الغريبة بالنسبة لشاكياموني، الذي لم يقترف تعدياً وهو في صورة بوذيساتفا في حيواته السابقة، أن يبعث في هيئة جرد أو تمّ ذهبي.

لم تُعرف في اليابان التعاليم الجنوبية المعمول بها في تاييلاند إلا في أواخر القرن التاسع عشر. وفي غضون ما يتراوح بين مائة عام ومائتين بعد موت بوذا، انقسمت هذه التعاليم إلى مدارس عديدة، يطلق عليها عادة المذاهب الثيرافادية الثمانية عشر. ومازالت تعاليم هذه المذاهب التي جلبها ماهيندا إلى سيلان في عهد الملك أشوكا في القرن الثالث قبل الميلاد، سارية هنالك، وفي بورما، وتاييلاند، وكمبوديا.

وفي مجموعة المبادئ الثيرافادية المكتوبة في بالي، فإنّ الضوابط الدقيقة المطروحة في قسم الـ «فينايا» أو «الأحكام» مانزال تنظّم حياة للكهنة السياميين اليومية. ويخضع الكهنة لمائتين وخمسين وصية، وأمّا الكاهنات فيخضعن لثلاثمائة وخمسين وصية.

وحرص هوندا على تعلّم المزيد عن المفهوم التايلانديّ عن السمسارة والتناسخ، وكيف يختلف عن مبدأ اليوشيكى الذي يعزو وجود العالم الخارجيّ إلى التصوّر الجواني، وما هي طبيعة خصائص هذا المفهوم. وأياً كان ما تؤمن به الأميرة الصّغيرة فإنّ هوندا أراد أن

يعرف ما هي الأفكار عن السَّمسارة التي يؤمن بها الكهنة الموجودون في كلِّ مكان من بانكوك بأرديتهم الزعفرانية. وانكبَّ على القراءة.

وهكذا اكتشف أن مبادئ المذاهب الثيرافادية الثمانية عشر تضرب جذورها في مدرسة الأبهيدارما التي انتمى إليها الحكيم ناجاسينا الذي دارت المحاورات بينه وبين الملك ميليندا. وأما فيما يتعلق بانتشار «أسئلة الملك ميليندا» فإن بعض الباحثين يذهب إلى القول بأن هذا العمل ربما جرى تدوينه في شمال غربي الهند، حيث كانت هناك في ذلك العهد مستعمرات إغريقية، وفيما بعد انتقل باتجاه الشرق وصولاً إلى إقليم مجادا، حيث نقل إلى لغة بالي. وفي نهاية المطاف، ومع إضافة بعض المواد، وصل إلى سيلان، وانتشر منها إلى بورما وتايلاند متحوّلاً إلى الـ «الميليندا بانها» المنتمية إلى مجموعة المبادئ التايلاندية.

وقد نفترض على هذا النحو أن ذلك المفهوم التايلاندي المحدّد للسَّمسارة هو، على وجه التقريب، المفهوم الذي دافع عنه ناجاسينا. والمعتمد الرئيسي لهذا المذهب هو أن الجوهر الكارمي الذي يسبب السَّمسارة هو الفكر أو الإرادة. وهذا يتسق مع «الأجاماس»، وهو قريب للغاية من الفكر البوذي الأوّلي. ويذهب أتباع هذا المذهب إلى القول بأنه فيما يتعلق بالتحفيز فليس هناك أساساً خيراً أو شراً في البشر، أو المادة في العالم الخارجي. وما يجعلهم اختياراً أو أشراراً هو، على نحو كامل، من نتاج الدّهن أو الفكر أو الإرادة.

لا بأس بالأمور، حتى هذا الشّوط. ولكن في غمرة تفسير «انعدام النّفس أو «الأناتمن» تضي مدرسة الأبهيدارما انطلاقةً من الحقيقة القائلة بأن العالم الماديّ بأسره هو «أفياكرينا» أو «غير قابل للتسجيل» سواء باعتبارهِ خيراً أو شراً - فهو محايد. تصوّر على سبيل المثال عربة

تجربها الجياد. فعلى الرغم من الحقيقة القائلة بأن كلّ مكونات هذه العربة هي مكونات مادية بسيطة، فإنها يمكن أن تتحوّل إلى أداة للجريمة إذا ما دهس السائق رجلاً ولاذ بالفرار. وهكذا فإنّه، لما كان الذهن والإرادة سببين لاقتراف التعديّات وللكارما، فإنّ الإنسان بصفة أساسية «بلا نفس» أو «أناत्म». غير أنّ الفكر ينطلق بآلة من الجسم ويفرز السمسارة والبعث من خلال الأسباب الكارمية الستة: العاطفة، الغضب، الآراء الخاطئة، اللامبالاة، اللاغضب، الآراء الصائبة. إنّ الفكر هو سبب السمسارة، ولكنه ليس الجسم المتنقل. وما يمكن أن يكونه هذا الجسم لا يتمّ إيضاحه على الإطلاق، والضوء الراهن المشتعل خلال مساء المرء الأخير في هذا العالم هو سنى ميلاد حياة أخرى يرتبط بها هذا الضوء.

ولدى إمعان هوندا في التأمل بدا له أنّه يفهم، على نحو أفضل، ما لا بدّ أنّه دائر في خلد الأميرة التايلاندية الصغيرة.

مع كلّ موسم مطير تفيض أنهار بانكوك، وتخفي على التوّ الفواصل بين الطريق والنهر، وبين النهر وحقول الأرز. وتغدو الطّرق غدراناً، والأنهار جاذات رحبة. وكان من المألوف يقيناً، حتّى في ذهن طفلة صغيرة، أنّ فيضاً من الأحلام ينداح ليغزو الواقع، وأنّ الماضي والمستقبل إذ يحيطان حواجزهما يفيضان متدفّقين إلى هذا العالم. وإذ تطلّ الأطراف الخضراء لشتلات الأرز من الحقول الغارقة في ماء الفيضان، ينساب ماء النهر والحقل معاً تحت شمس واحدة، ويعكس تجمّعات سحب الصيف ذاتها.

وبالمثل فإنّ فيضاناً من الماضي والمستقبل ربّما وقع في اللاوعي من ذهن الأميرة سنى البدر، وربّما كانت الظواهر المعزولة المنتمية لهذا

العالم، مثل جزر ترقيش الامتداد المائي الشاسع الذي يعكس القمر
بجلاء بعد هطول المطر، هي أصعب الأمرين على التصديق. لقد
انهارت الجسور، وتبددت كل الفواصل، وشرع الماضي يتحدث بلاء
حرّيته.

ساور هوندا الآن شعور بأنّ في مقدوره العودة بيسر إلى نظريّة اليوشيكوي التي أثارت حيرته البالغة في شبابه. فقد كان بمقدوره استيعاب نسق البوذية المهائنية الذي يشبه كاتدرائية باذخة، بعد أن أتيج له العون المتمثل في اللغز الجميل الذي تركه وراءه في بانكوك. ورغم ذلك فإنّ مبدأ اليوشيكوي كان هيكلًا دينيًا - فلسفيًا هائلًا، على نحو باهر، قدّمت البوذية من خلاله، بعد أن نفت الأتمن والروح، إيضاحاً شديد الدقّة والإحاطة بالتفاصيل للتعقيدات النظرية التي تدور حول الكيان المنتقل في غمرة البعث والتناسخ. وشأن معبد الفجر فإنّ هذا الإنجاز الفلسفي المركّب، على نحو شامخ، كان يخترق المدى الرّحب لسماء الصّبح الزّرقاء التي كانت في ذلك الوقت الغامض الذي يسبق الشّروق تحفل بالرياح النديّة، وبالضّياء المؤتلق.

لقد أوضح مبدأ اليوشيكوي، في نهاية المطاف، التناقض بين السّمسارة والأتمن، وهي معضلة استعصت على الحلّ طوال قرون عديدة: ما هو الكيان الذي ينتقل من حياة إلى أخرى؟ ما هو الكيان الذي يتحرّر في جنة الأرض النقيّة؟ ماذا عساه يمكن أن يكون؟

لقد استخدمت في البداية الكلمة السنسكريتية المقابلة لليوشيكوي، وهي «فيچنابتي ماتاراتا»، أيّ «الوعي وحده»، للمرّة الأولى في الهند من قبل أسانجا. وقد كانت حياة أسانجا شبه غارقة في الأساطير بحلول الوقت الذي أصبح فيه اسمه معروفاً في الصّين، في بداية القرن السّادس، وذلك من خلال «التشينج كانج هسين

لون» أو «رسالة الفجراريشي». وتضرب نظرية اليوشيكوي جذورها في سوترات المهايانا أبهدارما، وكما سنرى فإن «جائنا» أو «مقطوعة شعرية» في هذه الكتابات تشكّل لب أفكار اليوشيكوي. وقد أوضح أسانجا مبادئ اليوشيكوي بشكل منسق في عمله الرئيسي وهو «المهايانا سامبا ريجراها شاسترا» أو «مجموعة من رسائل المهايانا». ومن المهم أن نلاحظ أن الأبهدارما هي كلمة سنسكريتية تشير إلى الجزء الأخير من المعتقد البوذي الذي يضمّ السوترات والأحكام والرسائل المدرسية، وهو عملياً مرادف للرسائل المدرسية.

إننا نمضي على نحو معتاد في أداء مهامنا في الحياة، من خلال التشغيل الذهني لما يسمّى بالحواس الست: البصر، السمع، الشم، الذوق، اللمس، الذهن. ولكن مدرسة اليوشيكوي كرست حاسة سابعة هي «الماناس» التي تنطبق، في أوسع معانيها، على كل القوى الذهنية التي تدرك النفس والهوية الفردية. ولكنها لا تتوقف عند ذلك الحد، وإنما تدعو هذه المدرسة إلى مفهوم «ألاياجينانا» أو «الوعي المطلق». وإذا يترجم الألايا باللغة الصينية بما مفاده «الوعي المخزن»، فإنه يخترن بعيداً جميع «بدور» العالم الظاهري.

الحياة إيجابية ونشطة. ووعي الألايا يؤدي مهمته، وهذا الوعي هو ثمرة كل المكافآت، وهو يخزن كل البذور التي تشكّل نتائج النشاط بأجمعه. وهكذا فإن كون المرء حياً يشير إلى أن الألايا نشط.

وهذا الوعي في حراك وتغير دائم، وكأنه شلال أشهب مزبد. وبينما الشلال بادٍ لأعيننا على الدوام، فإنه ليس هو ذاته، وإنما هو يتغير، بين لحظة وأخرى، فثمة ماء جديد يتساقط بلا انتهاء، متدفقاً، مندفعاً، باعثاً أبخرته الغائمة عالياً.

وعمد فاسوباندو إلى التوسّع في نظريّة أسانجا، فذكر في عمله الموسوم «ترعمشكافي جناتيكاريكا» أو «المدائح الثلاثين لليويشيكبي» أن: «كلّ شيء في تغيّر دائم، مثل سيل منهمر». وقد كانت تلك هي العبارة التي سمعها هوندا من شفتي رئيسة دير جيشو العجوز، وواصلت استقرارها في صميم فؤاده، وذلك على الرّغم من أنه لم يكن في ذلك الوقت على تمام الصّفاء مع نفسه، بسبب كيواكي.

وفضلاً عن ذلك فإنّ هذه الفكرة كانت مرتبطة برحلته إلى الهند، وبذكرى الشلالين المنحدرين من ارتفاع هائل إلى نهر واجورافي أجانتا، والتدفّقات التي لطمت ناظريه لحظة خروجه من «الفيهارا» والشّعور الذي ساوره بأنّ أحداً قد غادر المكان لتوه.

وفي تلك الشلالات التي ربّما كانت الأخيرة والمطلقة في أجانتا انعكست الصّورة المرتدّة كأنّما عن صقال مرآة، لشلال سانكو في جبل ميوا، حيث التقى هوندا بإيساو للمرّة الأولى، وبالشلال الكائن في حديقة ماتسوجاي، حيث التقى برئيسة الدير العجوز.

الآن غرست في وعي الألايا كافّة بذور النتائج كلّها. لا نتائج الحواس السّبع التي تحدّثنا عنها ونشاطها خلال الحياة، ولا نتائج الأنشطة الذهنيّة فحسب، وإنّما غرست فيه كذلك بذور الظواهر الفيزيائيّة التي هي موضوعات مثل هذه الأنشطة الذهنيّة. ويطلق على عمليّة غرس البذور في الوعي اسم «التعطير» على نحو مشابه لعمليّة تخلّل البخور للملابس، وهي العمليّة التي يشار إليها باسم «شوجي كونجو» أو «تعطير البذرة».

وستختلف عمليّة التصوّر، بحسب ما إذا كان المرء ينظر إلى وعي الألايا باعتباره نقيّاً، أو محايداً، أو غير ذلك. وإذا ما اعتبر محايداً فإنّ

القوة التي تولد السمساره والتناسخ ينبغي أن تكون قوة خارجية كارمية. وكل الإغراءات، كل الأشياء التي في العالم الخارجي، كل أوهام الحواس، من الحاسة الأولى حتى السابعة، تمارس نفوذاً، على نحو لا يتوقف، على الأليا من خلال قوة الكارما.

ووفقاً لمبدأ اليوشيكى فإن بذور القوة الكارمية - البذور الكارمية - هي أسباب غير مباشرة أو «كارما إضافية» ووعي الأليا ذاته هو كل من الكيان المتقل والقوة المولدة للسمساره والتناسخ. وقد ذهب أسانجا إلى القول بأن هذه الفكرة ستفضي إلى النتيجة المنطقية القائلة بأن ووعي الأليا ذاته ليس نقياً تمام النقاء، وأنه حيال كونه مزيجاً من الماء والحليب، إن صح التعبير، فإن مكوناته المغشوشة أو الزائفة تولد عالم الوهم، بينما يجلب الجانب النقي الاستنارة وستتجسد الجذور الكارمية للشر والخير، التي يضمها مستقبلاً، وذلك بحسب ما إذا كانت مكافأة على أعمال خيرة أو شريرة في الماضي. وهذا هو الفارق بين مبادئ مدرسة اليوشيكى ومبادئ مدرسة الكوشا، إذ تشدد الأخيرة على القوة الخارجية للكارما. وقد طورت مدرسة اليوشيكى مفهومها الفريد عن هيكل العالم، القائم على الفكرة القائلة بأن بذور ووعي الأليا تولد هذا الوعي، وتشكل القانون الطبيعي (مثلما تؤدي الأسباب إلى نتائج) وأن هذه البذور تنتج من خلال البذور الكارمية القانون الأخلاقي (الأسباب المختلفة تؤدي إلى نتائج مختلفة).

وهكذا فإن ووعي الأليا هو ثمرة جزاء الكائن الواعي، والسبب الأساسي للوجود بأسره. فعلى سبيل المثال، يعني تجسد ووعي الأليا الخاص بإنسان ما وجود هذا الإنسان.

وعلى هذا النحو فإن ووعي الأليا يصنع أوهام العالم الذي نعيش

فيه . وجذور المعرفة بأسرها، إذ تعانق موضوعات الإدراك كافة، تجعل هذه الموضوعات تتجسّد . والعالم يتألف من الجسم العضويّ وجذوره الخمسة^(١)، والعالم الطبيعيّ أو الماديّ، و«البذور»، أيّ الطاقة التي تجعل العقل والمادة بأسرهما يتجسّدان . والنفس التي تعتقد بإصرار أنّها واقعا، والروح التي نفترض أنّها تواصل الوجود بعد الموت، إنّما يولدان معاً من وعي الأليا الذي هو خالق كلّ الظواهر، ومن هنا فإنّها يعودان معاً إلى هذا الوعي، وقد خضع كلّ شيء للتصوّر.

ومع ذلك فإننا إذا فكّرنا بحسب اصطلاح اليوبشيكوي «الوعي وحده» في موضوع ما باعتباره موجوداً بالفعل في العالم، وافترضنا أنّ كلّ شيء ليس إلاّ نتاجاً للتصوّر، فإننا نخلط بين الأتمن، أو النفس الكونية، وبين وعي الأليا، ذلك أنّ الأتمن في ظلّ ظروف معيّنة هو كيان متواصل، ولكنّ وعي الأليا هو «دفع من انعدام النفس» لا يتوقّف.

ويحدّد أسانجا في عمله الموسوم «مجموعة من رسائل المهايانا» ثلاثة أنواع من «التعطير» تتعلّق بتلك البذور التي تسبّب تجسّد عالم الوهم، بعد التعطير بوعي الأليا .
والبذرة الأولى هي بذرة الاسم .

فعندما نقول على سبيل المثال إنّ الوردة زهرة جميلة، فإنّ الدلالة «وردة» تميّزها عن الزهور الأخرى . وللتيقن من مدى جمالها نمضي إلى

(١) يقصد بالجذور الخمسة الأعضاء الخمسة للحواس، أي العينين والأذنين والأنف واللسان والجسم، باعتبارها جذوراً لعملية المعرفة .

وردة، ونحيط علماً بمدى اختلافها عن الأزهار الأخرى. إنَّ الوردة تتجلى لنا باعتبارها «اسماً»، ويستنهض المفهوم الخيال، وعندما يتصل الخيال بالموضوع الحقيقي فإنَّ عبيره ولونه وشكله يجري تخزينها في الذاكرة. أو أنه من الممكن أنَّ جمال الزهرة التي رأيناها دون أن نعرف اسمها قد دفعنا إلى أن نرغب في الحصول على المزيد من المعلومات عنها، ولدى سماعنا اسم «الوردة» فإننا نتصوِّرها. وهكذا فإننا نتعلَّم المعاني والأسماء والكلمات وموضوعاتها، وكذلك العلاقات التي تربط بينها. وليست كلَّ الأشياء التي نتعلَّمها بالضرورة أسماء جميلة، كما أنها ليست على الدوام معاني دقيقة، ولكن كلَّ شيء نحوزه بالإدراك والتفكير كان مودعاً منذ زمن سحيق في الذاكرة، وهو يستحضر ظواهر العالم.

والبذرة الثانية هي بذرة الارتباط بالنفس.

عندما يؤدِّي الضرب السَّابع من ضروب الوعي الثمانية، «الماناس»، إلى أن تظهر، في إطار وعي الألبا، النزعة الأنويَّة بتمييزها بين النفس والآخرين، وأن تشدَّد هذه النزعة على النفس الفردية المطلقة، وبقيامه بالفعل بتحريك ضروب الوعي الستة الأخرى فإنَّه يؤدِّي إلى سلاسل من عمليات «تعطير النفس». وما كان بوسع هوندا إلا أن يعتقد أنَّ كلاً من تكوين ما يسمَّى بالوعي بالنفس أو بالذات في العصور الحديثة وكذلك مغالطة الفلسفة الأنويَّة يضربان جذورهما في هذه البذرة الثانية.

والبذرة الثالثة هي بذرة الترايلوكايا

و«الترايلوكايا» تعني «العوالم الثلاثة»، والمراد بها عالم الوهم بأسره، وهو يتألف من الرغبة الحسية والشكل وغياب شكل الروح النقية.

واللوكايا تمثّل السّبب . وهذه البذرة، وهي سبب العوالم الثلاثة التي
قوامها المعاناة والوهم، هي بذرة الكارما نفسها. ويعتمد اختلاف
المصائر وجزئية السعادة أو البؤس على المزايا أو المثالب الموجودة في
هذه البذرة .

وهكذا فإنّه من الجلي أنّ ما يهاجر وينتقل في السمسارة والتناسخ،
ما ينتقل من حياة إلى الحياة التي تعقبها، هو دفق غياب النفس
السريع التابع من وعي الأليا .

ولكن كلما تعلم هوندا المزيد عن نظرية اليويشيكي ازداد اضطراراً إلى أن يعرف كيف تسبب وعي الأليا في تجلي عالم الظواهر. ذلك أنه بحسب مفاهيم اليويشيكي فإن السبب والنتيجة المعتمدين على الأليا يحدثان في وقت واحد، في لحظة بعينها، ومع ذلك يتمان بالتناوب. وبالنسبة لهوندا الذي لم يكن بمقدوره التفكير في السبب والنتيجة إلا من خلال سياق زمني، بدا من الصعوبة البالغة استيعاب هذه الفكرة عن السبب والنتيجة الخاصين بوعي الأليا، وهما يحدثان على نحو مترام، وإن يكن متعاقباً. غير أنه كان من الواضح أنه في هذا المفهوم يكمن الفارق الأساسي بين تفسير الكون من جانب المهايانا (بما في ذلك مدرسة اليويشيكي) وتفسير البوذية الهينايانية له.

كان عالم البوذية الثيرافادية شبيهاً بموسم المطر في بانكوك، حينما يمثل النهر ومسطحات الأرز والحقول مدى غير محدود، ولا يعرف الانقطاع. ولا بد أن الفيضانات الموسمية قد حدثت في الماضي أيضاً، وستقع في المستقبل كذلك. وشجرة الفونيكس بزهورها القرمزية البانعة في الحديقة كانت هناك أمس، وستكون هناك بلا شك غداً. وإذا كان من المؤكد أن الوجود يتواصل، لنقل بعد وفاة هوندا، فإن من المؤكد بالمثل أن ماضيه سيتواصل في يسر ممتداً إلى المستقبل في تناسخات متكررة. وتقبل العالم دوغما تساؤل، على نحو ما هو عليه، وسهولة الانقياد الاستوائية الطبيعية المقترنة بالأرض التي تتقبل الفيضان، ذلك من الخصائص المميزة للقائلين بالثيرافادية. فهم يذهبون إلى أن وجودنا يتواصل انطلاقاً من الماضي، عبر الحاضر، إلى

المستقبل. والماضي والحاضر والمستقبل تشبه المياه البنية في نهر تحفّ به أشجار المنجروف بجذورها السطحية، ويتواصل انسيابها وتبدأ فاتراً. ويُدعى هذا المذهب بنظرية الوجود الدائب في الماضي والحاضر والمستقبل.

وخلافاً لهذا فإن البوذية المهايانية، وبصفة خاصة مدرسة اليوشيكوي، فسّرت العالم باعتباره دفقاً يهمني وتيارات سريعة تنداح، أو شلالاً أشهب، هائلاً، لا يتوقف أبداً. ولما كان العالم يقدم شكل الشلال فإن السبب الأساسي لذلك العالم وأساس إدراك الإنسان له هما شلالان. وليس هناك برهان قاطع على الوجود في أيّ من الماضي أو المستقبل، واللحظة الراهنة، وهي وحدها التي يمكن ليد الإنسان أن تلمسها ولعينه أن تراها، حقيقة. ومثل هذا المفهوم للعالم تنفرد به البوذية المهايانية، فالواقع موجود في الحاضر وحده، ولا وجود للماضي ولا للمستقبل.

ولكن لماذا يتعين أن يسمى هذا واقعاً؟

إذا كان بمقدورنا أن نتعرف زهرة نرجس بأن نراها بأعيننا، وأن نلمسها بأيدينا، فإنّ هذه الزهرة ومحيطها المباشر، على الأقل، موجودان في لحظة الرؤية واللمس.

هذا القدر يمكن تأكيده.

ولكن إذا كنّا نائمين، وإذا كانت هناك نرجسة في مزهرية، إلى جوار وسادتنا، خلال الليل، فهل بمقدورنا أن نبرهن على وجود النرجسة في كلّ لحظة خلال نومنا؟

وهكذا فإنه إذا اقتلعت أعيننا، وبترت آذاننا ولساننا، وجدع

أنفنا، وإذا ما فارقنا جسمنا، وانقطع وعينا، فهل يواصل عالم
الترجسة ومحيطها الوجود؟
لكنّ العالم لا بدّ أن يوجد!

وقد يؤكّد الوعي السّابع، أو المناس، العالم أو ينكره، وهو ما
يعتمد على ارتباطه بالنّفس. وبمقدور هوندا أن يقول إنّه لما كان هناك
نفس ومادامت هذه النّفس تواصل الإدراك، حتّى بعد فقدان الحواس
الخمس جميعها، فإنّ حوله قلمه الخبر، المزهرية، زجاجة الخبر،
الدورق الزجاجي الأحمر يعلوه تصالب إطار النّافذة، مشكّلاً قوساً
رقيقاً، يعكس ضياء النهار، نسخته من «موجز القوانين»، مثقّلة
الورق، المكتب، عارضة الحائط، الصّور المؤطّرة - عالمه الّذي كان
امتداداً جيد التّرتيب لهذه الأشياء الصّغيرة. أو أنّه قد يقول إنّه مادام
الوعيّ الذّاتي (النّفس) موجوداً ويدرك، فإنّ العالم لا يعدو أن يكون
ظلاً ظاهرياً، انعكاساً لإدراكات الذّات، ومن ثمّ فإنّ العالم لا يعدو
أن يكون عدماً. وهكذا فإنّ الذّات ستحاول بصلف وكبرياء أن
تعامل العالم باعتباره عالمها، وكأنّه كرة جميلة تتقاذفها.

لكنّ العالم لا بدّ أن يوجد!

ومع ذلك فإنّه لكي يوجد لا بدّ أن يكون هناك وعي يفرزه، يجعله
يوجد، يجعل الترجسة توجد، يضمن وجود هذه الأشياء، في كلّ
لحظة. وهذا الوعي هو وعي الأليا، الدائم الوجود، مثل النّجم
القطبي المتقد في كلّ لحظة، خلال اللّيالي الطّويلة الحالكة، الّذي
يجعل مثل هذه اللّيالي توجد، في حقيقة الأمر، ويضمن - بلا توقّف -
الواقع والوجود.

لكنّ العالم لا بدّ أن يوجد!

وحقّ إذا زعمت ضروب الوعي وصولاً إلى الوعي السّابع أنّ

العالم لا وجود له، أو حتى على الرغم من أن الحواس الخمس قد
قضي عليها تماماً، وأن الموت قد وقع، فإن العالم سيوجد، مادام
الألایا موجوداً، وبما أنه موجود فإن كل الأشياء على قيد الوجود.
ولكن ماذا لو أن الألایا فني فناء مطلقاً؟
لكن العالم لابد أن يوجد!

وبناء على هذا فإن الألایا لا يفني أبداً. وكما هو الحال في الشلال،
فإن ماء كل لحظة مختلف عن ماء اللحظة الأخرى، ومع ذلك فإن
الدفق يتواصل منهمراً في حراك دائم.
وهكذا فإن وعي الألایا يتدفق على نحو خالد، ليجعل العالم
يوجد.

ذلك أن العالم، مهما كان الثمن، لابد أن يوجد!
ولكن لماذا؟

لأنه من خلال وجود العالم فحسب - عالم الوهم - تتاح للإنسان
فرصة الاستنارة.

وهكذا فإن كون العالم واجب الوجود هو المستلزم الأخلاقي
المطلق. وهذا هو الردّ الفائق من جانب وعي الألایا على السؤال عن
السبب في وجوب وجود العالم.

وإذا كان وجود العالم - عالم الوهم - هو المستلزم الأخلاقي المطلق
فإن وعي الألایا الذي يفرز الظواهر كإفّة هو أصل ذلك المستلزم
الأخلاقي. ولكن ينبغي أن يقال إن كلاً من العالم ووعي الألایا، أو
الألایا وعالم الوهم الذي يلد الظواهر يعتمد على الآخر. ذلك أنه إذا
لم يوجد الألایا لم يوجد العالم، ولكن إذا لم يوجد العالم حُرم الألایا
من السمسارة والتناسخ اللذين يشكّل الألایا نفسه فيهما الجوهر
المنتقل، ويوصد للأبد الطريق إلى الاستنارة.

وهكذا فإنه من خلال هذا المستلزم الأخلاقي الأسمى يعتمد
الألايا والعالم أحدهما على الآخر، فوجود وعي الألايا يعتمد على
ضرورة وجود العالم .

ومع ذلك فإنّ الحاضر المباشر هو وحده الواقع، وإذا كان المرجع
المطلق الذي يضمن الوجود اللحظي هو الألايا، فإنّ ذلك الألايا
الذي يجلب كلّ ظواهر العالم، يوجد عند نقطة تقاطع الزّمان
والمكان .

وقد استطاع هوندا أن يدرك، ولو بصعوبة، أنه ها هنا ولدت
نظرية اليوشيكوي الفريدة التي تقول بأنّ السّبب والنتيجة معاً مترامنان
ومتعاقبان .

والآن، لا بدّ لكي تكون النظرية البوذية أصيلة، من أن يوجد
برهان على أنها جزء من تعاليم جوتاما بوذا. وقد وجدت مدرسة
اليوشيكوي ذلك البرهان، على وجه الدقّة، في «الجاتا» التّالية التي
تعدّ أكثر السوترات الواردة في المهايانا أبهدارما صعوبة .

الدارما بأسرها مخترنة في الوعي ،
والوعي مخترن في الدارما بأسرها .
الاثنان يصبحان سبيين متبادلين ،
وعلى الدوام، نتيجتين متبادلتين .

وقد فسّر هوندا هذه الفقرة، باعتبارها تعني أنه، بحسب قانون
السّبب والنتيجة المتواصلين المميّز لوعي الألايا، فإنّ العالم المرصود
عند مقطع لحظي من الحاضر قد يوصف بأنّه مقسّم إلى شرائح، مثل
خيارة مقطّعة إلى شرائح لحظية من الحاضر، قابلة للرصد إحداها إثر
الأخرى .

إنَّ العالم يولد ويموت في كلِّ لحظة. وتبدو في كلِّ تقاطع لحظيِّ ثلاثة أشكال من الولادات والميتات اللَّانهائيَّة. والشكل الأوَّل هو «البذور تنتج العالم الحاضر» ثمَّ «العالم الحاضر يُعطرُّ البذور وأخيراً «البذور تنتج البذور». وهو الشكل الَّذي فيه تسبَّب البذور تجسُّد العالم الحاضر، ومن الطبيعي أن يتضمَّن قوَّة دفع من الماضي. فهناك أثر ممتدَّ من الماضي. والشكل الثاني يظهر عالم الحاضر في أثناء «تعطيره» من خلال بذور الأليا، ويصبح ظواهر مستقبلية. ومن الطبيعي أن القلق حيال المستقبل يلقي بظلاله، ولكن هذا لا يعني أن كلَّ البذور يتمُّ تعطيرها من خلال الحاضر وتنتج ظواهر الحاضر، بل يعني أن بعض البذور، على الرِّغم من تعطيرها، تحلَّ محلَّها بذور أخرى فحسب. وهذا البعض من البذور هو النوع الثالث من البذور. وأسبابها ونتائجها هي وحدها التي لا تقع على نحو مترامن، وإنما تتبع سياقاً زمنياً.

والعالم يظهر نفسه من خلال هذه الأشكال الثلاثة، وكلَّ شيء يحدث في حاضر لحظيِّ.

ولكن البذور الأولى والثانية تولد من جديد على نحو مترامن، وتؤثر إحداها في الأخرى، وتفتى معاً. والتقاطعات اللَّحظية التي ترثها هذه البذور وحدها، تُنحى جانباً، فيها تحرك البذور من مقطع إلى آخر. وهيكَل العالم البشري يتكوَّن من شرائح نحيلة من اللَّحظات، ذات عدد لامتناه، يخترقها سيخ بذور وعي الأليا. والشرائح النحيلة التي تمثِّل العدد نفسه من اللَّحظات يتمُّ اختراقها وتنحيتها جانباً، في الوقت نفسه، في كلِّ شريحة دقيقة من الزمن.

والدمسارة والتناسخ لا يتمُّ إعدادهما خلال العمر، إذ هما يبدآن

عند الموت فحسب، وإنما هما يجذدان بالأحرى العالم في كل لحظة، من خلال إعادة الخلق والتدمير اللحظيين.

وهكذا فإنّ البذور تسبّب تفتح زهرة الوهم الهائلة هذه المسماة بالعالم في كل موضع من مواضع الزمن، وتتخلّى عنها في اللحظة نفسها. ولكن تتابع البذور التي تنتج البذور يقتضي العون من البذور الكارمية حسبا قلنا. وهذه البذور الكارمية تأتي من «تعطير» الحاضر اللحظي.

والمعنى الحقيقي لليوبشيكى هو أنّ العالم بأسره يتجلّى الآن في هذه اللحظة عينها. ولكن هذا العالم اللحظي يموت في اللحظة نفسها، ويبدو عالم آخر على نحو متزامن. والعالم الذي يتجلّى لحظة يتحوّل في اللحظة التالية، وهكذا يتواصل التحوّل. فكلّ شيء في العالم بأسره هو وعي الألايا.

عندما وصل تفكير هوندا إلى هذا الحد أخذ كل شيء حوله مظهراً غير متوقع .

واتفق في هذا اليوم أنه دُعي إلى دارة في شوتو بمقاطعة شيبويا، لأجل قضية امتدت طويلاً، وأخذ ينتظر في قاعة الاستقبال في الطابق الثاني من الدارة . لم تكن هناك أماكن مؤقتة للإقامة، وعندما كان المدعي يجيء إلى طوكيو لأمر تتعلق بالدعوى فإنه كان ينزل في دار ثري ينتمي إلى المنطقة التي بها بلدته . وقد ترك مالك الدار طوكيو إلى كارويزاوا، تجنباً للغارات الجوية .

وجرى السير في الدعوى على مهل، بحيث استغرقت وقتاً كبيراً . وقد أطلقها من عقابها، في حقيقة الأمر، قانون تم إصداره في عام ١٨٩٩، ويعود أصل النزاع ذاته إلى ما بعد أيام الإصلاح، أي قبل عدة عقود . وكانت الحكومة هي المدعى عليها في هذه القضية، بل لقد تغير اسم المدعى عليه من وزير الزراعة والتجارة إلى وزير الزراعة والغابات، وذلك مع إعادة تنظيم مجلس الوزراء . وقد غطى المحامون الذين مثلوا المدعي عدة أجيال . والآن إذا قدر لهوندا الذي عهد إليه بهذه القضية، أن يكمل بالفوز، فإنه وفقاً للاتفاق الأصلي ستكون أتعابه عن القضية ثلث الأرض التي ستعود إلى المدعي . غير أنه لم يكن يتوقع أن ينتهي النظر في القضية خلال حياته .

وهكذا فإنه جاء إلى هذه الدارة في شيبويا لا لشيء إلا لترجيحة الوقت، متخذاً العمل ذريعة في هذا الصدد . وفي حقيقة الأمر فإنه

جاء متوقّفاً الحصول على الأرزّ المبيض والدّجاجة اللّذين يحضّرهما موكله عادة كهدية من الرّيف.

لم يكن الموكل الّذي تعيّن أن يكون قد وصل منذ وقت طويل، موجوداً، ولا شكّ في أنّه كان يواجه صعوبة في الوصول بالقطار.

كان ذلك الأصيل من أصائل شهر حزيران (يونيو) شديد الحرّ، على نحو لا يناسب زيّه المدني وطماقيه، ولذا فقد فتح النّافذة العالية، المستطيلة الشكل، ذات الطّراز الإنجليزي، ووقف بجوارها ليتنّسّم بعض الهواء. ولما كان يفتقر إلى الخبرة العسكريّة فإنّه لم يستطع حتّى اليوم التّعامل مع طماقيه، على نحو مناسب، فراحا ينزلقان عن ساقيه ويتجمّعان حول ربلتيه، الأمر الّذي جعله يشعر لدى سيره بأنّه يجر حول ساقيه حقيبة مسافر إلى مزار ديني. وقد طالما خشيت زوجته رايي أن يشتبك الطّماقان المهتلان بالسيّارات، فيجرّانه جرّاً.

تسرّب العرق من خلال المواضع المتضخّمة في الطّماقين اليوم. وقد احتفظ الرّبي الصّيفي المتألّق على نحو يفتقر للذّوق، وقد صنع من نسيج قطني، بكلّ تجمّعة تعرّض لها، وعلم هوندا أنّ ظهر سترته لا بدّ أن يكون قد تغصّن متحوّلاً إلى تجمّعات شوهاء من جرّاء الجلوس، ولكن كان من العبث محاولة تمسيد التجمّعات للتخلص منها.

كان بمقدوره أن يرى من النّافذة كلّ ما يمتدّ وصولاً إلى منطقة محطّة شيويا وهي تسبح في سنى حزيران (يونيو). ولقد نجت المناطق السكنيّة في المنطقة المجاورة، فلم تمسّ تقريباً، ولكن المنطقة الممتدّة من سفح الهضبة، وصولاً إلى المحيط، كانت أطلاقاً حديثة القصف، ترقشها المباني الإسمنتيّة نصف المدمّرة. ولم يكن قد مرّ على الغارات

الجوية التي اكتسحت المنطقة، أكثر من أسبوع، إذ وقعت في ليلتي الرابع والعشرين والخامس والعشرين من أيار (مايو) ١٩٤٥، وهما الليلتان اللتان قام فيهما ما إجماليه خمسمائة طائرة من طرازي - ٢٩ بقصف مختلف المناطق السكنية في طوكيو بالقنابل الحارقة. وما زالت الرائحة المقيته التي خلفها الحريق الهائل باقية، وذكرى المشهد الجحيمي تمتد ماثلة للعيان في وضح النار.

اختلطت الرائحة التي تشبه رائحة محرقة للجثث بروائح أكثر ألفة، مثل الروائح المنبعثة من المطبخ، أو من نار تضرم في الهواء الطلق، وخالطتها الرائحة النفاذة الكريهة للمواد الكيميائية، على نحو ما هو الحال في مصانع الأدوية أو الآلات. وكانت رائحة الحطام المحترق مألوفة، بالفعل، بالنسبة لهوندا. ومن حسن الطالع أن داره في هونجو لم يمسها شيء بعد.

كان بمقدوره على الدوام أن يسمع، في الطنين المعدني المتواصل للقنابل وهي تهوي عبر السماء المتشحة بالليل في الأعالي الطنين الذي تعقبه الانفجارات واندلاع النيران شيئاً غير إنساني، شيئاً يشبه أصوات نساء يهتفن في موضع ما من السماء. وقد أدرك في وقت لاحق أن ما كان يسمعه ليس إلا صرخات أولئك الذين سقطوا ضحية القصف.

وسط الحطام المحترق، كسا الصدأ البقايا، وظلت السقوف المسحوقة على حالها، وانتصبت في كل مكان أعمدة ذات ارتفاعات مختلفة، مثل الأوتاد المسودة، والرماد يتهاوى منها متراقصاً في النسيم. التمع هنا وهناك شيء ما، على نحو باهر - وغالباً ما كان ذلك بقايا ألواح الزجاج المتناثرة، والأسطح الزجاجية المحترقة الملتفة،

وقطع الزجاجات المهشمة التي تنعكس عليها أشعة الشمس . وقد
للمت هذه الشظايا الصغيرة كل ما استطاعت من ضياء حزينان
(يونيو) . ولح هوندا للمرة الأولى ألقى الحطام .

امتدّت في جلاء القواعد الإسمنتية للدور، تحت الجدران
المتهاوية . وأضاءتها شمس الأصيل، مرتفعة كانت أم خفيضة . ولهذا
السبب اكتسب الحطام بأسره مظهر نموذج مقولب لصفحة من
صحيفة . ولكن الدرجة السائدة كانت اللون البني المحمرّ الفاتح
الذي يميّز المزهريّة، لا عدم الاستواء الرمادي الكثيب الذي يميّز
النموذج المقولب لصفحة من صحيفة .

لم يكن هناك إلا القليل من الخضرة، إذ كانت المنطقة في معظمها
ذات طابع تجاري . وظلت منتصبه في موضعها، بطول الشوارع،
بعض الأشجار نصف المحترقة .

كان لكثير من مباني المكاتب المدمرة نوافذ تجردت من زجاجها على
هذا الجانب، وكان بمقدور المرء أن يرى من خلالها الضوء منعكساً
على صقال الزجاج في الجانب البعيد، وقد اسودّت أطر النوافذ ربّما
بتأثير السناج الذي راكمته السنة اللهب المندلعة .

كانت منطقة منحدره، ذات شبكة معقدة من الشوارع الخلفية،
على مستويات مختلفة، وقد أفضت الدرجات والسلالم الخرسانية،
التي بقيت، إلى الفراغ، على نحو ما يمكن توقعه . فلم يبق شيء
فوقها أو أسفلها، وفي ميدان الحطام أيضاً لم تكن هناك نقطة بداية،
ولا اتجاه وإنما سلام منتصبه في اتجاهها القديم .

ساد الهدوء كل شيء . ولكن كانت هناك تقلقلات واهنة،
وأخذت الأشياء ترتفع على مهل . وعندما حدّق بناظريه بدا الأمر كما

لو كان هلوسة تشرع في إطارها الجثث التي عاثت فيها الحشرات والهوام فساداً، في التقلقل من موضعها. ولم يكن ذلك إلا رماداً طاله النسيم، فأخذ يبب في كل مكان. كان هناك رماد أشهب، وآخر أسود، وامتد بعض الرماد عبر النسيم على جدار متداع واستقر هنالك. رماد قش، رماد كتب، رماد من متاجر كتب مستعملة، رماد من حانوت لصنع الأحفة، يطفو منفرداً، متداخلاً على نحو عشوائي، متنقلاً، مراوحاً في مكانه على وجه المنطقة المدمرة. التمعت منطقة في طريق أسفلي على نحو كاب، بتأثير الماء المتدفق من ماسورة رئيسية محطمة.

بدت السماء رجة على نحو غريب، وسحب الصيف بيضاء بلا شائبة.

كان هذا هو العالم الذي تجلّى لحواس هوندا الخمس، في تلك اللحظة عينها. وكانت مدخراته الوفيرة قد مكنته من ألا يقبل إلا تلك القضايا التي تناسبه، خلال الحرب، وبدت دراسة السمسارة والتناسخ التي شغلت تماماً وقت فراغه وكأنما أريد بها أن تحقق الغرض المتمثل في جعل هذا الدمار جلياً. وكان القائم بالتدمير هو هوندا نفسه.

بدت بانوراما الدمار الهائلة الممتدة أمام ناظريه وكأنها نهاية العالم، ولكنها لم تكن النهاية ذاتها، ولا البداية أيضاً. كان عالماً يعيد استيلاء ذاته، في هدوء، بين لحظة وأخرى. وقد قبل وعي الألايا، دون أن يعترضه شيء هذا المدى من الحطام الضارب إلى الحمرة باعتباره عالماً واحداً، متخلياً عنه في اللحظة التالية، ومتقبلاً على النحو ذاته عوالم أخرى يزداد عمق لون الدمار فيها، مع كل يوم ينقضي، مع كل شهر يمر.

لم تسيطر عاطفة ما على هوندا وهو يقارن هذا المشهد بالمدينة على نحو ما كانت. وعندما لمحت عيناه الانعكاسات البرّاقة الصّادرة عن شظايا الزجاج المهشّم في الحطام، وخطف البريق بصره لحظة، عندئذٍ فقط أدرك بيقين حواسه أنّ الزجاج، بل الحطام بأسره، سيختفي في اللّحظة التالية، ليفسح المجال لحطام آخر. لسوف يقاوم الكارثة بكارثة، وسيتعامل مع التحلّل والخراب اللّانهائين بدمار أشدّ تعاضماً وشمولاً، على نحو فوريّ. نعم، لا بدّ أن يدرك بذهنه الدّمار الشّامل والحتميّ لحظة بلحظة، ويعدّ لمذبحة مستقبل تكتنفه الشكوك. غمره شعور بالابتهاج، إلى حدّ الارتجاف، بتأثير هذه الأفكار المجدّدة للنشاط، التي اكتشفها من خلال مبدأ اليويشيكي.

عندما انتهى حديث هوندا مع موكله، حمل هداياه وانطلق إلى محطة شيبويا. وكانت قد راجت أنباء عن قصف واسع النطاق قامت به الطائرات من طراز بي - ٢٩ لأوساكا. وترددت، مؤخراً، شائعات سائدة بأن غربي اليابان هو الآن الهدف الرئيسي. وبدأ أن طوكيو تنال فترة راحة مؤقتة.

فكر هوندا في السير مسافة أبعد، مادام النهار لم يلملم نوره بعد. وعلى قمة تل دوجين لاحت دارة الأمير ماتسوجاي، السابقة.

وبحسب معلومات هوندا فإن عائلة ماتسوجاي قد باعت ثمانين هكتاراً من إجمالي قطعة الأرض التي تملكها، ومساحتها مائة وعشرة هكتارات، إلى شركة هاكوني العقارية المحدودة، في أوائل العشرينيات. ولكن نصف المبلغ الذي تم الحصول عليه، في ذلك الوقت، فقد بعد وقت قصير، عندما انهارت المصارف الخمسة عشر التي أودع فيها. وسرعان ما قام ابن العائلة بالتبني، وهو شخص مسرف إلى حد التلّف، بالتخلّص من الهكتارات الثلاثين الباقية، وأصبح معروفاً أنّ الدار الحالية التي تقيم فيها عائلة ماتسوجاي دار عادية، شيّدت على مساحة تقلّ عن هكتار واحد. وكان هوندا قد مرّ بالسيارة قرب بوابة الدار، ولكنه لم يدخلها، إذ فقد الآن صلته تماماً بالعائلة. وقد ساوره، على نحو غامض، شعور بالفضول يدفعه إلى معرفة ما إذا كانت الدارة قد اختفت أم لا في غمار الغارة الجوية التي وقعت خلال الأسبوع الماضي.

كان الطريق الذي يخترق مباني تل دوجين المحترقة، قد جرى

تطهيره بالفعل، ولم يشكّل الارتقاء صعوبة حقيقية. وكان بمقدوره أن يرى، هنا وهناك، المواضيع التي شرع الناس يقيمون فيها، وذلك في ملاجئهم البسيطة الواقية من الغارات الجوية، وقد سقّفوها بكتل الأخشاب نصف المحترقة وقطع من ألواح الرّنك. اقترب موعد تناول طعام العشاء، وارتفع الدخان من مواضع إشعال نار الطهو. وراح أحدهم يملأ وعاء من ماء يتدفّق من وصلة محطّمة في ماسورة مياه. وامتلأت صفحة السّماء بالوهج المسائي الجميل.

من قمة المنحدر، وحتىّ الجادة العلوية، كانت منطقة مينامي دايرا - داي جزءاً من حيازة عائلة ماتسوجاي المؤلّفة من مائة وعشرة هكتارات. فقد قسّمت الضيعة السابقة مؤخّراً إلى قطع صغيرة من الأرض، ولكنها الآن غدت من جديد ظللاً شاسعاً، لا يعرف الانقطاع، واستعادت مرّة أخرى تحت السّماء المسائية الرائعة النطاق الكبير الذي كان لها في الأيام الخوالي.

كان المبنى الوحيد الذي ظلّ قائماً ينتمي إلى مفرزة من الشرطة العسكريّة، وقد مضى الجنود الذين التفتّ شارات مميّزة على أذرعهم يغادرون المبنى ويلجونه على نحو لا يعرف الكلل. وتذكّر هوندا على نحو غائم أنّ هذا المبنى كان ذات يوم يتصب غير بعيد عن ضيعة ماتسوجاي. وفي اللّحظة التالية تعرّف بصورة يقينيّة وراء المبنى على الأعمدة الحجرية الخاصّة ببوابة ماتسوجاي.

ومن البوابة، بدا الهكتار الباقي بالغ الضّالة، ذلك أنّ الحيازة قُسمت بين كثير من الدّور المخصّصة للإجارة. ولاح كلّ من البركة والتّل الصناعي في الحديقة تذكارين مصغّرين بائسين بالنسبة للبحيرة التي كانت ذات يوم شيئاً رائعاً، والجبل المكسوّ بأشجار القيقب،

وقد كانا يميّزان الضيعة القديمة . ولم يكن هناك سور حجريّ في الخلف، وقد احترق السور الخشبيّ، وامتدّت المناطق المجاورة المدمّرة تحت مدى الرؤية، وصولاً إلى مينامي دايرا - داي . وأدرك أنّ هذه البقعة من الأرض هي نتاج ردم البحيرة التي كانت تترامي في السابق إلى البعيد .

كانت جزيرة تحتلّ ذات يوم قلب البحيرة، وكان يصبّ فيها شلال ينحدر من الجبل الذي تكسوه أشجار القيقب . وقد عبرها هوندا ذات مرّة وصولاً إلى الشلال بالزورق مع كيواكي ، ومن هناك تعرّف قوام ساتوكو التي كانت ترتدي كيمونو فاتح الزرقة . وكان كيواكي في ميعة الصبا، وكان هوندا بدوره مايزال في مقتبل العمر، وربما أكثر شباباً ممّا تستطيع ذاكرته أن تعي .

أعيدت ضيعة ماتسوجاي إلى وضعها الريفيّ بفعل القصف العشوائيّ الكليّ التدمير، وتغيّرت معالم الأرض، ولكن على امتداد الرّحب المترع بالكآبة، كان مايزال بوسع هوندا أن يحدّد موضع البحيرة والمزار والدار الرئيسيّة والجناح الغربيّ الطراز والممشى الواقع أمام المدخل .

ولكن تحت السّحب المترامية التي كساها المساء بردائه، بدت شظايا الزنك الملتوية وألواح الأردواز المحطّمة والأشجار المجثّثة والزجاج المنصهر والألواح الخشبيّة الطويلة المحترقة ومداخن المدافئ المعرّاة المنتصبّة، وحيدة مثل الهياكل العظميّة، وبدت الأبواب الملوّية التي أخذت شكل المعين - مصطبغاً بحمرة قائمة، صدئة . ولاحت كلّ تلك الأشكال الغريبة، وقد انهارت وتمدّدت على الأرض، شيئاً يتحدّى المألوف، ويشبه نباتات قرّاص نامية في الأرض . وفاقمت من

الطابع الرهيب للمشهد الشمس الغاربة التي أضفت على كل شيء ظلاً مميّزاً.

بدأت الشمس لوناً قرمزيّاً يتوهج به كيمونو حريريّ، ولاحت السحب خيوطاً زغبية، تجميلية، تتناثر حول الكيمونو. وقد تغلغل اللون في قلب السحب، وشعت حوافها المتوهجة كخيوط الذهب. ولم يكن هوندا قد رأى من قبل قطّ السماء بهيئة على هذا النحو.

تبين هوندا، فجأة، وسط الأطلال المترامية، شبح امرأة جالسة على حجر من أحجار الحدائق لم تمسه يد التدمير. وقد حولت الشمس الغاربة ظهر سروالها اللامع إلى حدّ ما والمصنوع من قماش كيمونو حريريّ أرجوانيّ شاحب، إلى لون النبيذ. وكان شعرها الأسود اللامع المعقوص على الطريقة الغربية، مبتلاً، ولاح هيكلها المتهاك غارقاً في العذاب. وقد بدأت وكأنها منخرطة في البكاء، ولكنّ النحيب لم يكن يهزّ كتفيها، وبدأ أنها تعاني كذلك، ولكن ظهرها لم يشر إلى ما يوحي بانفطار القلب. كانت تجلس منحنية إلى الأمام وكأنها قد تحجرت، وقد طال جمودها أكثر بكثير مما يحدث لشخص غارق في التفكير. واستنتج هوندا من بريق شعرها أنها ربّما كانت في أواسط العمر، ولعلّها مالكة إحدى الدور القائمة هناك، أو قريبة لها.

أدرك أنه سيتعيّن عليه أن يعرض عليها المساعدة إذا كان قد أصابها مصاب أعجزها. وفيما هو يدنو منها لمح حقيبة يد سوداء وعصا، كانت قد وضعتها إلى جوار الحجر الذي اقتعدته.

وضع هوندا يده على كتفها، وهزّها بحذر، فقد خشني أن ينهار كيانها متحولاً إلى رماد إذا هو استخدم أي قسط من القوة.

تطلّعت إليه المرأة على نحو مائل فأفزعه وجهها. ومن الفرق الظاهر عند خط حافة الشعر غير الطبيعي أدرك أنّ الشعر الأسود ليس إلّا شعراً مستعاراً. وبدا اللون الحادّ في أرجوانيته، الذي طلت به شفيتها مفارقاً للذرور الذي كست به في ثقل بشرتها لتخفي التّجاعيد وما دون عينيها، وقد وضع على طريقة البلاط العتيقة الطّراز، فبرزت شفيتها العليا، كما لو كانت منقاراً، وبدت شفيتها السفلى صغيرة. وتعرف محيا تاديشينا، تحت القناع العتيق، على نحو لا يوصف.

قال هوندا، دوغما تفكير:

- أنت السيّدة تاديشينا. ألسنت كذلك؟

قالت تاديشينا:

- من عسالك تكون؟

وأضافت:

- لحظة من فضلك!

سارعت إلى استخراج عويناتها من صدرها. وكان بوسعه أن يرى تاديشينا الأيام الخوالي في غمرة محاولتها الماكرة لكسب الوقت، بفتح ذراعي عويناتها، ووضعها فوق أذنيها. وحاولت مسرعة رصده بحجّة أنّها بحاجة لعويناتها لكي ترى.

لكنّ الحيلة لم تكفل بالنّجاح، فحتّى بالاستعانة بالعوينات لم تر العجوز أمامها إلّا رجلاً غريباً. وللمرّة الأولى، طغا عل محياها شعور بعدم الارتياح وتحيّز أرستقراطي عتيق - برودة غير مبالغ فيها تعلّمت عبر السنين كيف تتحكّم بناصيتها بحذق. وهذه المرّة تحدّثت بلهجة رسميّة متصلّبة:

- لا بدّ أن تعذرنِي، إذ فقدت ذاكرتي مؤخراً، ليست لديّ فكرة
حقاً. . .

- إنني هوندا، قبل ثلاثين عاماً كنت زميلاً ليكواكي ماتسوجاي،
في مدرسة النبلاء، وقد اعتدت التردّد على الدّار طوال الوقت.
- آه، أيها السيّد هوندا. ما أحسن أن أراك! لست أدري كيف
اعتذر لك. . . آسفة لعدم تعرّفي إياك. نعم، أيها السيّد هوندا،
حقاً. إنك تبدو تماماً على ما كنت عليه في شبابك. آه، يا له. . .

وضعت ردى رداً مسرعة على عينيها. كانت دموعها في الأيام
الخوالي موضع شكّ على الدّوام. وأمّا الآن فقد اختلط الذّرور
الموضوع تحت عينيها في التّوبدموعها، وبدا مثل حائط أشهب في
المطر، وانهمر فيض وافر، على نحو آلي تقريباً، من عينيها الغائمتين.
وكانت مثل هذه الدّموع الوفيرة التي تشبه وعاء ماء مقلوباً، والتي لا
علاقة لها أبداً بالفرح ولا بالحزن، أكثر قابليّة بكثير للتصديق من
دموعها قبل ثلاثين عاماً.

ومع ذلك فقد كانت شيخوختها منافية للعقل. فعلى بشرتها، كان
بمقدور هوندا أن يلمح تحت ذرورها الأبيض الثّقيل طحلب التّداعي
الذي يكسو جسمها بكامله. ورغم ذلك فقد رصد ذهنها الفدّ وهو
يعمل بانضباط كساعة تصدر تكّاتها في جيب رجل ميت.
سألها هوندا:

- أمر طيّب أن تبدي في خير حال. كم تبلغين من العمر الآن؟
- بلغت الرابعة والتّسعين هذا العام. ويصعب عليّ السّماع قليلاً،
ولكنني بخلاف ذلك في صحّة جيّدة، وليس لديّ ما أشكوه،
وساقاي قويّتان، وبمقدوري التّجوّل وحدي بالاستعانة ببعضاي.
وعائلة ابن أخي ترعاني، ولا تحبّ أن تراني أخرج وحيدة، ولكنني

لست أكثر حقا بموعده موتي ولا بمكانه، ولذلك فإنني أحب الخروج بقدر استطاعتي مادام بوسعي القيام بذلك. ولست أخشى الغارات الجوية على الإطلاق، ولئن أصابني قنبلة أو احترقت، فإنني ساموت دوغما ألم وبغير متاعب أسببها لأحد. قد لا تصدق الأمر، ولكنني أشعر بالחסد حيال الجثث الراقدة عند حواف الطرق في هذه الأيام. وعندما سمعت بأن منطقة شيبويا قد احترقت، في غمرة القصف، مؤخراً، تعين عليّ أن أرى موقع ضيعة ماتسوجاي، فتسللت من دار ابن شقيقي. ترى ماذا كان يمكن أن يقول الأمير والأميرة لو كانا على قيد الحياة ورأيا هذه الأوضاع؟ لقد كان من حسن حظهما أن ماتا قبل أن يعرفا شيئاً من هذا البؤس.

- من حسن الحظ أنّ داري لم تحترق بعد، ولكن هذا الشعور نفسه يساورني حيال أمي. ويسعدني أنها ماتت واليابان ماتزال تقف في صف المتصّر.

- آه، يا إلهي! رحلت أمك أيضاً عن عالمنا. . . يؤسفني أشدّ الأسف سماع ذلك، لم يكن لدي علم بالأمر. . .

لم تكن تاديشينا قد نسيت مجاملات أيامها الخوالي الرقيقة، والخالية من الانفعال.

- ما الذي صار إليه أمر آل أياكورا؟

ما إن طرح هوندا هذا السؤال حتى ساوره، على الفور، شعور بالندم على ذلك. وكما توقع فقد ترددت العجوز بصورة ملحوظة. غير أنها حينها كانت تفصح عن أيّ انفعال واضح يفترق ذلك الانفعال عادة إلى الإخلاص، ولا يعدو أن يكون مجرد مظهر تستعين به.

- نعم، بعد التحاق الأنسة ساتوكو بسلك الكهنوت، تركت آل أياكورا، ومنذ ذلك الحين حضرت تشيع جنازة النيبيل أياكورا

فحسب. وأما النبيلة فمازالت على قيد الحياة، حسبما أعتقد، ولكنها، بعد وفاة زوجها، باعت الدار في طوكيو ولحقت بأقاربها في شيشجاتاني في كيوتو. وابتتها. . .

أحسن هوندا بخفقان قلبه، فما ملك إلا أن تسأل:
- هل قدرت لك رؤية الأنسة ساتوكو يوماً؟

- نعم، لقد رأيتهما ما إجماليه ثلاث مرّات، بعد الجنّازة. وكانت على الدوام رقيقة معي لدي زيارتي لها، بل إنها دعّتي لإمضاء الليل في المعبد. إنها رقيقة وكرّيمة للغاية. . .

نزعت تاديشينا عويناتها المضّيبة، وأخرجت مسرعة من رذن رداؤها منديلاً ورقياً خشناً فوضّعه على عينيها لبعض الوقت. وحينما أبعدته كانت هناك حلقة قائّمة في الموضع الذي تساقط منه الدّور.
قال هوندا مرّة أخرى:

- الأنسة ساتوكو بخير إذن؟

- إنها بخير حقاً. و- ترى كيف عساني أقول ذلك؟ - أكثر جمالاً، وأشدّ صفاء من ذي قبل، وحسنها يزداد جلالاً كلّما تقدّمت في العمر. أرجو أن تزورها يوماً يا سيّد هوندا! قم بذلك! ولسوف يسعدها أن تراك.

استعاد هوندا، فجأة، ذكرى تلك الرّحلة بالسيّارة، في منتصف الليل، من كاماكورا إلى طوكيو، وحيداً مع ساتوكو.

لقد كانت امرأة رجل آخر، ولكنها كانت طاغية الأنوثة، على وجه التقريب، وقت ذلك.

كانت قد ساورها هاجس الأمور التي ستحدث في نهاية المطاف، وأعربت عن استعدادها لها في غمرة الإعداد لتلقّيها. وتذكّر هوندا،

بتوهج نابض بالحياة، وكأنما حدث ذلك أمس، تلك اللحظة
البهيجة، قبيل الفجر، عندما شكّلت نافذة السيارة إطاراً لصورتها
الجانبية، وأوراق الشجر تنداح إلى البعيد مسرعة، في خلفية
الصورة.

عندما عاد إلى الواقع من جديد، كان وجه تاديشينا قد فقد ادعاءه
الاحترام والتبجيل، فأخذت تدقق النظر فيه وكأنها تعجم عوده.
وأحاطت التجاعيد التي تشبه الخطوط في الحرير المزخرف، بخطوط
مترابطة بشفتيها اللتين تتخذان شكل القوس، ولكن فمها انجذب
الآن إلى أسفل عند كل طرف من طرفه، فيما يشبه الابتسامة. وفجأة،
وفي العينين اللتين تشبهان بشرين عتيقتين في منسطات من ثلج
- تحرك البؤبؤان أفقياً، بلمسة من الغنج القديم.

- لقد كنت تهواها، أليس كذلك؟ لقد عرفت ذلك.

أجفل هوندا، من جراء الآثار الباقية من غنج تاديشينا، أكثر من
إجفاله تعبيراً عن الاستياء، حيال مثل هذا الحدس بعد هذه السنين
الطويلة. ولتغيير الموضوع تحوّل بأفكاره إلى الهدايا التي تلقاها من
موكله، فقد خطر بباله أن يعطيها جانباً منها، أي بيضتين ودجاجة
صغيرة.

أعربت تاديشينا عن مبهجتها المجردة من الختل، وعن تقريرها،
على نحو لم يتوقع أن تبادر إليه:

- أه، يا إلهي! بيض! ما أغرب رؤية البيض في هذه الأيام! أحسّ
بأنني لم أر بيضة منذ سنين! يا للسَاء، بيض!

جعلت آيات الشكر المتطاولة المعقدة التي أعقبت ذلك، هوندا
يعتقد أنه لم يكن يُقدّم للعجوز طعام لائق. وقد زادت دهشته عندما

أخرجت ثانية البيضة التي كانت قد نحتها جانباً في سلّة مشترياتها،
فرفعتها في مواجهة السّماء المتّشحة بالغيب، وقالت:
- بدلاً من أخذ هذه إلى الدّار - لابدّ أن تعذرني وتغفّر لي سوء
مسلكي - فإنّي أودّ أن ألتمهما هنا . .

فيما كانت العجوز تتحدّث، نظرت آسفة إلى البيضة في مواجهة
السّماء التي أخذت الظّلمة بأكنافها، فاستكنت في أصابعها العتيقة،
المرتعدة، بينما السّنى المتراجع يمسّ قشرها الرّقيق البارد.

مضت تاديشينا تداعب البيضة بعض الوقت. وكانت الضّوضاء في
المنطقة قد خمدت، وما كان يصل إلى الأذان إلاّ الصّوت الواهن
المنبعث من بشرتها الخشنة، وهي تحتكّ بها.

تجاهل هوندا بحثها عن ركن حادّ تستطيع صدع القشرة عليه،
فقد تردّد في مساعدتها على القيام بعمل كان على نحو ما عرضة
للاعتراض عليه، وقد كسرت البيضة على نحو غير متوقّع في حذقه،
على حافة الحجر الذي اقتعدته. وجالبة إيّاها بعناية إلى فمها، حتّى لا
تفقد شيئاً من محتواها، رفعت وجهها تدريجياً وصبّت المحتوى بين
جانبي طقم أسنانها الصناعي المفتوح في مواجهة السّماء المتّشحة
بالمغيب. بدت للعيان، للحظة خاطفة، الاستدارة الباهرة لمخّ البيضة
وهو يمرّ بشفتيها، وصدر عن بلعومها صوت ابتلاع مترع بالعافية.
- يا إلهي! هذا هو الطّعام المغذّي الأوّل الذي أتناوله منذ فترة
طويلة للغاية. إنّي أحسّ بالانتعاش، وأشعر وكأنّما عاد إليّ حسن
شبابي. قد لا تصدّق ذلك، يا سيّد هوندا، ولكنّي كنت حسناء
شهيرة في شبابي.

كانت لهجتها في الحديث قد غدت، فجأة، صريحة.

ثمّة وقت في النّهار يعقب الغسق مباشرة، عندما يكون الخطّ الخارجيّ لكلّ شيء محدّداً بشكل بالغ. وقد حلّت تلك اللّحظة، على وجه الدّقة. الحواف المجرّحة لعروق الخشب في الحطام، وحدائث الصدوع في الأشجار الممزّقة، وألواح الزنك المتلوية وبريكاتها الضّئيلة من ماء المطر - كلّ شيء بدأ متوهّجاً بالحياة، على نحو يوشك أن يكون مقيتاً. ولم يكن ثمّة ما تلمحه العين، في أقصى الغرب، إلّا خطأً أفقيّاً قرمزيّاً بين مبنين أو ثلاثة مبانٍ محترقة جلّلتها السّواد. وبدت كذلك نقاط من اللّون القرمزيّ من نوافذ المباني المدمّرة. وبدأ الأمر كما لو أنّ أحدهم قد أضاء مصباحاً أحمر في دار مهجورة خاوية على عروشها.

- كيف يسعني أن أشكرك؟ لقد كنت دوماً رجلاً رقيق القلب، ومازلت عطوفاً للغاية. ليس لديّ ما أعطيك إيّاه، ولكن على الأقلّ...

تلمّست تاديشينا داخل حقيبتها وكأنّها ضريرة. وقبل أن يتمكّن هوندا من إيقافها، كانت قد أخرجت كتاباً مجلّداً على الطّريقة اليابانيّة، ودسّته في يده.

- على الأقلّ، أريد أن أعطيك هذا الكتاب. لقد اعتزّزت به دائماً، وحملته معي. إنّه سوترا مؤثّرة، أعطاني إيّاه كاهن لردّ الأذى والمرض، وأنا سعيدة للغاية لمقابلتك، ولتمكّني من الحديث معك عن الأيّام الخوالي. قد تخرج في أيّام الغارات، وهناك حميات سيئة كثيرة. ولكنّك إذا حملت هذه السّوترا معك، فمن المؤكّد أنّك ستجنّب آية كارثة. وأودّ أن تحتفظ بها رمزاً لتقديري إيّاك.

رفع هوندا الكتاب عالياً بإجلال، للإعراب عن شكره، ونظر إلى
العنوان الذي يعلو الغلاف. وكان يكاد يُقرأ في الضوء الغارب.
كان الكتاب هو «المهاميورفيدياراجني» أو «سوترا ملك حكمة
الطّاووس الذهبي العظيم».

منذ ذلك الحين، لم يكن بوسع هوندا، إلا بمشقة، السيطرة على رغبته في رؤية ساتوكو. ولكنه كان يعلم أن الدافع إلى ذلك جاء، في جانب من جوانبه، من ملاحظة تاديشينا بأنها ماتزال على جماها. فقد كان يخشى، خشيته للموت، أن يرى «طللاً للجمال» يشبه أطلال المدينة.

لكنّ الموقف، على صعيد الحرب، أخذ يتدهور يومياً، وكان من الصعب الحصول على بطاقات السفر بالقطار، ما لم تكن للمرء صلات بالجيش، وكانت الرحلة المترفة شيئاً لا سبيل إلى بلوغه.

فيما كانت الأيام تنقضي، فتح هوندا كتاب «سوترا ملك الطاووس» الذي أعطته تاديشينا إياه. ولم تكن قد أتاحت له من قبل قَطّ فرصة قراءة أية سوترات بوذية، مما يجلب عن عامة الناس.

كانت الفقرات الافتتاحية تقدّم إيضاحات وقواعد لاستخدام الكتاب، ذلك بينط صغير يوشك ألا يكون مرثياً.

وابتداءً، فإنّ ملك حكمة الطاووس قد احتلّ المرتبة السادسة من الطرف الجنوبي لبلاط سوسديزي في «ماندالا الرّحم». وبما أنه قد عزيت إليه قوّة إنجاب كلّ البوذات، فإنه يُدعى كذلك بـ «ملك الطاووس، منجب كلّ البوذات».

عندما عاد هوندا إلى الوثائق البوذية التي كان قد جمعها حتّى ذلك الحين، وجد أنّ ذلك الرّب قد ضرب جذوره بوضوح في عبادة شاكتي الهندوسية. ولما كانت طقوس عبادة شاكتي موجهة إلى كالي،

زوجة شيفا، أو إلى دورجا، فإنّ تمثال الرّبة الطّامثة إلى الدّم، الّذي رآه في كاليجات في كلكتا، كان حقاً النّمودج الأصلي لملك حكمة الطّاووس.

وحينما اكتشف ذلك أصبحت السّوترا الّتي وصلت إليه مصادفة ذات أهمّيّة بالنّسبة له على نحو مفاجئ. وإلى جانب استخدام «الزاراني»^(١) والمانترا في الطّقوس البوذّيّة السّرّيّة، فإنّ العبادات الهندوسيّة قد غزت عالم البوذّيّة باللّجوء إلى أنواع التحوّلات كافّة.

وكان من المعتقد أصلاً أنّ «سوترا ملك حكمة الطّاووس» تعويذة قالها بوذا، وافترض أنّها تبعد الثّعابين أو تشفي التسمّم النّاجم عن اللّدغات.

وجاء في «سوترا الطّاووس»:

«عندما كان شخص يدعى كيشو، لم تتمّ بعدُ رسامته كاهناً، يعدّ مادة ملتهبّة لإضرام النّار لتسخين الماء اللّازم لحمام الكهنة، جاء ثعبان من أسفل شجرة غريبة، ولدغ أصبع قدمه اليمنى، وغشي عليه فهوى إلى الأرض، وارتفع بؤبؤاه، وطفأ الزّبّد على فمه. مضى أناندا إلى حيث كان بوذا، وقال: «كيف يمكن شفاؤه؟» وعندئذٍ ردّ بوذا، قائلاً: «إذا أمسكت بسوترا تعويذة ملك حكمة الطّاووس، تائاجاتا العظيم، وأمسكت بالكاهن كيشو بين ذراعيك، وأديت إشارات اليد المناسبة، وأنت ترتل المانترا، فإنّ السّم لن يحدث ضرراً. ولن يوقع السيف ولا العصا جرحاً. وستبعد كلّ الكوارث».

(١) الزاراني dharani المقصود بها الصياغات السّحرية.

امتدّت سماء هندية زرقاء وراء ملك الحكمة على عرش طاووسه الذهبيّ. سماء استوائية، بسحبها المؤثرة في النفس، وضجرها الأصلي، ونسائها المسائيّة، وكلّها أمور ضروريّة لنسج خيوط وهم بديع تأخذ الألوان بأكنافه.

يشاهد الطاووس الذهبيّ مواجهة وقد وقف في ثبات على قائمته، ومدّ جناحيه، وحمل ملك الحكمة على ظهره، وحماه بنشر ذيله الرائع الذي يشبه المروحة، والذي حلّ محلّ هالة نورانيّة. وجلس الملك في وضع زهرة اللّوتس على زهرة لوتس بيضاء وضعت على ظهر الطاووس. وأمّا أذرعة الملك الأربع فقد أمسكت الأولى منها على اليمين بزهرة لوتس متفتّحة، والثانية بثمره كارما، على شكل خوخة. وأمّا الأولى إلى اليسار فقد بسطت فوق الفؤاد، وراحتها المرتفعة إلى أعلى تدعم ثمرة الحظّ الحسن، وأمسكت الثانية بذيل طاووس مؤلّف من ثلاثين ريشة.

أطلّ ملك الحكمة بمظهر رحيم، وقد بدا جسمه جميلاً للغاية، وتألّقت البشرة التي شفّت عنها رداء حريريّ بجواهر رائعة، كالنّاج الذي اعتمره، والقلادة التي تحلّى بها عنقه، والقرطين المتدليّين من أذنيه، والأساور التي حلّت رسغيه. واستكان سأم فاتر على الجفنين الثّقيلين، نصف المغمضين على العينين، وكأنّما استيقظ الإله لتوه من قيلولة الظهيرة. وربّما كان من شأن إمطار شأبيب رحمة لانهاية وإنقاذ أناس بلا حصر أن يخلق في نفس المرء شعوراً مشابهاً للنعاس الفاتر الذي اكتشفه هوندا في المنبسّطات المتألّقة الرّحبة في الهند.

وفي مفارقة لهذه الصّورة الشّهاء، والكثيية على نحو مطلق، كانت ريشات الطاووس المترامية التي تحاكي الهالة القدسيّة متعدّدة الألوان

على نحو باهر. ومن بين ريش كلّ الطيور فإنّ ريش الطاووس هو الأقرب في الدّرجة إلى سحب المساء. ومثل ماندالا بوديّة سرّيّة تعيد تنظيم كون فوضوي فتحيله إلى كون مرتّب، فإنّ الرّيشات مثلت التّظيم الممنهج لفوضى الألوان الصّاخبة الّتي تشاهد في سحب المساء، وطابعها المتحوّل، وتلاعب الضّوء عليها، في زخارف هندسيّة ومنتظمة. الذهبي، الأخضر، الأزرق القاتم، الأرجواني، البني - مثل هذا البهاء الغسقي كان، رغم ذلك، يشير إلى نهاية وهج المساء، حينما يختفي قرص الشّمس الغاربة نفسه عن الأبصار.

كان ريش الذّيل يفتقر إلى اللّون القرمزي وحده. ولو أنّه كان هناك طائر مثل الطاووس القرمزي، ولو أنّ ملك حكمة الطاووس قد جلس عليه، وقد انتشر الذيل حتّى أقصى امتداده، لما كان إلّا الرّبة كالي نفسها.

قرّ في يقين هوندا أنّ مثل هذا الطاووس لا بدّ أن يكون قد تجلّى في السّحب المسائيّة في السّماء، فوق الأطلال، حيث التقى تباديشينا.

القسم الثاني

قالت جارة هوندا الجديدة:

- لقد غرست بعض أشجار السرو الجميلة . وكان المكان هنا في العادة قفراً أجرد .
كانت كيكو هيساماتسو امرأة مهيبة الطلعة .

بدا أنها توشك على الاقتراب من الخمسين من العمر، ولكن وجهها الذي يتردد أنها أجرت عملية جراحية تجميلية له، احتفظ بفتوة وسيمة ومتألقة على نحو مفرط . كانت واحدة من أولئك اليابانيين الاستثنائيين، الذين يمكنهم أن يتجاوزوا أطراف الحديث من دون مراعاة للشكليات، سواء مع رئيس الوزراء يوشيدا أو مع الجنرال مكارثر . وقد مضى وقت طويل على طلاقها من زوجها . وهي في الوقت الحالي ترتبط برجل مدله بحبها، هو ضابط أميركي من قوات الاحتلال، يعمل في المعسكر الواقع عند سفح جبل فوجي . وقد قامت بإصلاح دارتها التي طال إهمالها في نينوكا بمنطقة جوتوبا، وهي تأتي إليها في إطار موعد، بين حين وآخر، أو كما قالت: «لتكتب على مهل ردوداً على رسائل أهملت طويلاً» . ودارتها هذه تقع إلى جوار دارة هوندا .

احتفل هوندا، في ربيع عام ١٩٥٢، بعيد ميلاده السابع والخمسين . وللمرة الأولى في حياته امتلك دارة ريفية، وقد دُعي الضيوف من طوكيو لحضور حفل افتتاح الدارة، الذي كان من المقرر أن يقام في اليوم التالي، وقد جاء بنفسه، قبل ذلك بيوم، ليشرف

على الاستعدادات، ووجه الدعوة إلى جارته كيكو لكي تتفقد الحديقة التي بلغت مساحتها ما يزيد على نصف فدان.

قالت كيكو وهي تخطو فوق المرجة التي بللها الثلج الهش، رافعة حذاءها ذا الكعب العالي المستدق الطرف، وكأنها طائر من طيور الماء:

- كنت أتطلع إلى إكمالك دارك وكأنها داري. لقد غرس هذا النجيل في العام الماضي، وما أجود تجذره في الأرض! لقد غرست الحديقة أولاً، ثم مضيت على مهل في إنشاء الدار. ولا يمكن أن يفعل هذا إلا عاشقٌ حقيقيٌ للحداثق. - لم يكن لديّ مكان أقيم به، ولذا مضيت جيئةً وذهاباً من جوتمبا لأنجز الدار.

قالها هوندا، وقد بدا وكأنه بواب باريس، في سترته الصوفية المحبوكة التي انتسلت قليلاً، وقد لفّ لفاعة حريرية حول عنقه اتقاء للبرد.

كان هوندا يستشعر شيئاً من عدم الارتياح مع النساء اللاتي من نوع كيكو وقد عشن حياة الرفاه. وبدا الأمر كما لو أنّ الأنظار تتناهب هواناً شأنه الهوان الناجم عن إنفاقه حياته في الدرس والانكباب على العمل، وها هو ذا الآن يحاول فجأةً مع مقدم الشيخوخة أن يتعلم كيف يسترخي وينال قسطاً من الراحة.

إن وجوده هنا مالكاً لدارة ريفية قد أمكن تحقيقه بمادة قديمة في قانون لا يدري بوجوده إلا القلة، قانون صدر بمرسوم إمبراطوري في 18 نيسان (إبريل) 1899 تحت عنوان «حول عودة الأراضي والغابات والحقول المملوكة على مستوى الأمة».

في تموز (يوليو) 1873 صدر مرسوم للإصلاح الزراعي،

ومضى المسؤولون الحكوميون من قرية إلى أخرى، محاولين التأكد من ملكية قطع عديدة من الأرض. وقد أنكر المالكون، في ضوء خوفهم من فرض ضرائب عليهم، ملكيتهم لمساحات معينة. وهكذا فإنّ عدداً كبيراً من المساحات المملوكة لأفراد والأراضي المملوكة للقرى على المشاع أصبحت رسمياً بلا صاحب، وحُوّلت إلى ملكية الحكومة.

وبعد ذلك بوقت طويل، وفي ضوء الأصوات المتذمرة المفعمة بالنّدم والرّفص، صدر عام ١٨٩٩ قانون تنصّ مادّته الثانية على أنّ من يتقدّمون بطلبات لإعادة الأرض إلى حوزتهم يتعيّن عليهم أن يثبتوا ملكيتهم السابقة لها، وذلك بتقديم وثيقة على الأقلّ من سبع وثائق. وإحدى هذه الوثائق تدعى «وثيقة الدولة». وتنصّ المادة السادسة من هذا القانون على أنّ كلّ الإجراءات القانونية المتعلقة بالموضوع هي من اختصاص محكمة الدعاوى الإدارية.

وقد رفع كثير من مثل هذه الدعاوى في تسعينيات القرن الماضي. ولكن المحكمة لم تكن تسمح بنظر الدعوى إلاّ مرّة واحدة، ودون إتاحة فرصة لاستئناف حكمها. وبما أنّه لم يكن هناك نصّ يحدّد الإشراف على عملية التقاضي، فإنّ كلّ شيء كان يتمّ إنجازه بمزيد من التمهّل.

في أيّ قرية صودرت أراضيها المملوكة على المشاع بسبب كذبة أطلقت بوحى اللّحظة، كانت «الأوازا» أو الدائرة الإدارية تصبح هي المدّعي في الدعوى الإدارية. وحتى لو صُمّمت القرية إلى بلدة، فإنّ في وسع الأوازا أن تطالب بالملكية، وتظلّ «جهة مالكة».

وفي حالة قرية معينة، في منطقة ميهارو، في مقاطعة فوكوشيسا، رفعت دعوى في عام ١٩٠٠ مضى فيها المدّعي والحكومة على مهل،

وعلى امتداد خمسين عاماً تغير المدعى عليه من وزير الزراعة والتجارة إلى وزير الزراعة واستثمار الغابات، ولقي المحامون المسؤولون عن متابعة هذه الدعوى حتفهم واحداً بعد آخر. وفي عام ١٩٤٠ وصل وفد من المنطقة التي تقع فيها القرية المدعية، إلى طوكيو، لمقابلة هوندا الذي كان قد أصبح بالفعل محامياً مرموقاً، وأودعوا القضية الداعية لليأس بين يديه.

وقد انتهى هذا الجمود الذي دام خمسين عاماً، من خلال هزيمة اليابان في الحرب.

فوفقاً للدستور الجديد الذي وضع موضع التنفيذ في ١٩٤٧، تم إلغاء المحاكم الخاصة، ومن ثم إلغاء محكمة القضاء الإداري، وحوّلت جميع القضايا الإدارية موضع النظر إلى محكمة طوكيو العليا، وعملت باعتبارها قضايا مدنية. وكتيجة لهذا فقد كسب هوندا القضية بسهولة. ولم يتعد الأمر ضربة حظ، إذ كان في المكان المناسب، في الوقت المناسب.

وتطبيقاً للاتفاق الذي انتقل على مدار السنين، تلقى هوندا كأتعاب له عن كسب القضية ثلث الأراضي التي أعيدت للقرية كلها. وطرح عليه الخيار بين قبول هذا العقار، أو تحويله إلى أموال سائلة بالأسعار الحالية. وقد آثر الخيار الأخير. وهكذا حصل على مبلغ ستة وثلاثين مليون ين.

غيرت هذه الواقعة جذور حياة هوندا ذاتها. فخلال الحرب انتابه تدريجياً شعور بالضجر من حياة المحاماة، وإذ احتفظ باسم «مكاتب هوندا للمحاماة» التي تحظى بالتقدير على نطاق واسع، فقد ترك العمل لشركائه الذين يصغرونه، ولم يكن يظهر في الصدارة إلا بين الفينة

والأخرى. وتغيّرت حياته الاجتماعية، وتغيّر كذلك تفكيره، ولم يكن بمقدوره أن يحمل على محمل الجدّ الحظّ الذي حالفه على نحو مفاجئ تماماً، فأصبح يمتلك قرابة أربعين مليون ين، كما لم يستطع أن ينظر نظرة الجدّ إلى الأزمنة التي جعلت من اجترّاح مثل هذه المعجزة أمراً ممكناً، ومن هنا فقد قرّر أن ينظر إلى الأمر بأسره بصورة عرضيّة.

فكّر في هدم مسكنه في هونجو، وكان من الأفضل لو أنّه احترق في الغارات، وإعادة بنائه من جديد، ولكنّه كان قد ضاق ذرعاً للغاية بالمدينة، بحيث لم يكن بمقدوره بناء شيء جديد فيها، وتوقّع أن يدوم إلى الأبد. وعلى أية حال فإنّه سيحترق عن آخره في الحرب المقبلة.

كانت زوجته رايمي تؤثر بيع العقار، وربّما السكنى في شقّة بدلاً من استمرارهما وحدهما في سكنى دار قديمة كبيرة. ولكن هوندا تعلّل بمرضها لبناء دارة في بقعة نائية، بعيدة عن الزحام، يمكنها أن تخلد فيها إلى الرّاحة.

مضى الزوجان لمشاهدة قطعة أرض دلّهما عليها في منطقة سينجوكوهارا، في هاكوني، أحد معارفهما. ولكنّها عندما سمعا بأمر الرطوبة الشديدة في المنطقة، أحجماً عن شرائها. وبارشاد سائق السيّارة التي استأجراها، انطلقا عبر هاكوني، واستكشفا منطقة نينوكا، في قطاع جوتوبا، وهي تستخدم كمنتجع صيفي، وقد تمّ إعمارها قبل أربعين عاماً. كانت هناك دارات عديدة تملكها شخصيات بارزة سابقة. ولكنّها بعد الحرب أوصدت بواباتها، لتجنّب قوّات الاحتلال الأميركيّة قرب منطقة مناورات فوجي، والنسوة اللاتي لا بدّ أن يلحقن بها. وقد قيل لهوندا إنّ في منطقة تقع إلى الغرب من منطقة الدارات أرضاً قفراً كانت ذات يوم ملكاً للحكومة، ولكنّها

نقلت دوغما مقابل إلى حوزة مزارعين من المنطقة، كنتيجة للإصلاح الزراعي. ويمقدور المرء إبرام صفقة طيبة هناك.

لم تكن المنطقة الواقعة عند سفح جبل هاكوني مغطاة بأسرها بالحمم البركانية، على نحو ما هو عليه الحال حول جبل فوجي، غير أنها كانت أرضاً قاحلة تصلح لغرس أي شيء باستثناء أشجار السرو. ولم يدر المزارعون ما يصنعون بها. وقد ابتهج هوندا المرأى قطعة أرض يكسو فيها عشب البامبا والمريمية منحدرًا يمتد في رفق هابطاً إلى غدير من غدران الأودية، ويبدو منها جبل فوجي جلياً للعيان.

ولدى السؤال، وجد السعر معقولاً للغاية، ومن ثم لم يأخذ باقتراح رايبى بإمعان التفكير في الأمر، ودفع مقدّم شراء قطعة من الأرض تبلغ مساحتها أربعة هكتارات.

قالت رايبى إنها لم تحبّ الخشونة، الكثيبة على نحو يستعصي على الإفصاح عنه، التي تتسم بها الأرض، وساورتها الخشية من الإصابة بالاكنتاب، وعرف، على نحو غريزي أنها لا حاجة بها إلى مثل هذه المشاعر في كهولتها. ولكن بالنسبة لهوندا الذي كان يحلم باللذة، كانت هذه الكتابة بعينها هي الأمر الذي لا سبيل إلى الاستغناء عنه.

كان قد قال: «لا بأس بالأمر. فلو أننا أزلنا النباتات البرية، وغرسنا بعض المزروعات، وبينا منزلاً، فسوف يكون مرحاً للغاية».

شكّل التعاقد مع نجارين من المنطقة، وتوظيف أناس هناك للقيام بغرس الأشجار، وتشكيل المعالم الصناعية التي تضاف إلى الطبيعة، عملية بطيئة، ولكنها أبطت النفقات عند مستوى منخفض، فقد احتفظ هوندا، من أيامه الخوالي، بعادة اعتبار الإنفاق العشوائي أمراً مبتدلاً. ورغم ذلك فإن السرور التابع من اصطحاب ضيف في جولة

بالمكان، وإطلاعه على ممتلكاته الواسعة، كان انفعالاً وُلد منذ زمن طويل في صباه، عندما كان يرتاد ضيعة ماتسوجاي. ولم يكثرث ببرد الربيع الباكر الذي يلذع الجلد بصقيع ثلوج هاكوني المتطاوله في هطوها، بعد انقضاء فصلها، لأنه كان برد حديقه. وبالمثل فإنَّ الوحدة الملتصقة بشخصين لا ثالث لهما يرتمي ظلها الواهنان على المرجة الرَّحبة، كانت مصدر سرور له، لأنَّها الوحدة المرتبطة بأرضه. وقد داخله شعور بأنَّه يبدو كما لو كان يمسك بناصية الرَّفاهية الحقيقية، النَّابعة من الملكة الخاصَّة لأوَّل مرَّة. وفضلاً عن ذلك فقد أسعده أنَّها جاءت، لا من خلال نزعة متطرِّفة، وإنما كلفة من خلال تفكيره المنطقيَّ وتوقيته الجيِّد.

لم تكن صورة كيكو الجانيَّة، البالغة الوسامة، تحمل أثراً من الغنج أو التحفُّظ. وكانت تحظى بالمقدرة على جعل أيِّ رجل يكون إلى جانبها - حتى هوندا الذي بلغ السَّابعة والخمسين من عمره - يشعر بنفسه كما لو كان غلاماً يافعاً في مقتبل العمر. إنَّها قدرة المرأة على أن تفرض على رجل في السَّابعة والخمسين من عمره المرح والإشراق الجليين لشاب يكبله الغرور والنفاق المحض، رجل قد حافظ على المظاهر مهما كلفه ذلك، وإن كان يشعر بعدم الارتياح نحو النِّساء ويكنَّ لهنَّ الاحترام.

لم يكن العمر من وجهة نظر هوندا بالشيء الذي ينبغي أن يؤخذ في الحسبان. وإلى أن بلغ الأربعينيَّات من عمره كان يلتزم الدِّقة فيما يتعلَّق بضروب الإضافة والإنقاص، بالنسبة لسنوات العمر، غير أنَّه الآن تكوَّنت لديه فكرة تلتزم بالطَّابع العابر والمتساهل فيما يتعلَّق بهذه المسألة. ولم يكن يحسُّ بالدهشة، عندما يتفق في بعض الأحيان أن

يكتشف مؤشرات واضحة على الطفولة الحقيقية في نفسه، في جسمه الذي بلغ السابعة والخمسين من العمر. وكانت الشيخوخة بشكل ما نوعاً من إعلان الإفلاس.

تفاقم شعوره، على نحو فظيع، بالقلق على صحته، والفزع من انغماسه في ذاته عاطفياً. وإذا كانت وظيفة العقل هي التحكم، فإنَّ الضرورة الملحة لهذه الوظيفة قد انقضت. ولم تعد التجارب إلا عظاماً أزيل اللحم عنها في صحفة عشاء.

وقفت كيكو، وسط المرجة، وهي تقارن منظر جبل هاكوني إلى الشرق بمشهد جبل فوجي إلى الشمال الغربي. وبدت متوهجة بجلال خير ما يوصف به أنه من النوع الملكي، وأوحى جيدها الأتلع وحاشية سترتها وكل شيء فيها بمظهر قائد أمر، ولا بد أن ضابطها الشاب قد خضع لكافة أنواع الأوامر، بما في ذلك الأوامر التي لا يسهل تنفيذها.

بدا جبل فوجي الذي كست السحب شطره شيئاً سريع الزوال بالمقارنة بامتدادات هاكوني الواضحة التي رقصها الثلج. ولاحظ هوندا أن نوعاً من خداع البصر يجعله يبدو حيناً أكثر ارتفاعاً، وحيناً آخر أقل في ارتفاعه.

قال هوندا، متطلعاً من خلال الفروع الهشة الداوية لأشجار السرو الناصلة التي اشتراها من الجوار وغرسها في أرضه.

- سمعت اليوم، لأول مرة، شقشقة قبرة.

قالت كيكو:

- القُبرَات تأتي في منتصف آذار (مارس). لسوف يكون بمقدورك أن ترى طيور الوقواق في أيار (مايو)، وأن تسمعها وترها، تصوّر

هذا. ربّما كان هذا هو المكان، الوحيد الذي بمقدور المرء فيه أن يشاهد طيور الوقواق ويسمع صوتها في وقت واحد.

بادر هوندا باقتراح، قائلاً:

- دعينا ندخل الدّار، سأشعل النّار في المدفأة، وأعدّ بعض الشّاي.

- لقد أحضرت بعض الكعك المحلّى.

قالتها كيكو مشيرة إلى لفافة كانت قد تركتها في الدّهليز قبل قليل. وكان متجر هاتوري للسّاعات عند منعطف أواري تشو في جيتزا قد حوّل بعد الحرب إلى بي. إكس، وعادة ما كانت كيكو التي يتاح لها الدّخول حسبها تشاء تشتري هدايا من هناك. وكان من الممكن شراء الكعك المحلّى الذي اعتادت تناوله منذ ما قبل الحرب، من هناك بسعر معتدل، وشكل مربّى الخوخ الذي وضع بشكل طبقات رقيقة متماسكة بين الكعكات، جسر اتّصال بين شاي العصر الذي كانت تشربه في طفولتها، وشاي العصر الذي ترتشفه الآن.

قال هوندا، وهو يشرع في السّير:

- لديّ خاتم أودّ إطلاعك عليه لتقويمه.

أحاط نبات الغار العطر الذي كان ما يزال في مرحلة الإنبات، بالشرفة. وباستخدام النوع نفسه من الأجر الأحمر الذي استخدم في السقف فقد بُني في أحد الأركان مكان للطيور. وعندما لمحت القُبرات الصغرة التي التفت حول وعاء الطعام هوندا وكيكو، انطلقت مسرعة وهي تصدر شقشقتها وكأنما نُخست بإبر دقيقة.

كان في صدر المدخل مباشرة باب آخر زين الجزء الأوسط منه بالزجاج المعشق، وعلى كل من جانبيه نوافذ جملت بأطر خشبية، برتقالية، تشبه أطر الدور الهولندية المنتمية إلى أواخر عهد إيدو. وكان بمقدور المرء أن يرى ما وراءها على نحو مبهم. وأعجب هوندا الوقوف هنا، والإطلال على الداخل الغارق في ألوان الشمس الغاربة، المترعة بالشجن، وهو داخل صممه بنفسه، بغير قليل من الجهد، بعروقه الخشبية الغليظة التي ابتاعها من دار ريفية، ونقلت سليمة تماماً، والثرياً العتيقة المتألقة المجلوبة من شمالي ألمانيا. والأبواب المؤطرة ذات الرسوم الخطية المستمدة من رسوم أوتسو الشعبية، ودرع جندي من جنود المشاة، والقوس والسهم - وكلها تسبح في نور أصفر، شاحب، وتنقل لمن يراها الشعور بأنه أمام لوحة من لوحات الطبيعة الصامتة المليئة بالشجن، أو مشهد هولندي صوره رسّام هولندي مثل جان تريك.

دعا هوندا كيكو للدخول، وأجلسها في مقعد مجاور للمدفأة، وحاول إشعال النار في الضرم، ولكنها لم تشتعل. وكانت المدفأة وحدها هي التي وضع مخططها اختصاصي من طوكيو، وقد أجيد

تصميمها، وما كانت لتترك الدخان يرتدّ ويعود من جديد إلى الغرفة .
ولكن هوندا، عندما كان يحاول إضرام النار، كان يدرك على الدوام
أنه لم تتح له الفرصة قطّ، طوال حياته، لتملك ناصية أبسط
الأساليب الفنيّة أو المعارف، بل لم يقدر له حقاً أن يعالج أمر المواد
الأساسيّة .

بدا غريباً أن يتعلّم هذا، في تلك المرحلة من عمره، فهو لم يعرف
الفراغ أبداً، طوال حياته . وهكذا كان جلياً أنه لم يحتك أدنى احتكاك
بالطبيعة، بأمواج المحيط، بصلاية الأشجار، بثقل الصّخور،
وبأدوات مثل لوازم السّفن أو الشباك أو بنادق الصّيد التي يعرفها
العمّال، من خلال عملهم، والتي يعرفها الأرستقراطيون، على
العكس من ذلك، بفضل بحبوحة عيشهم . ولقد وجّه كيواكي فراغه
لا نحو الطّبيعة، وإثماً نحو عواطفه وحدها، ولو أنه بلغ مبلغ النّضج
لما كان مآله إلّا إلى التّبطل والكسل .

- دعني أساعدك!

قالتها كيكو، منحنية بشموخ، بعد أن راقبت بعض الوقت افتقار
هوندا للحذق، وقد نتأ طرف لسانها بين شفّتيها الملمومتين . ولاحت
عجيزتها، بالنّسبة لعيني هوندا اللّتين رفعها مطلقاً، وكأنّها بلا انتهاء،
على وجه التقريب . وزاد من رحابة اللّون الأزرق، المائل للخضرة،
لتنورتها المحكمة على جسمها، والوافرة كأنّها مزهريّة من عهد أسرة
بي الصّينيّة المالكة، نمط تصميم البدلة التي كانت ترتديها، والتي
تميّزت بخطّ وسط بالغ الضّيق .

ولما لم يكن لدى هوندا ما يقوم به، فيما عكفت كيكو على إضرام
النّار، فقد بارح الغرفة لإحضار الخاتم الذي أتى على ذكره . وعندما

عاد كانت السنة لهب وحشيّة، ذات لون قرمزيّ، تتواهب متصاعدة على كتل الخشب، وجزئيات من الضرم تعمل أسنانها في الدخان المتصاعد متراقصاً، فيما النسغ المنساب من الخشب المقطوع حديثاً يصدر أزيزاً مميّزاً. وتوهج الحاجز الطوي للمدفأة في سنى النار، وأخذت كيكو تمسح يديها في هدوء، وترقب نتاج جهدها بشعور جليّ بالرضا.

- كيف ترى هذا؟

- مدهش.

قالها هوندا ماداً يده نحو اللهب، ثمّ سلّم الخاتم إلى كيكو، قائلاً:

- هذ هو الخاتم الذي ذكرته منذ لحظة. ما رأيك؟ لقد ابتعته لتقدمه هديّة.

سحبت كيكو أصابعها، بأطرافها المخضبة بالحمرة، من نطاق السنة اللهب، وتفحصت الخاتم في الضوء الخابي المنسلّ من النافذة. قالت:

- إنه خاتم ممّا يتحلّى به الرجال.

كان مؤلفاً من زمردة مربّعة، قائمة الخضرة، يحيطها ذهب صينغ على هيئة زوج من «الياكشا» الحارسة، بوجهين نصف حيوانيين، شديدي التأثير في النفس. أبعده كيكو عن أطراف أصابعها، ربّما لتجنّب انعكاس أظافرها الحمراء، وأمسكته بين أصابعها، ودفعته لتستقرّ أصبعها السبابة فيه. وعلى الرّغم من أنه كان خاتماً ممّا يصاغ للرجال، إلاّ أنه ناسب، من حيث المقاس، أصبعاً رقيقة خمريّة البشرة، وما كان بالكبير للغاية حتّى بالنسبة لها.

- إنه حجر جيّد. ولكن في حالة الزمردات العتيقة، فإنّ تصدّعاته الدّاخليّة تتحوّل دائماً في المدى الطّويل إلى ذرور. وهناك خطر الهشاشة، عندما يرتفع الفحم من أسفل. وهذا الحجر تظهر فيه تلك الحالة. ولكنّه مع ذلك حجر جيّد. والصّقل غير مألوف. وسيكون ثميناً كحجر أثري.

- من أين تظنين أنّي ابتعته؟

- من الخارج؟

- لا، في أطلال طوكيو. في متجر الأمير توين.

- آه، نعم، تلك الأيام... ولكن أياً كانت المتاعب الماليّة التي ربّما تعرّض لها الأمير، فإنّ افتتاح متجر بالنّسبة له...! لقد ذهبت إلى هناك مرّتين أو ثلاثاً. واتّضح لي أنّ كلّ ما يشير الاهتمام هو شيء كنت قد رأيته منذ وقت طويل، عند أحد الأقارب. ولكنّ المتجر تعيّن إغلاقه، وقد سمعت أنّ الأمير لم يذهب إلى هناك قطّ. وكان الوكيل السّابق الذي عمل رئيساً للموظّفين مدير المتجر ويختلس كلّ الأرباح. ولم يقدر لأحد أعضاء العائلة المالكة قطّ أن يستهلّ مشروعاً ناجحاً، في دنيا الأعمال، بعد الحرب. وأياً كانت جسامه الضّرائب العقاريّة التي فرضت عليهم، فقد كان عليهم القيام بحماية ما ترك لهم من ممتلكات، لقد كان هناك على الدّوام مروجّ للمشاريع الجديدة، قادر على توريطهم في مشروع ما. وهذا ينطبق، بصفة خاصّة، على الأمير توين الذي كان دائماً رجلاً عسكرياً. وهو يذكّرني بالسّاموراي التّعساء الذين أفلسوا بعد عهد الإصلاح.

عندئذٍ أبلغها هوندا بتاريخ الخاتم.

في عام ١٩٤٧ سمع هوندا بأنّ الأمير توين قد جرّد من لقبه، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وابتاع تحفاً فنّيّة، بأسعار رخيصة، من

أعضاء في العائلات النبيلة السابقة، أثقلت كاهلهم الضرائب العقارية. وافتتح متجراً للمقتنيات العتيقة الثمينة، مخصّصاً للأجانب. وما كان الأمير ليتذكّر هوندا، حتى ولو ذهب هذا لمقابلته. ولكنّ الفضول دفع هوندا لإلقاء نظرة على المتجر، دون الإفصاح عن هويته. واكتشف في علبة بلورية خاتم الأميرة تشانترابا الذي فقدته الأمير السيامي تشاوي، في القسم الداخلي لمدرسة النبلاء، منذ أربعة وثلاثين عاماً خلت.

بدا جلياً أن الخاتم الذي كان من المعتقد في ذلك الوقت أنه وضع في غير موضعه، قد تمت سرقة في حقيقة الأمر. وبالطبع لم يكشف موظف المبيعات عن المصدر الأصلي للخاتم، ولكن من المحتم أنه جاء من دار نبيل سابق. ولا بدّ أنّ الرجل الذي اضطرّ لبيعه كان طالباً في المدرسة، عندما كان هوندا يدرس فيها. وحدا بهوندا شعور قديم بالعدل إلى شراء الخاتم، راغباً في إعادته بنفسه، على نحو ما، مالكة الأصلي.

داعبه كيكو، قائلة:

- إذن، فإنك ماضٍ إلى تايلاند لإعادته؟ لتبرئة اسم وطنك الأم؟

- لقد اعترمت ذلك يوماً ما. ولكن ذلك لم يعد ضرورياً، الآن،

فقد جاءت الأميرة إلى اليابان للدراسة.

- فتاة ميّنة جاءت إلى هنا للدراسة؟

- لا، لا، إنها تشانترابا الثانية - أعني ينج تشان. وقد دعوتها إلى

حفلة غدي، وأعترمت في أثنائها أن أضاع الخاتم في أصبعها. إنها في

السابعة عشرة من العمر، سحباء الشعر، متألفة العينين، وهي

تتحدّث اليابانية بطلاقة، ولا بدّ أنها قد درست باجتهاد قبل مغادرة

بلادها.

في صباح اليوم التالي، استيقظ هوندا فوجد نفسه وحيداً في الدّارة، وللوقاية من البرد التّف في سترة صوفيّة محبوكة، ولفاع قطنيّ، ومعطف شتوي ثقيل. وسار عبر المرجة إلى التّعريشة، عند الطّرف الغربي للحديقة، فقد كان يتوق، أكثر من أيّ شيء آخر، إلى تأمل جبل فوجي عند الفجر.

مسّ اللّون القرمزي الجبل بخفّة عند الشّروق، وتوهّجت قمّته بلون حجر ورديّ متألّق، ولاح لعينيه وهماً يشبه ما يترأى في الحلم، سقفٌ كاتدرائيّة تقليديّة، معبدٌ فجر ياباني.

ساورت هوندا في بعض الأحيان الحيرة في ما إذا كان قد سعى إلى العزلة، أو إلى لذّة مراوغة. فقد كان يفتقر إلى شيء جوهريّ لكي يصبح ساعياً جاداً وراء اللذّة.

واستيقظت للمرّة الأولى في مكان ما من أعماقه - وفي عمره ذلك! - رغبة في التحوّل. فبعد أن راقب، عن كثب، تجسّد الرّجال الآخرين، من جديد، دون أن يطرف له جفن، لم يفكّر قطّ في استحالة حدوث ذلك له. والآن وهو يتسنّم عمراً يكشف فيه التوهج الأخير للحياة عن امتداد ماضيه، فإنّ يقينيّة تلك الاستحالة تُفاقم، على نحو إضافيّ، من وهم إمكانيّة حدوث ذلك البعث من جديد.

لربّما قام بدوره بشيء غير متوقّع. فقد كانت أعماله، حتّى هذا اليوم، ممّا يمكن التّبسوء به، وكان عقله، على الدوام، يلقي بضوئه خطوة إلى الأمام، شأن مصباح نُقال يمكّ به سارٍ في درب مظلم

ليلاً. ومن خلال الخطط والتنبؤات، تمكّن من تجنب أن يفاجئ نفسه. وكان أكثر الأمور إثارة للفرع هو أن كلّ الألغاز، بما في ذلك معجزة التناسخ، قد انتهت بالقطيعة والجفاف.

وما كان بحاجة إلى أن يفاجئه ذلك، فقد أصبح، على وجه التقريب، من ضرورات الحياة. ولو أنه كان هناك حقّ خاصّ في السخرية من العقل ودهسه بالأقدام، فإنّ لديه من الغرور العقلائي ما يدفعه إلى الاعتقاد بأنّ هذا الحقّ لم يمنح إلاّ له وحده! وكان عليه أن يغمس عالمه المستقرّ في جيشان غير محدّد الملامح من جديد، في شيء لم يسبق له قطّ أن ألفه من قبل!

كان يعلم تمام العلم أنه قد فقد كلّ المؤهلات البدنيّة لذلك. فقد نحل شعره، وكسا الشيب فوديه بالبياض، وتضخّمت معدته، واكتسب جسمه، دوغما هوداة، كلّ خصائص الشيوخوخة المبكرة التي كان يعتبرها في شبابه بالغة القبح. ولم يحدث قطّ بالطبع أن نظر إلى نفسه في شبابه بحسبانته إنساناً وسيئاً، مثل كيواكي، ولكنّه لم ير كذلك في نفسه قبحاً على وجه خاصّ. ولم يجد من الضّروري على الأقلّ أن يضع نفسه بين الأرقام السالبة في عالم الجمال، وأن يبني معادله على هذا الأساس. فما السرّ في أنّه الآن، وقد غدا قبحه جلياً، ما يزال العالم من حوله جميلاً؟ كان ذلك أسوأ من الموت ذاته بكثير، كان الموت الأسوأ!

بلغت السّاعة السادسة والثلاث. وتملّص جبل فوجي الذي كسا الثلج ثلثيه، من ألوان الفجر، وشمخ في مواجهة السّماء الزّرقاء، في جمال حدّ الملامح. وبدا جلياً، بوضوح أكثر مما ينبغي، على وجه التقريب. كان الثلج هشاً مترعاً بالتوتر الحساس النّاجم عن تموجّه،

فأعاد إلى الذّهن التّلاعب البديع لعضلة لدنة . ولم تكن هناك ،
باستثناء المنحدرات الدنيا ، إلّا ثلاث بقع قائمة محمّرة قليلاً ، قرب
السّمت ، وقرب قمّة هوي . وكانت السّماء الزّرقاء صلدة ، ومجرّدة من
السّحب . ولو أنه ألقى حجراً ، لتردّد عائداً صوت ارتطامه بها .
إنّ فوجي هذا يؤثّر في كلّ الأهواء ، وسيطر على كلّ العواطف .
وما ينهض أمام هوندا ليس إلّا الجوهر الأشهب الخالص للقابليّة ذاتها
للتساؤل .

ازدادت حدّة جوع هوندا ، وسط الهدوء ، وتاق إلى إفطاره المؤلّف
من الخبز المتباع من طوكيو ، والبيضة المسلوقة سلقاً خفيفاً ، والقهوة
التي سيعدها وهو يصغي إلى تغريد العصافير . وكان من المقرّر أن
تصل زوجته مع الأميرة ينج تشان ، في الحادية عشرة من ضحى
اليوم ، لبدء الاستعدادات للحفل .
عاد بعد الإفطار إلى الحديقة .

اقتربت الساعة من الثامنة . وشرعت كتل صغيرة من السّحب
بالارتفاع وكأنّها تلج تنه السّماء على الجانب الآخر من جبل فوجي .
وانتشرت متسلّلة كأنّها لتتجنّس على الجانب القريب ، مادّة أطرافها
وهي تدنو . وفجأة ، ابتلعها سماء زرقاء بلون الخزف . وما كان
بالإمكان تجاهل هذه الكمائن التي تبدو هيئة الشّان ، فمثل هذه
السّحب تميل إلى العودة إلى التجمّع ، حتّى الظهيرة ، مكرّرة هجماتها
المفاجئة ، ولا تلبث بالفعل أن تكسو الجبل بأسره .

جلس هوندا ، شاردأ ، في التّعريشة ، حتّى حوالي الساعة العاشرة .
وكان قد حفظ ، في مكان بعيد ، الكتب التي لم يقدر لها قطّ البقاء
بعيدة عنه ، وراح يلجم بالمواد الخام التي لم تصفّ منها الحياة

والعاطفة، جلس بلا حراك، دون أن يفعل شيئاً. رفعت سحابة،
ظهرت بخفة إلى اليسار، وسرعان ما توقفت عند قمة هوي، ذيلها،
وكأنها دولفين يتواثب.

وصلت زوجته التي كان يصبر على أن تلتزم بالمواعيد، في الحادية
عشرة، مستقلة سيارة أجرة صاحبة الضجيج. ولم تكن الأميرة ينج
تشان إلى جوارها. وقال هوندا، في الحال، لهذه المرأة البدينة
المتجهمة، وهي تخرج عدداً من الرزم من السيارة:
- آه يا عزيزتي، لقد جئت وحدك!

لم ترد رايبى للحظة، ولكنها رفعت جفניה اللذين يشبهان ظلتين
ثقيلتين.

- سأوضح الأمر فيما بعد، حينها يتاح لي المزيد من الوقت. لقد
واجهت متاعب جمّة. ساعدني أولاً في نقل هذه الرزم!

كانت رايبى قد انتظرت حتى الوقت المحدد، ولكن الأميرة ينج
تشان لم يبد لها أثر. وكان ذلك بعد مكالمتين أو ثلاث مكالمات
هاتفية. وأخيراً اتصلت هاتفياً بمصدر الاتصال الوحيد المتاح، وهو
مركز الطلاب الأجانب، وقيل لها إن الأميرة لم تعد إلى القسم
الداخلي البارحة، إذ دعيت لتناول طعام العشاء في دار عائلة يابانية
ينزل لديها طالب جديد من تايلاند.

ساور رايبى شعور بالقلق، وفكرت في تأخير موعد وصولها إلى
الدّارة. ولكنها لم يكن أمامها سبيل لإخطار هوندا بذلك، إذ لم يكن
لديها هاتف. وبدلاً من ذلك سارعت إلى مركز الطلاب الأجانب
حيث تركت رسالة بالإنجليزية مع المشرف، موضحة فيها بعناية،
ومن خلال خريطة، كيفية الوصول إلى الدّارة. وإذا ما سار كل شيء

على مايرام، فإنّ الأميرة ستصل في الوقت الذي يبدأ فيه الحفل في المساء.

- طيّب، إذا كانت تلك هي المشكلة، فقد كان بمقدورك طلب المساعدة في العثور عليها من ماكيكو كيتو.

- ولكن ما كان بمقدوري أن أثقل على ضيفة من ضيوفنا، فحتّى هي سوف تلقى صعوبة في العثور على طالبة أجنبية لا تعرفها على الإطلاق، ثمّ إحضارها عبر كلّ هذه المسافة إلى هنا. وبالإضافة إلى ذلك فليس بمقدورك أن تتوقّع من شخصيّة بارزة، مثل ماكيكو، أن تتخلّى عن البرنامج الذي أعدته، هي التي ربّما ظنّت أنها تسدي لنا جميلاً بالحضور إلى الحفل.

لزم هوندا الصّمت. وآثر أن يحتفظ بالحكم لنفسه.

عندما تُنحى صورة عن جدار استقرّت فوقه طويلاً، فإنّها تترك بياضاً حديثاً، بقدر مساحة أطارها وشكله. ومن المؤكّد أنّ الصّورة التي ستنتج عن ذلك، ستكون نقيّة، ولكنّها ناتئة عن بيئتها تماماً، فهي بالغة القوّة، وشديدة الإلحاح. والآن، وقد تقاعد هوندا، تاركاً أنشطته المهنيّة وراء منصّة القضاء، فإنّه ترك كلّ الأمور المتعلّقة بالعدل لزوجته. وكان بياض الحائط على الدوام يطرح دعواه: إني عادل، إنني على صواب، منذا الذي يمكن أن يوجّه إليّ اللوم؟

في البداية كانت الثروة التي وصل إليها زوجها على غير انتظار، وقبح الكهولة الذي بدأت رايمي ترصده في نفسها، هما اللذان أزالا الصّورة المؤرّطة للزوجة الهادئة المطيعة، من فوق الجدار. ومع ازدياد ثراء زوجها، أصبحت رايمي تخافه. ولكن كلّما تفاقم خوفها ازدادت صلفاً، مظهرة عداة للجميع، عن غير قصد، وموغلة في الحديث،

على الدوام، عن علة كليتها المزمنة، وراغبة، مع ذلك، أكثر منها في أي وقت مضى، في أن تُمَحِّضَ العاطفة.

ما إن وصلت إلى الدارة، ونقلت رزم الطعام إلى المطبخ، حتى شرعت، محدثة قدراً من الضجيج، في غسل الأطباق التي استخدمها هوندا في تناول طعام إفطاره. وكانت على يقين من أن تعبها سيفاقم مرضها، وراحت تعدّ الحجة المتمثلة في أنها أرغمت على العمل الشاق، رغم أن أحداً لم يأمرها بذلك. وواصلت القيام بما يلحق الضرر بصحتها، متوقّعة من هوندا أن يوقفها عن ذلك. ولو أنه لم يقم بذلك لغدت الأمور أكثر صعوبة في المستقبل.

قال هوندا، برقة:

- لم لا ترتاحين قليلاً وتقومين بأداء ذلك فيما بعد؟ لدينا وقت طويل. إنّ ينج تشان تسبّب الكثير من المتاعب أليس كذلك؟ كانت تقول إنّها ترغب بشدة في تقديم يد العون. وبعد ذلك كله يتعيّن عليّ سدّ هذا الفراغ، في آخر لحظة.

- المساعدة التي ستقدّمها ستجعل الأمور أسوأ.

عادت رايني إلى غرفة الجلوس وهي تجفّف يديها.

في الغرفة المعتمة التي انسلت إليها بجوار النافذة لمحة من شمس الأصيل، بدت عينا رايني تحت جفنيها المنتفخين وكأنتها ثقبان في قناع وجه امرأة، ممّا يستعان به في مسرح التّو^(١). وبدت عليها مشاعر

(١) مسرح التّو: أكثر أشكال المسرح الياباني التقليدي أصالة وإبداعاً. وقد تأثر بعمق، من حيث المضمون الجمالي والبناء الدرامي، بالفكر البوذي الذي يرى في الواقع العياني وهماً، على نحو ما ازدهر في القرون الوسطى. ومن هنا فإنّ دراما التّو تسعى إلى الكشف عن واقع أسمی وأرقى، من خلال الأساليب الفنيّة المعقّدة لخشبة المسرح، =

الأسى والندم التي تعاني منها امرأة عقيم لم تجد لعلتها علاجاً. وتفاقت حالتها، عبر السنين، وانتفخ جسمها، بفعل هذه المشاعر وكأنه قماش مشمّع امتلاً بالهواء. «إني على حق، ولكني منيت بالإخفاق». ومن هذا اللوم للنفس نبعت الرقة التي لم تتغير، والتي أظهرتها نحو حمايتها الراحلة. لو أنها أوتيت الأطفال، لو أنها أوتيت فقط كثيراً من الأطفال لجعلت زوجها يذوب رقة، من خلال مراكمة لحمهم الغض اللدن. ولكن التدهور بدأ، منذ زمن طويل، في عالم حرمت عبره من الذرية، تماماً كما تفسد تدريجياً سمكة ألقيت على شاطئ البحر في أصيل خريفي. وأخذت رايمي ترتجف أمام زوجها الثري ذلك.

= التركيز على التصوير، والزعة الرمزية. ومسرح النؤ، على نحو ما نعرفه اليوم وهو شكل آخر من أشكال المسرح التقليدي الياباني، هو من إبداع اثنين من ممثلي الساروجاكو حظيا برعاية النبلاء العسكريين، هما كانامي (١٣٣٣ - ١٣٨٤) وولده زيامي (١٣٦٣ - ١٤٤٣). ومنذ أيام زيامي تحديداً، أمكن الحديث عن النؤ كفنّ منفصل، على الرغم من أنّ هذه الكلمة التي تعني الإنجاز، أو العمل البارع، قد استخدمت من قبل للإشارة إلى فني الساروجاكو والدنجاكو، ويعزى ثلث المسرحيات التي نُعدّ اليوم ذخيرة (أو ريرتوار) مسرح النؤ إلى زيامي، كما تتبع كافة جوانب عروض النؤ، منذ عصره، توصيفاته لهذا الفنّ. وبالنسبة للمشاهد الذي اعتاد المسرح الغربي فإنّ مسرح النؤ قد يبدو ممحوطاً، إلى حدّ بعيد، وربما مضجراً، غير أنه إذا تمّ التركيز على الإيقاعات التي تحدّثها الطبول، والتوتّر الذي يثيره النأي، فإنّ المرء سيحسّ بالمضمون الدرامي الهائل لحركات الممثلين، وهؤلاء الأخيرون هم جميعاً من الذكور في مسرح النؤ، وتساندهم جوقة مؤلفة من ثمانية أشخاص، وفرقة موسيقية من ثلاثة عازفين. ويقدر ما نعلم فإنه ليس هناك مرجع واحد مستقلّ في اللّغة العربيّة عن مسرح النؤ، ولا بأس من مراجعة كتاب «المسرح في الشرق»، وليت المكتبة العربيّة تحظى بمن يكفل لها من المؤلفين أو المترجمين العرب سدّ هذا النقص الجليّ.

(هـ. م.)

تجاهل هوندا، عن تدبّر، محنة زوجته التي كانت تأمل دوماً في تحقيق المستحيل. والآن لم يكن بمقدوره احتمال الحقيقة القائلة بأنه يتوق إلى المستحيل أيضاً. وفي غمرة توفقه هذا، انحدر إلى مستواها. ولكن هذا الاستفطاع الذي طرأ مؤخراً جعل وجود رايبى أمراً بالغ الأهمية.

حدّث هوندا نفسه، مسترسلاً في خواطره: «أين أمضت ينج تشان الليلة البارحة؟ لم ظلّت بعيداً؟ هناك مشرف على مركز الطلاب الأجانب، وربما كان الإشراف صارماً. لم فعلت ذلك؟ ومع من كانت؟

كان ما ساوره هو شعور بالقلق، الشعور اليومي المتقلقل ذاته، نوعية الانفعال التي يستشعرها في الصباحات التي يخلق فيها ذقنه، على نحو سئى، أو الليالي التي يعجز فيها عن الوصول إلى وضع مريح لرأسه على الوسادة. لقد كان ذلك أمراً بعيداً عن الاهتمام بإنسان آخر، فقد كان شعوراً منعزلاً، ولكنه مع ذلك بدا أنه يتواءم مع ضرورة ملحة في الحياة. وأحسّ كما لو أنّ موضوعاً غريباً قد دسّ في ذهنه دساً، شيئاً يشبه أيقونة صغيرة لبودا نُحتت من خشب الأبنوس الأسود، من الغابات التايلانديّة.

واصلت زوجته الثرثرة في تفاصيل هامشيّة، مثل كيفيّة استقبال الضيوف، وأيّ الغرف ستخصّص لمن سيمضون الليل بالدّارة. ولم تكن لكلّ ذلك أهميّة لدى هوندا.

أدركت رايبى، تدريجياً، أنّ ذهن زوجها قد شرد بعيداً. ولم يكن يحدث قطّ في الماضي أن يساورها أيّ شكّ بشأن زوجها عندما يعكف في مكتبه؛ فقد كان من المؤكّد أنّ دراساته القانونيّة هي التي

تبعيه هناك. وأما الآن فإنَّ شروده يعني اتِّقاد لهب خفيّ، وصمته يشير إلى مكيدة من نوع ما.

تابعت عينا رايبى نظرة زوجها المحدّقة، في محاولة لرصد مصدر شروده. ولكن لم يكن هنالك، فيما وراء النّافذة، إلاّ الحديقة بعشبها المتجمّد الذي أخذ يتقافز فوقه عصفوران أو ثلاثة.

* * *

كانت الدّعوة قد وجّهت للضيوف للمجيء، في السّاعة الرّابعة، إذ أراد هوندا أن تتاح لهم رؤية المشهد الطّبيعي والشمس ماتزال عالية في السّماء. وأقبلت كيكو في السّاعة الواحدة، عارضة تقديم يد المساعدة. فابتهج كلّ من هوندا ورايبى لهذا العون غير المتوّع.

من الغريب ألاّ تفتح رايبى قلبها إلاّ لكيكو من بين كلّ أصدقاء هوندا الجدد؛ فقد كانت تشعر، بصورة غريزيّة، أنّها ليست بالعدو. وتمثّل السّبب في طيبة كيكو، وصدورها الرّيان، وعجزيتها الهائلة، وحديثها الهادئ، بل إنّ عبير عطرها كان، فيما يبدو، يمنح تواضع رايبى الفطريّ نوعاً من الشّعور بالأمان، مثل خاتم التصديق الرّسميّ الأحمر المدبوغ بصورة لافتة للنظر على الشّهادات الصحيّة المعلّقة في المخابز.

جلس هوندا مبتهجاً إلى جوار المدفأة، وفتح جريدة الصّباح التي جلبتها رايبى من طوكيو، مصغياً في شرود لحوار المرأتين في المطبخ.

كان العنوان الذي تصدّر الصّفحة الأولى هو: ملاحق كاملة للمعاهدة الإدرايّة، ووفقاً لهذه الملاحق فإنّ ستّ عشرة قاعدة جويّة سيتمّ الإبقاء عليها بعد سريان معاهدة السّلام الأميركيّة - اليابانيّة. وقد نشر على أحد جانبي الصّفحة حديث للسّناتور سميث، أعرب

فيه عن تصميم أميركا على الـ «التزام بحماية اليابان . لا للاعتداء الشيوعي». وفي الصفحة الثانية نشر تقرير عن الاتجاهات الاقتصادية الأميركية، بعنوان: «زيادة في الإنتاج المدني: نتائج عكسية تنجم عن التدهور الاقتصادي في غربي أوروبا»، وقد طبع بأحرف بارزة، وأفصح عن شعور قاطع بالقلق.

لكن ذهن هوندا كان يرتدّ دائماً إلى غياب ينج تشان . وأخذ يستحضر كل أنواع المواقف، وجعله خياله الطليق يحسّ بعدم الارتياح . ومن الأكثر فظاعة إلى الأشدّ فحشاً، فإنّ الواقع يحظى بالمقطع الرأسي المتعدّد الطبّعات لخشب يكسوه العقيق . وبقدر ما يسعه التذكّر فإنه لم يسبق له قطّ أن رأى الواقع يتخذ مثل هذا الشكل .

أجفل هوندا إزاء القرقة العالية الصادرة عن الصحيفة، وهو يطوبها، فقد كانت الصفحة التي تواجه النار حارة، وجافة . وفي تكاسل أخذ يحدث نفسه، متفكّهاً، بأنّه من المستحيل بالنسبة للصحيفة أن تكون حارة على هذا النحو . وكان هذا الشعور مرتبطاً، على نحو غريب، بالفتور الذي تراخى عميقاً في جسمه المتواني، ثمّ ذكرته فجأة ألسنة اللهب الملتفة حول كتلة خشبية جديدة بمحارق بنارس الجنائزية .

أطلت كيكو، وقد وضعت ميدعة كبيرة، وقالت:
- ما رأيك في تقديم الشري والويسكي والماء وبعض «الدوبونيت» كمقبات؟ وأما الكوكيتلات فتقتضي عناء كبيراً، فدعنا لا نقدّمها!
- إنّي أترك لكم كل شيء .
- وماذا عن الأميرة التايلاندية؟ ينبغي أن تكون لدينا بضعة

مشروبات غازية، إذا أرادت ألا تتناول المشروبات الروحية.

ردّ هوندا، بهدوء:

- قد لا تحضر.

- آه؟

هتفت بها كيكو، دوغما انفعال، وانسحبت. وقد جعلت مجاملتها التي لا تشوبها شائبة، من صفاء ذهنها شيئاً رهيباً للغاية. وحدث هوندا نفسه بأن المرء يبالغ في تقدير امرأة مثلها بسبب رباطة الجأش الرائعة هذه.

كانت ماكيكو كيتو أول الواصلين، وبصحتها طالبتها السيدة تسوباكيهارا، وكانتا قد انطلقتا عبر جبال هاكوني بسيارتها التي يقودها سائق خاص.

كانت شهرة ماكيكو كشاعرة قد بلغت ذروتها. ولم تكن لدى هوندا معايير للحكم على القيم الشعرية، ولكنه عندما سمع اسم ماكيكو يتردد على السنة أناس أبعد ما يكونون عن أن يتوقع المرء منهم ذلك، أدرك مدى المكانة الرفيعة التي تحظى بها. وكانت السيدة تسوباكيهارا التي تنتمي إلى عائلة من عائلات «الزاياتسو» السابقة، في حوالي الخمسين من العمر، أي في سن ماكيكو، ولكنها كانت تعاملها بإجلال وكأنها ربة.

وكانت السيدة تسوباكيهارا في حداد دائم على ابنها، وهو ملازم في البحرية كان قد لقي مصرعه قبل سبع سنوات. ولم يكن هوندا على علم بشيء عن ماضيها، ولكنها بدت كقطعة فاكهة مخملية في خلّ الحزن.

لقد بقي لماكيكو حسنها. وقد وشت بشرتها الصّافية بأمارات التقدّم في العمر، ولكنها احتفظت برونق الثلج الذي يهطل متأخراً، وأضفى اللون الرّمادي الرّاحف إلى شعرها الذي لم تمسه الأصباغ الاصطناعيّة، طابع الإخلاص على قصائدها. وكان سلوكها طبيعيّاً، بلا تكلف، ولكنها كانت قد أشاعت حولها جوّاً من الغموض. ولم يحدث أن تجاهلت قطّ الهدايا ذات الأهميّة الاستراتيجيّة، أو توجيه الدعوات إلى العشاء للشخصيّات ذات المكانة، فاكسبت إلى صفّها أولئك الذين كان يمكن أن يتخرّصوا، موغلين في سيرتها. وعلى الرّغم من أنّ كلّ ينابيع المشاعر الحقيقيّة كانت قد دفنت فيها، منذ زمن طويل، إلّا أنها احتفظت بلمحة حزن باقية، وبوهم كونها وحيدة.

وبالمقارنة بحزنها فإنّ حزن السيّدة تسوباكيهارا بدا شيئاً يفتقر إلى النّضج. كانت المقارنة قاسية حقّاً. فحزن ماكيكو الجمالي الذي صفا متحوّلاً إلى قناع، قد أنتج الرّوائع، بينما الحزن المتفجّر الذي لم يعرف البرء، والذي تعانیه طالبتها، بقي في حالة بدائيّة، بعيداً عن التشكّل، فلم يقدم إلهاماً لإبداع شعر مؤثر. وكان حريّاً بالشّهرة المحدودة التي تمتعت بها السيّدة تسوباكيهارا كشاعرة أن تتبدّد في الحال، لولا مساندة ماكيكو لها.

استخلصت ماكيكو الانفعال الشعري من الحزن الخام الذي تحسّه هذه الرّفيقة الدائمة، مقدّمة حزناً مجرداً لم يعد ملكاً لأحد، وواضحة عليه اسمها. وهكذا فإنّ جوهره الحزن التي لم تصقل اتّحدت بالحرفي البارع ليقدم روائع لا حصر لها - لفاعات أفلحت في إخفاء الجيدين المتقدمين في العمر اللذين يلتفتان بها عاماً بعد عام.

ساور ماكيكو شعور بالضيق لوصولها في وقت مبكر. وقالت ناظرة
إلى السيدة تسوباكيهارا، بجوراها:
- لقد انطلق السائق بالسيارة بأسرع مما ينبغي.
- تماماً، فحركة السير لم تكن مزدحمة كما توقعنا.
قالت لهوندا:

- دعنا نشاهد الحديقة أولاً؛ فقد كنا نتطلع إلى هذا، أرجو أولاً
تهتم كثيراً، فلسوف غضي على مهل في جولة، وربما نظمنا قصيدة
قصيرة.

أصر هوندا على اصطحابها في الجولة، وحمل معه زجاجة شري
وبعض المقبلات، معتماً تقديمها في التعريشة، وكان الأصيل قد غدا
أكبر دفتاً. وفيما وزاء الحديقة التي كان يضيق نطاقها وهي تنحدر
برفق إلى الوادي، كان بمقدور المرء أن يرى جبل فوجي إلى الغرب
وقد اكتسى نقاباً من سحب الربيع التي تشبه القطن في بياضها. وقد
بدت القمة المتوجة بالجليد وحدها وكأنها رسمت بحدة في مواجهة
السماء اللازوردية.

أوضح هوندا، وهم في الطريق:
- أعترم، بحلول الصيف، إنشاء حوض للسباحة، أمام الشرفة،
حيث وكنة الطيور.

لكن استجابة السيدتين أتمت بالبرودة فساوره، فجأة، شعور
بأنه عامل في نزل يصطحب نزيلتين في جولة، عبر الأراضي التابعة له.

لقد برهن الفنانون، ومن إليهم، بالنسبة لهوندا أنهم أصعب
الناس في التعامل معهم. وكان قد استأنف علاقاته بماكيكو لدى إقامة
الصلاة التذكارية الخامسة عشرة على روح إيساو، في عام ١٩٤٨،

ولم يكن الشَّعر هو السَّبب، كما قد يتوقَّع المرء . فقد ترعرعت العلاقة الروتينية السَّابِقة بين محام وشاهدة (على الرَّغم من أنَّها حملت لمسات من التَّواطؤ) فأضحت صداقة، ذلك أنَّها كانا يكتَّنان معاً عاطفة لم يعربا عنها لإيساو. وقد عجز هوندا عن فتح مجال للحديث فطرق موضوع حوض السَّباحة الهامشي . . ووقفت ماكيكو، وإلى جانبها تلميذتها، وهما تواجهان مشهد جبل فوجي في الرَّبيع .

كان يعرف أنَّ المرأتين لا تشعران نحوه بالازدراء، ومع ذلك فقد أدرك أنَّها كانتا تحسَّان بما يكفي من الارتياح معه للتصرف دونما كبح للنفس . لقد كان خارج دائرتهما، غريباً عن أسلوبهما في الحياة . وكان بمقدوره أن يتصوَّر في يسر ماكيكو وهي تحادث شخصاً متورطاً في قضية صعبة : «السيد هوندا صديقي . لا، إنَّه لا ينظم الشَّعر، ولكنَّه قادر على التفهَم، إلى حدِّ كبير، وهو ممتاز في القضايا المدنيَّة والجنائيَّة على السَّواء . وسأحدِّثه بشأن قضيتك» .

ولكنَّ هوندا كان في أعماقه يخشى ماكيكو، وربَّما كانت تبادلها كذلك خوفاً بخوف . وكانت قد أحييت صلتها به لكيَّ تحمي اسمها . ولم يكن هوندا بالَّذي تساوره الأوهام عن شخصيَّتها الحقيقيَّة ؛ إذ كان يعرف أنَّ بمقدورها الإدلاء بشهادة كاذبة، وطرح أشدَّ الأكاذيب قابليَّة للتكذيب، في اللَّحظة الحرجة .

وأما فيما عدا ذلك فقد كان هوندا شخصاً ودوداً، ومقبولاً، بالنسبة للمرأتين . ولطالما تحدَّثتا بحريَّة أمامه، بينما كانتا تحتفيان في الحال وراء ثرثرة اجتماعيَّة، لا ضير فيها، عندما تقترب رايبى . وقد أحبَّ هوندا مراقبة هاتين المرأتين اللَّتين كانتا جميلتين يوماً، ولكنَّهما ما عادتتا في مقبل العمر، وأحاديثهما الحزينة، المتواصلة، وخطبهما بين

شهوانيتهما والماضي والذكريات وحقائق الواقع التي يجثم بعضها على بعض، وتعودهما تشويه الطبيعة والواقع كيفما يحلو لهما. وأحبّ كذلك قدرتهما على إضفاء الطابع الغنائي التلقائي على كل شيء جميل تريانه، شأن محضر محكمة يوقع الحجز على كل قطعة أثاث يجدها، وكأنما كانت تلك طريقة لحماية نفسيهما من أيّ جمال قد تلمحانه. وأحبّ هوندا رؤيتهما تلهوان، وتطفران مرحاً، وكأنهما اثنان من طيور الماء السباحة الملهمة، ينزلقان عائدين إلى الماء، بعد أن مضيا إلى البرّ متعثرين، في ارتباك، فيظهران، لدى وصولهما إلى الماء، رشاقة وبراعة غير متوقّعتين وهما يمشيان في السباحة والغطس. وعندما كانتا تنظمان قصيدة فإنهما تبديان حرّية لا تعرف الحرج، في أخذ حمام شمسيّ ذهني، دونما خوف من التعرّض للأنظار، الناجم عن ذلك. وقد أعاد ذلك إلى ذهنه الأميرة الشابة والوصيفات الكهلات في بانج با إن.

تري هل ستحضر ينج تشان حقاً؟ أين أمضت الليل؟ لقد دقّ القلق، فجأة، إسفيناً خشبياً في ذهنه.

- يا لها من حديقة جميلة! هاكوفي إلى الشّرق وفوجي إلى الغرب. إنّها لجرّيمة أن تضيّع الوقت سدى من دون أن تنظّم قصيدة واحدة. وبينما نضطرّ نحن إلى نظم الشّعر، تحت سماء طوكيو الملوّثة، تقرأ أنت كتب القانون هنا. يا لها من دنيا ظالمة!
- لقد تخلّيت عن كتب القانون منذ وقت طويل.

قالها هوندا، مقدّماً إليهما بعض الشّري. وكانت حركة أردان الكيمونو، والتحرّك الرّشيق لأصابع المرأتين وهما تتقبّلان قدحي الشّري، بالغني الجمال. وبالفعل فقد قلّدت السيّدة تسوباكيهارا تقليداً حرفياً ماكيكو، في ذلك، من الإيماءة المتمثلة في رفع رदन

الكيمونو عالياً بخفة، إلى الطريقة التي حنت بها أصابعها المحلاة بالخواتم، لدى التقاطها قدحها.

قالت السيدة تسوباكيهارا، ذاكرة ولدها الراحل :

- ما أشد ما كان سيحس أكيو بالسعادة لرؤية هذه الحديقة! لقد كان يعجب أشد الإعجاب بجبل فوجي، وحتى قبل التحاقه بالبحرية، كانت لديه في مكتبه صورة مؤطرة للجبل، لكي يتمكن، على الدوام، من التطلع إليه. يا لها من أذواق شابة واضحة الأفاق!.

كانت في كل مرة تأتي فيها على ذكر اسمه تترقق في عينيها دمعتان مواكبتين للنشيج وتمسان وجنتيها، وكأن في فؤادها آلية توافق دقيق تنشط لدى كل إشارة إليه، مستقلة عن رغباتها، ومفضية إلى تعبير لا يتغير يرسم على ملامحها. وكما أن اسم الإمبراطور يذكر دائماً، بتعبير متمس بالتوقير، فقد كان أثر النشيج العابر مرادفاً، على نحو عملي، لاسم أكيو.

فتحت ماكيكو كراسه، على حجرها، ونظمت قصيدة.

- لقد نظمت قصيدة بالفعل!

قالتها السيدة تسوباكيهارا بدهشة وقد تطلعت على نحو تمازجه الغيرة إلى رأس معلمتها المحني. وتطلع هوندا بدوره فلاحت لعينيه مؤخرة عنقها الرشيقة، البيضاء، المعطرة التي فتنت إيساو ذات يوم، وكأنها قمر آفل.

- ذلك هو السيد إيمانيشي. إنني على يقين من أنه هو!

هتفت السيدة تسوباكيهارا متطلعة إلى الرجل الذي كان يعبر المرجة. فحتى من تلك المسافة، كان الجبين الأبيض والقوام المنطلق

بالطريقة المميّزة غير المتهاسكة، جازاً وراءه ظلّه المترامي، يؤكّدان على نحو واضح أنّه هو القادم في الطريق إليهم.

قالت السيّدة تسوباكيهارا:

- يا للفظاعة! يقيناً أنّه سيسرع في حديثه المتبدل ذلك، لسوف يقضي حالاً على استمتاعنا بوقتنا.

كان ياسوشي إيمانيشي، وهو في حوالي الأربعين من عمره، اختصاصياً في اللّغة الألمانيّة، قدّم للقارئ خلال الحرب أحدث الكتاب الألمان سنّاً، وشرع الآن يكتب دونما تمييز كلّ أنواع المقالات. وهو يعكف حالياً على مطاردة حلمه بكتاب «ألف عام من الجنس» الذي ينوي تأليفه، غير أنّه لم تظهر حتّى الآن إشارة إلى قيامه بكتابته. وربما كان قد فقد اهتمامه بكتابته، بعد أن ناقش مع الجميع تفاصيل فحواه. وما كان بمقدور أحد أن يحدّد أهميّة هذا الكتاب الغريب، والكثير، بالنسبة له. كان ابن رئيس شركة إيمانيشي للإجراءات الأمنيّة، وكان يمضي سادراً في الحياة المريحة الخالية من المنغصات التي يحياها العزّاب.

كان يحياه شاحباً وعصبياً، ولكنّه كان متجانساً مع نفسه، لا يكفّ عن الثرثرة، وقد وجده كلّ من العالم المالي وكتاب الجناح اليساري مسلّياً. فقد كان يشعر حقّاً بأنّه اكتشف للمرّة الأولى في حياته شيئاً يناسب شخصيّته، في مرحلة ما بعد الحرب الحافلة بتحطيم كلّ ما هو تقليدي، المرحلة الموجهة ضدّ السّلطة والعرف الرّاسخين. وكان هذا هو الصّراع الذي يخوض غماره المثقفون الشّاحبون المتجهّمون. وقد قال بالمعزى السياسي للخيال الجنسيّ المحلّق الذي تبناه باعتباره الجانب الذي يبرع فيه. وكان حتّى ذلك الوقت رومانسياً ينسج على منوال نوفاليس فحسب.

أحبت النسوة الطريقة التي أتبعها في القيام بجراة بإضافة توابل
البذءاء إلى طرقة الأرسقراطية في الحديث. وأما من وصفوه بأنه
متحلل فقد كشفوا عن أنهم من بقايا العهود الإقطاعية. وفي الوقت
نفسه فإن إيمانيشي أفلح على الدوام في إثارة شعور التقدميين الجادين
بخيبة الأمل، بخريطته السخيفة التي رسمها في «ألف عام من
الجنس».

لم يحدث أن تكلم بصوت عال قط، فقد كان ذلك يطرح خطر
إبعاد الأمور عن ساحة الشهوانية الرقيقة، وتحويلها إلى الأيديولوجيا.
أمضى الضيوف الأربعة وقتهم في التعريشة، وقد لفتهم شمس
الأصيل وهم ينتظرون مقدم الآخرين. وواصل الصوت المقرقر
للغدير المنساب في الأسفل مباشرة فرض نفسه على وعيهم. ولم
يستطع هوندا إلا أن يتذكر الكلمات: «كل شيء في تدفق دائم
كالسيل».

كان إيمانيشي قد أطلق على مملكته الخيالية اسم «أرض الرمان».
خالعاً عليها اسم البذور الصغيرة، المتدفقة، الحمراء، كالياقوت،
وزعم أنه قد رحل إلى مملكته في المنام واليقظة، وأخذ الجميع يسأله
عن أخبارها:

- ما الذي يحدث في أرض الرمان هذه الأيام؟

- السكان، كالمعتاد، تحت السيطرة تماماً. وتظهر كل أنواع
المشكلات بسبب النسبة المرتفعة من الزنى بالمحارم. وغالباً ما تكون
امراً واحدة عمّة وأماً وأختاً وابنة عمٍ لرجل واحد. وكنيجة لذلك
فإن نصف الأطفال الصغار يتسمون بجمال يستعصي على التصديق،
بينما النصف الآخر قبيح ومشوه.

والأطفال الجميلون من الجنسين معاً يفصلون في الطفولة عن ذوي القبح، ويتمّ جمعهم في مكان يطلق عليه اسم «حديقة المحبوبين». والتسهيلات هناك رائعة، فالمكان جنة فعلية على الأرض. وتشعّ شمس اصطناعية على الدوام، القدر المثالي من الأشعة فوق البنفسجية، على وجه الدقة. وما من أحد يرتدي الملابس، ويكرّس الجميع أنفسهم للسباحة والتمرينات الرياضية الأخرى، وتتفتح الأزهار بوفرة، ولا توضع الحيوانات الصغيرة ولا الطيور في أقفاص قط، ويتناول الأطفال هناك طعاماً شهياً، مغذياً، ولكنهم لا يميلون أبداً إلى البدانة لأنّ الأطباء يفحصونهم، كلّ أسبوع، فحصاً طبيّاً، وليس بمقدورهم إلا أن يزدادوا جمالاً على جمال. وأمّا القراءة فمحظورة، على نحو صارم، فهي تفسد الجمال الطبيعي؛ ولذا فإنّ هذا التحريم أمرٌ معقول.

ولكنّهم عندما يصلون إلى سنّ المراهقة، يجلبون من الحديقة مرّة كلّ أسبوع؛ ليصبحوا موضوعات للتّرفيه الجنسيّ عن ذوي القبح خارج الحديقة. وبعد عامين أو ثلاثة أعوام من مثل هذا النوع من النشاط، يتمّ القضاء عليهم. ألا تظنون أنّه من قبيل الحبّ الأخويّ القضاء على الحياة والجميلون مايزالون في مقتبل العمر؟

وتستخدم كلّ القوى الإبداعية لجمع فناني هذه الأرض في إبداع أساليب متنوّعة للقتل، أي أنّ هنالك مسارح على امتداد البلاد، مخصّصة للقتل الجنسيّ العمد، يقوم فيها الجميلون، من الفتية والفتيات بمختلف أنواع الأدوار التي يعدّون خلالها، حتّى الموت، وهم يعيدون بعث كلّ أنواع الشخصيات التاريخيّة والأسطوريّة التي لقيت حتفها على نحو سادي وهي في مقتبل العمر وعلى قسط كبير من الجمال. ولكن، هناك بالطبع كثير من الإبداعات الجديدة أيضاً،

فهم يقتلون بصورة نبيلة في ملابس رائعة مثيرة، وتحت إضاءة خلّابة، وفي مناظر مسرحية باهرة، وعلى أنغام موسيقى مدهشة، ولكن يتمّ العبث بهم عادة على يد الجمهور، قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة، وبعد ذلك تلتهم الأجسام التهاماً.

القبور؟ إنها خارج «حديقة المحبوبين» مباشرة. وهي مكان جميل يترى فيه ذوو القبح، المشوهون، وسط المقابر، في الليالي القمرية، وقد استبدت بهم حالات رومانسية. ولما كانت تماثيل الجميلين تنصب كشواهد للمقابر، فليست هناك مقبرة في العالم تضمّ مثل هذا الحشد من الأجسام الجميلة.

- لماذا يتعيّن عليهم قتلهم؟

- لأنهم سرعان ما يضرجون من الأحياء.

ويتسم الناس في أرض الرّمان، بحكمة لا نهاية لها، فهم يعرفون حقّ المعرفة أنّ هناك دورين فحسب للبشر في هذا العالم: الذين يذكرون، والذين يجري تذّكرهم.

الآن، وقد حدّثتكم بهذا كلّ، يتعيّن عليّ إبلاغكم بأمر دينهم. فمثل هذا العرف يقوم على أساس المعتقد الديني.

إنهم، في أرض الرّمان، لا يؤمنون بالبعث. ولأنّ الربّ يتجلّى في اللّحظة الفائقة التي تمثّلها الذروة الجنسية، فليس هناك احتمال لأن يصبح المرء أكثر جمالاً بعد البعث، وذلك يعني أنّ العودة للحياة لن يكون لها معنى. ومما لا مجال للتّفكير فيه أنّ القميص الخلق سيكون أشدّ بياضاً من القميص الجديد. أليس كذلك؟ ولذا فإنّ أرباب أرض الرّمان يُستخدمون مرّة واحدة، ثمّ يُطاح بهم بعيداً.

ودين هذه البلاد يقوم على تعدد الآلهة، ولكن على نحو دينوي،
ويبدد عدد لا حصر له من الأرباب وجودهم البدني الكلي، فيختفون
بعد أن يعبروا عن هذه اللحظة الأسمى في الخلود. وها أنتم الآن
تعرفون أن «حديقة المحبوبين» هي مصنع لإعداد الأرباب.

ولتحويل التاريخ في هذا العالم إلى سلسلة من الأحداث الجميلة،
فإن تضحية الأرباب لا بد أن تستمر بلا انتهاء. ذلكم هو اللاهوت.
ألا تظنونه عقلياً؟ فضلاً عن ذلك فإن الناس لا يظهرون نفاقاً على
الإطلاق، وهكذا فإن الجمال والحاذبية الجنسية يغدوان اسمين لمسمى
واحد. وهم يدركون حق الإدراك أنه من خلال الرغبة الجنسية
وحدها يمكن أن يصل المرء إلى الرب، أي إلى الجمال.

يتملك المرء ناصية رب من خلال الرغبة الجنسية، ويحدث التملك
الجنسي في ذروة اللذة. ولكن هزة النسوة لا تدوم، ومن هنا فإن
التملك لا يمكن إلا أن يعني شيئاً واحداً: توحد ما لا يدوم مع سرعة
زوال موضوع الرغبة الجنسية. وأضمن الأساليب هو القضاء على هذا
الموضوع في لحظة الذروة، ومن ثم فإن أبناء البلاد يدركون بوضوح
أن التملك الجنسي يكتمل بالقتل والتهام اللحم البشري.

ومن المؤكد أنه من العجيب أن يسيطر لغز التملك الجنسي حتى
على الهيكل الاقتصادي للبلاد، فالقاعدة الرئيسية للتملك هي «قتل
المحبوب» وتعني أن اكتمال أي تملك مفاده القضاء في الوقت نفسه على
عملية التملك، والتملك المتواصل هو انتهاك للحب، والعمل البدني
لا يسمح به إلا لإبداع أجسام جميلة، ويُعفى ذوو القبح منه.
والعمل الصناعي يتم أوتوماتيكياً بالكامل ولا يتطلب قوة بشرية.
الفنون؟ إن الفن الوحيد موجود في التنوع اللامتناهي لمسرح القتل

وكذلك في إقامة التماثيل للموق الجميلين. ومن وجهة النظر الدينيّة، فإنّ الواقعيّة الحسيّة هي الأسلوب الأساسيّ، والتّجريد مرفوض رفضاً تاماً وإدماج «الحياة» في الفنون محظور على نحو صارم.

إنّ سبيل الوصول إلى الجمال هو الرّغبة الجنسيّة، ولكن ما يسجل أبداً الذّهر في لحظة الجمال تلك لا يعدو أن يكون الذاكرة... والآن فإنّكم حققتهم تفهّماً تقريباً للهيكليّ الأساسيّ لأرض الرّمّان، فيما أعتقد. فالمفهوم الأساسيّ هو الذاكرة، وإذا جاز القول، فإنّ الذاكرة هي سياسة قوميّة.

وهذه النّشوة، وهي ظاهرة تشبه إلى حدّ ما بلورة جسديّة، تزداد تبلوراً في الذاكرة، وبعد موت ربّ الجمال، يستطيع المرء استعادة ذكرى أسمى درجات الاستشارة الجنسيّة. وما حياة النّاس إلّا رحلة لبلوغ هذه النّقطة. ومقارناً بهذه الجوهرة السّاوية فإنّ وجود البشر، سواء أكانوا محبّين أم محبّوبين، قتلة أم مقتولين، لا يعدو أن يكون الوسيلة لبلوغ هذه النّقطة. وهذا هو مثل البلاد الأعلى.

إنّ الذاكرة هي المادّة الوحيدة لروحنا. وحتىّ إذا قدّر لإله أن يتجلّى في ذروة التملّك الجنسيّ، فإنّ ذلك الربّ يصبح «المتذكّر» ويغدو العاشق هو «الذاكر». ومن خلال هذه العمليّة التي تلتهم الوقت التهاماً فحسب، تتمّ البرهنة حقّاً على وجود الربّ، ويتمّ الحصول على الجمال للمرّة الأولى، وتحوّل الرّغبة الجنسيّة إلى حبّ مستقلّ عن التملّك. ومن هنا فإنّ الألهة والبشر لا ينفصلون في المكان، ولكنّ هناك فاصلاً زمنيّاً بينهم. وهنا يكمن جوهر تعدّد الألهة الدنيويّ. هل تفهمون ما أعني؟

يبدو القتل شيئاً ضارياً، ولكنّه ضروريّ لتطهير الذاكرة

وتصفيتها، لتغدو العنصر الأقوى تركيزاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هؤلاء السكّان المتسمين بالقبيح والمشوهين نبلاء، نبلاء حقاً. فهم خبراء في إثارة الآخرين على أنفسهم، وهم يحيون من أجل إنكار الذات. هؤلاء العشاق، القتلّة، الذّاكرون، يعيشون أوارهم بإخلاص، فهم لا يتذكّرون شيئاً عن أنفسهم، وإنما يحيون فقط في تبتّل وهيام بذكرى الموت الجميل الذي لقيه المحبوبون. ويصبح التذكر المهمة الوحيدة لحياتهم. وأرض الرمان هي أيضاً بلاد أشجار السرو، وذكريات الموت الجميلة، والحداد، إنها أكثر الأمكنة سلاماً وسكينة، في الدنيا بأسرها، إنها أرض التذكارات.

وفي كلّ مرّة أمضي فيها إلى هناك، أحدثت نفسي بأنني لا أرغب في العودة أبداً إلى مكان كاليابان. فهذه الأرض حافلة بأعذب عناصر الإنسانيّة. وأرقها. إنها بلاد النزعة الإنسانيّة والسّلام الحقيقيين، وليست لدى أبنائها عادة وحشيّة كعادة أكل لحوم الثيران والخنازير.

سألته ماكيكو، مداعبة:

- أودّ أن أسألك عن شيء واحد. تقول إنهم يأكلون لحوم البشر، ولكن أيّ أجزاء الجسم البشري يأكلون؟
قال إيمانيشي بصوت هادئ خفيض:
- إنك تعلمين حقّ العلم من دون أن تسألي.

حدّث هوندا نفسه بأنّه أمر أكثر من فكاهي أن يكون بمقدور قاضٍ سابق الاستماع، دون أن يُبدي حراكاً، لمثل هذا النوع من الحديث. فلم يسبق أن خطر له، حتّى في أحلامه، أنّ رجلاً مثل إيمانيشي يمكن أن يكون على قيد الوجود، ولو أنّ عالم الإجرام سيزار لمبروزو قابله لأمر بطرده في الحال من رحاب المجتمع.

أصيب هوندا بالتقرّر من اهتمامات إيمانيشي المنصّبة على الجنس، غير أنّه هو نفسه انغمس في نوع آخر من الاهتمامات. ولو أنّ هذا لم يكن نتاجاً لخيال إيمانيشي، فإنّه ينبغي عليهم جميعاً أن يكونوا سگاناً لأرض الآلهة، ذات الألف عام من الجنس. لقد كانت ملهاة مسرحيّة إلهية أن جعل الله هوندا يواصل العيش، باعتباره من سيتذكّر، وقضى على كيواكي وإيساو جاعلاً إياهما من سيكونان موضعاً للتذكّر. ولكن إيمانيشي ذكر أنّه ليس هناك بعث. وربّما تكون السّمسارة فكرة تقف موقف التضادّ مع البعث وربّما تمثّلت خاصيّتها في ضلّتها عدم حدوث الحياة إلاّ مرّة واحدة. وبصفة خاصّة أرغمت فكرة إيمانيشي القائلة بأنّ هناك فاصلاً زمنياً بين الوجود الإنساني والاله، وأنّه ليس بوسع الإنسان لقاء الإله إلاّ في الذاكرة - هوندا على التطلّع وراءه، إلى حياته ورحلاته، وأثارت فيه شيئاً هائلاً، ومفعماً بالحنين، على نحو غامض.

أيّ رجل هو إيمانيشي ذاك!

لقد عرّى للشمس عامداً تشوّهات داخلية، سوداء، بل واستشعر السّرور، في غمرة قيامه بذلك. وراهن بكلّ شيء على تركيب محياه اللامبالي، واصفاً سواده للأخرين، وكأتما الأمر لا يعنيه على الإطلاق.

كان هوندا، بعد أن عاش طويلاً جزءاً من عالم القانون، يخفي في قرارة فؤاده احتراماً رومانسياً للمجرم الواثق بنفسه. والحق أنّ المجرم الواثق بنفسه بالغ النُدرة. إنّه لم يحدث حقّاً أن قابل شخصاً يمكن أن يُصنّف في هذه الفئة، باستثناء إيساو.

وانبنى على ذلك أن هوندا، كان يخفي في أعماقه مشاعر الكراهية والازدراء لمرتكبي الجرائم النادمين عليها.
ترى أيهم كان إيمانيشي؟

ربما لم يقدر له الندم قط، ولكنه كان يفتقر تمام الافتقار لنبل المجرم ذي المبادئ. وكان يحاول، من خلال غروره وتعقده الذهني، أن يُضفي الجمال على وضاعة رجل اعترف بجرمه، وسعى على هذا النحو للحصول على ميزة كل من الاعتراف والتعقّد الذهني. يا لقبح هذا النموذج التشريحي الشفاف! ورغم ذلك فقد رفض هوندا بإصرار الاعتراف بالحقيقة القائلة بأنه قد اجتذبه إيمانيشي إلى حد ما، وأن الدعوة التي وجهها إليه للحضور إلى الدارة تضرب جذورها في نوع من جسده لشجاعته. وفضلاً عن ذلك فإن إخفاءه لهذا لم يكن راجعاً إلى غروره وثباته في التدين بذاته إلى وضاعة شخص اعترف بجرمه، وإنما كان، دوغماً شكاً، بسبب خوفه من عيني إيمانيشي اللتين تشبهان أشعة إكس. وكان هوندا قد أطلق سراً على خوفه هذا اسم «مرض الموضوعية». وكان هذا هو الجحيم المطلقة المترعة بالمباهج السارة التي يتردى إليها في نهاية المطاف، الإدراك الذي يرفض التحرك.

حدث هوندا نفسه وهو يتطلع مراراً وتكراراً إلى صورة إيمانيشي الجانبية وكان هذا قد عكف على التحدث، في ظفر، إلى المرأتين بأن هذا الرجل عينين تشبهان عيني السمكة.

لم يكتمل عقد الضيوف جميعاً إلا بعد أن صبغت الشمس السحب الممتدة إلى يسار جبل فوجي.

وعندما شقّ أربعتهم طريقهم من التعريشة إلى الدارة، كان

الملازم، بالجيش، عشيق كيكو، يعكف على مساعدتهم في المطبخ .
وبعد وقت قصير، وصل الشريف والشريفة شينكاوا اللذان تقدّم بهما
العمر، ثمّ بفاصل بين أحدهم والآخر، توافد ساكوراي، وهو
دبلوماسي، وموراتا، وهو رئيس شركة مقاولات، وأكيكو كايوبا،
وهو مغنٍ اشتهر بأداء الأغاني الفرنسيّة، والراقصة اليابانيّة التقليديّة
إيكوكو فوجيما. وكان تجمّع مثل هذه المجموعة من الضيوف التي لا
رابط بين أفرادها أمراً لا يمكن أن يخطر على بال حدوئه في دار هوندا
السابقة . وكان فؤاد هوندا كذلك مثقلاً، إذا لم يبد أثر لينج تشان .

أفرد للشريف السابق شينكاوا مقعد، بجوار المدفأة، فأخذ يرقب منه الضيوف الآخرين في فتور.

كان الآن في الثانية والسبعين. وما إن يُترك في داره حتى يأخذ بالتذمر والشكوى؛ فلم يكن بمقدوره التخلي عن متعة الخروج، وحتى في عمره ذلك لم يكن عشقه للحفلات قد تراجع. وقد شعر بضجر بالغ، خلال عمليات التطهير التي أعقبت الحرب، وسقط فريسة لعادة قبول كل الدعوات التي توجه إليه، واستمر هذا متواصلًا إلى سنوات ما بعد التطهير.

ولكن الجميع، الآن، يعتبرونه وزوجته الثرثرة أشد الضيوف إثارة للضجر، إذ فقدت سحرته طابعها اللاذع، وأصبحت تعبيراته الساخرة سطحية وطويلة إلى حد الإملال. ولم يكن بمقدوره قط تذكر أسماء الناس.

- ذلك... ماذا كان اسمه؟.. إني أتذكر... كان غالباً ما يُصوّر في الرسوم الهجائية السياسيّة... ألا تذكرون؟... رجل صغير، سمين، مستدير، مثل كرة الزبد... ماذا كان اسمه؟... إنه اسم مألوف تماماً... .

وما كان بمقدور من يستمعون إلى شينكاوا إلا أن يتبينوا معركته التي يهزم فيها أمام وحش النسيان الخفي. وبين الفينة والأخرى، ينسحب هذا الوحش الهادئ، وإن كان عنيداً، لا لشيء إلا ليعاود الظهور في الحال، آخذاً بخناق شينكاوا، مداعباً جبينه بذيله الأشعث.

وفي نهاية المطاف، يستسلم شينكاوا، ويواصل سرد حكايته:
- . . . أياً كان الأمر فقد كانت زوجة هذا السياسي امرأة متميزة.

ولكنّ الحدث الذي يغيب عنه اسم أهمّ الشخصيات يغدو بلا طعم. وفي كلّ مرّة كان يلطم الأرض بقدمه، في ضيق بالغ، وقد اشتدّ به الحرص على أن ينقل للآخرين طعم الحكاية، الذي كان بمقدوره وحده أن يتذوّقه. وعندئذ يساوره إحساس يشبه شعور المتسوّل، وهو إحساس لم يسبق له قطّ أن عرفه. وفي غمرة جهده المحتدم للعثور على من يقدر نكاته البسيطة القائمة على التلاعب بمعاني الكلمات، وكأنّه يستجدي التفهّم، أصبح دوغما وعي منه خنوعاً ومتذللاً.

لقد اضطر، على نحو يدعو للرتاء، إلى تمزيق الكبرياء الرفيقة التي طالما تميّز بها، وأصبح مناط اهتمامه الرئيسيّ تدريجياً أن يعتصم بموقف قوامه الازدراء - وهو شيء كان يظهره على نحو عابر على طرف أنفه وكأنّه دخان سيجار في الأيام الخوالي. ولكنّه تجشّم في الوقت نفسه عناء كبيراً في تجنّب الكشف عن هذا الازدراء الخفيّ لأحد، إذا كان يخشى ألاّ يتلقّى دعوات أخرى.

وكان في قلب حفلٍ ما يجذب ردن رداء زوجته، بين الفينة والأخرى، ويهمس في أذنها:

- يا لها من شرذمة جديرة بالازدراء، إنهم لا يعرفون مبادئ كيفة الحديث عن اللفظ من الأمور بأسلوب راق. إنّ القبح الياباني بلغ من الكمال حدّاً يؤثّر معه في النفس تقريباً. ولكن ينبغي ألاّ تدعيهم يشكّون في الطريقة التي ننظر بها إليهم.

تألقت عينا شينكاوا، فجأة، أمام السنة اللهب المتوهّجة، في

المدفأة، فقد استعاد ذكرى الحفل الذي أقيم في حديقة دار الأمير ماتسوجاي، قبل أربعين عاماً، وتذكر، في فخر، أنه هنالك أيضاً لم يساوره إلا الشعور بالازدراء لمضيفه.

لكن شيئاً واحداً فقط قد تغير، ففي الأيام الخوالي لم يكن بمقدور من يتخذه موضعاً لازدراؤه أن يلحق الضرر به، وأما الآن فإن مجرد كونه هناك كان يجرحه بعمق.

أما السيدة شينكاوا فقد كانت مفعمة بالحياة.

لقد ألفت، في سنّها تلك، اهتماماً غير قابل للتحديد بالحديث عن نفسها. وتناسق بحثها عن مستمعين لها، على نحو جميل، مع محاولة إلغاء التميّزات الطبقيّة التي كانت أسلوباً عصرياً، في ذلك الوقت. ولم يحدث أن اكثرث قطّ بنوعيّة من يصغون إلى حديثها.

أخذت تكيل مجاملات مثقلة بالمبالغة لمغني الأغنيات الفرنسيّة، وكأنّها تحدّث أحد أفراد العائلة المالكة، وفي مقابل ذلك وجدت من يستمع إليها. ومضت، دونما خجل، تكيل الثناء لقصائد ماكيكو كيتو، ثمّ فرضت حكايتها الخاصّة على المرأة المسكينة - فقد جاملها رجل إنجليزي ذات مرّة، ووصفها بأنها شاعرة. وقد أدلى بهذا الوصف، عندما قارنت سحب أواخر الصيف، فوق جبل كاريوزاوا، بإحدى لوحات سايسلي.

وشرعت تتحدّث، بدافع من حدس خفيّ رهيب من نوع ما، عن حفل الحديقة الذي أقيم في ضيعة آل ماتسوجاي، وانضمامها إلى زوجها بجوار المدفأة:

- عندما أعود بذهني إلى الوراء، أجد أنّ تلك الأيام كانت غيبية، وخالية من التحضر، فقد كان كلّ ما تعنيه إقامة الحفلات المترفة هو

جلب بضع راقصات من فتيات الجيشا، وعزف الموسيقى في الدّار. ما كان أبعد النَّاس عن القدرة على التخيّل وقتذاك! لا بدّ لي من القول بأنّ اليابان قد أحرزت شوطاً على طريق التقدّم. فقد مضى عهد العادات البربريّة، وأصبح من الأمور العاديّة إشراك الزّوجات في الأمور الاجتماعيّة. انظروا إليهنّ! إنّ النّسوة، في هذا الحفل، لم يعدن يلزمن الصّمت. وقد كانت الأحاديث التي تدور في حفلات الحداثق في العادة مضجّرة على نحو مؤلم، ولكنّ النّساء الآن يتحدّثن بلمّاحة بالغة.

ولكن كان من المشكوك فيه أن تكون قد أصغت مرّة واحدة إلى حديث جرى به لسان، سواء في الوقت الرّاهن، أو في أيّ وقت خلال الأربعين عاماً الماضية. فهي لم تحاول قطّ الحديث عن أيّ شيء آخر باستثناء ذاتها.

تركت السيّدة شنيكاوا، فجأة، موضعها إلى جوار زوجها، وألقت نظرة على مرآة قائمة معلّقة على الحائط. ولم يحدث قطّ أن أخافها النّظر في المرآة، فقد كانت كلّ المرايا بمثابة سلال مهملات تلقي فيها بتجاعيدها خلال وقوفها أمامها.

وعكف جاك، الملازم الأوّل بسلاح الإمداد والتموين، على العمل بمزيد من الاجتهاد. وأخذ الضّيوف يتطلّعون بسرور إلى هذا العضو في «قوّات الاحتلال» الذي بدا رقيقاً وموالياً، ومضت كيكو تعامله بترفع، وبمهارة ملكيّة لا نظير لها.

وفي بعض الأحيان، كان جاك يمدّ ذراعه، ويحيطها من الخلف، متحمّساً، في خبث، نهدها، فتسمح لنفسها بابتسامة هادئة، ساخرة، وهي تقبض على أصابعه المشعرة المحلّاة بالخواتم.

- يا له من طفل! إنه ممن لا سبيل إلى إصلاح أمرهم.

قالتها بنغمة جافّة، ذات طابع تعليمي، متطلّعة حولها إلى الجميع. وكانت مؤخّرة جاك التي يضمّها زيّه العسكريّ، مترامية الأطراف، وقد مضى الضيوف في مقارنتها بعجيزة كيكو الوافرة، منهمكين في جدال عن أيّهما أكبر.

وكانت السيّدة تسوباكيهارا ماتزال منهمكة في الحديث مع إيمايشي. وقد أدهشها أن تلتقي للمرّة الأولى بشخص يسخر كلّ السخرية من حزنها الأثير، ولكنّها لم تغير أدنى تغيير من تعبير الحداد الأبله المرتسم على محيّاها.

- أيّاً كان مقدار حزنك فإنّ ابنك لن يعود مجدّداً إلى رحاب الحياة، وفضلاً عن هذا، فإنّ في قلبك كيساً مطاطياً، مليئاً للغاية بالحزن، بحيث لا يمكن أن يدخله شيء آخر، وذلك يمنحك شعوراً بالأمان. ليس كذلك؟ دعيني أكون أكثر وقاحة: إنك تعتقدين أنّه ما من أحد يمكن أن يسدي إليك الجميل المتمثّل في ملء كيسك المطاطيّ، وهكذا فإنك تقومين بملئه بنفسك بغاز الحزن المحضّر منزلياً، وتضخّينه فيه بلمحة خاطفة واحدة. وذلك يخلّصك من الخوف من أن يضايقك أيّ انفعال آخر...

- يا له من أمر فظيع تتقوّله! يا للقسوة...

نظرت السيّدة تسوباكيهارا، رافعة وجهها من المنديل الذي كتمت فيه نسيجها، إلى إيمايشي، فحدّثت نفسه بأن النّظرة المرتسمة في عينيها هي نظرة فتاة بريئة، صغيرة، تتوق إلى أن تُغتصّب.

ومضى رئيس شركة مورانا للمقاولات يطرح شكوى تتسم بالمغالاة على مسامع شنيكاوا، مشيداً به، باعتباره راعياً كبيراً في عالم المال.

وقد أثار ضيق شنيكاوا أن يصنّف في الفئة التي ينتمي إليها هذا
المقاول المتبدل. وكان مورانا قد أقام لافتات هائلة تحمل اسمه في
كافة مواقع البناء التابعة للشركة، وكان هذا الإعلان عن النفس
منتشراً في كل مكان. ولكنه كان يبدو أبعد الناس عن أن يكون خبيراً
بأعمال المقاولات. فقد كشف محياه الشاحب، المسطح، عن ماضيه،
باعتباره بيروقراطياً ينتمي إلى مرحلة الإصلاح السابقة للحرب. وكان
مثالياً، عاش متطفاً على الآخرين. وما إن توقّف عن التثبيت بهم،
وحقّق نجاحاً مستقلاً في مجال الأعمال، حتّى اكتشف محيطاً متألّفاً،
رحباً، يمكن لجهله المطبق الكامن أن يطلق فيه لنفسه العنان دونما
ضوابط. وقد أخذ من الرّاقصة إيكيكو فوجيما خليقة له. وكانت
إيكيكو ترتدي كيمونو رثعاً، منسوجاً من الحرير وخيوط اللّك، وقد
تألّقت ماسة من ذوات الخمسة قراريط في إصبعها، وكانت عندما
تضحك ينتصب عنقها وظهرها متصلبين.

كرّر مورانا على مسامع هوندا، ثلاث مرّات على الأقل، قوله:

- دارة بالغة الرّوعة، يا سيّدي، ولكن حبّذا لو أنّك تركتني

أشيدها لك، لكان بمقدوري أن أوفّر لك كثيراً من المال. يا للعار!

عكف الدّبلوماسي ساكوراي والصحافي المخضرم كاواجوتشي على
مناقشة المشكلات الدّوليّة، وقد توسّطتها أكيكو كايويا. وقدّمت بشرة
ساكوراي، الشّبيهة بجلد الأسماك، وبشرة كاواجوتشي التي ترك
الزّمن بصمته عليها وأفسدها السّاكي، مفارقة بارزة بين كلّ من
الرّجلين ومهنته، فأحدهما بارد، والآخر ناري المزاج، وقد أخذوا
يناقشان مشكلات ثقيلة العيار، على نحو ما يميل الرّجال إلى فعله
بوجود النّساء، في محاولة منها للتّأثير على المغنيّة أكيكو. غير أنّها
كانت، من ناحية أخرى، غافلة تماماً عن هذا التنافس المراوغ

والغرور الفارغ، عاكفة باستمرار على تناول قطع المقبلات، متطلّعة بعينها السوداوين المترعتين بالاكتئاب مرّة إلى الشعر الأشيب الأشعث وأخرى إلى الرأس المعتنى به على نحو فائق. ثمّ كانت تحوّل شفيتها لتتخذاً شكلاً دائرياً، وتلقي قطعة مقبلات إثر أخرى بين شفيتها الشبيهتين بالسّمك الصّغير الدّهبي.

تجشّمت ماكيكو كيتو عناء الذّهاب إلى إيمايشي ومحادثة، قائلة:
- إنّ لك أغرب الأذواق.

- هل يتعيّن عليّ الحصول على إذن منك، في كلّ مرّة أضاجع فيها تلميذتك؟ الأمر يبدو كما لو كنت أضاجع أمي، إذ يساورني شعور بنوع من الهزّة المقدّسة. وعلى أيّة حال فإنّي لن أرتكب غلطة مضاجعتك، فأريك في مكتوب على كافّة ملاحك. إنّي من النّوع الّذي يثير تقرّزك أكثر من أيّ شيء آخر. صحيح؟
- إنك تعرف أنّك تثير تقرّزي.

ساور ماكيكو شعور بالارتياح، وتحدّثت بصوت بالغ الجاذبيّة، ثمّ ضربت بينها بستار من الصّمت حاكي الحافّة السوداء لحصيرة تاتامي.
- حتّى إذا أفلحت في مضاجعتها، فلن يكون بمقدورك أبداً القيام بدور ابنها. ذلك أنّ ابنها الرّاحل بالغ القداسة والجمال بالنّسبة لها، إنّها كاهنة مقدّسة تعكف على خدمته.

- طيّب، لست أدري، فكّل شيء يبدو لي مريباً. ومن الهرطقة أن يواصل شخص على قيد الحياة التمسك بالمشاعر المحضّة والإعراب عنها.

- ذلك هو السرّ في قولي إنّها تخدم العاطفة المحضّة نحو الميت.
- إنّها تقوم بذلك على أيّة حال استجابة لضرورة الحياة. وذلك يجعل الأمر مريباً بالفعل.

نظرت ماكيكو إليه شزراً، وضحكت بازدياء مطلق .
- ليس هناك رجل حقيقي في هذه الحفلة .

قالتها ماكيكو وتركت إيمانيشي إذ ناداها هوندا . وجلست السيدة تسوباكيهارا، على حافة الأريكة المنحوتة في الجدار، منخرطة في البكاء، وهي تستند إليها بظهرها . وفي الخارج، كان هواء الليل بالغ البرودة وقد سالت قطرات مكثفة من الرطوبة على زجاج النوافذ .

اعتزم هوندا أن يطلب من ماكيكو العناية بأمر السيدة تسوباكيهارا . فلو أن دموعها قد نبعت من ذكرياتها المؤلمة على نحو يقل عن تفجّرها من القدر المحدود الذي تناولته من الشراب، لكان معنى ذلك أنها يمكن أن تكون من النوع الذي تشور عواطفه بفعل الشراب .

دنت رايمي من هوندا وقد شحب وجهها وهمست في أذنه :
- ثمّة ضجة غريبة بدأت منذ وقت قصير في الحديقة . . . أتساءل
عما إذا كنت أسمع أصواتاً وهمية .
- هل تطلعت إلى الحديقة؟
- لا، لقد خفت القيام بذلك .

اتّجه هوندا إلى إحدى النوافذ ومسح بأصابعه البخار الملتصق باللوح الزجاجي . وفيما وراء العشب الذي كساه الثلج، وفوق أشجار السرو لاج الهلال . ومضى كلب ضال يستطلع، متطفلاً، جاراً وراءه ظلّه . ثمّ توقف، وقد التوى ذيله مرتفعاً إلى أعلى، وبرز صدره الأشهب المشعث الشعر الذي تألق في سنى الهلال، وأخذ ينبج على نحو يوحي بالحداد .

- هذا هو الأمر . أليس كذلك؟

قالها هوندا، سائلاً زوجته. لقد تمّ الكشف عن سبب خوفها
الطّفولي بسهولة بالغة، ولم توافق على ذلك تَوّاً، ولكنّها اكتفت
بالابتسام ابتسامة غامضة متردّدة.

وفيما أصاخ هوندا السّمع، ترامت إليه استجابة كليين أو ثلاثة من
وراء أجمّة السّرو.

وكانت الرّيح قد اشتدّت عنفوانها.

انتصف الليل. وطفق هوندا يرقب من نافذة مكتبه، بالطابق الثاني، هلالاً شجياً يعبر صفحة السماء. ولم يكن قد ظهر أثر لينج تشان، وإنما جاء القمر بدلاً منها.

انتهى الحفل قرب منتصف الليل، ولم يبق إلا الضيوف الذين سيمضون الليلة بالدارة، وقد تجمّعوا في حلقة صغيرة، وانسحبوا تدريجياً إلى الغرف التي خصّصت لهم. وبعد غرفتي الضيوف في الطابق الثاني. هنالك مكتب هوندا، وتعقبه غرفة النوم الرئيسية. وبعد أن ودّعت رايمي الضيوف حلّ بها الإرهاق، سارياً بنبضاته في جسمها حتى أطراف أصابعها المتورّمة ذاتها. وإذ جلس هوندا في مكتبه وحيداً فقد مضى ظهراً يديها، حيث بلغ التورّم حدّ صدور لمعان كثيب عنها، يترأّيان له. وكانت رايمي قد أطلّعت عليها، وقد غمرها شعور بالظفر.

كانت العلة المنتشرة بالدّاخل قد اندفعت إلى الخارج، فجعلت جلدها يتورّم، وأزالت الزوايا من يديها اللتين اتّخذتا مظهراً طفولياً، منتفخاً، على نحو غريب، ظلّ يلازم ذاكرة هوندا وقتاً طويلاً. وكان قد اقترح احتفالاً خاصاً في غرفتهما، بمناسبة تدفئة الدارة، ولكن اقتراحه قوبل بالرفض. ولو أنّ اقتراحه لم يواجه بالنقض، فما الذي كان يمكن أن يحدث؟ لا بدّ أن شيئاً كثيراً يتدقّق تحت دهن الرّقة والتعاطف ذاك، المثير للغثيان، القابع تحت الجلد.

تطلّع هوندا حوله في مكتبه المصمّم على الطراز الغربيّ، بنافذته

الضخمة وقمطره المتألق . لم يكن المكتب على هذا النحو قطّ عندما كان يعمل بجدّ حقاً، وإنما كانت به وقتذاك فوضى لا سبيل إلى التحكّم فيها، فوضى تشبه فوضى المعيشة ذاتها، وتفوح برائحة تشبه رائحة خنّ دجاجة . وأما الآن فقد وُضع على القمطر ذي التصميم الفنيّ المصنوع من كتلة واحدة من شجرة زلكوفا، طاقم أدوات كتابيّة من جلد الماعز وُوضع في المقلّمة عدد من الأقلام ذات الأطراف المدبّية، وكلّها في صفّ واحد . وكان فوقه أوراق رسائل تتألّق في حدة وكأنها الشارة على ياقة طالب بكلّيّة عسكريّة . وهناك أيضاً مثبتة الورق البرونزيّة، على شكل تمساح أميركي - وقد ورثها عن أبيه - وحافظة خاوية للرسائل صنعت من الخيزران المصفور .

نض من مقعده مراراً وتكراراً عابراً الغرفة ليمسح البخار عن زجاج النافذة الناتئة إلى الأمام، التي لم تكن ستائرهما قد أسدلت بعد، ذلك أنّ القمر الذي كان يبدو متألقاً عبر الزجاج ضيّبه وشوّهته الحرارة الجائمة في الغرفة . وكان على يقين من أنّه ما لم يسمح للقمر بأن يظلّ جلياً فإنّ الخواء والاشمئزاز اللذين يغمران فؤاده سيفيضان ويتسع نطاقهما، ويتحوّل الجيشان القاتم إلى رغبة جنسيّة . وأدهشه أن يكتشف أنّ مثل هذا المشهد الطبيعي على وجه الدقّة هو الذي انتظره عند نهاية رحلة حياته . وتردّد نباح الكلب المفعم بالحداد مجدّداً، وصدر صرير عن أشجار السرو الهشّة فيما الرّيح تلهو بها .

انقضى بعض الوقت مُذّ أوت زوجته إلى فراشها في الغرفة المجاورة . وأطفأ النور في المكتب، ومضى إلى رفوف الكتب التي تحيط بحائط غرفة الضيوف . وفي هدوء أنزل عدداً من الكتب الغربيّة وكومها على الأرض؛ فقد تغلّب عليه الآن ما أطلق عليه هو نفسه

اسم «مرض الموضوعية». وفي اللحظة التي استسلم إليه فيها فإنه سيرغم على معاداة المجتمع بأسره وكان حتى هذه اللحظة يقف إلى جانبه.

ولكن لم؟ لقد كان هذا بدوره جزءاً من الجوانب المتنوعة للسلوك البشري الذي رصده على نحو موضوعي من منصة القضاء، أو من مقعد المحامي، على امتداد سنوات عديدة. فكيف أمكن أن يكون الرصد من تلك النقاط المتقدمة مشروعاً تماماً، بينما التطلع على نحو ما سيفعل الآن انتهاك للقانون؟ لقد جعله الرصد بتلك الطريقة موضع موافقة المجتمع، بينما المراقبة على هذا النحو موضع لوم وازدراء. لو أن هذا كان جريمة، فربما كان مردّ ذلك إلى أنه استمدّ كثيراً من اللذة منه. غير أن تجربته كقاضٍ قد علمته أن اللذة إنما توجد في الذهن الصافي المجرد من اللذة الخاصة. ولئن كانت تلك المتعة نبيلة لأنها ليست مصحوبة بأيّ تسارع لنبض القلب، فهل يمكن أن يكون جوهر الإجرام كامناً في وجيب القلب؟ هذه الاستجابة الأكثر جوانية من جانب الكائن البشري، هذا الوجيب في مواجهة اللذة - هل يمكن أن يكون ذلك هو المكوّن الأكثر أهمية في انتهاك القانون؟

كان هذا كلّه من قبيل السفسطة. ففيما كان هوندا يجتذب الكتب من رفّ المكتبة، شعر بخفقان في قلبه يشبه خفقان قلب فتى في مقتبل العمر، فأدرك بحدّة مدى ضعف وجوده وتهافته، في مواجهة المجتمع. لقد كان وحيداً وعاجزاً. والقوى التي رفعته عالياً، وكأنه يقف فوق سقالة، نُحيت الآن جانباً. وشأن الرمال التي تنزلق وثيدة في ساعة رملية، كان الهبوط الذي لا يرحم ولا ينتهي قد بدأ، وفي تلك الحالة فإنّ القانون والمجتمع كانا بالفعل عدوين له. ولو أنه كان

لديه قليل من الشجاعة، ولو أن ذلك لم يكن مكتبه، وإنما ركن في حديقة ينمو فيه العشب الحديث، أو طريق جانبي مظلم ترقشه أضواء البيوت، لأصبح في حقيقة الأمر أكثر المجرمين تورطاً في العار، ولهتف الناس ساخرين: «أصبح القاضي محامياً، والمحامي مجرماً!». ولقالوا إنه ها هنا رجل لم يكف قط عن حكم المحاكم طوال حياته!

ما إن أزيلت الكتب حتى بدا ثقب صغير أمامه في الجدار. وكان الفراغ المترب كبيراً بحيث يتسع لوجهه، على وجه الدقة. وملأت الرائحة الترابية فجأة فؤاد هوندا بذكريات قوية عن الشباب، مطلقة الشرارات الحمراء القليلة التابعة من مسرات الطفولة السرية. وتذكر للممس الغطاء القطيفي ذي اللون الأزرق القاتم الممتزج براائحة المرحاض، والكلمة البذيئة الأولى التي اكتشفها في قاموس، وكل روائح الطفولة الكثيرة والمقيبة. اكتشف في قلبه المتسارع الخفقان أضعف الصور الكاريكاتيرية للعاطفة النبيلة التي دفعت كيواكي نحو الكارثة النهائية. وكائناً ما كان الأمر فإنه كان ممرأً وحيداً معتماً يصل كيواكي ذا التسعة عشر ربيعاً بهوندا في السابعة والخمسين من عمره. وفيما أغمض عينيه انبعث في ظلمة رف المكتبة وصم قوامه جسيمات من لحم أحمر تتطاير وكأنها سرب من البعوض.

شغلت ماكيكو والسيدة تسوباكيهارا غرفة الضيوف المجاورة لمكتبه، ونزل إيمانوشي في الغرفة التي تليها واستشعر هوندا على نحو قاطع نوعاً من الاتصال بين الغرفتين، فقد سمع الأبواب تفتح مراراً وتكراراً، ثم أصواتاً تتردد مكتومة، وهمسات مفعمة باللوم تشبه انتشارات على سطح الماء. وتوقف الضجيج لحظة ثم انبعث من جديد. كان ثمة شيء ما يحدث على سطح السهل الذي يميل متجهاً

إلى عمق الليل، وكأنا انسكبت صبغة عاجية فأخذت تنداح على
سطح مائل.

كانت لديه فكرة عما يجري، ولكن ما صافح عينيه كان أكثر مما
تخيل.

وضع في غرفة الضيوف المجاورة فراشان موازيان للجدار ذي
الثقب السري. وكان الفراش الواقع أسفل الثقب مباشرة مختلفاً عن
النظر كلية تقريباً، ولكن الآخر كان جلياً تماماً. وقد أضيء المصباح،
ولكن الفراش نفسه التف بالظلال.

أجفل هوندا إذ رأى في الضوء الشاحب عينين متسعيتين تحدقان في
عينيه. وما كانتا إلا عيني ماكيكو.

لقد اقتعدت الفراش البعيد مرتدية كيمونو ليلياً أبيض. وكانت
ياقة الرداء ملمومة في شكل أنيق، وقد تألق شعرها الفضي، على نحو
معتم، في الضوء الذي جاء من أحد الجوانب. وكانت قد أزال
مواد التجميل عن وجهها، ولم يتغير البياض الذي كان له في الأيام
الخوالي، وإنما ظل صافياً وبارداً، وتجلّى عمرها في كتفيها المستديرتين،
إذ ترهل اللحم الممتلئ، ولكن ثقتها في الغالب الأعم في مناعة كيانها
الذي لم يتعرض للتهديد على امتداد الأعوام الطويلة، كانت واضحة
في حركة التنفس المنتظم التي عكسها صدرها. وقد بدا كما لو أن
جوهر الليل جلس هنالك ملتفاً بالبياض. وساور هوندا شعور بأنه
ينظر إلى جبل فوجي في ليلة مقمرة. وغطت الانحدار الرقيق عند
سفح الجبل التجمعات الممتدة للبطانية ذات اللون الأزرق المخطط.
كان نصف حجر ماكيكو محتجباً تحت الغطاء الذي أمالت عليه
ذراعها في فتور.

لم تكن عيناها اللتان بدتا لأول وهلة وكأنهما التقتا بعيني هوندا المتلصصتين، متجهتين نحو الثقب حقاً، وإنما كانتا منخفصتين تحدقان في الفراش الموضوع قبالة الجدار.

وإذا رأى المرء عينيها فحسب اقتنع بأنها تركّز على إبداع قصيدة، وهي تحدّق في نهر يتدفّق في أسفلها. كان الوقت هو ذلك الجزء من الليل الذي يمكن لروح الإنسان فيه أن ترصد جيشاناً معيناً، متدفّقاً بالحياة في الهواء وأن تجاهد لبلورته. وفي غمرة قيام عيني المرء بهذا الجهد فإنها تصبحان كعيني صياد يوشك أن يرمي طريدته. وما كان بمقدور المرء وهو لا يرى سوى عينيها إلا أن يشعر بجلال روحها.

لم تكن ماكيكو تتطلّع إلى نهر أو سمكة، وإنما إلى قوامين بشريين وهما يختلجان على الفراش الغارق في الظلال. ورفع هوندا رأسه حتى ارتطم بأعلى رف الكتب، في غمرة الجهد الذي بذله للرؤية، هبوطاً بناظره، عبر ثقب التلصص الصغير. واستطاع على هذا النحو أن يلاحظ ما يجري على الفراش الواقع وراء الجدار. كان فخذاً رجل ناحلان، شاحبان، يلتفان على فخذي امرأة. وأسفله مباشرة أخذت كومتان من اللحم الدّاوي، تتفجّران بمشقة بالقوة، تتأرجحان في بطن، شأن حيوانين مائين، وهما تتواصلان. التمتعنا على نحو يوحى بالبلل، في الضوء الخافت، وكان القائم بالالتهام، على نحو لا تخطئه العين، يتعرّض للالتهام، والخداع الواضح يضي جنباً إلى جنب مع الاختلاجات المفعمة بالإخلاص. وتماست كتلتان وافتتان من شعر العانة المبتلّ، وانفصلتا، واخترقت عيني هوندا المذهولتين وقد سقط الضوء على بطن المرأة رقعة من البياض وكان قطعة من الورق الأبيض قد غرست بين الجسمين.

أيّاً كان الوضع فإنّ إيمانيشي قد عرّى، بلا حياء، الفخذين
المثيرين للراء لثقف استبدّت به الشهوة. ومصدّقاً لنظريّاته فإنّ
التذبذب الكثيب المترجرج لرديفيه المسطّحين اللذين ظهر بينهما
عصص ذاب، ما كان إلّا وهماً لا يدوم إلّا لحظة. وقد أثار افتقاره
الجليّ للإخلاص غضب هوندا.

وبالمقارنة به فقد كانت السيّدة تسوباكيهارا هي اللّهفة مجسّدة،
وكان بمقدور هوندا أن يرى يديها الممتدّتين وكأنّها يدا امرأة تغرق،
وأصابها المتشبّث، على نحو يائس، بشعر إيمانيشي. وهتفت في
النهاية باسم ابنها. كانت صبيحة خافتة، مقموعة:
- أكيو، أكيو، ساعني . . .

ابتلع النّشيج كلماتها، ولكن إيمانيشي لم يتأثر أدنى تأثر.

أدرك هوندا فجأة جلال الموقف وبشاعته، فعصّ على شفّتيه. لقد
بدا الأمر واضحاً الآن. وسواء أكانت ماكيكو قد أمرتها أم لم تأمرها
بأداء ما قامت به، فقد بدا جليّاً أنّها لم تكن المرّة الأولى التي تتورّط
فيها السيّدة تسوباكيهارا في هذا النوع من العروض، من أجل
ماكيكو، وربّما من أجلها وحدها. وكان هذا هو جوهر العلاقة التي
ربطت بين المدرّسة والتلميذة، بين ماكيكو والسيّدة تسوباكيهارا -
الازدراء والتفاني اللذان يجمعانها.

تطلّع هوندا إلى ماكيكو مرّة أخرى. وكانت تنظر إلى أسفل في
وقار، وشعرها الفضّي يلتصع، ويتطاير حول رأسها. ولقد كانا من
جنسين مختلفين، ولكن هوندا أدرك أنّ ماكيكو هي نظيرته تماماً.

أطلّ اليوم التالي جميلاً ومشمساً. وكان الزوجان هوندا قد وجّها الدّعوة إلى ضيوفهما الثلاثة الذين أمضوا الليل بالدارة، وإلى كيكو لرحلة في سيارتين منفصلتين إلى مزار سينجين في فوجي - يوشيدا. وقد اعترما جميعاً، باستثناء كيكو، الانطلاق من هناك إلى طوكيو. وأوصد هوندا الدّارة، قبل الانطلاق. وفيما كان يغلق الباب ساوره هاجس مفاجئ قوامه أنّ ينج تشان قد تحضر خلال غيابه، ولكن هذا كان بعيداً تمام البعد عن إمكان الحدوث.

كان هوندا يطالع، منذ وقت قصير، كتاب «الهونتشو مونزوي» - أو «موضوعات الإبداع المؤلّفة في اليابان» - الذي أحضره إيمانيشي له. وكان، قد رغب بالطبع في قراءة «مقالات عن جبل فوجي» من تأليف يوشيكوا نوميكاكو، وقد طلب من إيمانيشي أن يحصل له على نسخة منه.

«يقع جبل فوجي في مقاطعة سوروجا، وتشمخ قمّته عالية إلى عنان السّماء وكأنّها أعدّت لتأخذ شكلاً مستديراً». إنّ مثل هذه الأوصاف لا تثير الكثير من الاهتمام، ولكن جاءت، عقب ذلك، فقرة أثّرت في نفس هوندا بقوة بالغة، بحيث بقيت طويلاً في ذاكرته من دون أن تتاح له فرصة قراءتها مرّة أخرى، منذ ذلك الحين.

«حكى عجوز أنّه: في اليوم الخامس من الشهر الحادي عشر من عام جوكان، السّابع عشر (٨٧٥ ميلاديّة) تجمّع المسؤولون والعامّة للقيام باحتفال حسيماً جرى العرف. وقد علت الشّمس متأقّة في

حوالي الظهرية، وكانت السماء صافية وجميلة كأبدع ما يكون الجمال . وفيما النظارة يتطلعون عالياً إلى قمة الجبل، شاهدوا امرأتين جميلتين ترتديان ثياباً بيضاء، وهما ترقصان معاً. لقد كانتا تمضيان معاً على ارتفاع يزيد عن قدم فوق القمة. وقد شهدهما كل سكان المنطقة».

لم يكن من الغريب أن تحدث مثل هذه الأوهام البصرية، في جبل فوجي، في يوم جميل، ذلك أنه غالباً ما يثير في النفوس أوهاماً عديدة. وفي مرآت كثيرة تتحوّل ريح هادئة عند سفح الجبل المنحدر إلى هبة قوية عند القمة، حاملة غمامة ثلجية إلى السماء الزرقاء. وربما كان هذا الغبار الثلجي هو الذي لاح في هيئة حسناوين لعيون أبناء المنطقة.

كان فوجي بارداً وواثقاً بنفسه، غير أنه سمح من خلال ثقته الباردة وبياضه بكل الصور الخيالية الممكنة. ففي البرودة المطلقة هناك الدوار، تماماً كما أنّ هذيان الحمى يميّز الحد الأقصى للعقل. وكان فوجي هو المطلق الغامض للكمال، وقد اقترب جماله من حواف غنائية غامضة. كان متناهيّاً ولامتناهيّاً في آن واحد. ومن المحتمل تماماً أنّ حسناوين ترتديان ملابس بيضاء قد رقصتا هناك.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اجتذبت هوندا الحقيقة القائلة بأنّ الروح التي تتخذ من قرار سينجين مستقراً لها، هي ربة تُدعى كونوهانا ساكوبا.

استقلّ كل من السيدة تسوباكيهارا وماكيكو وإيمانيشي سيارة السيدة تسوباكيهارا، واستقلّ الزوجان هوندا وكيكو السيارة الليموزين التي استدعاها هوندا لإعادته إلى طوكيو. وكان هذا ترتيباً طبيعياً، ولكن هوندا رغب، على نحو غامض، في أن يكون في سيارة

واحدة مع ماكيكو، وأحسّ بلذعة ندم لأنّ ذلك لم يقدر له الحدوث .
لقد أراد أن يجلس إلى جوارها ويحدّق في العينين المتوترتين اللتين رأهما
البارحة، عيني الصيادة التي توشك أن تطلق سهمها .

غير أنّ الرّحلة إلى فوجي - يوشيدا لم تكن بالأمر اليسير؛ فقد كان
الطريق الوطني السّريع، أي طريق كاماكورا السّابق، يرقى صاعداً
عبر ممرّ كاجوساكا من سوباشيري، ويتّجه يساراً على امتداد بحيرة
ياماناكا . وكان في غالبه غير ممهّد وجلبياً، فالحدود الفاصلة بين
مقاطعتي شيزوكا وياماناشي تمرّ على امتداد هضبة كاجوساكا .

وبينما جلست كيكو وراي متجاورتين، وانهمكتا في حديثهما
النّسائي عن سفاسف الأمور، أطلّ هوندا عبر النّافذة في لطفة شبه
طفوليّة . وكان وجود كيكو مفيداً للغاية في إحباط شكاوى راي، فقد
أصبحت الأخيرة شبيهة بزجاجة جعة تدفّق فائضة إذا ما نزعت
سداتها . وكانت قد عكفت منذ الصّباح على الاعتراض على فكرة
العودة بالسيارة إلى طوكيو، مشدّدة على أنّه لم يحدث، منذ عهد
الطفولة، أن قامت بمثل هذه الرحلة الطويلة العبيّثة المتضمّنة إسرافاً
بالغاً .

وأصبحت راي هذه بذاتها لطيفة تماماً، بل وجذّابة، وهي
تجاذب أطراف الحديث مع كيكو .
قالت كيكو، بصراحة ووضوح:

- ليس هناك ما يدعوك إلى القلق على مسألة كليتك .

- أتعتقدين ذلك؟ عندما أسمعك تتحدّثين على هذا النّحو فإنّني
أستمدّ من ذلك الشّجاعة على نحو فائق . إنّهُ أمر غريب، فأنا
أغضب، عندما يحدثني زوجي في رقة بتعاطفه الخادع المبالغ فيه وقلقه
المفتعل .

وربما كان من باب الخدق وسعة الحيلة أن لم يحدث قط أن دافعت
كيكو عن هوندا لدى قيام رايبى بشنّ هجوم عليه .
قالت كيكو:

- السيد هوندا لا يكثر بأى شيء إلا بالتفكير المنطقي، وليس
هناك ما يمكن القيام به في هذا الشأن .

ما إن يعبر المرء الخطّ الفاصل، حتى يكون بمقدوره أن يرى أنّ
المنحدر الشّمالي للجبل ملتف تماماً في جليد متجمّد بصلابة وقد اتّخذ
لدى تلاصقه شكل جلد الثّعبان، وحاكى ظهري يدي رايبى، لدى
تراجع التورّم .

غير أنّ رايبى كانت قد أصبحت في تلك اللّحظة، محتملة بصورة
أكبر بالنسبة لهوندا، فكونه بصحبة امرأتين تتحدّثان على مسمع منه
دوئما تملق على هذا النحو - ولاسيّما أنّ إحداهما زوجته - منحه على
نحو ما شعوراً عابراً بالرّضا .

وفيما وراء ممرّ كاجو ساكا، كست طبقة ثقيلة من الجليد كلّ شيء،
وبدت الأرض في الأجمة المتناثرة عند بحيرة ياماناكا كما لو كانت
مكسوة بحرير صينيّ متجمّد . ولاحت إبر الصنوبر صفراء، وفي ماء
البحيرة وحده بدا اللون مشرقاً وصافياً . وفيما هو يتطلّع إلى الورا،
أخذ سطح جبل فوجي الأبيض، أصل كلّ البياض في هذه المنطقة،
يتألّق وكأنّه قد جرى تلميعه بالزيت .

كانت السّاعة الثالثة والنصف عصراً عندما وصلوا إلى مزار
سنجين . وفيما هوندا يلقي نظرة عابرة إلى الورا على الرّكاب الثلاثة
الذين أخذوا يترجّلون . من السيّارة الكريزلىر السوداء احترامه شعور
حافل بالنّدر، وكأنّما كان يشاهد ثلاث جثث تنهض فجأة من تابوت

أسود. وكان أمراً ملحاً صبيحة هذا اليوم أن يحو الثلاثة ذكرى الليلة البارحة، ولكن العكوف في الفراغ الضيق للسيارة الليموزين، على كامل امتداد الرحلة، جعل الواقعة أشد بشاعة، شأن ماء داء الاستسقاء الذي يتجمع، على الفور مهما تعددت مرّات إزالته. وشرع ثلاثتهم ينظرون بأعين طارفة، نصف مفتوحة، وكأنما ضايقهم البريق المنعكس عن الجليد على جانب الطريق. ورغم ذلك فقد وقفت ماكيكو منتصبه القامة في تصلّب، وأثار مرأى بشرة إيمانيشي الشاحبة، المتصلّبة، تفرّز هوندا؛ فقد اقترف تجديفاً بحق جمال تلك الصورة الخيالية المساوية، عن اللحم البشري، التي تحدّث عنها، بابتهاج بالغ، أمس، وقد تمّت البرهنة على ذلك من خلال افتقاره الكامل للمؤهلات كعاشق. وقد ضاعف من حدّة الحنق امتناعه بأنّ قبحه سيظلّ بعيداً عن أن ترصده الأعين.

وعلى آية حال فإنّ هوندا قد رآه رؤية العين. وقد توحد عند أطراف هذا العالم المزدوج من رأى ومن رؤي دون أن يعرف ذلك. وألقت ماكيكو نظرة عجلى على «التوري» الحجري الهائل الذي نحتت كلمتا «جبل فوجي» على صخرة مؤطرة قربه، وأخرجت مجدداً دفتراً تحمله معها دائماً لتدوين خواطرها الشعريّة، وقد ربط به على نحو دائم، بخيط أرجواني، قلم رصاص رقيق.

مضى السّنة يعاون أحدهم الآخر، على الدّرب الجليدي الرّطب المفضي إلى المزار. وقد انسلت الشّمس، هنا وهناك، عبر فروع الأشجار ملقية نورها على رقع من الجليد. وواصلت الأغصان الهائلة لأشجار السّرو اليابانيّة العتيقة إلقاء إبرها البنية الميتة التي أخذت تنهوى على أكوام الجليد العنيد الصّغيرة. وكان ثمة ضوء مضئّب

جعل الدّرب يبدو وكأنّ سديماً ضارباً إلى الخصرة يلقه . وفي نهاية الدّرب لاح للعيان «توري» أحمر يحيطه الجليد .

أثارت شارة القداسة هذه، في هوندا، ذكرى إيسو إينوما . فتطلع مجدداً إلى ماكيكو، وأحسّ للحظة بأن بمقدوره نسيان عينيها، في انتصاف ليل البارحة، بعد أن خُليعت عليها الآن قوّة إلهيّة . لربّما كان إيساو الذي عشق هاتين العينين المتقلبتين، حتّى العبادة، قد لقي مصرعه بهما .

اعتادت كيكو الاحتفاظ بالهدوء ورباطة الجأش، أيّاً كان ما تراه .
قالت، دوغماً تحفّظ :

- يا للجمال! ما أروع! يا للروح اليابانيّة!

بدت ماكيكو كما لو كانت قد أجفّلت لسماح أسلوبها الحاسم في الحديث، ورمقتها بشيء من الاضطراب . وأمّا رايي فتابعته الأمر في شروء، ومن مكانها في مؤخّرة المجموعة .

خلعت كلّ خطوة مرّنحة خطتها السيّدة تسوباكيهارا على امتداد الدّرب إلى المزار، مظهر طائر تمّ حزين متهاك الرّيش عليها، ورفضت تواء المساعدة التي عرضها عليها إيمانيشي، وأسندت يدها على ذراع هوندا . لقد كانت بعيدة عن الحالة المزاجيّة التي يمكن أن تميل فيها إلى نظم الشّعور .

كان حزنها أكثر صدقاً من أن يكون مجرد مظهر تدّعيه . وتأثّر هوندا، على وجه التّقريب، وهو يحدّق في صورتها الجانيّة المترعة حزناً . والتقت عيناه بعيني ماكيكو التي اختارت تلك اللّحظة لتلقي نظرة عابرة، من النّاحية الأخرى، على تلميذتها المكتئبة . وكانت

مايكو قد اكتشفت كالمعتاد شعراً في حيا المرأة، الذي أناره ضوء منعكس عن الجليد، فنظمت قصيدة.

عندما بلغوا الجسر المقدس الذي يعبر الطريق إلى قمة جبل فوجي، حدثت السيدة تسوباكيهارا هوندا بصوت مرتجف:
- ساحني أرجوك! عندما أفكر في أن ذلك هو مزار جبل فوجي، أشعر وكأنما أكيو سيلتقيني مبتسماً، فقد كان مولعاً أشدّ الولع بفوجي.
كان حزنها خاويماً على نحو غريب. وبدا وكأنه يهبّ عبر المرأة الخاوية، مثلها تدوم هبة من ريح في تعريشة فارغة. وكانت هادئة، على نحو جامع تقريباً، هادئة وكأنما الموقف قد أعقب جلسة لتحضير الأرواح - دمار خلّفته روح شبحية. ولاحت وجنتاها الجاقتان، في ظلال خصلات من الشعر، ممصوصتين وكأنهما قطعتان من ورق قشّ الأرز. وهدوء، ودونما عوائق، لاح حزنها وكأنه يتدفق حراً، منها وإليها، كما يتدفق النفس.

جعلت مراقبة هذا المشهد رايعي تنسى مرضها. ولاحت وكأنها الصحة مجسدة. وفي مثل هذه اللحظات، كان هوندا يشكّ في أن زوجته مصابة بوسواس المرض، بل في أن تورّمها نفسه قد لا يكون حقيقياً.

وصلت المجموعة، في نهاية المطاف، إلى «التوري» الأحمر الذي يشمخ ليصل ارتفاعه إلى ستين قدماً تقريباً. وعندما مروا من خلاله ألفوا أنفسهم مباشرة أمام صرح المزار حيث تؤدّى الرقصات المقدسة، وقد أحاط به الثلج الأشهب الذي تكوم أمام البوابة الحمراء، وامتدّ جبل مقدس على امتداد ثلاثة جوانب للمبنى تحت الطنف. ومن قمم أشجار السرو اليابانية العالية سقط سني شمس

صافية على شرائح «الجوهاي» الورقية التي برزت بإزاء مائدة التقديمه
غير المطلية، على الأرضية. وأضاء الانعكاس المرتد عن الجليد،
المبنى، وصولاً إلى سقفه المحلّ بالزخارف المنقوشة في الخشب. ولكن
سنى الشمس الذي بلغ الورق، كان متألقاً، على نحو خاصّ.
وتأرجحت الشرائح بخفة في النسيم.

أحسّ هوندا، للحظة، بأنّ الورق الأبيض النقيّ يتدفق حياة.

وبدّت دموع السيدة تسوباكيهارا السحر. ولم يدهش أحد على
وجه خاصّ حيال إجهاشها بالبكاء.

فما إن لمحت الورق المقدّس حتى ساورها الخوف، وانطلقت تعدو
إلى مقدّمة المزار الرئيسي الأحمر الذي تحرسه أسود وتنانين صينية
منحوتة نحتاً نافرماً، وجثث غارقة في صلاة حارة، منفجرة بالدموع.

لم يعد هوندا يتساءل عن السرّ في أنّ حزنها لم يعرف البرء، بعد
كلّ هذا الوقت الذي مضى على الحرب، فقد كان شاهداً على السرّ
الذي يتجدّد به ذلك الحزن، ويُبعث، كالبارحة، من جديد.

اتصلت كيكو في اليوم التالي هاتفياً من نينوكا في جوتмба. وكان هوندا خارج الدار، في حين أوت رايمي إلى الفراش، وهي ماتزال منهكة من الحفل. غير أنها عندما سمعت بأن الاتصال هو من كيكو، نهضت إلى الهاتف.

وقد جاء هذا الاتصال من كيكو لتحكي كيف أن ينج تشان قد جاءت إلى جوتмба في ذلك اليوم فحسب.

- عندما كنت أنطلق بالكلب، في رياضته اليومية، رأيت شابة تسير حائرة، حول بوابة دارتكم. وبشكل ما لم تبد يابانية الملامح، فناديتها. وقد قالت إنها من تايلاند. وأخبرتني بأنها كانت قد تلقت دعوة من السيد هوندا، ولكنها حيل بينها وبين الحضور. وقد وصلت اليوم لأنها اعتقدت أن الجميع ما يزال هنا. وقد أدهشني مرحها، ولكنها جاءت وحدها، عبر كل هذه المسافة، وساورني شعور بالأسف لأنها يتعين عليها العودة من جديد. وقد قدمت لها بعض الشاي وصحبته إلى المحطة. وها أنا عائدة لتوي من توديعها. وقالت إنها ستعذر للسيد هوندا، بعد عودتها إلى طوكيو، ولكنها زعمت أنها لا تحب استخدام الهاتف، فالحديث باليابانية عبر الهاتف يسبب لها الصداع. إنها جذابة للغاية، وشعرها فاحم السواد، وعيناها نجلاوان.

بعد مواصلة الثثرة، أعربت كيكو مجدداً عن شكرها لرايمي على الحفل، وأضافت أنها مشغولة بالإعداد لجلسة للعب الورق، في تلك الليلة، لضابطها الأميركي وأصدقائه، ثم أنهت الاتصال الهاتفي.

سردت رايي بدقة الحوار بأسره على مسامع هوندا لدى وصوله ،
فاستمع إليها مكشراً وكأنه يستنشق دخاناً . ولم يقل لزوجته بالطبع إنَّ
ينج تشان قد تراءت له في أحلامه في تلك الليلة .

من مزايا التقدّم في العمر أن يعرف المرء كيف يكون صبوراً . وقد
كانت ماتزال له بالإضافة إلى ذلك بعض الالتزامات الاجتماعية . ولم
يكن بمقدوره أن ينتظر إلى الأبد اتصالاً من ينج تشان التي يستعصي
سلوكها على إمكان التنبؤ به . وقد كان بمقدوره أن يعهد بالخاتم إلى
زوجته ، ولكنّه لرغبته في تقديمه بنفسه فقد حمله في جيب سترته
الداخلي .

وبعد عشرة أيام ، أبلغته رايي أنّ ينج تشان جاءت في أثناء غيابه ،
في زيارة لم يتّضح الغرض منها تمام الوضوح . وكانت رايي ، وقد
ارتدت كيمونو الحداد ، على وشك مغادرة الدّار لتشييع جنازة زميلة
دراسةٍ سابقة ، عندما رأت ينج تشان تلج البوّابة .
سأل هوندا :

- كانت وحدها؟

- نعم ، بدا أنّها كذلك؟

- أمر بالغ السوء أنّها قامت بتلك الرحلة ، سيتعين علينا أن ندعوها
لتناول طعام العشاء ، أو شيء من هذا القبيل ، في المرّة المقبلة .

- أتساءل عمّا إذا كانت ستحضر!

قالتها رايي وعلى شفيتها ابتسامة غامضة .

كان هوندا يدرك تمام الإدراك أنّ إجراء اتصال هاتفي سيخلق
مشكلات نفسية لينج تشان . وهكذا فقد اختار موعداً بشكل
عشوائي وبعث إليها ببطاقة دخول لمسرح شيمباشي ، تاركاً لها أن

تحضر أولاً . وكانت فرقة الطريق التي تقدّم مسرح عرائس أوساكا، قد أفتحت عروضها في طوكيو، وأرادها هوندا أن تشهد أحد هذه العروض . وبعث لها بطاقتين ابتاعها لحضور العرض الأول الذي يسبق عرض السهرة المسائي، معتمداً أن يصحبها، بعد العرض، لتناول طعام العشاء في فندق الأمبريال الذي أعادته قوات الاحتلال مؤخراً إلى إدارة يابانية .

تمثل عرض ذلك اليوم، على وجه التحديد، في «جبل كاجامي» قائد قردة هوريكاوا» . ولم يدهش، بعد أن جرّب افتقار بيج تشان للمسؤولية، عندما لم يظهر لها أثر . وجلس وحيداً، ومضى يشاهد الفصل المعروف باسم «جناح النساء» . وخلال الاستراحة الطويلة التي تسبق تقديم «هوريكاوا» انطلق على مهل إلى الحديقة . كان اليوم صحواً، بديعاً، وقد أقبل كثيرون للاستمتاع بالهواء العليل .

تأثر كثيراً لتحسّن مظهر الجمهور هنا مؤخراً، على نحو كبير، بالمقارنة بما كان عليه قبل سنوات قلائل، وربما كان ذلك راجعاً لوجود كثير من فتيات الجيشا . ولكن أزياء الكيمونو أصبحت أكثر فخامة وتألّفاً، مع تراجع ذكريات الدمار الرهيب إلى حدّ التلاشي وقد أصبحت أذواق النساء، في أيام ما بعد الحرب تلك، ميّالة للألوان الزاهية، بصفة خاصة، بغضّ النظر عن أعمارهنّ . ومن المؤكّد أنّه كان هناك المزيد من العرض الوافر للأقمشة الوهاجة عمّا كان وسط الجمهور في المسرح الإمبراطوري، خلال العشرينيات .

ولو أنّ هوندا كان من ذوي هذه الميل، لكان بمقدوره أن يختار أجمل فتيات الجيشا، وأن يصبح عميلها الدائم، ولسوف يكون مصدر سعادة له أن يبتاع لها أي شيء تطلبه، وأن يتمتّع بفتنتها

ولسأتها الرقفة كسحابة ربيع . . . هاتان القدمان الملتفتان بأناقة بالغة في «تاي» أبيض، صنع خصيصاً. وسوف تبدو في كيمونوها كدمية لا يشوب كمال زهبا نقص. وكل ذلك يمكن أن يكون طوع يمينة، ولكنه كان بمقدوره أن يتنبأ بالخاتمة، في الحال، فناء العاطفة المحتدم الغليان سيدقق منسكباً، ورماد الموت المتراقص سيحلّق عالياً فيصيبه بالعمى.

كمنت فتنة هذا المسرح في النحو الذي تفضي به الحديقة إلى النهر، فبمقدور المرء أن يستمتع هنالك في أشهر الصيف الحارة بالنسبات البليلة المتهادية من الماء. ولكن النهر بدا راكداً الآن، ومضت الزوارق البخارية والغمامة وثيدة مع التيار باتجاه المصب. وقد تذكر هوندا جيداً أنها طوكيو، خلال الحرب، وجثت القتلى وهي تمضي فيها خلال الغارات مع التيار. لم يعد هناك أي دخان ينبعث من المصانع، وقد أصبح الماء بلا شائبة على نحو يوحى بالندير، وهو يعكس على سطحه السماء الزرقاء على نحو غريب فوق الرؤوس، تلك السماء التي يقال إنها تتبدى للعيان لساعة الموت. وبالمقابل فإن هذا الماء الملوّث الممتزج بالطمي هو رمز الرّخاء بعينه.

انحنت فتاتان من فتيات الجيشا على الدرابزين، وهما تستمتعان بالنسيم النهري. وكانت إحداهما ترتدي كيمونو حريراً ذا تصميم فني صغير رُقش ببتلالات الكرز وزنارٍ من طراز ناجويا المرقش بالكرز وسط اللون الأسود. وربما كان في الغالب الأعم مطبوعاً يدوياً. وكانت دقيقة الحجم، بدرية الوجه. وأما الأخرى فأفصحت عن ميل إلى الألوان في اختيار ثيابها. وقد تلاعبت ابتسامة فاترة على محياها انطلاقاً من أعلى أنفها الذي كان عالياً أكثر قليلاً مما ينبغي، وصولاً إلى شفيتها الرفيعتين. وواصلتا ثرثرة لا تنتهي كانت تتخللها

صيححات تعجب مبالغ فيها. وتصاعدت جديلتان متموجتان من الدخان من سيجارتيهما - من أنواع مستوردة ذات أطراف ذهبية - اللتين أمسكتنا بهما بين أصابعهما التي لم تهتز قط لشعور بالمفاجأة.

سرعان ما أدرك هوندا أنها تنظران مراراً وتكراراً إلى الضفة المقابلة. وكان المستشفى الإمبراطوري الياباني البحري السابق، بتمثاله الذي يجسّد أدميراً ولايزال في موضعه، قد تحوّل إلى مستشفى عسكري أميركي، وامتلاً بالجنود الجرحى في الحرب الكورية. وتألقت شمس الربيع على براعم الكرز نصف المتفتحة في الحديقة الأمامية، وقد دفع الجنود تحتها في مقاعدهم المتحركة. وسار بعضهم مستعيناً بعكازات، وأخذ آخرون يتربصون وقد وضعت أذرعهم وحدها في عصابة نقية البياض مدلاة من العنق. ولم ترتفع أصوات منادية عبر النهر الشابتين البديعتي الملابس، كما لم يتردد صوت صفير الأميركيين المرح. ومثل مشهد من عالم آخر، كانت الضفة الأخرى تسبح في شمس متألقة وقد عمها الهدوء على نحو تام وحفلت بأشكال الجنود الشبان المعوّفين الذين يتظاهرون عامدين بعدم الاكتراث.

بدا جلياً أنّ فتاتي الجيشا تستمتعان بالمفارقة، فإذا اكتستا بالحريير والذرور الأبيض، وانغمستا في كسل ربيعيّ وحياء مترفة، فقد راحتا تمتعان بصريها بمشهد أولئك الذين كانوا، حتى أمس القريب، المنتصرين التيايين فخراً، بجروحهم والمهم وأذرعهم وسيقاتهم المبتورة. وقد كان هذا الحبث المراوغ والضراوة الجهنمية البديعة هما تخصّصها الذي برعنا فيه.

كان بمقدور هوندا أن يرصد من نقطته المتقدمة، كمراقب تنحى

جانباً، الإسراف في المفارقة بين حديقة المسرح والمشهد المتبدي على الضفة النائية. فهناك في البعيد الغبار، الدّم، البؤس، الكبرياء الجريحة، البؤس الذي لا سبيل إلى تداركه، الدّموع، انكسار القلب، التزعة الحسية الذكورية المشتبكة للجنود الذين سيطروا على اليابان طوال السنوات السبع الماضية، بينما أخذت نسوة البلاد المهزومة يستعرضن على هذا الجانب نزعتهن الحسية المتميزة بالصلف والتعالي، ويستمتعن بمراى دماء المنتصرين الغارقين في عرقهم. لقد كنّ ذبابات تعكف على الجروح، ناشرات الأجنحة الشفافة السوداء لـ «الهاوري» الخاصّ بهنّ وكأنّها أجنحة فراشات سوداء بديعة. ولم يكن نسيم النهر كافياً لضمّ الجانبين معاً. وكان من اليسير تصوّر شعور الأميركيين بالإحباط، هم الذين سفكوا دماءهم بلا طائل لكي يخلقوا هذا التآلق الذي لا جدوى منه، والذي لا سبيل أمامهم للوصول إليه لكي يضيفوا الترف والغرور على هذا العرض المفتقر للحساسية.

سمع هوندا إحدى المرأتين، تقول:

- لا يبدو ذلك فعلاً أمراً حقيقياً.

- نعم، فهم أكثر بؤساً من أن ينظر المرء إليهم. فالأجانب ضخام للغاية، وهم أكثر إثارة للإشفاق، في تلك الحالة. ولكن البؤس متبادل، فقد عانينا كثيراً.

قالت المرأة الأخرى ببرودة:

- طيب، ذلك هو ما ناهم لضمهم أكثر مما يستطيعون مضغه.

أخذتا تتطلّعان باهتمام متزايد. ولكن ذلك سرعان ما انقضى وتلاشى. فقد قامتتا، وكأنّهما في مسابقة، بإخراج علبتيّ تجميل صغيرتين، ونظرتا في شرود إلى المرأتين، وهما تضعان الدرور على

أنفيتها. وتناثر الذرور ذو الرائحة العطرية القوية وقد لامسه نسيم
النهر، متساقطاً على امتداد أطراف «هاوري» كل منهما لينتقل إلى
فتحة ردن سترة هوندا. ولاحظ أنّ المرأتين الصغيرتين قد أفلحتا،
على الرغم من أنّهما مكسوتان بطبقة خفيفة من الذرور، في أن تلقيا
انعكاساً واهناً على الشجيرة عند قدميه، تماماً كتذبذب ثمال صغيرة.

أوحى الرنين الواهن لجرس بعيد بأنّ الستار على وشك أن يرفع،
عن الفصل التالي، ولم يكن قد بقي إلا الجزء الأخير من
«هوريكافا». وفيما هو يتجه عائداً نحو المسرح، وقد وطن نفسه على
أن ينج تشان لن يظهر لها أثر في مثل هذا الوقت المتأخر، أدرك فجأة
أنه قد شعر بلذّة حسية في غمرة غيابها الرائع. فقد كانت تقف في
الداخل نصف محتجبة، في ظلّ أحد الأعمدة، وبدأ كما لو كانت
تحاول تجنّب الضوء المنسل.

لم تكن عينا هوندا قد تعودتا العتمة بعد، وكلّ ما رآه هو سواد
شعرها، وسواد عينيها النجلاوين المتألّق وكأنه ضبابية بقعة معتمة في
جسم شفاف. وانتشر عبق قويّ من زيت شعرهما، وابتسمت مفترّة
عن بياض أسنانها الجميلة، وقد لفّه الغموض.

تناولا طعام العشاء، في تلك الليلة، بفندق الأمبريال. وكان الفندق قد دمّر، وزعمت قوّات الاحتلال أنّها تتفهم عبقرية فرانك لويديرايت المبدعة، ولكنّها لم تتردّد في طلاء المصابيح الحجرية في الحديقة باللون الأبيض، بل لقد بدا السقف شبه القوطي لقاعة الطعام أكثر كآبة وأسوأ صيانة من أيّ وقت مضى، وتمثّلت بقع الحداثة الوحيدة في المفارش الكتانية البيضاء التي تألّقت تباهاة في صفوف موائد الطعام.

عندما طلب هوندا أطباق وجبة عشائهما، أخرج على الفور العلبه الصغيرة من جيبه الداخلي، ووضعها أمام ينج تشان مباشرة، ففتحتها، وصاحت مبتهجة.

- كان من الحتمي أن يعاد الخاتم إليك.

قالها هوندا بأبسط الأساليب، وأبلغها بتاريخ الخاتم. ولم تتوافق الابتسامة التي توهجت على ملامحها، وهي تصغي إليه، على الدوام مع روايته، وخطر له أنّها ربما لم تفهم كلّ ما كان يقوله.

كان نهداها الظاهران فوق مستوى المائدة مفارقين تماماً لمحياها الطفولي، فقد تكورا على نحو بديع وكأنّها نهدا تمثال يتصدّر مقدّمة سفينة. وقد عرف، من دون أن يرى رأي العين، أنّ جسم إحدى الرّبات المائلات في جداريات أجاتنا، يكمن تحت القميص الخارجي البسيط الذي ترتديه الطالبات، والذي تبدى لعينه عبر المائدة.

لاح أنّ لحم الخفيف، على نحو خادع، والصّلب الملمس، الخفّة

التي تحظى بها ثمرة فاكهة قائمة... الشعر الفاحم، الخائق، على وجه التقريب، والخطوط الغامضة، الحزينة، الممتدة من الخيشومين المتفخين قليلاً، نزولاً إلى الشفة العليا... بدا أنها غافلة عن الكلمات التي يهمس بها جسمها، تماماً كما كانت لاهية عندما استمعت إلى ما سرده هوندا. وأوحت عينها النجلوان السودوان بالذكاء، وخلعتا عليها، على نحو ما، مظهر من لا يرى. يا لغموض الأشكال! ترجع إطلالة ينج تشان أمامه بجسم يشعر المرء بعقبه القوي العطر إلى سحر الأدغال النائبة التي تمتد وصولاً إلى اليابان. وساوره شعور بأن ما يسميه الناس بصلة الدم ربما لم يكن إلا صوتاً عميقاً، بلا قوام، يتابع المرء إلى الأبد. ويتناهى همساً عاطفياً في بعض الأحيان، ويدوي في أحيان أخرى صرخة مبحوحة، وهو أصل كل الأشكال البدنية الجميلة، ومنبع الجاذبية التي تصدر عنها.

عندما دس الخاتم ذا الزمردة القائمة الخضراء في أصبع ينج تشان، خالجه شعور بأنه يشهد اللحظة التي تواصل فيها أخيراً، وبعد طول انتظار، الصوت العميق النائي وكيان الفتاة العضوي.

- شكراً لك.

قالتها ينج تشان بابتسامة ودودة ربما كانت قد أساءت إلى كبريائها. وأدرك هوندا أن ذلك هو التعبير الذي يتبدى على الدوام عندما تشعر يقيناً بأن مشاعرها الأنانية موضع تفهم. ولكن ما إن حاول الإمساك بتلك الابتسامة حتى كانت قد مضت بالفعل وكأنها موجة تنسحب بسرعة.

- كنت تزعمين وأنت طفلة أنك لست إلا تناسخ فتى ياباني كنت أعرفه حق المعرفة، وقد أثرت ضيق الجميع بالإصرار على أن اليابان

هي موطنك الحقيقي ، وأنتك تريدان العودة إليها . ومادمت الآن هنا وأصبعك في ذلك الخاتم ، فإن ذلك يعني بالنسبة لك أيضاً أن أطراف دائرة عظيمة قد اكتملت .

ردت ينج تشان دون أثر واحد يوحى بالانفعال :

- لست أفهم الأمر حقاً . ولا أذكر أي شيء عن طفولتي . لست أذكر حقاً . إنهم يداعبونني إلى حدّ المضايقة بالقول إنني كنت مجنونة بعض الشيء ، ويضحكون مني عندما يقولون ما كنت تقوله منذ لحظة . ولكنني نسيت كل شيء تماماً ، فقد مضيت إلى سويسرا ، فور اندلاع الحرب ، وبقيت هناك حتى انتهت ، والشيء الوحيد الذي أذكره عن اليابان هو أنني أحببت دمية يابانية أرسلها أحدهم إلي .

شعر هوندا بدافع يدعو إلى إخبارها بأنه هو الذي بعث بالدمية ، ولكنه كبح جماح نفسه .

- قال لي أبي إن المدارس اليابانية جيدة ؛ ولذا جئت إلى هنا للدراسة . ومؤخراً روادتني فكرة بأنني ربما كنت في طفولتي كالمرأة التي ينعكس على صقالها كل ما في أذهان الناس ، وأنني قد قلت ما حدث لي . وعلى سبيل المثال ، لو أن فكرة راودتك ، فربما انعكست مجسدة في . وربما كان ذلك هو ما حدث ، فيما أتصوّر . ما هو رأيك ؟

كان من عادة ينج تشان إنهاء السؤال بارتفاع في مقام الصوت على الطريقة الإنجليزية . وقد ذكرت مقاطعها النهائية هوندا بالذيول الحادة الالتواء للثعابين الذهبية ، في الأطراف العليا للسقوف المصنوعة من الأجر الصيني للمعابد التايلاندية التي ترتفع إلى عنان السماء الزرقاء .

أدرك هوندا ، فجأة ، وجود عائلة تجلس إلى المائدة القرية ، وقد

عكف على تناول طعام العشاء ربّ العائلة الذي ربّما كان من رجال الأعمال، وزوجته، وأبناؤهما الكبار. ورغم ثيابهم القشبية فقد كان بمقدوره أن يرصد شيئاً سوقياً في ملاحظتهم. وحدهم بأنهم أصبحوا أثرياء من خلال الحرب الكوريّة. وكانت وجوه الأبناء بشكل خاصّ مترهّلة، مثل وجه كلب أوقظ لتوّه، وعكست شفاههم وأعينهم افتقارهم التّام إلى التّربية، وعكفوا جميعاً على تناول حسائهم محدثين ضجّة ملحوظة.

كان الأبناء ينكز أحدهم الآخر بين الفينة والأخرى، ويختلسون نظرة إلى مائدة هوندا. وبدأت أعينهم وهي تسخر من رجل عجوز يتناول طعام العشاء مع خليقة تشبه طالبة من طالبات المدارس. ولاح كأنّما ليس لدى عيونهم ما هو خير من ذلك لتقوله. ولم يستطع هوندا إلّا أن يتذكّر عدم ملاءمة إيمانيشي، التي تدفع إلى الشّعور بالغيظ، في انتصاف ذلك اللّيل، في نينوكا، وأن يقارنها بنفسه.

هناك قواعد، في هذه الدّنيا، أشدّ قوّة من قواعد الأخلاق. وقد شعر هوندا بذلك، في مثل هذه اللّحظة. فالعشاق الّذين لا يلائم أحدهم الآخر يتلقّون عقابهم من خلال الحقيقة القائلة بأنهم لن يكونوا مصدراً للأحلام أبداً، ولن يثيروا إلّا التقرّز في نفوس الآخرين. ومن المؤكّد أنّ أهل ذلك الزّمن الذي لا يعرف فيه الواحد منهم شيئاً عن التّزعة الإنسانيّة كانوا يقيناً أشدّ قسوة بكثير على كلّ المخلوقات القبيحة من الإنسان الحديث.

بعد تناول طعام العشاء، استأذنت ينج تشان للذهاب لوضع لمسات على زينتها، وظلّ هوندا وحده في بهو الفندق. وشعر فجأة بالاسترخاء. فبعد تلك اللّحظة يمكنه الاستمتاع بغياب ينج تشان دون ندم.

وثب سؤال إلى ذهنه : إنه لم يعلم بعد أين أمضت بنبج تشان الليلة
السابقة على تدشين الدارة .

انقضى بعض الوقت قبل عودتها إلى البهو . وتذكر هوندا تلك المرة
التي قضت فيها الطفلة الصغيرة حاجتها، في بانج با إن، محاطة
بوصيفاتها، ثم تذكر الأميرة العارية وهي تسبح في النهر المثقل
بالطمي الذي التفت على امتداده جذور أشجار المنجروف . وأياً كان
العناء الذي تكبده في التحديق، فإنه لم يستطع تبيين الشامات الثلاث
السوداء التي توقع أن يجدها على جنبها الأيسر .

كانت رغبات هوندا بالغة البساطة، ولن يكون من الصواب
وصف عاطفته بأنها «حب» . فلم يكن راغباً إلا في النظر إلى قوام
الأميرة العاري تماماً مدركاً أن النهدين اللذين كانا مسطحين ذات
يوم، قد نضجا، واندفعا للخارج كراسي فرخين يطلان من عشهما،
ليرى كيف تتأت الحلمتان الحمراوان الورديتان في سخط، وكيف قبع
الإبطان السمروان في الظل المعتم، وليشاهد الطريقة التي يحمل بها ما
تحت ذراعها مؤثرات تموجية تشبه شاطئاً رملياً حساساً، وليدرك كيف
أن كل خطوة خطتها نحو النضج مضت بها في النور الغسقي،
وليرتجف عندئذ في حضرة ذلك البدن، مقارناً إياه بجسم الطفلة
الصغيرة . ذلك كان كل شيء . في بطنها ستكون السرة طافية في
الليونة الخالصة، وغائرة القرار وكأنتها جزيرة مرجانية صغيرة . ومحماً
بشعر غزير بدلاً من الياكشا، فإن ما كان ذات يوم صمتاً رصيناً،
صلباً، سيحول الآن إلى ابتسامات دائبة ندية . الطريقة التي ستفتح
بها أصابع قدميها الجميلة، واحداً إثر آخر، والطريقة التي سيلتصع بها
فخذاها، والطريقة التي ستمتد بها ساقاها الناضجتان لتدعما في لهفة

معرفة رقصة الحياة وأحلامها. أراد أن يقارن كل ذلك بقوامها، عندما كانت طفلة صغيرة. وكان ذلك من أجل معرفة الزمن، معرفة ما صاغه الزمن، ما أنضجه الزمن. وإن لم يعثر بعد تمحيص دقيق، على تلك الشّامات على جنبها الأيمن، فإنه سيقع في هواها تماماً، وبشكل نهائيّ. فالتناسخ يقطع الطّريق على حبّه، والسّمسارة تكبح جماح عاطفته.

أيقظت عودة ينج تشان إلى البهو هوندا من أحلامه، فأفصح فجأة عمّا كان يجول في خاطره. ورغم كلّ شيء فقد كانت كلماته حادة، بتأثير لذعات الغيرة:

- نسيت أن أسألك. لقد سمعت أنك أمضيت اللّيلة السّابقة للحفل الذي أقيم في جوتما، خارج مركز الطّلاب الأجنبي من غير أن تعلمه بالأمر. أكان ذلك في بيت ياباني؟
- أجل، كان كذلك.

هكذا ردّت ينج تشان بلا تردّد وهي جالسة في المقعد المجاور لمقعد هوندا، وقد حنت ظهرها قليلاً، وأخذت تفحص ساقها الجميلتين اللّتين ضمّتهما معاً على نحو رشيق. ثمّ أضافت:
- ثمّة شخص تايلانديّ ينزل هناك، وقد أصرت العائلة على أن أقضي اللّيل معها، هذا ما قمت به.

- لا بدّ أنّها عائلة مسلّية، تضمّ كثيراً من الشّباب.
- ليس على وجه الدقّة، فالابن والابنة والشّخص التّايلاندي وأنا لعبنا لعبة التّمثيليّات التّحزيريّة. والأب يتولّى رئاسة مؤسّسة أعمال كبيرة في جنوب شرقيّ آسيا، ولذا فهم لطفاء للغاية مع أبناء جنوب شرقيّ آسيا.

- هذا الشخص التايلاندي أهو فتى صديق؟

- كلا، بل فتاة. لم؟

من جديد رفعت ينج تشان بحدة مفاجئة مقام صوتها، في المقطع الأخير من سؤالها.

أعرب هوندا عندئذ عن عدم موافقته على أن يكون لها مثل هذا العدد المحدود من الأصدقاء اليابانيين. وحذرها من أن الحياة في الخارج لا معنى لها، ما لم تتعرف بكثير من الأشخاص في البلاد التي تدرس فيها. وإذ يحتمل ألا تكون مرتاحة لتناول العشاء معه وحدهما، فقد عرض إحضار بعض الأصدقاء الشبان معه، في المرة المقبلة، معداً بذلك، دونما وعي منه، لفرصة أخرى لمقابلتها. وانتزع منها وعداً بأن تحضر في اليوم نفسه من الأسبوع المقبل إلى بهوفندق الأمبريال، في الساعة السابعة، فقد جعله التفكير في رأيي متردداً في دعوتها إلى داره.

عاد هوندا إلى الدّار. وترجّل من السيّارة فأحسّ بقطرات المطر التي تنثها السماء، تبّلّل صدغيه. وقابله الخادم في الدّهليز، وأبلغه بأنّ السيّدة هوندا متعبة وقد أوت إلى الفراش مبكرة، كما ذكر له أنّ ضيفاً لحوماً قد أصرّ على انتظاره أكثر من ساعة، وهو موجود في غرفة الجلوس الصّغرى التي اضطر الخادم لإدخاله إليها. وسأله عمّا إذا كان يعرف شخصاً يُدعى إينوما فحدس هوندا، في الحال، أنّ الرّجل قد جاء ساعياً وراء المال.

كانت أربع سنوات قد انقضت منذ أن رأى هوندا إينوما آخر مرّة في الصّلاة المقامة في الذّكرى الخامسة عشرة لإيساو. وبدا جلياً في ذلك الوقت أنّ إينوما يفتقر تماماً للمال، بعد الحرب. ومع ذلك فقد تأثر هوندا على نحو إيجابيّ بالصّلاة البسيطة المقامة في أحد المزارات.

حدّث هوندا نفسه، في الحال، بأنّ الأمر متعلّق بالمال، إذ لم يعد أولئك الذين لم يزوروه طوال سنوات يظهرون في الأيام الأخيرة إلّا لطلب المال. وقد تدفّق المحامون الفاشلون، والمحامون الذين تركوا المهنة وأصبحوا من المتشرّدين، والصّحافيون الفاشلون ممّن تخصصوا في تغطية أنباء المحاكم جماعات بكاملها، فكلّ منهم سمع بالحظّ الطيب الذي واثق هوندا، وبدا أنّ كلاً منهم يعتقد أنّ له بعض الحقّ في الحصول على نصيب؛ لأنّ هوندا وصل إلى المال من خلال الحظّ وحده. ولم يستجب هوندا إلّا لطلبات الذين ساءت حالتهم حقّاً.

عندما دخل هوندا الغرفة، نهض إينوما من المقعد، وانحنى

انحناء إجلال عميقة، بدا معها ظهر بدلته الداوية، وصولاً إلى قفاه
الذي كساه الشعر الأشيب. وبدا أن القيام بدور الرجل الفقير يناسبه
أكثر من الفقر نفسه، واستحثه هوندا على الجلوس، وأمر الخادم
بجلب الويسكي.

طرح إينوما كذبة مكشوفة، بقوله إنه كان ماراً بقرب الدار، ولم
يستطع مقاومة دافع ملح دعاه لرؤية هوندا. وبعد تناول كأس من
الويسكي تظاهر بالسكر. وفيما شرع هوندا في صب كأس أخرى،
أمسك إينوما بالكأس بيده اليمنى، وأسند أسفلها في إجلال بيده
اليسرى. ولم يبد هذا شيئاً حميداً لهوندا. فالجرذ يمسك غنيمته بهذه
الطريقة، على وجه الدقة. ثم وجد إينوما مدخلاً للإلقاء محاضرتة.

- طيب. يبدو لي أن «اتباع الطريق العكسي» قد أصبح المقولة
المعتمدة اليوم. ولكن الحكومة ستبدأ بتعديل الدستور، بحلول العام
المقبل على أقصى تقدير، فيما أعتقد. والسبب في أن الجميع يتحدث
عن إعادة العمل بالتجنيد هو أن هناك حقاً أساساً لذلك، ولكن
الأمر الذي يثير الحنق هو أن ذلك الأساس لا يمكن طرحه علناً،
وما يزال تحت الأرض. وبالمقابل فما هو تقديرك للقوة الهائلة التي
يحرزها الحمرة؟ وماذا عن الاضطرابات في المظاهرات المعارضة
للتجنيد في كوبي مؤخراً؟ لقد أطلقوا عليها «تجمع الشباب المعارض
للتجنيد» ولكن الأمر الغريب هو أن الكثيرين من الكوريين قد
شاركوا، وقاتلوا الشرطة لا بالأحجار فحسب، وإنما بالفلفل الأحمرة،
وقنابل المولوتوف، وحراب الخيزران، وكل شيء. وقد سمعت أن
حوالي ثلاثمائة طالب وصبي وكوري قد اقتحموا مخفر شرطة هايوجو،
وطالبوا بالإفراج عن من تم احتجازهم.

حدّث هوندا نفسه بأنّ إينوما يريد مالاً، ولم يكثرث بما كان يقوله، ولكنه أمعن التفكير في أنّ عليه أن يعلم إينوما بأنّه أيّاً كانت كيفة سيطرة أتباع النهج الجديد بسياساتهم الاشتراكية على الأمور، وأيّاً كانت الضجّة التي يحدثها الحمر، فإنّ أساس نظام الملكية الخاصّة لن يتزعزع أبداً. وقد بدا أنّ الرّذاذ المتساقط، خارج النّافذة، يزداد انهماراً، وكأنّ ستارة المطر المتعدّدة الطبقات تلفّ الدّار. وكان قد أوصل بينج تشان إلى مركز الطّلاب الأجنبي بسيارة أجرة. ومنذ ذلك الوقت، لم تفارقه خاطرة قوامها أنّ هذا المطر الرّبيعي قد تسرّب إلى غرفتها، في جناح الطّالبات، وجعلها رطبة. ترى أيّ نوع من التأثير المراوغ يمكن أن يكون للرطوبة على جسم الفتاة، الّذي نضج في منطقة استوائية؟ ترى كيف تنام؟ أتنام مواجهة السقف وهي تنفس تنفساً ثقيلًا؟ أم تلتفّ حول نفسها وعلى شفيتها ابتسامة؟ أم على جنبها مثل تمثال شكياموني الذهبي المضطجع، في قاعة النيرفانا، والدّراع تحت الرّأس، مستلقية، وقد ظهر باطنا قدميها الرّائعان؟

واصل إينوما حديثه:

- لقد تحوّل إلى العنف أيضاً التجمّع العام من أجل إلغاء القوانين الظّالمة، وقد دعا إليه فرع كيوتو للمجلس العام لثقافات اليابان. وبهذا المعدّل فإنّ عيد أوّل أيّار (مايو) لهذا العام لن يمرّ بسلام بدوره، فليس بمقدورك التنبؤ بمدى العنف الّذي سيندلع. والطلّاب الحمر يستولون على مباني الكليّات في الجامعات ويدخلون في مواجهات مع الشّركة. ويأتي هذا، يا سيّدي، مباشرة بعد توقيع معاهدة السّلام وميثاق الأمن المتبادل بين اليابانيّين الأميركيّين، فياللمفارقة!

حدّث هوندا نفسه بأنّ إينوما يسعى وراء المال.

واصل إينوما الحديث:

- إنني أؤيد كل التأييد فكرة رئيس الوزراء يوشيدا عن إعلان الحزب الشيوعي تنظيمياً غير شرعي، فاليابان في حالة غليان من جديد. وإذا تركنا الأمور تمضي في أعنتها، الآن وقد وقعت معاهدة السلام، فسوف نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع ثورة شيوعية. وسوف ترحل معظم القوّات الأميركيّة، فكيف سنسيطر على إضراب عام؟ إن مستقبل اليابان يؤرّقني كثيراً. والحكمة القائلة إن ما يتعلّم في المهّد يُحمّل إلى القبر هي أكثر انطباقاً الآن.

راح هوندا يحدّث نفسه بأنّه يسعى وراء المال، ولكن حتّى بعد كؤوس عديدة إضافيّة، لم يطرح إينوما الموضوع.

تحدّث، في إيجاز، عن طلاقه قبل عامين، ثمّ غير موضوع الحديث فجأة إلى الأيام الخوالي، وشرع باعتراف مثقل بالإصرار على أنّه لن ينسى، طوال عمره اللّدين الذي يحسّ أنّ هوندا يطوق عنقه به، ولاسيّما أنّه تخلّى عن منصبه القضائي، وتطوّع بالقيام بالدفاع عنه بلا أتعاب. ولم يستطع هوندا تحمّل فكرة حديث إينوما عن إيساو، فسارع بمقاطعته.

نزع إينوما، فجأة، سترته. ولم تكن الحرارة في الغرفة من الشدّة بحيث تبعث على الضيق، ولكن هوندا افترض أنّ السكر قد أخذ بناصيته. ثمّ نزع ربطة عنقه، وفكّ أزرار قميصه الأبيض، بل وأزرار قميصه التّحتي، ليظهر صدرًا اكتسى بالحمرة بتأثير الشّراب. وكان بمقدور هوندا أن يرى الشعرات البيضاء تماماً الّتي تناثرت على وجه التّقريب كالإبر.

- لأكون صريحاً معك، أقول إنني جنّت لأريك هذا. ليس لديّ عار أعظم منه. ولو أنّ ذلك كان بمقدوري لآثرت أن أحجبه عنك

طوال حياتي، ولكنني رحمت أحدث نفسي لبعض الوقت بأنني سأكشفه لك وحدك وأدعك تضحك كثيراً. وقلت لنفسي إنك أنت وحدك ستفهمني، بل ستفهم فشلي وتعرف أي نوع من الرجال أنا. إنني بأمانة وصدق أحسّ بأنني شديد الخجل عندما أقرن نفسي بابني الذي رحل على مثل هذا النحو النبيل. وليست لديّ كلمات تعبر بصورة مناسبة عن عمق خجلي لاستمرار وجودي على قيد الحياة، على هذا النحو.

تحدّرت الدّموع على خدي، وصدرت كلماته، وقد اختلطت حابلها بنابلها:

- ذلك هو الندب الذي تحلّف عندما حاولت الانتحار بعد الحرب مباشرة. وكانت غلطتي أن ظننت بأنني قد لا أفلح في الإقدام على السيوكو، ولذا قمت بدلاً من ذلك بغرس خنجر في صدري، ولكنني أخطأت قلبي ونزفت كالخنزير، بيد أنني لم أمت.

أخذ إينوما يداعب الندب الذي التمع بزرقه تميل إلى اللون الأرجواني وكأنه يفعل ذلك على سبيل الاستعراض، وفي حقيقة الأمر فإنه حتى هوندا كان بمقدوره أن يدرك أنّ شيئاً ما قد انتهى، على نحو لا سبيل إلى تداركه، فجلد إينوما الحشن الضارب إلى الحمرة قد تغصّن، محيطاً بالجرح، ومؤدياً إلى التثامه على نحو مرتبك يؤكد إخفاق محاولة الانتحار.

غير أنّ صدر إينوما الفظ الذي اكتسى الآن بالشعر الأشيب، كان ما يزال فخوراً بما كان عليه ذات يوم. وأخيراً أدرك هوندا أنّ إينوما لم يأت بسبب المال على الإطلاق. ورغم ذلك فإنه لم يشعر بالخجل لإساءته الحكم على هدفه. لم يتغيّر إينوما. ووجد هوندا من المفهوم

أن يرغم حتى رجل كهذا على استقطار عمل يائس وملطخ ومذلّ وبلورته، وأن يكافح، من خلال القيام بهذا، لكي يحوّل الشعور بالعار إلى جوهر نادرة، وأن يتغلّب تدريجياً على أمره، تحت تأثير الرغبة والحاجة إلى عرضها على شهود موثوق بهم. وسواء أكان جاداً أم مدّعياً فحسب، فإنّ الحقيقة تظلّ قائمة لتقول إنّ الندب الأرجواني على صدره كان، في نهاية المطاف، الشيء الوحيد الثمين الذي بقي له في حياته. وقد اختير هوندا ليحظى بالشرف الذي لا يرحّب به أحد، والمتمثّل في أن يكون شاهداً على هذه الفعلة النبيلة التي تعود إلى سنوات بعيدة.

أعاد إينوما الذي يبدو أنه تمالك نفسه سريعاً، ترتيب ملابسه، واعتذر عن بقاءه طويلاً، وأعرب عن شكره لهوندا على الشراب. وكان على وشك المغادرة عندما استوقفه هوندا ولملم أوراقاً مالية قيمتها خمسون ألف ين، ودسّ اللقافة في جيب سترة إينوما المتسخة، على الرغم من احتجاجات الزائر.

قال إينوما، أخيراً، وهو يشكر هوندا على نحو متمم بالرسمية البالغة:

- في هذه الحالة فإنني أتقبّل كرمك بامتنان، وسيكون شرفاً أن أستغلّه في إحياء مدرسة سيكين.

رافقه هوندا تحت المطر حتى مدخل الدار. واختفى قوامه الملتفّ بعباءة الليل، عبر البوابة الجانبية، تحت وريقات أشجار الرمان، فذكّره لسبب لم يتبينه، بإحدى الجزر الليلية التي ترقش المياه الكثيرة المحيطة باليابان. جزيرة ناتنة، بلا ماء، إلّا المطر - جزيرة غاضبة، بريّة، تتصوّر جوعاً.

امتلت نفس هوندا بخوف هو أبعد ما يكون عن السلام الذي توقّعه، عندما وضع الخاتم في إصبع ينج تشان.

ولقد اهتمّ كثيراً بالمسألة الصّعبة المتعلّقة بكيفيّة إخفاء نفسه لرؤيتها عارية. فكّم سيكون مدهشاً أن تقوم، دونما إدراك لوجوده، بالتحرك مترعة بالحياة، أو تمضي على سجيّتها، كاشفة عن مكنون فؤادها، وأن تكون طبيعيّة تماماً، وكم سيكون بديعاً أن يرقب، مثل عالم أحياء، كلّ التفاصيل. ولكن لئن عرف أمر وجوده لانهار كلّ شيء.

بلّورة من المرو لا يشوبها نقص. آنية زجاجيّة ما من شيء بها إلّا التلاعب الحرّ لكيان ذاتي بديع. إنّه يتعيّن أن تكون ينج تشان في مثل هذه الآنية، على وجه الدقّة.

كان هوندا على يقين من أنّه أدّى دوراً في بلورة حياتي كيواكي وإيساو الشفّافتين، ففيهما كان اليد التي امتدّت بالمساعدة، على الرّغم من أنّه قد اتّضح أنّها مساعدة لا أثر لها وبلا جدوى. والأمر المهمّ أنّ هوندا نفسه لم يكن مدركاً لدوره. وأنّه قد أدّى دوره على نحو طبيعي تماماً، وأداه في حقيقة الأمر بشكل اتّسم بالغفلة، على الرّغم من أنّه هو نفسه كان مقتنعاً بحذقه في الأمر. ولكن يا لقسوة ما يرى بعد أن غدا مدركاً للأمر! وبعد أن علّمته الهند المتقدّمة دونما رحمة، ترى ما العون الذي كان بمقدوره أن يقدّمه للحياة؟ أيّ نوع من التدخّل، أيّ نوع من الارتباط كان يمكن أن يكون؟

وفضلاً عن ذلك فإنّ ينج تشان امرأة. ها هنا جسم يترع الكأس حتى الحافة بعتمة الفتنة المجهولة. لقد أغواه هذا الجسم، اجتذبه على الدوام نحو الحياة. وشرع يتساءل: من أجل أيّ الأهداف؟ لم يعرف الردّ، ولكن ربما كان من الأسباب أن قدرّ لحياة اجتذب إليها أن تشمل آخرين من خلال الفتنة التي تنبعث منها، قدرّ لها أن تقضي على جذورها. ويتمثل سبب آخر في أنه كان مجبراً على أن يدرك كلفة هذه المرّة استحالة الانخراط في حياة شخص آخر.

كان هوندا مقتنعاً بالطبع بأن وضع ينج تشان في بلورة شفافة سيشكل جوهر متعته، ولكنه لم يستطع فصل ذلك عن رغبته الفطرية في التمحيص. أليس هناك من سبيل يستطيع من خلاله التوفيق على نحو متناغم بين هذين الذوقين المتناقضين والتغلب على ينج تشان، زهرة اللوتس السوداء هذه التي ترعرعت من طمي دق الحياة؟

وفي هذا الصدد، كان يمكن أن يكون من الأفضل لو أنها أفصحت عن إشارة واضحة لكونها تناسخاً لإيساو وكيواكي، وعندئذ ستفتّر عاطفة هوندا. ومع ذلك فإنها لو كانت من ناحية أخرى فتاة لا صلة لها بلغز البعث الذي كان هوندا شاهداً عليه، لما انجذب إليها بمثل هذه القوّة الأسرة. ربما كان أصل تلك القوّة التي تكبح في عناد جماع عاطفته، وقوّة الانجذاب الأسر على نحو غريب، موجوداً في سمسارة واحدة بعينها. فمصدر اليقظة وأصل السمسارة والوهم هما معاً سمسارة.

فيما عكف هوندا على التفكير في الأمر، تمنى بقوّة لو أنه كان رجلاً يدنو من نهاية الحياة، شخصاً ذا أملاك راضياً عن نفسه تماماً، وكان يعرف عدداً من الأشخاص ينتمون إلى هذه النوعيّة. فكثيرون كانوا

تجسيدا للفظنة ذاتها في اقتناص الربح، وشق طريقهم في الدنيا، أو في الصراع من أجل السلطة، وكانوا حاذقين في تملك ناصية نفسية المتنافسين المقتدرين. ومع ذلك فإنهم كانوا جهلة تماماً عندما يتعلق الأمر بالنساء، رغم أنهم ضاجعوا مئات عديدة منهن. وقنع مثل هؤلاء الرجال بإحاطة أنفسهم بستائر النساء والمتملقين الذي اشتروهم بمالهم وسلطتهم. وكالمتبطلين تجلس النساء حولهم مطلات بجانب واحد من وجوههن. وأخذ هوندا يحدث نفسه بأن مثل هؤلاء الرجال ليسوا أحراراً، وإنما هم في قفص! إنهم يجلسون في أقباص صنعت من الأشياء التي تراها أعينهم وحدها فتجعل العالم خواء وتوصد الأبواب دونه فتبقية خارجاً.

هناك رجال آخرون أكثر حكمة بعض الشيء، فهم أثرياء، وذوو سلطان، وأكثر إدراكاً للطبيعة البشرية، وبمقدورهم معرفة كل شيء عن الإنسان، وبوسعهم الولوج إلى قلب الأشياء بتفسير أدنى مؤشر على السطح، أناس تملكوا ناصية الفهم النفسي الفائق، يتحكمون في مذاق الحياة بمرارة خل نبات عصا الراعي. وحينما يطيب لهم فإن بمقدورهم أن يأمروا الأشجار والأحجار والشجيرات بالانتقال، في أفنيتهم الصغيرة الجميلة، ولهم حدائق صغيرة، فاتنة، أعدت من منتقيات من الدنيا والحياة وأجيد ترتيبها وتنظيمها، حدائق خبراء ذواقين حقيقيين. وتتألف مثل هذه البساتين الصغيرة من صخور الخديعة ولاجرسمية العبث، وكنبات الختل، وأحواض التملق، وشلالات الولاء الصغيرة، وأحجار الخيانات التي لا تحصى. وهم يجلسون النهار كله أمام هذه الحدائق المجازية، مغرقين أنفسهم في اللذة الهادئة النابعة من تجريدهم للعالم والحياة من كل مقاومة. غير أنهم يتشبثون بقوة بمرارة العارفين وتفوقهم، مثلما تتشبث الأيدي

بقدر شاي نادر لا يقوم بالمال، مليء بشاي أخضر فاتح مزبد السطح. ولم يكن هوندا بالرجل الذي ينتمي إلى هذه النوعية، فهو لم يكن مغتبطاً بنفسه، ولا آمناً. ومع ذلك فإنه لم يكن بالجاهل أيضاً. لقد رأى فحسب الخطّ الفاصل بين ما يمكن العلم به وما لا سبيل إلى الإحاطة به علماً، ورغم ذلك فقد كان هذا كافياً لجعله واعياً ومدركاً. وكان غياب اليقين كنزاً لا يضاهاه، ويمكن أن يسرقه الإنسان من الشباب. وقد شارك هوندا بالفعل في حياتي كيواكي وإيساو، ورأى تحمّلات للقدر كان من العبث أن يمدّ فيها يده. وبدا الأمر كما لو كان قد تعرّض للخداع. ومن منظور القدر فإن الحياة تشبه تعرّض المرء للخداع. والوجود الإنساني... لم يعن شيئاً إلا الافتقار للتحقق، وذلك هو ما تملك هوندا ناصيته في الهند.

ومع ذلك فإن الحياة المستترة على نحو مطلق، أو الشكل الأنطولوجي على نحو جوهري للحياة، وهو لا يكشف عنه للكافة، قد اجتذب هوندا أشدّ الاجتذاب. وأغواه إلى حدّ الإفساد، المفهوم المتطرف القائل بأنه ليست هناك حياة من دون مثل هذه الأشكال. وقد افتقر تماماً لمؤهلات القائم بالإغواء، ذلك أن الإغواء والخداع عبث، وأنه لا طائل وراءهما من منظور القدر، بل إن «إرادة الإغواء» ذاتها باطلة وبلا جدوى. وإذا أدرك المرء أنه ما من شكل آخر للعيش إلا أن يُخدع بسداجة على يد القدر وحده فكيف يكون بالإمكان التدخّل؟ وليس بمقدور المرء في الوقت الراهن تصوّر مثل هذا الكائن إلا في غيابة. ولا بدّ أن تعزل عنه يانج تشان التي كانت مكتفية بذاتها، في كونها الخاص بها، هي التي كانت كوناً بذاتها. وفي بعض الأحيان كانت نوعاً من الخداع البصري، قوس قزح جسدياً. كان يحياها أحمر، وجيدها برتقاليّاً، ونهداها أصفرين، ولها بطن أخضر،

وفخذان زرقاوان، وربلتان نيليتان، وأصابع أقدام أقحوانية. وفوق رأسها قلب خفي لونه ما دون الأحمر، وتحت قدميها الراسختين آثار أقدام الذاكرة الخفية ذات اللون فوق البنفسجي. واختلط الطرف الأقصى لقوس قزح مع سماء الموت. كانت قوس قزح يصل اختتام الموت. وإذا كان «عدم المعرفة» هو العنصر الأول في النزعة الشهوانية فإن العنصر المطلق يتعين أن يكون ما لا سبيل إلى معرفته على نحو أبدي... الموت.

عندما امتلك هوندا المبلغ غير المتوقع الذي صار لديه، حدث نفسه شأن الجميع بأنه سينفقه في إرضاء نفسه، ولكن مثل هذا المال كان بلا جدوى فيما يتعلق بأكثر متعه جوهريّة. فالمشاركة، الاهتمام، الحماية، الامتلاك، الاحتكار - كلّ هذه الأشياء تقتضي المال، وللمال نفعه، ولكن متعة هوندا كانت ترفض كلّ هذا.

كان يعلم أنه في المتع غير الباهظة التكلفة تكمن لذة مبهجة. ومن هذه المتع تلمس الأشنة الرطبة على جذوع الأشجار، في الأجمة التي أخفى نفسه فيها، والعبق المراوغ للوريقات الدأوية على الأرض، حيث انحنى، في ليلة من ليالي أيار (مايو) من العام الماضي، في الحديقة. وكان عبق الوريقات حاداً يلذع الأنف. والعشاق يرقدون على العشب، وقد اضطربت ملابسهم، ومضت أضواء السيارات، وجاءت، بلا هوادة، على الطريق حول الأجمة. ولقد أضاءت أشعتها الأشجار الصنوبرية التي شابهت أعمدة أحد المزارات، ثم انحسرت سريعة، وعلى نحو مأساوي، عن جذع شجرة تلفه الظلال بعد الآخر. وقد أخذته الرعدة عندما انطلق الضوء مسرعاً على العشب، وللحظة مس، على نحو قاسٍ تقريباً، الجمال المقدس لملابس داخلية

مرفوعة. وقد حدث مرّة واحدة فحسب أن رأى هوندا شعاعاً من النور يمرّ مباشرة عبر محيا امرأة حاملة العينين. وبينما لمح انعكاس بقعة ضوء أدرك أنّ العينين كانتا على وجه اليقين مفتوحتين، وإن كان ذلك بصورة جزئية فحسب. وكانت تلك لحظة لاهثة يكشف فيها النقاب، على حين غرّة، عن الوجود الإنساني. ولقد رأى، دونما قصد، ما كان ينبغي ألاّ تقع عليه عيناه.

ولأن يوافق ما بين اختلاجاته واختلاجات العاشقين، وأن يربط وجيب قلبه بوجيب قلبيهما، وأن يشاركهما خوفهما، وأن يظلّ في نهاية مثل هذا التوحد اللامتممي الذي رأى من غير أن يراه أحد. . . فتلك هي المسألة. وقد جنم المحترفون بهذا التجسس المختلس، هنا وهناك، تحت الأشجار، وفي الشجيرات، كجنادب الليل. وقد كان هوندا واحداً من أولئك الرجال الذين لا أسماء لهم.

نساء ورجال في شرخ الشباب. . . أجساد تتداخل، أجزاء سفلية بيضاء تعرى. رقة الأيدي وهي تتحرك حيث الظلال أعمق ما تكون. إليات الرجال البيضاء، وهي تتحرك مثل كرات البينج بونج. الأصالة الشرعية على وجه التقريب لتهداتهم.

نعم، عندما تنزع أضواء السيّارات للحظة قشرة ظلام الوجود، يضاء محيا المرأة دونما توقع. ولكن الإجفال لا يكون من نصيب من يجري رصدهم، وإنما من نصيب أولئك الذين يعكفون على المراقبة، وراء الأشجار. وعندما تدوي صفارة سيارة الدورية النائية والغنائية خارج الحديقة، التي كساها الليل، حيث تتوهج انعكاسات لافئات النيون كالجمرات، فإنّ النساء اللاتي يجري رصدهن لا يدعن

انغماسهنّ، ويرفع رجالهنّ، دونما قابليّة للترجّل، جذوعهم القويّة
وكأّتهم ذئاب شابّة.

وفي إحدى المناسبات تناول هوندا طعام الغداء مع محام محنك،
نقل إليه قليلاً من التّقولات التي ترامت إلى سمعه في أحد مخافر
الشرطة. ولم يقدر للفضيحة أن تنشر قطّ في الصّحف، فهي تدور
حول رجل جليل يحظى بمكانة بارزة في الدوائر القانونيّة، ويتمتع
بالمكانة والتقدير اللذين يخولهما إياه منصبه الرفيع. وقد اعتاد
التلصص، وأمسكت به الشرطة. كان في السادسة والأربعين من
العمر. وطلب منه ضابط شرطة شاب بطاقة هويته، مطالباً إياه دونما
رحمة بإعادة أداء ما أقدم على اقترافه. وأخذ المحامي السيّ الطالع
يرتجف خجلاً، بصورة حرفيّة، وهو يجبر على تقديم صورة مفصّلة
لمشهد نزعتة التلصصيّة. وخلال ذلك الوقت ألقى عليه الضابط
محاضرة طويلة في الأخلاق الفاضلة. وما إن علم ضابط الشرطة
الشاب بمكانة المتهم الرفيعة حتّى انبرى يسلي نفسه بالسّخرية منه،
مؤكّداً الهوة التي لا تصدّق بين المكانة التي يحظى بها وبشاعة جريمته.
وكان يدرك تمام الإدراك أنّه من المستحيل إنسانياً الرّبط بين جانبي
هذه الهوة، ومع ذلك فقد أقدم على تعذيب الرّجل على هذا النحو.
وتحت سوط التّقرّيع من شاب صغير في السنّ، بحيث يمكن أن يكون
حفيداً له، غدا العجوز خنوعاً، خافض الرأس، ومضى يجفّف جبينه
الغارق في العرق. وبعد إهالة الرّكام عليه على هذا النحو من
شخص خفيض المكانة في سلّم البيروقراطيّة الحكوميّة، تمّ الإفراج
عنه، وبعد عامين مات مصاباً بالسرطان.

شرع هوندا يتساءل: ترى كيف كان يمكن أن يتصرّف؟

كان يفترض في هوندا أن يعرف كل ما يحيط بسرّ كَيْفِيَّة عبور مثل هذه الهوة اليائسة. فالرقية السريّة التي حصل عليها من الهند، كان يجب أن تبرهن على فعاليتها.

لماذا لم يتمكّن المحامي العجوز من إيضاح طبيعة لذّته باستخدام لغة القانون؟ - لذّة هي من القوّة بحيث تدفع بالذمّع إلى المآقي، أكثر اللذّات تواضعاً في الحياة. ولكن على الرّغم من أنّ هوندا تظاهر بالاستماع على نحو عابر، واعتبار الأمر ثرثرة مسليّة، إلاّ أنّه لم يستطع منع نفسه من التساؤل، على امتداد الوقت الذي استغرقه تناول الطّعام، عمّا إذا لم يكن هناك دافع أكثر عمقاً وراء الموضوع الذي طرحه زميله. وحرص على أن يتسم بازدراء عند المواضع الحرجة، تماماً كما كان محدثه يفعل، ولكن أثارت حيرته المفارقة القاسية بين ثراء اللذّة والبؤس الذي جلبته. مثل هذه الفعلة كانت بالنسبة للعالم شيئاً لا قيمة له، وكأنّه زوج من الأخفاف البالية المصنوعة من القشّ، غير أنّ الثراء احتجب في قرارها ذاته، وذلك أمر ينطبق على أيّ نوع من اللذّات، وكنتيجة لهذه المحنة التي استمرّت ساعة، تخلّى كليّة عن البهجة التي تبعثها عادته تلك. ومن حسن الحظّ أنّ أحداً لم يكن على علم بهذا الجانب فيه.

لا يمكن أن يكون مردّ الأمر إلى أنّه غفل عن الخطر، لأنّه قد أذلّ منطقته جهاراً. والمغامرة الحقيقيّة لفعلة خطيرة هي المنطق، ومن ذلك أيضاً تأتي الشّجاعة.

وإذا لم يكن بمقدور المال أن يضمن الأمن، وأن يتتاع له المباحح الحقيقيّة، فما الذي بمقدوره إذن القيام به لاجتذاب حياة جديدة في

عمره هذا؟ ومع ذلك فإن سغبه للعيش لم يقل قط وإنما ازداد حدة مع الإيغال في العمر.

وهكذا فسوف يكون من الضروري، وإن لم يرغب في ذلك، أن يستخدم نوعاً من الوسيط. وحتى إذا ضاجعته ينج تشان، من خلال صدفة من نوع ما، فإنه مادام ما يريده حقاً هو شيء لا يمكنها أن تظهره، فإنه سيكون من المحتم أن يستخدم أسلوباً مصطنعاً، وملتقاً، للحصول على ما يحتاج إليه كل هذا الاحتياج.

وإذ تعدّبه هذه الخواطر، ولا يجد إلى النعاس سبيلاً، فإنه يستخرج كتاب «سوترا ملك حكمة الطاووس الذهبي العظيم» الذي ظلّ لبعض الوقت على حاله فوق الرف، وتراكم الغبار فوقه.

وفي بعض الأحيان، كان يغمغم بالمانترا الخاصة بإنجاز الطاووس: مايو كيتسورا تاي شاكّا.

لم تكن إلاّ لعبة أحجيات. فلئن كان قد بقي على قيد الحياة، بسبب هذه السوترا، فإن الحياة التي أبقى عليها بهذا الأسلوب تزداد افتقاراً للقيمة، وللجدارة بأن تعاش.

أبدت كيكو اهتماماً كبيراً بقصة كتاب «سوترا ملك حكمة الطاووس الذهبي العظيم».

- تقول إنه فعّال ضد لدغة الثعبان؟ وعليه فأني أودّ الإحاطة به، فهناك كثير من الثعابين في حديقتي بجوتما.

- إنني أتذكر القليل، من الفقرة الافتتاحية، فهي تمضي على النحو التالي: تا دو يا تا إيكيتشي ميتشي تشيريري ميتشي تشيريري ميتشي. ضحكت كيكو، قائلة:

- إنها تبدو مثل أغنية «تشيريبيرين».

استشعر هوندا ضيقاً طفولياً إزاء ردّ فعلها الثرثار، ولزم الصمت.

كانت كيكو قد أحضرت معها طالباً من جامعة كيو، قدّمته بوصفه ابن أخيها. وكان يرتدي بدلة مستوردة، ويضع ساعة يد مستوردة غالية الثمن. وكان له حاجبان ضيقان، وشفتان رقيقتان. وقد أجفل هوندا لدى إدراكه أنّ عينيه قد اتّخذتا تلقائياً النظرة الميالة للنقد القاسي التي كانت تميّز أعضاء فريق الكندو القديم.

درجت كيكو على الاحتفاظ برباطة جأشها في كلّ الأوقات. وكانت توجه تعليماتها إلى الجميع، بلهجة رفيعة، هادئة، وكانت تتبع كلّ طلب من طلباتها تعليمات تفصيلية.

وقد اكتشف هوندا ذلك، منذ يومين، عندما صحبها لتناول طعام الغداء في «طوكيو كايكان» احتفالاً بعودتها إلى المدينة، فقد ذكر رغبته في أن يقدم ينج تشان لفتى مناسب، و«عدواني» إن أمكن. وكانت

تلك هي الكلمة الواحدة التي أوحى لكيكو بالحيلة بأسرها .
قالت :

- فهمت ، فليس بالأمر المناسب لك أن تكون عذراء . سأحضر لك في المرة التالية التي نلتقي فيها ، ابن أخي الذي لا سبيل إلى إصلاح سلوكه ، ولن يكون هناك ما يثير قلقك على ما بعد وقوع الأمر ، مع هذا الفتى . وفيما بعد سيكون بإمكانك القيام بدور موضع الثقة الهادئ ، اللطيف ، البالغ الطيبة ، وتستمتع بها على مهل . . . يا لها من خطة رائعة !

عندما تقول كيكو «رائعة» فإن الروعة تبسو ، على الدوام ، وقد تبددت . وفي المتعة كانت تفتقر تماماً إلى أي انفعال - ولو أنها كانت عاهرة لاضطرت إلى الادعاء والتظاهر . فقد كانت أكثر منهجية من أن تتخذ ذلك مهنة لها .

انطلقت كيكو في إيضاح نزعة ابن أخيها لمسيرة الأزياء الحديثة ، وكان اسمه كاتسومي شيمورا ، وحدثت هوندا بأنه بعث بمقاساته إلى نيويورك ، ومن خلال صديق أميركي لوالده طلب بذلات من إنتاج الإخوة بروكس ، تناسب كل فصول العام وقد أفصحت هذه الطرفة وحدها عن كثير مما يتعلق بهذا الشاب .

وبينما سردت مجدداً قصة كتاب «سوترا ملك حكمة الطاووس الذهبي العظيم» ، أخذ كاتسومي يحدق في البعيد ، وقد بدا عليه الضجر . كان بهو فندق الأمبريال يشبه مدخل مقبرة تقطع فيها الصخور الخفيضة البارزة الطريق إلى الطابق المتوسط ، بين الطابق الأرضي وما يعلوه . وفي الحانوت الذي يحتل ركن البهو تنائرت مجلات أميركية لامعة التألّق ، وكتب ذات أغلفة ورقية كأنها زهور ذابلة تركت أمام المقبرة .

تشابه ابن الأخ وعمته شَبهاً كبيراً في عجز كلٍّ منهما عن الإصغاء
بجدية لما قد يقوله أيُّ شخصٍ آخر. وفي حالة ابن الأخ، كان هذا
راجعاً لمحض الوقاحة، بينما بدا في حالة العمّة جزءاً من أخلاقها
الحميدة، فمن شأنها أن تستمع بالأمبالاة العرضية ذاتها لاعتراقات
رهيبية أشدَّ الرهبة، بحيث تجمّد نخاع الشَّخص العادي.

قال هوندا:

- المشكلة هي أنني لست أعلم يقيناً ما إذا كانت ينج تشان
ستحضر.

- لقد أصبت بهلع مرضيٍّ من ذلك، منذ تدشين الدّارة. دعنا
نهديّ أعصابنا وننتظر. وإذا لم تحضر فسيكون بمقدورنا، رغم ذلك،
الاستمتاع بوقتنا، فسوف نمضي ثلاثتنا لتناول طعام العشاء، وليس
كاتسومي على نحو خاصٍّ من النّوع الذي يقلق أكثر مما ينبغي.
وردّ كاتسومي، على نحو غامض، بالطّريقة المسرفة في الرقّة، التي
تميّز حديثه:

- آه، نعم... طيب. هذا صحيح.

أخرجت كيكو فجأةً أصبعاً من العطر الصّلب المدمج من
حقيبتها، ومستّ به شحمتي أذنيها اللّتين تدلّ منها قرطان من
اليشب.

انطفأت كلّ الأضواء في البهو، وكأنّما كان ما فعلته كيكو بمثابة
إشارة لذلك.

- انقطاع كهربائي!

هتفت بها كيكو في دهشة. وحَدث هوندا نفسه متسائلاً عن
جدوى القول بحدوث انقطاع كهربائي، في وقت حصول ذلك. إنّ
بعض النّاس لا يتحدّثون إلّا كدفاع عن كسلهم.

لم تقل كيكو، بالطبع، شيئاً، وأعيد العطر إلى حقيبتها، وقرقع المشبك في الظلام. وبدا الصوت كما لو كان يفتح على ظلام أشد عمقاً. وفي العتمة لاح لحم عجيزة كيكو الوافر، المتناسك، المسيطر، وكأنه يمتدّ خلصة، وبلا حدود، مع انتشار عبق العطر.

لم يسُد الصمت إلّا وقتاً قصيراً، فكأنما، في معرض إزاحة الظلام جانباً، انطلق في الحال الحوار المصطنع الحيويّة للمجموعة التي تشبه ركاب سفينة غارقة.

قال هوندا

- كانت للقوات الأميركيّة، خلال الاحتلال، الأولويّة فيما يتعلّق باستخدام الطّاقة الكهربائيّة المحدودة المتاحة؛ ولذا لم يكن هناك مناس من عمليّات انقطاع التّيّار. ومع ذلك يدهشني استمرار ذلك.

أضافت كيكو:

- كنت، مؤخراً، وخلال انقطاع كهربائي واسع النّطاق أمرّ بيويوجي، فلاحظت أنّ مرتفعات يويوجي الأميركيّة وحدها تتلألأ بالأنوار، وجعل ذلك القطاع الواحد الطّافي فوق ظلام المنطقة بأسرها الأمر يبدو وكأنّ هناك مدينة تضمّ أناساً من كوكب آخر. لقد لاح المشهد جميلاً، ولكن كان رهيباً.

ساد الظلام، ولكن أضواء السيّارات الأماميّة خلال حركة المرور، في الشّوارع، فيما وراء البركة الموجودة في الحديقة الأماميّة، عكست نوراً على أبواب المدخل الدوّارة. وكان يتحرّك باب بتأثير قوّة الدّفع النّاجمة عن رحيل أحد الأشخاص، وتلتصق أضواء السيّارات، مثل خطوط مضيئة، وسط ظلام ما تحت الماء. وأحسّ هوندا برعدة خفيفة وهو يتذكّر المشهد في الحديقة العامّة ليلاً.

- يمكنك أن تتنفس بحرية وسهولة بالفتين .

قالتها كيكو، وأراد هوندا أن يسألها: وماذا عن النهار؟ وكان ظلها قد تضخّم مرتفعاً، وارتمى مسرعاً على الجدار. فقد أحضر نادل الشموع، وعندما وضعت في منافض رماد السجائر على عدد كبير من الموائد، أصبح البهو مقبرة فعلية تخفّف فيها الأضواء مرحبة بعودة الموق^(١).

دنت سيارة أجرة من المدخل، ودخلت ينج تشان مرتدية ثوباً جميلاً فاتح الصفرة، فذهل هوندا إزاء هذه المعجزة، إذ إنها لم تتأخر إلا ربع ساعة.

بدت ينج تشانج جميلة في سنى الشموع، فقد ذاب شعرها في الظلمة، بل وبدت السنة اللهب المتراقص في عينيها وتألّق أسنانها أكثر جمالاً من نور الضوء الكهربائي. وراحت مقدّمة الثوب الأصفر الفاتح تعلقو وتهبط مع كلّ نفس، مبالغة في الظلال.

- أتذكريني؟ إنني السيّدة هيساماتسو. لقد انقضى بعض الوقت منذ التقينا في جوتوبا.

قالتها كيكو، غير أنّ ينج تشان لم تشكرها على تلك المناسبة، واكتفت بالإيماء على نحو فاتن.

قدّمت كيكو كاتسومي الذي عرض عليها الجلوس في مقعده،

(١) الإشارة هنا هي إلى عيد الموق الذي يحتفل فيه اليابانيون بقدم أرواح الموق إلى عالم الأحياء، مرّة كلّ عام، ثمّ عودتهم إلى عالمهم، من جديد، وإيقاد الشموع للأرواح هو أبرز معالم هذا العيد.

ريثما يتم إحضار مقعد، وعرف هوندا، في الحال، أن جمال ينج تشان قد أثر بقوة في نفس الفتى.

مدت، على نحو عرضي، يدها التي تألقت فيها الزمردة، ولكن ذلك لم يكن في إطار أي جهد لاستعراضها أمام هوندا. وفي سنى الشموع، عكست الجوهرة لوناً أخضر يشبه جناحي فراشة مضيئة رفرفت محلقة لتوها. ولاح وجها «الياكشا» الحارسين الذهبيين المؤثرين غاضبين ومترعين بالظلال. وفسر هوندا تحلي ينج تشان بالخاتم على أنه تعبير عن رقتها.

لاحظت كيكو الجوهرة في الحال، وجذبت توتاً كف ينج تشان نحوها.

- ما أغرب هذه الجوهرة؟ هل هي تايلاندية؟

لم يكن بمقدورها نسيان تفحصها الدقيق للحجر في جوتوبا، ولكن طريقتهما كانت طبيعية للغاية ومقنعة تماماً بحيث بدا أن هذا التفحص قد انزلق من ذهنها.

راهن هوندا في سره، وهو يحدق في لُهب إحدى الشموع، على ما إذا كانت ينج تشان ستقول إن الخاتم هدية منه.
- نعم، إنها من تايلاند.

قالتها ينج تشان، دونما تكلف، فأحس هوندا بالارتياح حيال الإجابة، وفتنه الطابع التلقائي الرشيقي للأمر الذي كان بأسره من إبداعه.

استردت كيكو زمام المبادرة، من جديد، وكأثما نسيت بالفعل أمر الخاتم:

- دعونا نذهب إلى ملهى مانويلا . ولما كنا سنذهب إلى نادٍ ليلي على أية حال ، فقد تناول طعام العشاء هناك أيضاً ، فالطعام فيه طيب جداً .

كان كاتسومي يقود سيارة بونتياك اشترت باسم شخص ياباني . وما كان وصولهم إلى بغيتهم ليستغرق أكثر من دقيقتين .

جلست ينج تشان إلى جوار كاتسومي ، وهوندا وكيكو في المقعد الخلفي . وكان مشهد كيكو ، وهي تدلف من السيارة وإليها جديراً بالمشاهدة . فمنذ عهد لا تعيه ذاكرتها اعتادت على الدوام الصعود إلى السيارة قبل أي شخص آخر ، ولم يحدث قط أن تنحّت جانباً ، منسحبة على عجيزتها التي تلمها تنورتها ، إلى المقعد البعيد ، وإنما هي تحدّد ، كهدف لها ، الموضع الذي ستجلس فيه ، وبحركة واحدة ، ودونما تردّد ، ترسي هنالك إلتيتها اللتين تشبهان قارورة إغريقية .

ترامى شعر ينج تشان الطويل ، الفاحم ، كالشلال ، على ظهر المقعد ، وكان مشهده بديعاً ، على نحو خاص ، من الخلف ، وذكر هوندا باللباب الأسود المتدلي من متاريس قلعة مهجورة . وخلال النهار فإنّ العظاء ترتاح في الظلّ . . .

كانت الأنسة مانويلا تمتلك نادياً ليلياً صغيراً يجاري الصرعات الحديثة ، في الطابق السفلي من بناية تقع مقابل هيئة الإذاعة اليابانية . وقد حيّت الراقصة السمراء ذات الأصل الأوروبي - الآسيوي زبونها المخلصين بمرح ، فور تعرفها كيكو وكاتسومي وهما يبطن الدرّج في طليعة المجموعة الصغيرة .

- آه ، مرحباً ! كاتسومي أيضاً ! جئتما مبكرين الليلة ، خذا راحتكما في الجلوس .

لم يكن ثمة أحد في حلبة الرقص في هذه السّاعة المبكرة. وتناهت الموسيقى وحدها، عبر فراغ الحلبة، وكأنها ريح شمالية تنثر نثار الضوء من قاعة المرايا وكأنه مِرَق من ورق أبيض تتطاير في الشوارع، عند انتصاف الليل.

- رائع! إننا نفرد وحدنا بالنّادي بأسره!

قالتها كيكو، مادة يديها المتألفتين على نحو رائع بالخواتم إلى الفراغ المعتم. وتردد في شجن صوت آلات النّفخ الموسيقية، فوق هذه اللّذهشة الكاسحة.

- آه، لا تكلفني نفسك العناء!

قالتها كيكو وهي توقف الأنسة مانويلا التي أوشتك أن تتلقى بدلاً من النّادل طلبات المشروبات.

- اجلسي!

قالها كاتسومي الذي نهض، وقدم مقعداً، وبعد قيامه بذلك فحسب قدّمت كيكو ينج تشان وهوندا، وأضافت، مشيرة للأخير: - هذا السيّد الفاضل هو صديقي الجديد؛ لقد اكتسبت ذوقاً يابانياً.

- ذلك أمر جميل؛ فقد «تأمركت» أكثر من اللازم. ومن الأفضل التخلّص من تلك الرّائحة الأميركيّة.

تظاهرت الأنسة مانويلا بأنّها تشتمّ ما حول كيكو، على نحو مبالغ فيه، فردّت كيكو بصورة مسرحيّة بتقليد من تأثر بالدغدغة. وضحكت ينج تشان، من قلبها، من هذه المداعبات، وأوشتك أن تسكب محتويات قرح ماء على المائدة. وقد دهش هوندا قليلاً وأخذ

يتبادل النظرات مع كاتسومي . ولدى التفكير في الأمر، أدرك أن تلك هي المرة الأولى التي تلتقي فيها أعينها.

استعادت كيكو جدّيتها، وكأنما تذكّرت فجأة ضرورة ذلك وسألت كيكو مانويلا، دون أن تتدبر سؤالها:

- هل واجهت متاعب عندما انقطع التيار الكهربائي قبل قليل؟

- بالطبع، لا، فنحن لا نعمل إلا على ضوء الشموع.

قالتها مانويلا بكبرياء، وأسنانها البيضاء تلمع في العتمة، وحوّلت ابتسامتها الودية بأفجاء هوندا.

حيًا أعضاء الفرقة الموسيقية كيكو لدى مغادرتهم لمقاعدهم فردّت بالتلويح بيدها البيضاء، وكأنما هي محور كل ما يدور حولها.

تناول الأربعة طعام العشاء، ومع أن هوندا لا يستمتع بتناول الطعام في الأماكن المظلمة، فإنه لم يكن أمامه من بديل. وكان ينبغي أن يكون الدّم المنسرب من شريحة اللحم الخاصة به، المعدة على طريقة شاتوبريان، أحمر فاتحاً، ولكنّه بدا قاتماً على نحو مثير للضيق.

بدأ عدد الرواد بالتزايد. وبدأ هوندا مشدوهاً لدى تخيّل كيفية نظر الآخرين إليه وهو يقوم بدور الشاب في مكان للترفيه كهذا. فكلّما اقتربت الثورة كان ذلك أفضل. والناس يقولون إن ثورة سوف تنشب.

فوجئ هوندا، عندما نهض رفاقه الثلاثة، في وقت واحد. فقد وقفت المرأتان للذهاب إلى حيث تثبتان زينتتهما، بينما وقف كاتسومي وفقاً لما تقضي به قواعد السلوك المهذب، ثم عاد إلى مقعده ثانية. وإذا ترك الرجل ذو الأعوام السبعة والخمسين، والآخر ذو العشرين

ربيعاً، وحدهما وسط الموسيقى والرّقص، فقد ظلّ على صمتها وهما يتطلّعان في اتجاهين مختلفين، دون أن يجدا ما يقولانه.

ثمّ قال كاتسومي فجأة بصوت مبحوح للغاية:
- إنها فاتنة.

- أتروقك؟

- لقد اجتذبتني دوماً الفتيات السّمراوات الرّائعات الصّغيرات القدّ اللّاتي لا يستطعن التحدّث باليابانية بطلاقة. ترى كيف أعبر عن الأمر؟... ربّما كان لي ذوق غريب. بعض الشيء.

ردّ هوندا، بابتسامة رقيقة، وإن كانت كلمات كاتسومي قد أثارت شعوره بالاشمئزاز:

- حقاً؟

- وأضاف، متسائلاً:

- ما رأيك في الجسد؟

وردّ الشاب. على نحو عفوي، مسارعاً بإشعال سيجارة هوندا بقدّاحة من طراز دانهيل:

- طيّب. لم أفكر به كثيراً. أتعني التّزعة الشّهوانية؟

- لنفترض، على سبيل المثال، أنّ لديك عنقوداً من العنب، فلو أمسكت به بأقوى ممّا ينبغي فإنك ستعصر الحبات وتسحقها، وأمّا إذا أمسكتها بحيث لا تحدشها، فإن امتلاء الجلد سيقاوم أصابعك مقاومة مراوغة. ذلك هو ما قصدته بالجسد.

- أعتقد أنّي فهمت.

قالها الطّالب الشاب وهو غارق في التّفكير، وتوّاق للتصرّف كرجل ناضج، وقد دعم ثقته بنفسه، دوغماً شكّ، بثقل ذكرياته.

قال هوندا، منيهاً الحوار:

- سيكون ذلك جميلاً إذا قمت به . ذلك هو كل ما قصدته .

طلب كاتسومي فيها بعد من ينج تشان مراقصته، وعادا إلى المائدة بعد ثلاث رقصات متتابعة .

قال كاتسومي لهوندا، والبراءة في عينيه:

- لم أستطع إلا أن أتذكر نظريتك عن عنقود العنب.

- عمّ تتحدّثان؟

قالتها كيكو متسائلة، وتلاشى الحوار في الموسيقى الصاخبة، وضاع .

لم يملّ هوندا قطّ التطلع إلى ينج تشان وهي ترقص، وإن كان هو نفسه لا يعرف كيف حدث ذلك . فقد كانت، في غمرة الحركة، حرة من عوائق الحياة، في بلاد أجنبية، وتجلى استعدادها الطبيعي، على نحو يبعث على الشعور بالسعادة . فجيدها الأتلع الصغير نسبياً بالمقارنة بجسمها، كان يتحرك جيداً، وكان كاحلاها رقيقين وسريعين، وقد مضت ترقص على أطراف أصابعها . وتحت تنورتها المتأرجحة، تحركت ساقاها الجميلتان وكأنهما نخلتان سامقتان، على جزيرة نائية . وتعاقب على الدوام التعب والحيوية، والتردد والتوهج بالحياة فأخذتا يتبادلان الحلول أحدهما محل الآخر، في كل لحظة، ولم تحتجب ابتسامتها قطّ وهي ترقص . وعندما دارت حول نفسها، عند أطراف أصابع كاتسومي، خلال رقصة الجتريج البهلوانية، كان جسمها قد سبق إلى الدوران بالفعل، ولكن تألق أسنانها البيضاء ظلّ واضحاً للعيان وكأنه قمر في منتصف الطريق إلى الاكتمال .

حفل العالم بنذر السوء، واندلع الشغب أمام القصر الإمبراطوري في الأول من أيار (مايو). وأطلقت الشرطة النار على الجمع، وتدهور الموقف. وشكّل ستة أو سبعة من المتظاهرين مجموعة، وهاجموا سيارة أميركية فقلبوها، وأضرموا فيها النار. وتخلّى شرطيّ تعرّض للهجوم عن دراجته النارية البيضاء، فأحرقت في الحال، ومضى بحار أميركيّ سقط في الخندق المحيط بالقصر، يطفو ويغوص في الماء؛ لأنه ما إن كان يرفع رأسه حتى يرمجه المتظاهرون بالحجارة. واندلعت السنة اللهب في أرجاء الميدان كافة، أمام القصر. وخلال الشغب وقف الجنود شاهرين حراب بنادقهم لحراسة قصر القيادة العامة في هيبايا، وبنية شركة ميجي للتأمين على الحياة.

كان ذلك حدثاً غير مألوف. ولم يصدّق أحد أن الأمور ستنتهي عند هذا الحدّ، وتوحّس الجميع من أن تندلع في المستقبل أحداث شغب أخرى أوسع نطاقاً.

لم يتوجه هوندا في ذلك اليوم إلى مكتبه في بناية مارونوتشي، ولم يشاهد المظاهرة بالفعل، ولكنّه عندما سمع بها عبر المذياع، وقرأ التفاصيل في الصحف، شعر بأنّ الموقف على قدر كبير من الخطورة. وكان قد أمضى زمن الحرب بعيداً عن التورط في المتاعب، غير أنّه لم يكن بمقدوره الآن في زمن السلم تجاهل ما يحدث حوله، وشعر بعدم الأمن حيال الطرق الثلاث المعتادة في استثمار المال، وعقد العزم على إجراء مشاورات عن المستقبل مع صديق كان بمثابة مستشار له في الأمور الماليّة.

وفي اليوم التالي، وحيال عجزه عن الجلوس ساكناً في داره، انطلق للقيام بجولة على الأقدام. وكانت شمس الصيف المبكر تتألق، ولم يبد أن ثمة ما هو خارج عن المؤلف. وتجنب دخول المكتبة العتيقة التي تباع فيها المواد الجادة، مثل كتب القانون، ودخل مكتبة عرضت المجلات أمامها في أكوام عشوائية. وكان قد اعتاد بمرور الأعوام الذهاب دائماً إلى المكتبات في أثناء جولاته.

كان حشد الكتب المقلوبة على أغلفتها الخلفية يشعره بالسكينة، فكل شيء مودع في صورة مفاهيم مجردة. الحبّ الإنساني، الرغبة، القلاقل السياسيّة، كل ذلك كان مكتوباً ومصطفاً، في هدوء. وفضلاً عن ذلك فإنّ بمقدور المرء أن يجد كل ما ينشده، من الكتب المؤلفة عن الملابس إلى كتب السياسة الدوّليّة.

لم يكن يدري السرّ في شعوره بالارتياح لدى ولوجه أي مكتبه. وقد كانت تلك عادة درج عليها منذ الصّغر. ولم يكن لدى كيواكي وإيساو ميل من هذا القبيل. ترى كيف حدث ذلك؟ هكذا أخذ يتساءل. أترأه يشعر بعدم الأمان ما لم يطلّ على الدوام بنظرة شاملة إلى العالم؟ أهو العناد الذي لا يدع له سبيلاً للاعتراف بالحقائق التي لم تسجّل طباعياً؟ يقول ستيفان ملارميه إنّ كلّ شيء سيتمّ التعبير عنه، إن عاجلاً أو آجلاً، بالكتابة. ولئن كان العالم سينتهي أمره إلى كتاب عظيم جميل، فلن يكون الوقت متأخراً أبداً على الاندفاع إلى المكتبة، بعد أن يكون قد طبع كلّه.

نعم، لقد انتهت أحداث أمس بالفعل. فلا وجود لها هنا لألسنة لهب من القنابل الحارقة، ولا صيحات، ولا عنف، بل ليس بمقدور المرء حتى مجرد الشعور بالعواقب البعيدة المترتبة على سفك الدماء.

وقد أخذ مواطن ودود الطَّلعة يتبعه طفل ينقَّب وسط الكتب . ومضت امرأة بدينة ترتدي سترة خضراء فاتحة، وتمسك بكيس للتسوق، تسأل في صلف عما إذا كان العدد الأخير من إحدى المجلَّات النسائية قد وصل . وفي مؤخِّرة المكتبة وضعت مزهريَّة نسَّق فيها بعض زهور السُّوسن، وهي هواية صاحب المكتبة، تحت لوحة مؤطَّرة كتب عليها بخط لا يعكس حذقاً: «القراءة غذاء الفؤاد» .

تجول هوندا في المكتبة المزدهمة مرتطماً بالزَّواد، ولما لم يجد ما يروقه فقد أتجه إلى الرِّفوف التي عرضت عليها المجلَّات الشعبيَّة . وهناك عكف شاب يرتدي قميصاً رياضياً، وقد بدا أنه من الطَّلاب، على إحدى المجلَّات . وكان بمقدور هوندا أن يلمح من بعيد أنه يحذق في صفحة واحدة بلهفة غريبة . ودنا من الجانب الأيمن للشَّاب، وألقى نظرة عرضيَّة على الصَّفحة .

رأى صورة سيئة الطُّباعة، معتمة، زرقاء، منقَّذة بطريقة الحفر الفوتوغرافيِّ لامرأة عارية، تجلس مقيدة بحبل، وتميل إلى أحد الجانبين . ولم يرفع الفتى عينيه أبداً عن المجلَّة التي أمسكها بيده اليسرى .

لاحظ أنَّ الشَّاب كان متصلباً، على نحو غريب - العنق، الصُّورة الجانبيَّة، العينان، كلُّها كانت مشدودة بعض الشيء على نحو غير طبيعيِّ، وكأنَّها تنتمي إلى رسم فرعوني بارز، ثم رأى بوضوح أنَّ يد الشَّاب التي كانت ممدوسة في جيب سرواله تتحرَّك بعنف وبصورة آليَّة .

غادر هوندا المكتبة في الحال؛ فقد أُفْسِدَتْ جولته .
- لم اضطر للقيام بشيء كهذا أمام النَّاس؟ أليس لديه المال لشراء

المجلة؟ لئن كان الأمر كذلك لابتعتها بنفسي وأعطيته إيّاها. نعم. لماذا لم أقم بذلك على الفور؟ كان ينبغي عليّ ألاّ أتردد حقاً في إعطائه المال.

لكنّ خواطر هوندا تغيّرت خلال المسافة الفاصلة بين عمودي كهرباء على جانب الطريق.

- لا، لست أعتقد أنّ الأمر كان كذلك، فلو أنّه أراد المجلة حقاً لاشتراها، فإنّها من الرّخص بحيث كان بمقدوره ابتياعها بمجرد رهن قلمه الحبر.

ما كان ينبغي أن تتابع المجلة وتؤخذ إلى الدّار. وانطلاقاً من هذه النّقطة مضى خيال هوندا متحرّراً، فلسبب من الأسباب لم يبد تماماً أنّ الشّاب كان غريباً عنه كليّة.

لم يرغب في العودة إلى الدّار ومواجهة زوجته وذهنه في مثل هذه الأفكار، فاختار طريقاً دائرياً، وواصل مسيرته، بدلاً من الانعطاف لدى وصوله إلى ركن الكنيسة الميثوديّة.

ربّما لم يكن السّبب في أنّ الشّاب لم يأخذ المجلة إلى داره راجعاً، على الإطلاق، إلى أنّ عائلته متشدّدة، أو أنّه ليس لديه مكان يخفيها فيه. وتوصّل هوندا، على نحو تعسّفي، إلى استنتاج قوامه أنّ الشّاب يقطن وحده في دار للغرف المؤجّرة. وكان من الجليّ أنّه بمجرد عودة الشّاب إلى الدّار فإنّ الوحدة التي كانت تنتظره بلهفة ستب على كتفه، وكأنّها حيوان أليف، وسيخشي فتح المجلة، على صورة المرأة المقيدة، ليشارك الوحدة متعته. وربّما جثمت هنالك الحرّيّة المطلقة للسّجن الّذي شاده الشّاب بنفسه. ولا بدّ أنّه خائف في الفراغ المحدود، المجدب، المرّبع، في الوكر المعتم، المترع برائحة النّبي، من مواجهة المرأة العارية، الزّرقاء، التي تنتفض تحت الحبل الّذي يسحق

نهديها، وقد انتشر خيشوماها كجناحي حمامة. فقد كانت مواجهة امرأة مشدودة الوثاق، بمثل هذه الحرّية، شيئاً يشبه ارتكاب جريمة القتل العمد. وهكذا فقد اختار أن يعرض نفسه لنظرة الجمهور المحدّقة، وأراد إبراز نفسه في دور الرّجل المقيّد بحبال من عيون الناس، وأن يواجه المرأة مقيّداً بالخطر وبالهوان. ومثلّت الظروف الفظيعة التي اختارها، الشّرط الضروري، المراوغ، الدقيق - كخيطة حريريّ - الذي يختفي في قرار كلّ عشق جنسيّ.

يا للإغواءات السّوقية العذبة على نحو غريب والبالغة الخصوصية! ما كانت لتلتهم الفتى الرّغبة في الفتاة، لو أنها كانت نموذجاً جميلاً للتّصوير. إنّه النشاط الجنسيّ الذي يعصف ليلاً ونهاراً، كانطلاقاً الرّيح في أرجاء المدينة وفرّة هائلة مظلمة. الشّوارع التي تنطلق عبرها القنابل الحارقة. قناة العاطفة الجنسيّة الخبيثة الهائلة التي تنطلق تحت الأرض. عندما رأى هوندا الأعمدة الحجرية السّامقة التي تنتصب في مدخل داره منذ أيام أبيه، أدرك أنّه سيرغم على العيش على نحو يختلف إلى حدّ كبير عمّا عاش عليه أبوه في شيخوخته. وعندما دفع البوّابة الجانيّة، ورأى زهور المجنولية البيضاء الكبيرة في سمت تفتّحها على أطراف أغصانها العالية، أحسّ فجأة بالتّعب من جولته، وتمنّى لو كان بمقدوره أن يكرّس ما بقي من عمره لنظم الهايكو^(١).

(١) الهايكو: قالب شعريّ يابانيّ، متكامل، يعدّ الأكثر شهرة خارج اليابان، ربّما لإيجازه الشّديد، وقدرته على تحقيق سعة المعنى وضيق العبارة، وهو يتألّف من خمسة مقاطع، تعقبها سبعة مقاطع، وأخيراً خمسة مقاطع لاختتام النّصّ، وأشهر من نظموا في هذا القالب هو ماتسيو باشو (١٦٤٤ - ١٦٩٤). ويستطيع القارئ أن يقترب من روح الهايكو عبر كثير من النّمائج التي يجيد أشهرها في: Bashi, Matsu - A Haiku

Joureny - Kodansha International - Tokyo - 1986.

اقترح هوندا تجاذب أطراف الحديث مع كيكو وكاتسومي ، إذ كان عليه أن يتسلم صندوق سيجار طلب منها الحصول عليه . وحضر كاتسومي بالسيارة لمقابلته ، عند البناية التي تضم مكتبه . كان ذلك في أصيل يوم صيفي اشتد فيه عنفوان الشمس .

لم يكن سيجار هافانا الأصلي متاحاً ، ولكن منتجات التبغ الفلوريدي كان من الممكن شراؤها في البي . إكس . وبما أن كيكو ستقوم بابتياح صندوق السيجار من متجر ماتسويا السابق الذي أصبح الآن البي . إكس ، فقد أبلغ كاتسومي هوندا بأن عليهما مقابلتها هناك .

لم يكن بمقدور هوندا بالطبع دخول البي . إكس بنفسه ؛ ولذا جعل كاتسومي يقف أمامه ، وأخذ يرقبان الخارج من نافذة السيارة . وخارج البي . إكس ، ذي الستائر البيضاء ، مضى عدد كبير من رسامي الصور الفورية يتسكعون مطاردين الجنود الأميركيين الخارجين منه . ولم يقاوم الجنود الشبان ، العائدون من كوريا فيما يبدو ، مقاومة كبيرة ، وهم يقفون على نحو ودود لترسم صورهم . ومن بينهم كانت فتاة أميركية ترتدي ملابس الجينز الزرقاء ، ربما في رحلة تسوق ، تجلس على حاجز نحاسي لإحدى نوافذ العرض ، فيما كانت صورتها تُرسم .

كان ذلك مشهداً تثير متابعتة الاهتمام في أثناء قتل الوقت بالسيارة ، وأخذ الجنود الأميركيون ذوو الملامح الجادة ، وقد بدوا محترفين تماماً ، ينتظرون الفراغ من رسم صورهم ، من دون أي

مشاعر بالخجل، أمام الجمهور. وكان من الصعب تصوّر أيّهم هو الزبون، فالمشاهدون يحيطون بهم، وما إن يسأم أحدهم المشاهدة، ويغادر المكان، حتّى يجلّ آخر مكانه فوراً. وبرزت وجوه الأميركيين المتورّدة وكأنّها رؤوس تماثيل تعلو كتلة الواقفين جانباً. - لقد تأخّرت.

قالها هوندا لكاتسومي معقّباً، وهو يترجّل من السيّارة ليمدّد قدميه في الشّمس.

وانضمّ إلى الجمع لإلقاء نظرة على الفتاة الأميركيّة. لم تكن بالجميلة، وقد أخذت ترجّح ساقَيْها المكسوتين بالجينز الأزرق. وكانت ترتدي قميصاً نسائياً، قصير الأكمام، مرّيع النقش، يشبه قمصان الرّجال. وكان دفق من الضّوء السّاقط من بين المباني ينهلّ بانحراف عبر وجنتيها المنمّشتين، وينحسر بانتظام، من خلال حركات فكّها وهي تمضغ قطعة من العلكة. ولم تكن باردة، متعجرفة على نحو خاصّ، ولم تؤثر النظرات الفضوليّة المحدّقة أدنى تأثير في مسلكها الطّبيعي، وأخذت عيناها البنيّتان، الغائرتان في محجريهما وكأنّما فتحتا على نحو مسرحيّ، تحدّقان بشرود في الفضاء، ودونما حراك على وجه التّقريب.

ونظرت إلى النّاس وكأنّها تتطلّع إلى الهواء. ربّما كانت مثل هذه الفتاة ممّن يتطلّع إليهنّ هوندا. وعندما أدرك ذلك شعر بانبثاق اهتمام تشبه الأطراف المتجمّدة على نحو سريع لشعر اشتعلت فيه النّار. وعندئذ، تكلم رجل كان يقف بجوارها، وقد أخذ يرقب محيا هوندا لبعض الوقت، فقال:

- لقد تقابلنا في مكانٍ ما من قبل؟ أليس كذلك؟

رأى هوندا رجلاً يميل إلى القصر، أشبه بالقوارض، في بدلة

متسخة، وقد قصّ شعره مستقيماً عند الصدغ، والتمتع في عينيه
القلقتين وميض خنوع يعكس نُذُرَ شرّ دفينه. وشعر هوندا بعدم
الارتياح في الحال.

وقال ببرودة:

- من عساك تكون؟ إنني آسف، ولكن لا يبدو أنني...

وتطاول الرّجل ليهمس في أذن هوندا:

- ألا تذكر؟ إننا رفيقان في التلصص، تحت الأشجار في الحديقة
العامة.

شحب وجه هوندا، على الرّغم من جهوده لمنع ذلك.

وقال في فتور:

- ماذا تعني؟ لقد حسبتني ولاشك شخصاً آخر.

انتشرت على الفور ابتسامة ساخرة مريرة على عيا الرّجل الضّئيل
الجرم. وعرف هوندا أنّ هذه الابتسامة السّاخرة تشبه صدوعاً في
الطبقة تحت الأرضية التي تتمتع في بعض الأحيان بالقدرة على هدم
مبان عظيمة فوراً. ولكن لم يكن هناك في تلك اللّحظة برهان
حقيقي، والأفضل من ذلك أنّ هوندا لم يعد يتمتع بمكانة. وبفضل
هذه الابتسامة السّاخرة، أدرك بوضوح افتقاره الرّاهن للوضع
الاجتماعي المتميز.

نحى هوندا الرّجل جانباً وشرع في السّير نحو مدخل البي.

إكس، وظهرت كيكو في الوقت المناسب.

خرجت، شاحخة النّهدين، وهي ترتدي بدلة أرجوانية، وتبعها
جندي أميركي كان محتجباً، على وجه التّقريب، وراء كوم شاهق ملء

ذراعيه من الأكياس الورقية . وحسب هوندا أنه قد يكون خليلها جاك، ولكنّه لم يكن كذلك .

في وسط الرّصيف، قدّمت كيكو هوندا للجندي، وأوضحت مشيرة للأخير:

- لست أدري ما اسمه، ولكنّه كان من اللّطف بحيث عرض المساعدة في حمل أكياسه إلى السيّارة .

عندما رأى الرّجل الضّئيل الجِرم هوندا يتحدّث مع الجندي الأميركي أسرع بالابتعاد

تألّق مشبك ذهبي، ضخّم، لامع، يشبه وسام الجدارة الأتحواني المعدني، على صدر كيكو. ومضت مباشرة إلى السيّارة، حيث كان كاتسومي ينتظر في إجلال مقدمها، تحت شمس أيّار (مايو) المتألّقة . وفتح لها الباب، وانحنى بروح مرحة .

سلم الجندي الأكياس، واحداً إثر آخر، إلى كاتسومي الذي ترنّح تحت ثقلها وهو يمسك بها بمشقة .

كان مشهداً بديعاً . ووقف أفراد الجمهور أمام البي . إكس يرقبون ما يجري بأفواه فاغرة وقد نسوا الرّسامين تماماً .

عندما شرعت السيّارة بالانطلاق لوّحت للجندي المجامل فردّ تحيّتها، وكذلك لوح لها شخصان أو ثلاثة وسط الجمع .
- يا لها من شعبية !

قالها هوندا، معقّباً، بمزيد من ذلاقة اللّسان، ليوضح لنفسه مدى السّرعة التي يمكنه بها أن يستعيد رباطة جأشه، بعد تلك الحادثة الجارحة .

ضحكت كيكو، مغتبطة، وقالت :

- الطيبة موجودة في كل مكان .

وأخرجت بسرعة بالغة منديلاً مثقلاً بالتطريز بالأسلوب الصيني،
وتمخّطت بصوت عالٍ، كالغربيين . ولم يبد فيها بعد على الأنف أي
أثر سلبي ، بل كان أشمّ رائعاً، كالعهد به .

قال كاتسومي الذي كان يقود السيّارة .

- ذلك مرجعه إلى أنك ترقدين عارية كل ليلة .

- ما أوقع هذا! كأنك سبق أن رأيتني يوماً على هذا النحو. . .

وبالمناسبة، إلى أين سنمضي؟

كان هوندا قلقاً، فيما يتعلّق بالسّير في أرجاء منطقة جينزا، خوفاً
من أن يقابلوا الرّجل الضّئيل الجرم مرّة أخرى .

وقال في ضيق، عاجزاً عن التّدكر:

- دعونا نذهب إلى ذلك الـ . . . الجديد . ما هي البناية؟ . . .

عند ركن هيبايا .

- تقصد فندق نيكاتسو؟

قالها كاتسومي، وعبروا جسر سوكايا وهم يلمحون وسط الحشود
لون النّهر الملوّث الذي يشبه لون الخردل .

كانت كيكو بالغة الطيبة، وذكيّة أيضاً، ولكن افتقارها للرقّة بدا
جلياً . وإنها لتتحدّث في أيّ موضوع - الأدب، الفنّ، الموسيقى،
أو حتّى الفلسفة -، بحماسها الأنثوي المترف العاشق للذّة، وكأنّها
تتحدّث عن عطر أو قلّادة . ولم يحدث بالفعل أن استعرضت قطّ
معرفتها، في الفنّ أو الفلسفة، ولم تكن معرفتها متوازنة بالضرورة .
ولكن كانت معلوماتها في بعض الميادين دقيقة تماماً .

وكما تذكر هوندا فإن نساء الطبقة العليا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كنّ إمّا سيدات متجهّات، داعيات إلى الفضيلة من غير مقتضى، وإمّا نساء وقحات، متنمّرات. وهكذا فقد أدهشه توازن كيكو المتكامل الأبعاد. ولكنّه كان بمقدوره التنبؤ بالمتاعب، بالنسبة لمن يتزوّجها. ولم يحدث قطّ أن كانت قاسية، ولكن المرء يشعر بأنّ فيها حساسية شديدة لا تطاق، فيما يتعلّق بالأمر الصّغيرة.

أيمكن أن يكون ذلك دفاعاً؟ ولكن عن أيّ شيء؟ من المؤكّد أنّها لم تنشأ على نحو تحتاج معه إلى درع تقيها عوادي الأيام. ولم يحدث قطّ أن وجدت من الصّروريّ أن تحارب الدّنيا، بل لقد أظهرت الدّنيا اهتماماً بها، وإنّ المرء ليحسّ فيها بنوع من النّقاء الدّافق في تسلّطه.

كانت كيكو عاجزة فطرياً عن التّمييز بين العاطفة وإسداء الجميل. وهكذا فإنّ أيّ شخص تسدي إليه جيلاً قد يفترض أنّها أحبّته.

ولم تكن هذه المناسبة استثناء من تلك القاعدة، ففي الطّابق المتوسط بين الطّابق الأرضي وما يعلوه، والمطلّ على البهو الذي يشبه ملعب رُجبي جديداً، شرعت كيكو، وقد وُضع أمامها كأس من الشري، بتوجيه التّعليقات. وأحسّ هوندا بالارتباك؛ فقد بدا الأمر كما لو أنّه كان يصغى، في مساق عن الطّهي الفرنسي، إلى محاضرة عن كيفة طهي طائر يُدعى ينج تشان. سألت كاتسومي أولاً:

- لقد رأيتها مرّتين، منذ تلك المرّة الأولى. فكيف مضت الأمور؟

إلى أي مدى تعتقد أن بإمكانك الانطلاق؟

ثم اجتذبت صندوق سيجار ضخمة بدا أنها كانت قد نسيته حتى تلك اللحظة، ووضعت صامته في حجر هوندا.
- كيف مضى الأمر؟ أعتقد أن الوقت قد حان تقريباً.

تتبع هوندا بأصابعه الشكل التخطيطي على صندوق السيجار، فذكره بالعملة الورقية في دولة أوروبية صغيرة، بزواياها الذهبية وشرائطها الحمراء الوردية المحلاة بحروف ذهبية على خلفية خضراء. وأخذ يستحضر في ذهنه عقب السيجار، فلم يكن قد دخن، منذ بعض الوقت. وفي الوقت نفسه، نفر من كلمات كاتسومي. ورغم ذلك فقد دهش عندما اكتشف أنه يستمتع بهذا التقرّز، شأن استمتاعه بنذير سوء بوقوع شيء وشيك.

سألت كيكو كاتسومي:

- هل قبلتها على الأقل؟

- نعم، مرّة واحدة.

- وكيف كان ذلك؟

- كيف كان ذلك...؟ طيب. لقد عدت بها إلى مركز الطلاب

الأجانب، وقبلتها قليلاً، خلف البوابة

- نعم؟ وكيف بدا الأمر؟

- بدت مرتبكة للغاية. وربما كانت المرّة الأولى بالنسبة لها.

- لا يبدو ذلك موافقاً لما تقوم به عادة. ألم يكن بمقدورك المضي

أكثر من هذا؟

- لكنّها إنسانة متميّزة. إنها أميرة.

التفتت كيكو لهوندا، وقالت:

- أفضل طريقة، بالنسبة لك، هي أن تصحبها إلى جوتمبا. لم لا تقول إنك تقيم حفلاً وتدعوها لقضاء الليل بالدارة؟ وذلك في وقت متأخر، بقدر الإمكان. لا يمكنها أن ترفض دعوتك؛ لأنها، كما تعلم، أمضت ليالي أخرى بالخارج، وبالإضافة إلى ذلك فإن عليها أن تعوّض الحفل الذي لم تحضره. إنها مدينة لك بذلك. وإذا كانت وحدها مع كاتسومي فإنها ستلزم الحرص؛ ولذا عليك أن تذهب معها. وبالطبع سيقود كاتسومي السيارة. يمكنك أن تقول لها إنني سأنتظر في جوتمبا. ولن يكون ذلك صحيحاً، ولكن ذلك لن يشير ضيقي... وستجد عندما تصل إلى دارتك من الغريب ألا يكون أحد آخر هناك. ولكن رغم ذلك فإن أميرة أجنبيّة لا يحتمل أن تسارع بالهرب بعيداً، ولذا ينبغي ترك الأمر لكاتسومي. يمكنك تركها له تلك الليلة، وانتظار تجهيز بطّنتك المطهية بالبرتقال.

انتصف الليل في نينوكا بجوتوبا. وبعد إطفاء النار في المدفأة التقط هوندا مظلته، ومضى، متمهلاً، من غرفة الجلوس إلى الشرفة.

وهناك في الواجهة كان المسيح قد تشكّل بالفعل، وانهمر المطر على الإسمنت الخشن. كان أبعد ما يكون عن الاكتمال، فحتى الدرج لم تكن قد تمّت إضافته بعد. وفي الضوء المنبعث من الشرفة لاح الإسمنت الذي غمره المطر في لون سائل ضارب إلى اللون الرمادي. وكان عمال من طوكيو يقومون ببناء المسيح، ومن ثمّ فإنّ التقدّم كان بطيئاً بالضرورة.

وبدا جلياً، حتى في ظلمة الليل، أنّ المسيح لا يجري صرف مائه بشكل مناسب. وعقد هوندا العزم على إبلاغ المقاول بذلك، لدى عودته إلى طوكيو. فقد أخذ المطر يلطم البريكات العديدة، في قاع المسيح، مفرزاً موجات التقطت على نحو بانئس انعكاسات الضوء من الشرفة البعيدة. وعلا الضباب الليلي من الجانب الغربي للوادي، وجثم بلا حراك في قلب الخضرة. واشتدّ البرد إلى أبعد الحدود.

بدأ المسيح الذي لم يتمّ الفراغ منه، في الظهور بمظهر حفرة قبر هائل من الضخامة بحيث تستوعب، وتفيض، حشداً من الهياكل العظمية. وفي حقيقة الأمر فإنّ المسيح لم يبدأ بالظهور بهذا المظهر، بل لم يكن قطّ أيّ شيء آخر. وسيطير الماء رشاشاً إذا ألقيت الهياكل العظمية إلى القاع، ثمّ يعود إلى السكون، وستشرب العظام الجافة الماء فتصبح لامعة متألقة بالجدّة. ولو أنّ يابانياً، في الرّمن الخالي،

بلغ عمر هوندا لفكر في معرض الاحتفال بطول العمر ببناء دار يتخذها مستودعاً للكنوز. وأما هوندا، فما هو يبني، من بين كل الأشياء، مسبحاً! لقد كانت تلك محاولة قاسية للطفو بلحمه المترهل المتخاذل في وفرة من الماء الأزرق، وقد اكتسب عادة إنفاق الماء من أجل ألعاب مليئة بالخبث فحسب. ترى كيف ستجعل جبال هوكوني وسحب الصيف المنعكسة في ماء المسيح شيخوخته تتوهج بالإشراق! وبها لها من تكشيرة تلك التي ستعلو ملامح ينج تشان، إذا ما اكتشفت أنه بناه تحديداً لأنه يرغب في رؤية جسمها العاري عن كذب في الصيف!

كان هوندا قد بدأ يغلق الأبواب عندما ألقى نظرة خاطفة وهو يرفع المظلة على أضواء الطابق الثاني. لقد كانت أربع نوافذ ماتزال تتألق بالضوء، وكانت تلك النوافذ في غرفتي الضيوف المجاورتين للمكتب، وقد شغلت ينج تشان الغرفة الملاصقة له، بينما احتل كاتسومي الغرفة التي تليها.

وعلى الرغم من المظلة فقد بللت قطرات المطر سرواله، وبدا أنها تتخلله إلى ركبته. وكانت زهيرات ألم حمراء باردة تبرعم في الليل سراً في شتّى مفاصله. وتحيلها شيئاً يشبه الـ «هيجان بانا» المنمنمة. فالعظام التي كانت في شبابه خبيثة في لحمه بتواضع مؤدبة دروها، شرعت الآن، بصورة متزايدة، تعلن في شيخوخته عن وجودها، وبدأت توح، وتشكو، مخترقه اللحم المتهالك، ومحاولة الهرب من ظلمة الجسم العنيدة. وكانت ترصد على الدوام فرصاً للاندفاع إلى العالم الخارجي، حيث يمكنها أن تستحم في الشمس بحرّية، كوريقات الأشجار، وكالصخور والأشجار التي تستمتع بسنى الشمس

طوال الوقت. ولاشك في أنها كانت تعلم أنه ليس بعيداً ذلك اليوم الذي تحقق فيه أحلامها.

غمر الّدّف هوندا فجأة، وهو يرقب الأنوار في الطّابق الثّاني، ويفكّر في ينج تشان وهي تنضو عنها ثيابها. ترى هل تسري الحرارة في العظام؟ هل أصيبت الزّهيرات الحمراء في مفاصله بحمّى القشّ؟ وأسرع بإغلاق الأبواب، وأطفأ الأنوار في غرفة الجلوس، ومضى خلسة إلى أعلى. ولج غرفة النّوم ليتمكّن من المضي عبرها في سكون إلى المكتب. وتمحّس طريقه في الظّلام إلى رفّ المكتبة. ارتعشت يده وهو يزيل المجلّدات الأجنبيّة السّميكة واحداً إثر آخر، وأخيراً وضع عينه على ثقب التلصّص في مؤخّرة رفّ الكتب.

دخلت ينج تشان دائرة الضّوء الخافت وهي تدندن أغنية. ولم يكن قد حدث أن تاق قطّ من قبل إلى لحظةٍ قدر توقه إلى هذه اللّحظة. إنّهُ الحنين الذي يستشعره المرء خلال انتظاره تفتح زهرة يقطين على حافة مساء صيفي. وإنّها اللّحظة التي تكشف فيها مروحة تنتشر على مهل صورتها الكاملة. وكان هوندا بسبيله إلى رؤية ينج تشان في وضع لم تقع عليه عين أحد قطّ من قبل. وكان هذا هو ما يريده أكثر من أي شيء آخر في الدّنيا. وبفعل المشاهدة الذي يقوم به فإنّ هذه الوضعيّة التي لم ترها عين تنتفي بالفعل. إنّ كون المرء لا يراه أحد على الإطلاق وكونه غير مستدعٍ رؤية أحد إيّاه هما أمران متماثلان، غير أنّهما مختلفان بشكل أساسي.

كانت ينج تشان قد بدت هادئة على نحو مثير للدهشة عندما وصلت إلى الدّارة وعلمت أنّ الخطط الخاصّة بإقامة حفل غير حقيقيّة.

ومنذ وصولهم إلى الدّارة أحسّ هوندا بالقلق بشأن التّفسير الّذي يتعيّن عليه أن يقدّمه . وكان كاتسومي قد ترك له كلّ ذلك لكي يخلو من اللّوم بشأن هذا الموضوع . غير أنّ التّفسيّرات لم تكن ضروريّة . فعندما أضرم هوندا النّار في المدفأة وقدم لها شراباً ، ابتسمت في سعادة ولم تطرح أسئلة ، وربّما كانت قد ظنّت أصلاً ، أنّها أساءت فهم تعبيراته اليابانيّة عندما دعيت . فالدعوات التي توجّه بلغة أجنبيّة غالباً ما تؤدّي إلى ألوان من سوء الفهم والاضطراب . وكان السّبب في أنّ ينج تشان قد جدّدت معرفتها بهوندا ، عندما جاءت إلى اليابان لأوّل مرّة ، هو أنّ السّفير الياباني لدى تايلاند قام ، بعد أن سمع من آخرين بأمر صلوات هوندا السّابقة بالعائلة المالكة التايلانديّة ، بكتابة رسالة تقديميّة طلب فيها أن يتحدّث هوندا اليابانيّة بقدر المستطاع لكي تتمكّن الأميرة من تحسين مستوى تمكّنها من هذه اللّغة .

امتلأت نفس هوندا بالشفقة وهو يرقب ينج تشان التي بدت غير متوقّعة أي خطر . فقد كانت جائمة إلى جوار النّار في بلاد غربية عنها ، منغمسة دونما إرادة من جانبها في مؤامرة للّحم البشري أبعد ما تكون عن الرّقّة . وقد انعكست السنّة اللّهب على جانبي وجنتيها البرونزيّتين ، وبدا شعرها كما لو كان يحترق من غير لهب ولا دخان . وأثارت فيه ابتسامتها الدّائمة وأسنانها البيضاء الجميلة شعوراً بالإشفاق لا سبيل إلى وصفه .

- عندما كان والدك في اليابان كان يتجمّد دائماً في الشّتاء ، وما كان بمقدوره تحمّل انتظار مقدم الصيف . ولا بدّ أنّك تشعرين بتلك المشاعر أيضاً .

- نعم ، إنني لا أحبّ الطّقس البارد .

- طَيِّب، لن يدوم إلا وقتاً قصيراً. وفي غضون شهرين، لن يكون الحال هنا مختلفاً كثيراً عنه في الصيف في بانكوك. وبينما أنا أنظر إليك الآن أتذكر أباك في الطقس البارد، وأتذكر أيام شبابي.

قالها هوندا وهو يمضي إلى المدفأة لينفض رماد سيجاره، واختلس نظرة عجلية إلى حجر ينج تشان من أعلى، وعند ذلك تضامت ركبتيها اللتان كانتا مفتوحتين وكأنهما وريقتا شجرة سنط حساستان.

نحى ثلاثهم المقاعد جانباً وجلسوا على السجادة أمام النار. وكان بمقدور هوندا أن يرى ينج تشان في مختلف جلساتها. فقد كان بمقدورها، على سبيل المثال، أن تجلس مستقيمة الظهر على نحو نبيل، أو أن تسترخي على جنبها وساقها الجميلتان متقاطعتان على الأرض، لاعبة دور المرأة الغربية المثيرة. ولكنها كانت، في بعض الأحيان، تقطع هذه النماذج الثابتة وتفاجئ هوندا، على نحو ما حدث عندما دنت من النار لأول مرة فقد حنت كتفها من جراء البرد دافعة ذقنها للخارج، ودافنة عنقها على نحو بائس، وأوحت الطريقة التي تحدّثت بها ولوحت برسغيها في الهواء، بسطحية معينة صينية الطابع. ودنت من النار تدريجياً، وجلست في مواجهتها، مثل المرأة التي كانت تبيع الفاكهة في الظل الأخضر العميق لأسواق الأصيل الاستوائية، والشمس المتقدة أمامها. وبساقها المتصلبتين، وعجيزتها المعلّقة في الهواء، انحنت بحيث اندفع ثدياها الناهدان وفخذاها الممتلئتان في تدانٍ شديد، وكَمَنَ مركز الجاذبية في نقطة الاتصال بين النهد المسحوق والفخذ، وهي النقطة التي ترجح حولها جسمها قليلاً على نحو سوقي يستعصي على التصديق. وفي مثل هذه الأوقات فإنّ توتر لحمها يتركز في ردفها، وفخذها، وظهرها، وفي كل الأماكن

الوضيعة في جسمها، واشتمّ هوندا كذلك عقب البريّة الحادّ الذي يضوع من أكوام من وريقات الأشجار الميتة في الأدغال.

افتعل كاتسومي الهدوء، وانعكست النّماذج، الزخرفيّة، لكأس البراندي الزجاجيّة على يده البيضاء، ولكنّه كان قابلاً للاستتارة بصورة جليّة. وشعر هوندا بالملت حيال رغبته الجنسيّة.

قال هوندا مرتّباً إجراءات قضائها اللّيلة في الدّارة، قبل طرحها:
- سيكون كلّ شيء على مايرام، اللّيلة، وسأعدّ غرفتك لتكون دافئة للغاية فسوف تكون هناك مدفّاتان كهربائيتان كبيرتان، ذلك أنّه بفضل اتّصالات كيكو أعطيت لنا طاقة كهربائيّة في ضخامة الطّاقة المعطاة لمقرّ قيادة قوّات الاحتلال.

ولكنّ هوندا لم يوضح السرّ في أنّ هذه الدّارة، المقامة على الطّراز الغربي، لم تزوّد بنظام تدفئة غربي، أو حتّى بنظام كوري أو صيني. وقد اقترح النّاس نظاماً جداريّاً يقوم على استعمال الفحم بدلاً من النّفط الّذي كان من الصّعب للغاية الحصول عليه. وقد أعجبت زوجته بهذه الفكرة، ولكنّه لم يوافق عليها؛ فالتدفئة الجداريّة تتمثّل في تمرير هواء ساخن خلال جدران مزدوجة. وقد كان من المهمّ بالنّسبة له أن تكون هناك جدران بسمك واحد فقط.

وكان قد تظاهر أمام زوجته بأنّه سيقوم بهذه الرّحلة بمفرده، زاعماً أنّه يريد القيام ببعض الأبحاث من غير أن يتعرّض لأيّ إزعاج. وظلّت الكلمات الّتي قالتها عندما كان على وشك المغادرة، وهي كلمات عاديّة متعلّقة باقية كاللّعنة في ذهنه:

- لا يصيبك البرد. الجوّ شديد البرودة في جوتوبا، وسيكون الجوّ في يوم مطير كهذا أكثر برودة ممّا تظنّ. أحرص على نفسك جيّداً!

وضع هوندا عينه على ثقب التلصص فاحتكت أهدابه التي تحوّلت إلى الدّاخل، بجفنيه النّاحلين.

لم تكن ينج تشان قد بدّلت ملابسها بعد. وكان الكيمونو اللّيلي الّذي أعدّ لترتيبه موضوعاً على الفراش. جلست على مقعد أمام المرأة، وأخذت تحدّق بلهفة في شيء ظنّ هوندا في البداية أنه كتاب، ولكنّه كان أصغر حجماً وأقلّ سمكاً، وبدأ أنه بالأحرى صورة فوتوغرافيّة. استبدّ الفضول بهوندا لمعرفة صورة من هذه، فجرّب كلّ الزوايا، ولكنّه لم يفلح في تبيّنها.

راحت تدندن لنفسها لحناً متماثل المقاطع. وتردّده كما لو كان لحن أغنية تايلانديّة. وكان هوندا قد سمع مثل هذه الألحان الشعبيّة في بانكوك وهي تعزف بالنّغمة العالية المقعقة الّتي تصدر عن كمان صيني. وقد أعاد إليه فجأة ذكريات الوصلات المعدنيّة اللّامعة في السّلاسل المحيطة بالضّفاف ليلاً، أو المشاهد المليئة بالضّجيج لأسواق القنوات المائيّة في الصّباحات.

وضعت ينج تشان الصّورة في كيس نقودها وسارت خطوتين أو ثلاثاً نحو الفراش، أيّ نحو ثقب التلصص. ووثب قلب هوندا في موضعه، فقد بدا أنّها ستخترق الجدار وتهاجمه. ولكنّها بدلاً من ذلك قفزت على الفراش الأبعد الّذي كان مايزال مغطىّ بملاءة، وقفزت منه إلى الفراش المجاور للجدار الّذي أعدّها بالفعل. فلم يستطع أن يرى غير ساقها.

تقافزت مرّتين أو ثلاثاً على الفراش، منقلبة مع كلّ قفزة في اتجاه مختلف، واستطاع أن يرى أنّ خطّي اتصال جوربيها كانا ملتويين.

كان النّايلون اللّامع يضمّ ساقها الجميلتين، وبدت ربلتاها

ناعمتين تفضيان إلى كاحلين مشدودين . وكان باطنا قدميها مايزالان متصلين بحشية الفراش ، وتقافزت في خفة ، وقد ثنت ركبتيها ، فعرت تورتها المنحسرة للحظة مساحات موعلة في الارتفاع عن ركبتيها . وعلى الجزء العلوي من جوربيها ، حيث كان النسيج مختلفاً واللون البيج أكثر قتامة ، لاحت أزرار ربط الجورب في لون حبات البازلاء الخضراء الشاحبة . وإلى أعلى كانت بشرة فخذها السمراء أشبه بسما لفقها فجر لم ينبلع منظور إليها من خلال خط الأفق .

وفيما كانت تثب بدا أنها تفقد توازنها ، وشرعت الساقان أمامه بالسقوط إلى الجانب الأيمن وكأثما هما بسيلهما للاختفاء ولكنها هبطت من الفراش من دون أن تصاب بسوء ، وربما كانت تلك هي عاداتها الطفولية في اختبار فراش غير مألوف لها .

تفقدت ، بعد ذلك ، تفاصيل الكيمونو الليلي الذي أعده هوندا لها ، وأسدلته فوق ثوبها ، ونظرت إلى نفسها من كل الزوايا ، أمام المرأة ، ثم نحتة جانباً ، واستقرت في مقعد أمام المرأة . وأمسكت بكلتا يديها مشبك القلادة الذهبية وراء عنقها ، وفكته ببراعة . ورفعت أصابعها أمام المرأة ، وشرعت بنزع الخاتم ، ولكنها توقفت ، عندئذ . بدت حركات ينج تشان البطيئة والتعبير المرتسم على ملامحها لهوندا الذي كان يرقب حركاتها في المرأة ، وكأن كل ذلك كان يجري تحت الماء ، أو ربما كان يتم إجراؤه بجهاز التحكم عن بعد .

وبدلاً من أن ترفع الخاتم ، رفعت يدها نحو ضوء السقف فتألقت زمردة الخاتم الرجالي جليلة فوق أصبعها ، بوهج مخضّر ، وتوهج وجهها وحشي الياكشا الذهبين الحارسين .

وأخيراً مدّت كلتا يديها إلى الورا، وشرعت بحلّ المشبك الصّغير
الذي يعلو مثبتّ ثوبها، فحبس هوندا أنفاسه .

أوقفت ينج تشان حركتها، والتفتت نحو الباب الواقع إلى اليمين،
وكان يفتح بالفتاح الاحتياطي الذي قدّمه هوندا لكاتسومي . ولو أنّ
هذا الأخير جاء بعد ذلك بدقيقتين أو ثلاث لوجد ينج تشان وقد
نزعت ثيابها .

تحوّل التوجّس المفاجئ الذي استشعرته الفتاة البريئة، في الإطار
الدائري المعتم لثقب التلصص، إلى لوحة تصوّر لحظة حرجة فهي لم
تكن تدري بعد من سيأتي من خلال الباب . فربّما أقبل طاووس
أشهب، هائل، متبختراً عبر الباب، في مزيد من الخيلاء، مُفْعِماً
الغرفة بعبق زهور السّوسن، وحوّل اصطفاق جناحيه وصيحاته - شأن
قعقعة بكّارة - الغرفة إلى قاعة قصر الوردية الهادئة، في ذلك
الأصيل . . .

ولكن من دخل الغرفة كان شخصاً متوسط القدرة، مبالغاً في
التكلّف . ولم يكلف كاتسومي نفسه عناء الاعتذار عن فتحه الباب،
بلا استئذان، وإنما غمغم في ارتباك بأنه نظراً لعدم قدرته على النوم
جاء ليتحدّث معها . واستردّت الفتاة ابتسامتها، وقدمت له مقعداً،
وشرعا في حوار طويل . وأخذ كاتسومي يتحدّث، متملقاً باللّغة
الإنجليزية، وصارت ينج تشان ثرثارة فجأة . وتشاءب هوندا، وهو
يتلصص عبر الثقب .

وضع كاتسومي يده على يدها فلم تسحبها . وأخذ هوندا يرقب
المشهد بانتباه . ولكنّه لم يستطع الاحتفاظ بوضعه ذاك طويلاً، إذ كان
يوتّر عنقه إلى الحدّ الأقصى .

مال على رفّ المكتبة، وحاول متابعة ما يجري بالاستعانة بالأصوات، وأطلق الظلام العنان لخياله. وفي غمرة خواطره تطوّرت الأمور خطوة بعد أخرى، على نحو أكثر عقلانيّة بكثير ممّا كان يجري حقاً في الغرفة. وفي خياله كان نزع ثياب بينج تشان قد بدأ بالفعل، وأينع عُريُّها المتألّق. وعندما رفعت ذراعها اليسرى لاحت الشّامات الثلاث على جنبها الأيسر، شعارات النّجوم في اللّيل الاستوائي الحافل بالغواية، رموز حرمانه. وغطّى عينيه، وفي التّوّ تشظّت النّجوم في الظّلام.

كان هناك حراك مفاجئ.

وضع هوندا، مسرعاً، عينه على الثّقب، وفي غمرة قيامه بذلك ارتطم رأسه بركن رفّ المكتبة. وأثارت الضّجة قلقه أكثر ممّا أثاره الألم. لكن الموقف على الجانب الآخر من الجدار تجاوز أي قلق على ضجّة محدودة.

كان كاتسومي متشبّثاً بينج تشان التي أخذت تقاومه. وتصارع الجسدان خارجين وعائدين إلى ميدان الرؤية الدائري الذي يتيح له ثقب التلصص. وكان سحاب ثوب الفتاة مجذوباً للأسفل، وظهرها الأسمر المتعرّق النّاحل ظاهراً للعين، وقد بدت وصلات مشدّ صدرها. وحرّرت يدها اليمنى وأهوت بقبضة يدها المتصلّبة بضربة عنيفة. وقد تألّقت الزمرّدة الخضراء كأنّها خنفساء طائرة، وهوت على وجنة كاتسومي. وتراجع واضعاً يده على وجهه. وسرعان ما تردّدت ضجّة فتحه الباب ومغادرته الغرفة. وبدت بينج تشان متقطّعة الأنفاس، وتطلّعت حولها وجرتّ أحد المقاعد لتستخدمه على ما يبدو دعامة لإغلاق الباب.

أصاب الدَّعر هوندا، فكاتسومي الذي تظاهر بأنه بالغ النضج، لم يكن في حقيقة الأمر إلا طفلاً مدللاً، ولربما جاء طالباً حقيصة أدوات الإسعاف الأولى لمعالجة وجنته.

انطلق هوندا في الحال إلى العمل فأعاد الكتب السميكة واحداً بعد آخر إلى رفّ المكتبة. وبحرص مجرم محترف، تيقن من أن أيّاً من هذه الكتب لم يوضع مقلوباً. وتحقق من أن باب المكتب موسد، وأطفأ المدفأة، وانسل عائداً إلى غرفة النوم فبدل ثيابه، وارتدى منامته، وألقى بملابسه على المشجب، ودلف إلى الفراش. واستعدّ للتصرف كمن قطع عليه نومه، إذا جاء كاتسومي إلى بابه.

أصبحت تلك تجربة من تجارب «شباب» هوندا الجهول، ويا لبراعة طالب القسم الداخلي الذي انتهك القواعد المعمول بها وزحف عائداً إلى الفراش مدعياً البراءة! وعلى الرغم من أنه رقد في هدوء فإن قلبه مضى يخفق سريعاً، بحيث كانت الوسادة، وقد بدت كائناً حياً، تقفز ارتفاعاً وانخفاضاً. ولم يعرف الهدوء لبعض الوقت. ربّما كان كاتسومي متردداً في المجيء لرؤيته. ولا بد أن هذا التردد الطويل جاء نتيجة للتدبر ولتقدير مزايا زيارة متهورّة ومثالبها. وفيما كان ينتظر كاتسومي، دون أن يتوقع حقاً قدومه، غرق في النوم.

* * *

انقضت السّماء بحلول الصّباح، وتماوج خيط ذهبي من سنى الشّمس منهلاً من خلال فتحة بين الستائر المسدلة على النّافذة الشرقيّة.

لفّ هوندا ملفعة حول عنقه، ومضى في رداءه السّميك إلى

المطبخ، معترماً إعداد طعام الإفطار للشاينين، فألقى كاتسومي جالساً بالفعل في مقعد بغرفة الجلوس، وقد ارتدى ثياباً أنيقة.
كان كاتسومي قد أضرم النار في المدفأة، ولم يبد أنه يخفي وجنته.
وقد خاب أمل هوندا، إذ لم يجد ندباً كبيراً بادياً في الضوء الصادر عن المدفأة، وإنما كان هناك خدش خفيف يمكن تفسيره بأي قصّة بسيطة مختلفة.

قال كاتسومي مشيراً إلى مقعد كما لو كان هو المضيف:

- ألا تجلس قليلاً؟

قال هوندا، محيياً مرة ثانية، وهو يجلس:

- عمت صباحاً.

قال كاتسومي وكأنه قد أسدى جميلاً كبيراً لهوندا:

- أحسست بأنني ينبغي أن أحدثك على انفراد، وقد نهضت مبكراً

لهذا الغرض بالذات.

- و... كيف كان الأمر؟

- طيب.

- ماذا تعني بـ «طيب»؟

ابتسم الشاب موحياً بشيء مهم على نحو بالغ:

- تماماً كما كنت أتوقع، إنها تبدو كالطفلة، ولكنها ليست في

الحقيقة كذلك.

- هل بدا أنها كانت المرة الأولى بالنسبة لها؟

- إنني الأول... وأنا على يقين من أن من سيجيئون بعدي

سيموتون بغیظهم.

بدا تماماً لا ضرورة له متابعة الأمر إلى أبعد من ذلك، فغير هوندا

الموضوع:

- بالمناسبة، هل أتفق أن لاحظت أن بها بعض العلامات المميّزة الغريبة... على جنبها الأيسر... ثلاث شامات رائعة، تكاد تكون اصطناعيّة، وكلّها في صفّ واحد. هل رأيتها؟

لاحظت الحيرة العابرة على محيا كاتسومي الموحى بتباهي صاحبه. كانت هناك ردود عديدة ممكنة، وكانت هناك مسألة إنقاذ ماء الوجه أيضاً. وقد وصل سريعاً إلى استنتاج أن الإدلاء بالأكاذيب تنبغي التضحية به، وتأجيله إلى مناسبة أكثر أهميّة. كان من المثير للاهتمام التكهّن بالردود الكثيرة التي تدور بخلد الشاب. وفجأة انحنى إلى الأمام في مقعده بإيماء دهشة مبالغ فيها.

قال بصوت مرتفع:

- الفوز انعقد لك، فأنت رجل تصعب هزيمته، يا سيّد هوندا! إن قبضتي تراجحي، وقد خدعتني لغتها الإنجليزية عندما بدا أنها تقول إن تلك هي المرّة الأولى. إنك على علم بالفعل بتفاصيل جسمها.

حان دور هوندا، ليبتسم، على نحو موحٍ بكثير من المعاني.

- إنني أسألك عمّا إذا كنت قد رأيت الشامات؟

ردّ الشاب متوتراً، إذ كان يتعرّض للضغط لاختبار صلابته

المدّعاة:

- بالطبع، رأيتها. وقد كانت مبتلة بالعرق قليلاً، وكلّها تتحرك معاً في الضوء الخافت. وبالرغم من بشرتها الداكنة فإن لها نوعاً من الجمال الغامض الذي يستعصي على النسيان.

مضى هوندا إلى المطبخ فأعدّ إفطاراً مؤلفاً من القهوة والكعك الهلالي الشكل. وتطوّع كاتسومي بالمساعدة، ولكن حرصه على القيام بذلك لم يكن متفقاً مع ما درج عليه. وقام، وكأتمناً أرغمه على ذلك

شعور بالالتزام بإعداد الأطباق، وسأل هوندا عن مكان حفظ ملاعق الشاي، ورتبها على المائدة. وللمرة الأولى شعر هوندا بشيء يحاكي الصداقة المحوِّمة على حدود الإشفاق، نحو هذا الشاب.

تجادلا فيمن الذي ينبغي أن يحمل طعام الإفطار إلى غرفة ينج تشان. وقام هوندا، طارحاً عنصر واجب الضيافة، بوضع الأطباق على صحفة وحملها إلى أعلى على مهل.

طرق باب غرفتها فلم يتلقَ ردّاً. وضع الصحفة على الأرض وفتح الباب بالمفتاح البديل. وكان من الصَّعب فتحه بالقوَّة؛ إذ دعم بشيء ما من الجانب الآخر.

تطلَّع في أرجاء الغرفة التي ملأها نور الصُّباح. وكانت ينج تشان قد خرجت.

اعتادت السيّدة تسوباكيهارا في المدة الأخيرة لقاء إيمانيشي من وقت إلى آخر.

كانت مجرّدة من كلّ بصيرة، عاجزة عن تكوين آراء لمآحة عن الرجال، كما لم يكن بمقدورها الحكم على رجل من مظهره، وتحديد النوعية التي ينتمي إليها. . . وما إذا كان خنزيراً، أو ذئباً، أو شخصاً بليداً. وكانت مثل هذه المرأة تحاول، من بين ما تحاوله من أمور أن تنظم الشعر.

إذا كان الوعي بالملاءمة مؤشراً للحبّ الفخور، فإنه ما من امرأة كان بوسعها التخفيف من غلواء شعور إيمانيشي بنفسه قدر ما كانت تفعله هذه المرأة التي كانت عاجزة عن رؤية أيّ نوع من الملاءمة. وقد شرعت في حبّ هذا الرجل البالغ أربعين عاماً من العمر، كما لو كان ابناً لها.

لم يكن هناك أحد يمكن أن يفوق إيمانيشي في بعده عن التمتع بعنفوان الشباب، أو الجدّة، أو الشجاعة. فقد كان يعاني من معدته، وله بشرة شاحبة بعيدة عن المرونة، وكان سريع الإصابة بنوبات البرد. وكان جسمه الطويل المجرد من أيّ عضلات متطورة، يشبه نطاقاً طويلاً مترهلاً، وكان يترجّح في مشيته، وتعبير آخر كان نموذجاً مجسّداً للمثقف.

ولابدّ أنه كان من الصعب الوقوع في حبّ مثل هذا الرجل، ولكن كما أنّ السيّدة تسوباكيهارا كانت تنظم الشعر الرديء بسهولة

بالغة، فقد وقعت في هوى إيمانيشي، دوغما صعوبة على الإطلاق. وكان افتقارها للبراعة في أي شيء وكل شيء متألقاً، وجعلها سهلة انقيادها وحبها الذي أقرت به للنقد تصغي في سعادة إلى توبيخات إيمانيشي الشخصية المستمرة. وكانت تناصر في كل شيء المفهوم القائل بأن النقد هو طريق مختصر للتحسن.

وفي حقيقة الأمر فإنه كان ثمة شيء يربط إيمانيشي بها، فهو لم يكن يضيق ذرعاً بنزعتها الصبائية عندما تتحدث بجدية بالغة عن الأدب والشعر، في غرفة النوم، وقد اختار هو نفسه المكان عينه ساحة للإدلاء باعترافاته الأيديولوجية. وكمن مزيج غريب من النزعة الكليية العميقة والافتقار إلى التضحج وراء الصبا الهش الذي كان يتألق عبر صفحة وجهه بين الفينة والفينة. والآن ها هي ذي السيدة تسوباكيهارا تعتقد أنه يجب قول الأشياء التي تؤذي مشاعر الناس؛ لأنه إنسان نقي.

كانا يلتقيان دائماً في نزل صغير أنيق شيد حديثاً على تل شيبويا. وقد شكلت كل غرفة مبنى مستقلاً يفصله عن المباني الأخرى غدير صغير متدفق عبر الحديقة. وكانت أعمال النجارة فيه حديثة العهد ومتقنة، والمدخل رائعاً.

في الساعة السادسة من السادس عشر من حزيران (يونيو) توقفت السيارة التي استأجرها، أمام محطة شيبويا، ولم يعد بمقدورها التقدم إلى الأمام؛ إذ أوقفتها الحشود. وكان النزل على بعد خمس دقائق أو ست من المسير على الأقدام، فغادرا السيارة.

اكتسحها جمع هائل من الناس الذين مضوا يرددون الشيد الدولي. ورفرت في الريح لافتات: «يسقط قانون خطر الأنشطة

التخريبية!». وتدلّت لافتة كبيرة من جسر خطّ تاماجاوا «أيها اليانكي
عودوا إلى بلادكم!». كانت وجوه النَّاس المتجمّعين في الميدان
متوهّجة، ومرحة، ومنطلقة في غمرة اندفاعهم نحو التدمير.

أصاب الخوف السيّدة تسوباكيهارا، واختبأت خلف إيمانيشي الذي
أحسّ، رغماً عنه، بالخوف والقلق يجتذبانه نحو الجمهور. وانسلّ
الضوء، مثل فتحات الشّبكات، خلال أقدام الجمع المتدفّق عبر
الميدان. وتزايد لطم الأرض بالأقدام احتجاجاً، شأن دفق مفاجئ
من المطر، ثمّ اخترقت الصرخات الجمع، وعلا صوت التّصفيق غير
المنتظم - حدث كلّ ذلك في وقت واحد مع هبوط ليل حافل
بالضّخب على المتظاهرين المتجمّعين. وذكر ذلك إمانيشي بالرجفة
الغريبة التي تعتربه دوماً لدى بدء تعرّضه لنوبات برده العديدة مع
احتدام حالة الحمّى المصاحب لذلك. وساور الجميع شعور فظيع بأنّ
جلودهم تسليخ كالأرانب، وأنّ لحمهم العاري يعرّض فجأة للهواء.
- الشرطة! الشرطة!

انتشر دويّ الأصوات، وتبدّد الجمع باضطراب. وتحوّلت جوقة
النشيد الدّولي، التي كانت تشكّل موجة هادرة، إلى شظايا متناثرة هنا
وهناك، شأن بريكات صغيرة غبّ المطر. وأحاطت الصرخات بهذه
البريكات، كما في ساعة اختناق السّير، واختلط بعض من يغنون
ببعض على نحو لا يرجي معه انفصال. وهدرت سيّارات الشرطة
البيضاء، متوقّفة عند تمثال الكلب هاتشي الوفيّ، أمام محطة شيبويا،
ووثب أعضاء احتياطي الشرطة معتمرين واقيات الرّؤوس الزّرقاء
القائمة، من السيّارات وكأنّهم سرب من الجراد الصّغير.

أمسك إيمانيشي السيّدة تسوباكيهارا بقوة، وانطلق يعدو، ناجياً

بعمره، مع الجمع الذي كان يحاول الابتعاد. وعندما بلغ واجهة متجر على الجانب الآخر من الميدان، والتقط أنفاسه، أدهشته قدرته غير المتوقعة على العدو. وأدرك أنه بدوره كان قادراً على الجري. وعند ذلك بدأ فجأة خفقان غير طبيعي في قلبه، وآلم صدره.

ومقارناً بخوفه فإنَّ خوف السيِّدة تسوباكيهارا، كان شأن حزنها، غمطياً إلى حدِّ ما. أمسكت حقيبتها بقوة أمام صدرها، ووقفت إلى جانبه وكأثماً سيغشى عليها في آية لحظة. وبدت أضواء النيون الأرجوانية المنعكسة على وجنتيها اللتين علاهما الدُّرور، وكأنَّها تُحوِّل خوفها إلى عمل متقرِّح اللَّون، قوامه القواقع، ولكن عينها لم تضطرباً قطّ.

انسلَّ إيمانيشي في حذر على امتداد واجهة المتجر، ونظر عبر الميدان المضطرب أمام المحطّة. ووسط الصرخات والصيحات المتدفّقة سجّلت السّاعة الهائلة المضيئة على مبنى المحطّة الوقت في جلال.

بدا أن رائحة تشبه ما يمكن أن يحدث يوم الدينونة تنتشر. وكان العالم ينقلب إلى اللَّون الأحمر، شأن عيني شخص طالت يقظته، وأحسَّ إيمانيشي بأنّه يصغي إلى الصّوضاء الغريبة التي تحدثها ديدان القرّ في غرفة تربيتها وهي تقضم وريقات التوت بعنفوان.

ثمَّ علت في البعيد ألسنة اللّهب من سيّارة بيضاء تابعة للشرطة. ربّما بسبب قنبلة حارقة. وارتفعت ألسنة حمراء غاضبة وصرخات مع الدّخان الأبيض. وأدرك إيمانيشي أنّه كان يبتسم.

أخيراً، وفيما هما يشرعان بالسير، بعيداً عن هذا المشهد، لاحظت السيِّدة تسوباكيهارا شيئاً متدلياً من يد إيمانيشي.

- ماذا لديك هنالك؟

- لقد قمت بالتقاطه لتوي .

فتح وهو يواصل السير ما بدا أنه خرقه قائمة وأراها إيّاه . كان مشدّاً للصدر من نسيج مخرم أسود، مختلفاً تماماً عن النوع الذي تستخدمه السيّد تسوباكيهارا . ولا بدّ أنه كان لامرأة شديدة الثقة على نحو استثنائي بصدرها . كان من مقاس كبير، وبدون حمالي كتف، وقد بالغ عظم الحوت المتخذ كمستقرّ للنهد في ضخامة التجويفين الشّاحخين الجديرين بتمثال .

- ما أظنّ هذا! من أين جئت به؟

- هناك، منذ لحظة، عندما بلغت المتجر لاحظت شيئاً عالقاً بقدمي، ولا بدّ أنّ أحدهم دهسه، فقد كان ملطّخاً بالطين .

- يا للشيء القدر! ألقي به بعيداً!

- ولكن ما أغربه! ما أشدّ خروجه عن المألوف!

ابتهج إيمانيشي لاهتمام المارة الفضوليين، وعرض مشدّ الصدر في تباهِ وهو يواصل السير .

- ترى كيف يمكن أن يسقط شيء كهذا؟ أمّحسين ذلك ممكناً؟

لم يكن بالطبع ممكناً، فمشدّات الصدر، حتّى من النوع المجرد من حمالات الكتف، تثبت بعدد من المشابك . وأياً كان انخفاض مستوى العنق فلا يمكن للمشدّ أن يخلع، ويسقط . ولا بدّ أنّ المرأة التي أطبق عليها الجمع قد نزعته، أو قام بنزعه شخص آخر . والاحتمال الأخير مستبعد، والأمر الأكثر احتمالاً هو أنّ المرأة قامت بانزاعه من تلقاء نفسها .

لم تكن لديه أدنى فكرة عن الغرض من قيامها بذلك . وعلى أية حال فإنّه وسط ألسنة اللهب والظلام والصّباح كان قد تمّ نزع مشدّ

صدر كبير. لم ينتزع إلا الهيكل اللامع، وأما الامتلاء اللدن للحم فقد كانت شاهدة عليه طيات النسيج المخرم الأسود. وربما كانت المرأة قد تخلت في كبرياء عن مشد صدرها عامدة. لقد نزع الهالة، وبدا القمر الآن في مكان ما من الظلام العاصف. ولم يلتقط إيمانيشي إلا الهالة، ولكنه بفعلته تلك بدا أنه أمسك - أكثر مما كان يمكن أن يفعل لو التقط التهدين ذاتيهما - دفئهما ومراوغتهما الماكرة. وتدافعت ذكريات الشهوة متزاحمة وكأنها الفراشات حول مصباح. وضع إيمانيشي، على نحو عرضي، المشد على أنفه، وكانت رائحة العطر الرخيص قد تخللت النسيج، وظلت قوية برغم الطين. وافترض أنها كانت بالتأكيد عاهرة متخصصة في اصطيد الجنود الأميركيين.

- يا لك من رجل فظيع!

بدأت السيدة تسوباكيهارا غاضبة غضباً لا ادعاء فيه. لقد كانت كلماته المترعة بتعمد الإغاطة تحمل دائماً رنة الانتقاد، ولكن مثل هذه الفعلية الحقيرة كانت وضعية لا تعتفر. ولم يكن الأمر انتقاداً، وإنما إهانة خسيصة. وكانت قد استوعبت بنظرة خاطفة المقاس وأدركت ازدراء إيمانيشي الضمني لنهديها الدوايين المكتهلين.

ما إن يتعد المرء عن الميدان الواقع أمام المحطة حتى يجد أن شيئاً لم يتغير على الطريق من تلّ دوجين إلى شوتو الذي أقيمت على امتداده على وجه السرعة حوانيت متلاصقة في أطلال القصف. وفي هذه الساعة المبكرة كان السكارى يصخبون، وأضواء النيون تحوم كمجموعات من السمك الذهبي فوق رؤوسهم.

حدث إيمانيشي نفسه، قائلاً: «لابد من الإسراع إلى الدمار، ولئن لم أفعل، فسوف تعود جهنم». وما إن أفلت من الخطر حتى عاد الدّم

إلى وجنتيه . وكان، دوغما مزيد من اللّوم من السيّدة تسوباكيهارا، قد ترك مشدّ الصدر الأسود ينزلق من أصابعه إلى الطّريق حيث كان الهواء الرّاكد حارّاً ورطباً.

استحوذت عليه فكرة أنّه ما لم يحلّ به الدّمار قريباً فإنّ جحيم الحياة اليوميّة ستسارع بابتلاعه . وإذا لم يحلّ الدّمار في الحال فإنّه سيخضع، ليوم إضافي آخر، لصورة خياليّة تلتهمه الكآبة فيها التهاماً . ومن الخير له أن يذهب ضحيّة كارثة مفاجئة وشاملة، بدلاً من أن ينهشه سرطان الخيال . وقد يكون كلّ ذلك إذن خوفاً غير واع من أنّه ما لم يقضِ على نفسه دوغما إبطاء، فإنّ عاديته المبتدلة التي لأ سبيل إلى الشكّ فيها، سوف يكشف النقاب عنها . كان بمقدوره رؤية دمار العالم في أقلّ الأشياء أهميّة، فالإنسان يجد دائماً النذُر التي ينشدها .

تمنّى أن تندلع الثّورة دون أن يكثرث بما إذا كانت يمينيّة أو يساريّة . فكم يكون رائعاً أن تحمل شخصاً مثله، هو الذي عاش طفليّاً وعالة على شركة التّأمين التي أسّسها أبوه، إلى المقصلة . ولكن أيّاً كان النحو الذي قد يعلن به عاره فإنّه لم يكن على يقين ممّا إذا كانت الجماهير ستمقتّه أم لا . ماذا عساه يفعل لو أنّهم فسّروا اعترافه على أنّه مؤشّر للنّدم؟ لو أنّه مقصلة نصبت في الميدان الصّاحب، أمام المحطّة، وجاءت أيام يتدفّق فيها الدّم، وسط كلّ هذا النزوع الدنيويّ، فربّما كان بمقدوره، من خلال موته، أن يصبح «من يحظى بالتذكّر» . وأخذ يتصوّر نفسه، وهو يوضع تحت حافة المقصلة القاطعة، وثمّة سقالة من الخشب، ملفوفة بقماش أبيض وأحمر، مثل كشك اليانصيب المزيّن باللّافئات التي تعلن عن تصفية صيفيّة

خاصّة، في حيّ تجاري، وقد وضعت على النصّ لافتة أسعار ضخمة كتب عليها «خاصّ». وأخذته الرّعدة.

أمسكت السيّدة تسوباكيهارا بردن رداثه وهو ينطلق شارداً في رحاب هذه الصّورة الخياليّة، وجذبتّه لافتة نظره إلى بوّابة نُزلها. ومضت بهما الخادمة المنتظرة في البهو إلى غرفتهما المعتادة، صامتة. وما إن انفرد أحدهما بالآخر حتى شرع إيمانيشي الّذي ما يزال على احتدام أفكاره، في إدراك قرقرة ماء الغدير.

أمرا بطبق من الدّجاج العادي، مع شراب، السّاكي. وكانا ينغمسان عادة في حوار بلغة البدن وهما ينتظران وسط استعدادات النزل المعتادة الّتي تستغرق وقتاً. ولكن السيّدة تسوباكيهارا أرغمته اليوم على التوجّه إلى الحّمّام، وجعلته يغسل يديه بدقّة، تاركاً ماء الصنبور يتدفّق وهو عاكف على ذلك.

قالت:

- استمرّ! استمرّ! استمرّ!

لم يدرك إيمانيشي في البداية السرّ في إرغامه على غسل يديه مراراً وتكراراً، على مثل هذا النّحو. ولكنّه أدرك، من التّعبير الجادّ المرتسم على محياها، أنّ الأمر راجع إلى المشدّ الّذي كان قد التقطه.

- لا. يجب أن تغسلها على نحو أفضل.

قالتها وهي تكسو باهتياج يديه بالصّابون، وتفتح الصنبور على أقصى طاقته، متجاهلة الضّجيج ورشاش الماء على المغسلة النحاسيّة.

وأحسّ في نهاية المطاف بخدر في يديه.

- ألاّ تظنّين أنّ في ذلك الكفاية؟

- كلاً، ليس فيه الكفاية. ماذا تظنّ أنّه سيحدث إن دنوت منّي

بيدين على ذلك النحو؟ إن لمسي يعني لمس ذكرى ابني القابعة في
أعماقي . لسوف تدنس ذكرى أكيو المقدسة، ذكرى إله . . . بيديك
القدرتين .

قالتها، وأشاحت بوجهها مسرعة، وغطت عينها بمنديل .

مضى يفرك يديه تحت الماء المندفِع، ونظر إليها، خلسة . وإذا
كانت قد شرعت في البكاء فإن ذلك كان مؤشراً على أنه أياً كان الأمر
فقد تمَّ تجاوزه، وأصبحت على استعداد لتقبُّل أي شيء .

- أتمنى لو متَّ سريعاً!

قالها إيمانيشي بنبرة عاطفية وهما عاكفان بعد ذلك على احتساء
السّاكي .

- وكذلك أنا .

قالتها السيِّدة تسوباكيهارا، موافقة . وقد وشت بشرتها الشفافة،
كورق الأرز، باللون القرمزيّ الواهن الذي سيحمله معه الخمار
الوشيك .

في الغرفة المجاورة، حيث كانت الأبواب مشرعة، التمعت
الأطراف الخارجيّة المرتفعة والمنخفضة للغطاء الحريري ذي اللون
الأزرق الفاتح وكأنه يتنفس في هدوء . وعلى المائدة، كانت شرائح من
حيوان أذن البحر الرخوي مع لون أحمر وردي اصطناعي، في طبّات
شفقيّة تطفو في وعاء مليء بالماء . وكان الطّعام يتألّق في وعاء فخاري .

أدرك إيمانيشي والسيِّدة تسوباكيهارا، صامتتين، أنها ينتظران معاً
شيئاً ما، ربّما كان الشيء نفسه .

حاجلها شعور بالنشوة مع بهجة الخطيئة، وتوقّع العقاب المصاحب
لها على هذه اللقاءات السريّة المختلسة من وراء ظهر ماكيكو .

وتَحَيَّلَت ماكيكو وهي تلج الغرفة، ملوَّحة بالفرشاة المغموسة في الحبر الأحمر التي تصوَّب بها القصاصد. «لن يصلح هذا كشعر، سأراقب، الآن حاوي إبداع الشعر بكلِّ كيائك. إنني هنا لتعليمك، يا سيِّدة تسوباكيهارا!»

كان إيمانيشي، كالمتوقَّع منه، قد تمَنَّى المضي بقصَّة الحبِّ إلى ذروتها، أمام عينيَّ ماكيكو المترعتين بالكره والازدراء. وكانت اللَّيلة الأولى تلك في نينوكا بجوتمبا هي ذروة حلمه الذي يتعيَّن على علاقته بالسيدة تسوباكيهارا أن تبلغه مرَّة أخرى. وفي رأس الذروة كانت عينا ماكيكو النَّافذتان قد استقرَّتا عليهما معاً، كنجمتين باردتين. وكانت نظرتها المدقَّة ضروريَّة له بأيِّ ثمن.

لم يكن بمقدور إيمانيشي، في غياب عينيها، التخلُّص من شعور بالادِّعاء في توحِّده مع السيدة تسوباكيهارا. فلم يكن بوسعها قطَّ التخلُّص من عقدة كونها ثنائياً محظوراً وغير مشروع. وهاتان العينان تنتميان إلى أكثر صانعي التماثلات سلطة ورفعة شأن، عينا ربَّة جليَّة تتألَّق في ركن مخدع يعمِّه نور غسقي، عينان وحَّدتهما معاً، ولكنَّها رفضتهما، وغفرت لهما، ولكنَّها ازدرتهما. ومثل هاتين العينين تسيطران على الخضوع لهما من خلال عدالة غامضة ومرتدِّدة نحيب في موضع ما من هذه الدُّنيا. وتحتهما فحسب يبدو أساس توحِّد هذا الثنائي مبرراً. وأمَّا بعيداً عنها فإنَّ العاشقين ما كانا إلاَّ عشباً ذائياً يطفو على ماء الظاهر. وكان توحُّدهما اتِّصلاً هامشياً، امرأة أسيرة لماضٍ وهمي لا سبيل إلى استرداده، ورجل يتوق إلى مستقبل وهمي لن يحلَّ أبداً. كان مثل القرقعة الميتة لأحجار لعبة «الجو»^(١) في حافظتها.

(١) لعبة الجو: لعبة يابانية تلعب بحجارة على رقعة ذات ٣٦١ مربَّعاً. (هـ. م. .)

ساور إيمانيشي شعور بأنّ ماكيكو تجلس بالفعل ساكنة منتظرة في الغرفة المجاورة التي لا ينسل إليها ضوء هذه الغرفة. وأصبح الشّعور بوجودها أكثر احتداماً، وأحسّ بأنّ عليه التأكّد منه، وتكبّد عناء التدقيق في الأمر. ولم تطرح السيّدة تسوباكيهارا أسئلة، ربّما لأنّ الشّعور نفسه قد ساورها. وفي حلية خشبيّة بالركن في الغرفة الصّغيرة التي لا تمتدّ لأكثر من أربع حصر ونصف، طفت زهور السّوسن المرتبة وكأنّها قُبرَات محلّقة.

* * *

انغمسا كالعجائز كعادتها لدى الفراغ من المضاجعة، في حديث حافل بالتفاصيل الصّغيرة، وهما يتكاسلان. وأخذ إيمانيشي، وقد تخلّص الآن من توتره الجنسيّ، يتحدّث عن ماكيكو بأسوأ طريقة استهزائيّة ممكنة.

- ماكيكو تستغلك. وأنت تخشين أنّ لا يكون بمقدورك أن تصبحي شاعرة بالاعتماد على نفسك إذا انفصلت عنها. وفي حقيقة الأمر فإنّ هذا ربّما كان صحيحاً حتّى الآن، ولكن عليك أن تدركي أنّك قد وصلت إلى منعطف مهمّ. وإذا لم تتحرّري من تأثيرها فلن تكوني شاعرة جيّدة أبداً.

- ولكن إذا بلغ بي الغرور حدّ الاستقلال فإنّي أعرف أن تقدّمي في الشّعور سيتوقّف أيضاً.

- لماذا قطعت بذلك؟

- لم أقطع بذلك، إنّه أمر حقيقي. ربّما كان محض قضاء وقدر.

أراد إيمانيشي أن يسألها عمّا إذا كان قد حدث يوماً أن تحسّن شعرها، ولكن نشأته الطيبة ما كانت لتسمح له بمثل هذه الوقاحة.

غير أنّ الكلمات التي استخدمها ليحرّرها من قبضة ماكيكولم تعكس إخلاصاً. وخامره شعور بأنّ السيّدة تسوباكيهارا قد ردّت عليه وهي مدركة ذلك تمام الإدراك.

أخيراً جذبت الملاءة إليها، وبعد تثبيتها حول رقبتها، ألقّت إحدى قصائدها الأخيرة، محوّلة عينيها نحو السّقف المعتم، فانتقدتها إيمانيشي في الحال.

- إنّها قصيدة جميلة، ولكنني لا أحبّ الشّعور الضيق الأفق المعتدّ بذاته الذي تعطيه بالتركيز على العنصر الدنيوي. إنّها تفتقر إلى الشّمول. وربّما كان السّبب هو الفقرة الأخيرة. «زرقة البحيرة العميقة» تفتقر إلى الخيال. إنّها مجردة أكثر من اللازم، ولا تنطلق من الحياة.

- نعم، أحسب أنّك على حقّ. إنّني أشعر بالألم إذا تعرّضت مباشرة للنقد عقب إبداع قصيدة غير أنّه يمكنني في غضون أسبوعين إدراك نقاط ضعفها. ولكن، كما تعلم، فقد أشادت ماكيكو بهذه القصيدة. وقد قالت على العكس منك إنّ المقطع الأخير جيّد، رغم أنّها تعتقد أنّ من الأنسب القول إنّ «الزرقة هي البحيرة العميقة».

كانت لهجة حديث السيّدة تسوباكيهارا توحى بالكياسة والتلطف وكأنّها تصنع حجّة في مقابل أخرى. وبمعنويات مرتفعة شرعت في الثّثرة عن معارفها، وقد كان ذلك على الدّوام يدخل السّرور على نفس إيمانيشي.

- قابلت كيكو مؤخّراً، وأبلغتني بأمر مثير للاهتمام.

- ماذا؟

قالها إيمانيشي، وقد ثار اهتمامه في التّوّ، والتفت في موضعه، حيث

كان منبطحاً على معدته، فأسقط بارتباكٍ رماد سيجارة على الملاء الملتفة حول صدرها.

قالت تسوباكيهارا:

- إنه أمر يتعلّق بالسيّد هوندا والأميرة التايلانديّة. فقد صحبها مؤخراً خلسة ومعه كاتسومي، ابن شقيق كيكو وصديق الأميرة، إلى دارة نينوكا.

- أتساءل عمّا إذا كانوا قد اندسّوا في الفراش معاً.

- ليس من شأن السيّد هوندا القيام بأي شيء من هذا القبيل! إنه من النوع المثقف الهادئ. وربما أراد القيام بدور من يمهد السبيل بين العاشقين الشابين. والجميع يعلم أنه مفتون إلى حدّ التدلّه بالأميرة، ولكنها لا يمكنها مجرّد الانغماس في حوار معقول مع وجود مثل هذا الفارق في السنّ بينهما.

- وماذا كان دور كيكو في الأمر؟

- لم تكن إلّا مجرّد مراقب على الهامش، بالفعل، فقد اتّفق وجودها في دارتها بنينوكا. وكان جاك في إجازة، ويمضي الليل هناك. وفجأة في الثالثة فجراً دوى طرق على الباب، واندفعت الأميرة إلى الدّاخل. واستيقظ جاك وكيكو من نوم عميق، ولكن أياً كان إيغالهما في محاولة إقناعها فإنّها رفضت رفضاً تاماً إيضاح الموقف. فحارا فيما يفعلانه. وطلبت الأميرة قضاء الليل عندهما، فاستجابا لها. واعتزمت كيكو الاتّصال بالسيّد هوندا في الصّباح، حسبما قالت.

وبسبب هذا كلّه نهضت من نومها متأخّرة، ودفعت جاك إلى التّعجيل بالعودة إلى معسكره، بعد تناول قدح من القهوة. وفيما هي تودّعه لدى ركوبه السيّارة الجيب عند البوّابة، وصل السيّد هوندا إلى

الدّارة، وقد بدا في شحوب ورقة بيضاء. وضحكت كيكو، وقالت إنّها كانت المرّة الأولى التي تراه فيها على مثل هذا القدر من الضيق.

كانت تعلم أنّه يبحث عن الأميرة، وأرادت أن تداعبه قليلاً فسألته عمّا دعاه إلى الاستيقاظ في مثل هذه السّاعة المبكرة.

قال إنّ ينج تشان ضلّت الطريق، بل لقد ارتجف صوته. وبعد برهة، وكان السيّد هوندا قد شرع في العودة إلى دارته بعد أن تخلّى عن البحث، أبلغته كيكو بأنّ ينج تشان أمضت الليل عندها. وتضرّج وجه السيّد هوندا بالحمرة وكأنّه تلميذ صغير - تصوّر في عمره هذا! - وقال: «حقاً؟» وبدا أنّه شديد السّعادة.

وعندما صحبته كيكو إلى غرفة الضيوف وجد الأميرة ماتزال تغطّ في نوم عميق فأوشك على السقوط لفرط شعوره بالارتياح. ولم تكن كلّ هذه الضّجة قد أيقظت ينج تشان. لقد كانت غارقة في شعرها الفاحم السّواد، وقد فتحت فمها الجميل قليلاً، وأغمضت عينيها، بأهدابها الوطفاء وتبدّد الإرهاق الذي كان جلياً على محياها، قبل أربع ساعات أو خمس، عندما اندفعت إلى الدّارة، وعاد الصّبا البريء إلى وجنتيها، وبدا تنفّسها هادئاً ومنتظماً، وتقلّبت في الفراش بدلال وكأنّها في حلم بهيج.

أصبحت الأميرة ينج تشان، من جديد، بعيدة عن يدي هوندا.
واستمرّ الموسم المطير المجرد من البدر متطاولاً.

لم يرغب في ذلك الصّباح، عندما لمح وجه الفتاة الغافية في
إيقاظها. وبعد أن طلب من كيكو أن تعني بها، عاد إلى طوكيو. وفي
غمرة خجله من نفسه لم يقدر له أن يراها، كما أنّها لم تتصل به.
ومع بداية الفترة الهادئة، الأمانة ظاهرياً، بدأت علامات الغيرة
تظهر على رايبى.

- إنّنا لا نسمع شيئاً عن الأميرة التايلانديّة هذه الأيام.

هكذا، كانت تقول، على نحو عابر، خلال تناول وجبة طعام،
وقد حملت كلماتها لمحة من السخرية، ولكن عينيها أخذتا تتفحصان
في لهفة.

شرعت في رسم لوحات، بعيدة عن التّرابط، على حائط أشهب لم
يكن يعكس شيئاً بالنّسبة لها.

وكان من عادة هوندا أن ينظّف أسنانه بالفرشاة، كلّ صباح
ومساءً. ولاحظ أنّ فرشاة أسنانه تتغيّر كثيراً، قبل أن ينالها البلى
بوقت طويل، فافترض أنّ رايبى ربّما كانت قد اشترت مجموعة كبيرة
منها، من النّوع نفسه، واللّون عينه، والصّلابة ذاتها، وأخذت
تغيّرها، حسبما يترأى لها مناسباً. ولكن التغيّرات كانت بالغة
التعدّد، وعلى الرّغم من أنّها كانت ممّا لا يؤرّبه له، فقد لفت نظرها
إلى الأمر.

- ما أشدَّ بخلك! أليس من الغريب، بالنسبة للمليونير، أن يوفّر
مالاً من وراء شيء مثل هذا!

هكذا جاءه ردها الذي قالته وهي توشك على التلعثم، من فرط
الغضب. ودون أن يدرك السرّ في حنقها فقد ترك الأمر عند هذا
الحدّ. ولكنّه أدرك فيما بعد أنّ فرشاة الأسنان تتغيّر في الصّباحات
التالية لليالي التي يعود فيها إلى الدّار متأخراً. ويبدو أنّ رايب كانت
تقوم بتغييرها خلسة، بعد أن يأوي إلى فراشه. وفي اليوم التالي
تفحص بدقّة قاعدة كلّ شعرة لامعة في الفرشاة القديمة؛ لتحديد ما إذا
كانت هناك آثار لأحمر شفاه، أو لعطر واهن ممّا تستعمله امرأة في
مقتبل العمر، ثمّ تتخلّص منها.

كانت لثة هوندا تدمى في بعض الأحيان، لسبب أو لآخر، وعلى
الرّغم من أنّه لم يكن بعد بحاجة إلى طقم أسنان كامل، فإنّه كان
يشكو بين الحين والآخر من التهاب اللثة. ترى كيف فسّرت رايب
اللّطخ الحمراء الوردية التي كانت تشوب جذور شعرات فرشاته في
بعض الأحيان؟

لم يكن تفكيره إلا من قبيل الحدس، ولكن أتت أوقات بدت فيها
رايب وكأنّها عالم أخذته هوس العلم، فكرّس نفسه لإبداع مركب
جديد من الأوكسجين والنيتروجين في الهواء. وقد بدت ضجرة من
وقت الفراغ المتاح لها، ومع ذلك كانت عيناها وحواسها بالغة الحدّة
والرّهافة. وعلى الرّغم من شكواها دونما توقّف من نوبات الصداع،
فقد كانت تجوب دوماً بخطى عصبية الممرّات العديدة في دارها
العتيقة.

وعندما اتّفقت ذات مرّة أن طرح موضوع الدّار، أشار هوندا إلى أنّه

شيدها لكي يتاح لها الاستشفاء فيها من حالة كليتها.
وقالت، منخرطة في البكاء، وقد أساءت فهم ما يقصده:
- أتقول إن عليّ الذهاب إلى تلك المقبرة بمفردي؟

كانت على حق في إدراكها حبّ هوندا لينج تشان وكان قد بدأ منذ ذهب إلى جوتوبا وحيداً. وقد وصلت إلى هذا الاستنتاج من التزامه الصمت حيال الفتاة، ولكنّها لم تفترض قطّ أنّه لم يرها، منذ ذلك الحين. وجانبها الصواب في اعتقادها أنّه يراها سرّاً، ومن هنا فإنّه يرغب في إزالة ذلك الاسم من ذاكرة زوجته.

بدا هذا الهدوء رهيباً؛ فقد كان له ذلك السكون الذي يميّز مخبأً يجتمى به انفعال هارب من مطارديه. وقد أحسّت رايمي من خلال حدسها بأنّه قد أعدتّ مآذبه سرّيّة خاصّة لن يقدر لها أبداً أن تُدعى إليها.

ما الذي كان يجري؟

وقد أصاب حكمها أيضاً عندما ظنّت أن شيئاً ما قد حدث، على الرّغم من أنّ هوندا نفسه كان يشعر بأنّ كلّ شيء قد انتهى.

ولما كانت رايمي قد توقّفت تماماً عن الخروج من الدّار فقد بدأ هوندا بمغادرتها على نحو يفوق ما كان يفعل من قبل، حتّى وإن لم يكن هناك غرض بعينه من وراء الخروج. وقد أشعره بالاختناق الوجود الدائم لزوجته التي بقيت في الدّار متذرّعة بالمرض.

ما إن يغادر هوندا الدّار حتّى تدبّ الحياة في رايمي. ومن المفترض نظرياً أنّها ينبغي أن تقلق على الغرض من خروجه، دونما تفسير، ولكنّها تمكّنت من التعايش مع مخاوفها التي أصبحت مألوفة الآن. وهكذا أصبحت الغيرة أساساً لحرّيتها.

بدا هذا الشَّعور مائلاً للحبِّ، وكان قلبها على الدَّوام واقِعاً في الشَّرْكَ، متخَبِّطاً في جنباته. وقد حاولت على سبيل التَّغْيِير، ممارسة فنِّ الخطِّ، ولكن يدها كانت تخطُّ دوغماً قصد حروفاً ترتبط بالقمر. . . «ظلال القمر». . . «جبل في سنى القمر».

لاح أمراً مقرزاً، بالنسبة لها، أن يكون لفتاة في مقتبل العمر كينج تشان مثل هذين الثديين الكبيرين، فأخذت تؤلِّف من الحروف المشكَّلة لـ جبل في سنى القمر» التي تكتبها من غير أن تقصد جبلين على هيئة نهدين يسبحان في سنى القمر. وقد ارتبط هذا بذكرياتها عن التلين التوأمين في كيوتو. ولكن مهما كانت براءة الذِّكريات فقد كانت رايمي تخاف من أي شيء قد يثير هذه الذِّكريات. وكانت قد شاهدت التلين التوأمين في رحلة خلال دراستها بالمرحلة الثانوية، وعندما استعادت ذكرى ترجُّح نهديها الصَّغيرين المتعرِّقين تحت الزِّي المدرسيّ الصَّيفي الأبيض، أحسَّت بنفسها تتلوَّى.

كان هوندا قد شعر بالقلق إزاء هشاشة صحَّة رايمي، وأراد الاستعانة بكثير من الخدم. غير أنها تعلَّلت بأنَّ مشاغلها ستتضاعف إذا اضطرت للإشراف على عدد كبير من الأشخاص، واكتفت بخادمتين في المطبخ. وقد قلَّ الآن بشكل كبير العمل الذي أحبَّته هناك على مدار السنين، وفضلاً عن ذلك فإنَّه لم يكن بالأمر المناسب لساقها أن تقف، ولو لفترة قصيرة، على الأرض الباردة. ولم يكن أمامها من بديل إلاَّ المكوث في غرفتها، وأبدت اهتماماً بالحياكة. وكانت ستائر غرفة الجلوس قد نحلت فطلبت أممِشة حريريَّة من تاتسومورا في كيوتو. وحأكت ستائر جديدة من القماش بزخارفه المطبوعة التي نقلت عن الأصل الموجود في شوسو - إين في نارا.

دعمت رأيي بعناية النسيج بقماش أسود لتحول دون نفاذ الضوء لدى إسدال الستائر، وقد لاحظ هوندا ذلك خلال عكوفها على العمل.

- أظن أننا مازلنا في زمن الحرب!

قالها هوندا مداعباً، وكتيجة لهذا فقد أصبحت أشد عناداً في إكمال ما شرعت بإنجازه. لم يكن ما يعينها هو تسرب الضوء من الداخل، وإنما تسلل ضوء القمر.

قرأت رأيي، خلصة، مذكرات زوجها، خلال غيابه عن الدار، واغتاضت عندما لم تستطع العثور فيها على ذكر لينج تشان. وكان هوندا قد درج، من باب الحرص، على عادة الامتناع عن كتابة أي شيء عاطفي في مذكراته.

وعثرت بين وثائق زوجها على سجل بالغ القدم بعنوان «يوميات الأحلام»، وكان اسم كيواكي ماتسوجاي مكتوباً فيه. وكان الاسم مألوفاً بالنسبة لها؛ فقد ذكره هوندا كثيراً. ولكنه لم يتحدث قط عن هذه اليوميات، وكانت تلك بالطبع المرة الأولى التي يقع فيها نظرها عليها.

وتصفحتها فأدهشتها الصور الخيالية المجردة الواردة فيها، فأعادتها في حرص إلى موضعها؛ ذلك أنها لم تكن في معرض السعي وراء صورة خيالية. فقد كانت الحقيقة هي الشيء الوحيد الذي تؤمن بأنه يمكن أن يشفيها تماماً.

عندما يحدث، لدى إغلاق جارور، أن يعلق ردن كيمونو، فإن درزات الرदन والجزء العلوي لا بد أن يتمزق لدى ابتعاد المرء. ومع

تكرار تجارب مماثلة فإن أردان فؤاد رايبى تمزقت إرباً. لقد أسرها شيء ما، ولكن فؤادها كان فارغاً وفاتراً.

تواصل انهار المطر ليلاً ونهاراً. وكان بمقدورها أن ترى من النافذة نباتات الكوبية المبللة، ولاحت كرات زهور بنفسجية فاتحة طافية في النهار الكابي، فيما كانت روحها تنطلق شاردة في البعيد.

لم يكن ثمّة شيء أدمى للمعاناة من فكرة وجود الأميرة «سنى البدر» على قيد الوجود في هذه الدنيا. وقد تبددت الدنيا بسبب الأميرة.

عاشت رايبى، طوال عمرها، دون أن تعرف، ولو لمرة واحدة، الرعب الذي تثيره الانفعالات. وهكذا فقد أدهشها اندلاع المشاعر العارمة، النابعة من العزلة، في أعماقها. فقد ولدت المرأة العقيم، ولكن ما ولدته كان مسخاً مروعاً.

وعلى هذا النحو تعلمت رايبى أنّ لها بدورها خيالاً، وأنّ ما لم يستخدم قطّ، أنّ ما تعرّض للصدأ في ركن من أركان حياتها الطويلة الهادئة، قد انتزع من الأرض بحكم الضرورة، وتمّ تلميعه وشحذه. وعلى أية حال فإنّ ما يولد بحكم الضرورة تصاحبه المرارة. ونزعتها الطبيعية نحو انطلاقات الخيال لم تكن مقترنة بالعدوثة.

ربّما قدّر للخيال القائم على أساس من الواقع أن يفتح الذهن، ويجرّه، ولكن الخيال الذي حاول أن يقترب من الحقيقة، كأقصى ما يكون الاقتراب، ما كان يمكن إلا أن يحطّ من قدره، وأن يجعل معينه ينضب. وفضلاً عن ذلك فإنه إذا لم يكن لهذه الحقيقة وجود بالفعل، فإنّ كلّ شيء يستحيل في التو إلى عبث وجهد لا طائل تحته.

ولكن تخيل جريمة فيها بعض الحقيقة لا يلحق ضرراً بأحد. وقد كان خيال رايب سيفاً ذا حدّين. فقد آمنت بأنّ هناك حقيقة في موضع ما، ورغبت في ألا يكون لهذه الحقيقة وجود. وهكذا فإنّ خيالها الغيور وقع في مصيدة إنكاره لذاته، ومع ذلك لم يستطع تحمّل وجوده هو نفسه. وكما أنّ الحموضة الزائدة في المعدة تعمل تدريجياً على تآكل جدرانها، فكذلك خيالها جعل جذر قدرته على التخيل يتآكل، ودفعها في الوقت نفسه رغبة في أن يتمّ إنقاذها، رغبة كانت بمثابة صرخة بطلب النجدة. الحقيقة؟ لو كانت هناك حقيقة لنجت رايب! وقد بدأت، على نحو حتمي، الرّغبة التي ظهرت في نهاية مثل هذا البحث الاستحواذي الأحادي الجانب تشبه حافزاً لمعاقبة الذات، لأنّ تلك الحقيقة - إن كانت موجودة حقاً - من شأنها أن تسحقها. ولكن العقاب الذي تمّ السعي إليه والوقوع تحت طائلته، على نحو طبيعي، يعكس معنى من معاني غياب الإنصاف. لماذا ينبغي أن يُعاقب وكيل بدلاً من أصيل؟ من شأن ذلك أن يكون قلباً للأمر. وإذ حدث في نهاية المطاف ما تآقت إليه، فإنّه بدلاً من بهجة التحقق سيندلع السخط والغضب. وحتى الآن فإنّ بمقدورها أن تستشعر وقدة الخطر الداهم. لا ينبغي لها أن تسمح بحلول مثل هذا الظلم، لا ينبغي أن تعرّض نفسها لمثل هذا الألم الفريد الذي لا سبيل إلى مقارنته بغيره، ذلك أنّ في معاناة الشكّ ما يكفي، فلماذا ينبغي أن تراكم عليه ألم إدراك الأمر؟

إنّها الرّغبة في البحث عن الحقيقة، وإنكارها رغم ذلك، الرّغبة في إنكار الحقيقة والسّعي مع ذلك نحو الخلاص وحده فيها. وقد مضى هذا الانفعال مدوّماً للأبد في دوائر، تماماً كالرّاحل الضالّ على جبل وهو يمشي إلى النقطة التي بدأ منها.

كان الأمر يشبه الانغماس في الضباب، حيث تبدو التفاصيل في
منطقة واحدة جليّة على نحو رهيب. والمرء يتبع شعاعاً من نور لا
شيء إلا ليكتشف أنّ القمر ليس هناك، بل هو بالأحرى وراء
ظهره، وأنّ ما يراه أمامه ليس إلا انعكاساً.

غير أنّ رايمي لم تفقد تماماً كلّ مشاعر تمحيص الذات. فقد كانت
تشعر، في بعض الأحيان، بالاشمئزاز من نفسها، وبالرغبة في أن
تحفي وجهها خجلاً وشعوراً بالعار. وقد أحسّت بأنّها لا يد لها في
تحوّلها إلى مخلوق قبيح لا يمكن أن يكون موضعاً للحبّ، بسبب
زوجها. وساورها شعور بأنّ زوجها قد حوّلها إلى شيء مُحْتَقَرٍ لأنّه
ليست لديه رغبة في حبّها. وعندما وصلت إلى إدراك ذلك تفجّرت
الكراهية في صدرها تفجّر النّع الدافق.

ولكنّها مالت في حالتها تلك إلى تجنّب حقيقة الأمر القائلة بأنّه حتّى
إذا لم تكن الغيرة قد حوّلتها إلى مخلوق مثير للاشمئزاز، على هذا
النحو، فإنّ هناك أسباباً أخرى حوّلتها إلى ما هي عليه الآن، وأنّها
حتّى لو ظلّت دونما تغير لما بقيت موضعاً للحبّ. وزوجها هو بحكم
الظروف رجل يتعيّن ازدرأؤه. ولكنّه، نظراً إلى احتياجه إلى الابتعاد
عن مفاتها، ما كان يمكنه تجنّب تحويلها إلى مخلوق لا سبيل إلى حبه.

اعتادت على التّحديد لفترات طويلة في مرآتها. وقد أكّدت لها
خصلات من الشّعر الأشعث افتقار وجنتيها للوسامة. وكان كلّ ما
يحيط بها مصطنعاً، بما في ذلك تورّم وجهها.

درجت منذ إدراكها هذا التورّم، قبل سنوات، على التجمّل
المكثّف، فقد كانت تكره النّحو الذي تبدو به عيناها مختلفتي اللّون
عن باقي وجهها، فلجأت إلى استخدام قلم أسود قاتم للمحاجين

وذرور ثقيل . وعندما كانا أصغر سنّاً اعتاد هوندا مداعبتها بمناداتها بـ «وجه القمر» . وقد ضايقها أن توجّه لها ملاحظة بشأن علّتها، ولكن في اللّيلة الّتي ناداها فيها بـ «وجه القمر» كانت عاطفته أشدّ حرارة على نحو خاصّ، وظنّت أنّ علّتها ربّما ضاعفت من تأجّج شعوره نحوها، وبدأت تفخر بوجهها . ولكن لدى تأمل الأمر بدت الرّغبة الجنسيّة الّتي استمدّت وحيها من مرض الاستسقاء الّذي تعانیه، متضمّنة قسوة مراوغة . والحقّ أنّ مضاجعته إيّاها في تلك اللّيالي كانت مشبوبة، ولكن في ضوء تذكيره إيّاها بأنّ عليها أن تظلّ سلبية بشكل مطلق، فإنّه ربّما كان يطلق العنان لوهم قوامه أنّه يضاجع جيّنة امرأة متورّمة الوجه، مضت عدّة أيّام على موتها .

كان ما انعكس في صقال المرأة حطاماً حيّاً . وتحت شعرها الّذي فقد حيويته، بدت أوتار خبيثة على ملامحها الدائريّة وكأنّها أضلع مروحة مستديرة . لقد تحوّلت وجهها تدريجيّاً إلى وجه لا ينتمي بحال إلى امرأة، ولم يعد للاستدارة الأنثويّة من وجود إلّا في التورّم . وحتىّ هذا التورّم بدا استدارة باردة، ناصلة، مرهفة، لقمر في ضوء النّهار .

من شأن وضع مواد التّجميل الآن أن يعطي إشارة على الهزيمة فحسب . ولكن كونها قبيحة أيضاً هزيمة . وقد فقدت كلّ رغبة في إصلاح عيوب وجهها، على نحو ما يتبدّى حالياً لها، وهكذا بقي الانبعاث انبعاثاً، والقبح قبحاً، واستمرّ كلّ شيء في هدوء شأن ارتفاع التلال الرملية وسقوطها . وحدثت نفسها بأنّه ربّما لم يكن الخطأ خطأ زوجها فحسب، فيما يتعلّق بجزءها عن انتزاع نفسها بعيداً عن الغيرة، وإثماً الأمر راجع إلى ضجر هائل احتواها كغطاء فراش ثقيل . وأحسّت بأنّها ستحتاج إلى قدر نحيف من القوّة لإبعاده، وبتراح لم

تفعل شيئاً في هذا الصّدّد. ولكن إذا كانت كسولاً إلى هذا الحدّ
فلماذا لم تستطع حتى مجرد العثور على سلام مؤقّت؟

تذكّرت فجأة الجمال الشتائي لجبل فوجي الذي كان بمقدورها أن
تراه من طابق الدّار الثاني بعد وقت قصير من زواجها. وكانت حماها
قد طلبت منها إنزال أدوات المائدة المخصّصة لاحتفالات العام
الجديد، ومضت طائعة إلى الغرفة المتّخذة مستودعاً لمثل هذه الأشياء
في الطّابق الثاني. ولقد رأت فوجي من هناك. وكانت قد ربطت
خيطاً أحمر عبر كمي رديها لإبقائهما إلى أسفل على نحو ما تفعل
العرائس الحديثات العهد بالحياة الزوجيّة.

لاحظت أنّ السّماء قد انقشعت، وأنّ نور المساء بدا واهناً. وإذا
حدّثت نفسها بأنّ التطلّع إلى جبل فوجي قد يهدئ من روعها فقد
صعدت إلى غرفة المستودع في الطّابق الثاني للمرّة الأولى منذ سنين
عديدة. واعتلت أغطية أسرة الضّيوف المكوّمة، وفتحت النّافذة
بزجاجها المضمّب. وكانت سماء ما بعد الحرب، على عكس سماء
الأيام السّابقة، مضيئة، ولكن غيمياً يشبه غراء السّمك ضرب أطنابه
في كلّ مكان، ولم يترأّ فوجي للعيان.

استيقظ هوندا، شاعراً بالحاجة إلى التبول. يا للأطراف الممزقة
للأحلام التي لم تكتمل!

كان قد شعر بالرغبة في الترييض في حيّ سكنيّ من أحياء طوكيو،
بصفوف حدائقه المحاطة بالأسوار. وبدأت الدّور صغيرة، وأمامها
وضعت البونسيه على رفوف في الأفنية. ولاحت الحدائق رطبة حافلة
بالخلازين الحتمية الوجود. وقد جلس طفلان أحدهما قبالة الآخر،
على حافة شرفة، يرتشفان الماء المحلّي الدافئ، ويتذوّقان الرقائق الهشة
ذات الأركان المتكسرة. لقد كان الحيّ واحداً من أحياء طوكيو التي
اختفت منها مثل هذه المشاهد كلبية الآن. ووصل إلى زقاق موصد
النهاية تحيط به الأسوار. وفي النهاية البعيدة لاح بوب من خشب
متهاك.

عندما فتح البوب ودخل، ألقى نفسه أمام الحديقة الأمامية
المتألّقة لفندق عتيق الطراز، وكان ثمة حفل مقام بالحديقة يمضي
قدماً. وتقدّم المدير ذو الشارب الشبيه بشارب رونالد كولمان، وانحنى
في إجلال.

عندئذٍ، على وجه الدّقة، صدر صوت أبواق متألق وخافت متناهِياً
من خيمة مائدة الطعام، وانشقت الأرض فجأة وظهرت الأميرة «سنى
البدري» في ثوب ذهبيّ، على الجناحين الذهبيين لطاوس. وصفق
الجمع فيها كان الطاوس يملق فوق الرّؤوس محدثاً بحناجيه صوتاً
يشبه قرع الجرس.

كشفت فخذاً الأَميرة «سنى البدر» السمرِوان المتألقتان المنفرجتان، عند اتصّالهما بالطّاورس الذهبى، عن مكنوناتها الخفية، وفي وقت قصير اندفق منها إلى أسفل فيض من البول المعطر فانسفح على وجوه النظارة المتطلّعين إلى أعلى.

تساءل هوندا: لماذا لم تمضِ إلى المرحاض؟ لا بدّ أن يوبّخها، على مثل هذه الأخلاق غير الحميدة. ودخل الفندق بحثاً عن حمام.

في الدّاخل، غمر السّكون التامّ المبنى، مفارقاً الضّجيج المدوّى في الخارج. كان كلّ باب من أبواب الغرف موارباً قليلاً، ففتح هوندا كلّ منها، ورأى أنّ كلّ غرفة خالية، باستثناء وجود تابوت على الفراش. وحدهُ صوت بأنّ ذلك هو الحمام الذي يبحث عنه.

وإذ عجز عن المزيد من الاحتمال فقد ولج غرفة من الغرف وحاول التبوّل في التابوت، ولكنّه لم يستطع، خوفاً من ارتكاب هذا التدنيس للحرمات.

وعند ذلك استيقظ.

كانت مثل هذه الأحلام مؤشّرات مثيرة للشفقة على الشيخوخة، عندما يتواتر الدّافع إلى التبوّل على فترات أقصر فأقصر. وبعد عودته من المرحاض، في كامل اليقظة ووضوح الذّهن، انشغل بإعادة الإمساك بخيوط الحلم المقطوعة، فقد كان يعلم أنّ ثمة سعادة لا موضع لإنكارها تكمن في القيام بذلك.

تمنى لو يعيد الإمساك بهذا الشّعور بالنشوة المتألّقة، بجعلها تتواصل، ففي غمرتها بهجة نقيّة إلى الحدود القصوى وعلى نحو متألّق، تنطلق دوغماً تحفّظ. وكانت النشوة حقيقية. ولو كان باستطاعة هوندا، حتّى في غمرة حلم، ألاّ يظنّ أنّ نشوة الإمساك بشريحة غير

قابلة للتكرار من الزّمن في حياته هي نشوة حقيقيّة فماذا عسى الواقع أن يكون غير ذلك؟ وعندما تطلّع إلى السّماء لمح الشكل المتحوّل للملك حكمة الطّاووس بارزاً في تناسق تامّ من الانجذاب والتعاطف محلّقاً وقد امتطى الطّاووس. وكانت ينج تشان المرأة المقدّرة له .

في صباح اليوم التّالي كان الشّعور بالسّعادة مستمراً على نحو مميّز وحتى بعد استيقاظه، وألفى نفسه في أفضل حالاته المعنويّة .

كان الحلم الذي تراءى له في غفوته الثانية، بالطّبع، بالغ الغموض والبعد عن التميّز، بحيث لم يكن بمقدوره تذكّره. فلم يستطع أن يتذكّر إلاّ أنّه لم يضمّ شيئاً من سعادة الحلم الأوّل. ولكنّ الضّوء المتألّق في هذا الأخير اخترق تراكم الثاني الذي كان يشبه ثلجاً كدّسته الرّيح، والذي بقي في ذاكرته حتى الصّباح.

مضى يفكّر من جديد طوال اليوم في ينج تشان، مستخدماً غيابها حجة لذلك، ودهش عندما أدرك أنّ شيئاً يشبه عاطفة الحبّ الأوّل، في صدر الشّباب الذي لم يعرفه قطّ، قد تدقّق في عروق جسمه، الذي شهد سبعة وخمسين ربيعاً.

ولدى تفكيره في الأمر، لم يبد له السّقوط في الحبّ شيئاً غريباً فحسب، بل بدا مضحكاً أيضاً. فقد كان يعرف تمام المعرفة من خلال رصد كيواكي ماتسوجاي عن كذب أيّ نوع من الرّجال ينبغي أن يسقط في الغرام.

السّقوط في الحبّ امتياز خاصّ يمنح لشخص يسمح له مظهره الخارجيّ، وفتنته الحسيّة، وجهله الدّاخلي، وافتقاره للتنظيم، وغياب إدراكه، بتشكيل نوع من الصّورة الخياليّة عن الآخرين. وكان امتيازاً

فقطاً. وكان هوندا يدرك حق الإدراك أنه منذ طفولته كان نقيض مثل هذا الرجل.

عديدة هي المرات التي لاحظ فيها تضارب مصائر البشر، الذي يسمح لفرد بأن يساهم في صنع التاريخ، من جراء جهله، بينما لا يحظى آخر بذلك بسبب تلهفه عليه. وهكذا آمن بأن أعظم سبب لعدم حصول المرء على ما يرغب فيه يكمن في رغبته في ذلك الحصول. ولأن هوندا لم يرغب قط في المال فقد تدفقت الملايين عليه.

على ذلك النحو مضى يفكر. ولم يكن عجزه عن الحصول على أي شيء ناتجاً عن أي قصور أو عيب فطري كامن فيه، أو سوء طالع ملاصق له. وإنما كان من عادته أن يصوغ كل شيء في صورة قوانين، وأن يفكر على نحو شمولي. ولذا لم يكن عجباً أن ينطلق ليطوق هذا الأمر. وكان من عادته القيام بكل شيء بنفسه، وهكذا كان باستطاعته بسهولة أن يؤدي دور المشرع ومنتبهك القانون معاً. وبتعبير آخر فقد قصر ما يريده على ما لا يمكنه قط الوصول إليه. ولو أنه حصل صدفة على مناط رغبته فإنه يغدو بلا قيمة دونما استثناء. وهكذا فقد كافح ليعزو كل أنواع المستحيلات إلى موضوع رغبته هذا، لإبعاده عن مطاله بأقصى ما يستطيع، أي أنه حمل في قرارة فؤاده فتوراً عاطفياً.

وفي حالة ينح تشان تحقق انغماس هذه الوردة التايلاندية، الكثيفة البتلات، في الغموض على نحو كامل تقريباً، بعد حادثة تلك الليلة في جوتوبا، وتمثل في رفعها إلى مكانة لا سبيل للوصول إليها، إلى موضع لا يستطيع إدراكه التناهي إليه (كان طول ذراعه، في المقام

الأول، هو المدى الذي يمكن لإدراكه أن يخلّق إليه). واللذة التي يحصل عليها المرء من الرؤية تفترض مسبقاً بالضرورة مجالاً لا سبيل إلى رؤيته. وقد شعر هوندا بأنه رأى نهايات العالم، خلال تجربته في الهند، وأراد أن يعرف الشعور الذي يخالغ حيواناً متراحياً يعلق فرّوه الذي لطّخه الراتنج، ويسترخي في فيض من سنى الشمس، باعثاً طريدته إلى مكانٍ لا تستطيع أن تبلغه قطّ مخالِب الإدراك. ترى أكان يحاول تقليد الإله في محاولته تقليد مثل هذا الوحش؟

كان أمراً لا يطاق، بالنسبة لهوندا، أن تتطابق رغباته الحسيّة على نحو كامل مع رغبته في الإدراك. وكان يعرف حقّ المعرفة أن الحبّ لن يولد في أعماقه أبداً ما لم يستطع فصل هذين الأمرين، فكيف يمكن أن تبرعم وردة بين جذعين عملاقين ملتفين وقبيحين؟ لا ينبغي أن يتفتح الحبّ كزهرة أرجوانية متطفلة على أيّ من هذين الجذعين بجذورهما المتهذلة التي لا تعرف الخجل، ولا من رغبته - المجردة من الطّعم أو النكهة - في الإدراك، ولا من شهوته الزّنخة التي تعكس سبعة وخمسين عاماً. كان من الضّروري أن تبقى ينج تشان بعيداً عن متناول رغبته في الإدراك، أن يتعامل فقط مع استحالة رغبته.

كان الغياب هو الأفضل لهذا. وكان كذلك حقّاً. لقد كان المادّة الوحيدة النقيّة والكاملة لحيّه. ودون هذا الغياب فإنّ وحش الإدراك الليلي سيشرع توّاً في التفجّر غضباً، وسرعان ما يمزق كلّ شيء إرباً بمخالبه الحادّة، مُعملاً أنيابه في المجهول، محوّلاً كلّ شيء إلى جثث مألوفة، داخلاً مشرحة الإدراك - إنّ هذا المرض المضجّر على نحو مخيف كان قد تمّ شفاؤه ذات مرّة على يد الهند. ألم يحدث ذلك؟ تمثّل ما علّمته إيّاه الهند وبنارس من أنّه ينبغي هرباً من الإدراك المطلق، أن

تُودَع بينج تشان، شأن وردة وحيدة باقية، بعيداً في مؤخرة رف مكتبة
أبنوسي مُترب، وأن يكون بمقدوره التظاهر بأنه يعرفها بالفعل، حتى
تهرب من عيني إدراكه. وقد حَقَّق هوندا ذلك، فأودعها رف المكتبة
بنفسه، وبمحض إرادته لم يرفع عنها المغاليق.

منذ زمان بعيد اقترف كيواكي ما لا يليق، بعد أن فُتِنَ بالمستحيل
على نحو تامٍّ في استحالته. ولكن هوندا خلق المستحيل حتى لا
يقترف انتهاكاً بحقه. ذلك أنه لن يكون بمقدور الجمال في اللحظة
التي يحاول فيها اقتراف الانتهاك، مواصلة الوجود في هذا العالم.

تذكر نضارة ذلك الصّباح الذي اختفت فيه بينج تشان. لقد كان
جانب من نفسه يدفعه الخوف قُدماً، غير أن جانباً آخر استمتع
بالموقف. وحتى بعد أن اكتشف أنها لم تكن في غرفتها، فإنه لم يحسّ
بالذعر، ولم يقم باستدعاء كاتسومي في الحال، بل غرق في تنسّم
العُرف الكليّ الوجود الذي خلّفته وراءها.

كان صباحاً جميلاً، مشرقاً، وقد لاح غطاء الفراش مجعداً فرصد
في الثنايا الدقيقة بالملاءة دليلاً على الموضع الذي تقلّب فيه الجسم
المحموم وتلوى، في غمرة ضيقها. والتقط خصلة متجعّدة من الشّعر
اختفت تحت طيّات الغطاء الذي أشبه ملاذاً عانى فيه حيوان صغير،
جميل، وتطلّع ليرى ما إذا كانت هناك آثار من رضاب بينج تشان
الشفاف، في التجويف الذي أحدثه رأسها بالوسادة التي احتفظت
بهذا الانبعاث البريء.

وعند ذلك فحسب هبط لإبلاغ كاتسومي بالأمر.

شحب وجه كاتسومي، إلى حدّ البياض. ولم يواجه هوندا صعوبة
في إخفاء أنه لم يفاجأ بالأمر على الإطلاق.

وقرّرا الاشتراك في البحث عنها.

سيكون من قبيل مجافاة الحقيقة، بالنسبة لهوندا، أن ينكر أنه قد راودته وقتذاك خاطرة موت ينج تشان. ولم يكن يؤمن بأنها ماتت، ولكن، في هذا الانقطاع المشمس في الموسم المطير، تهادى الموت حتى مع عقب قهوة الصّباح الذي ذهب هدراً. وقد أطبق على الصّباح شيء مأساوي كأنه إطار فضيّ بديع. وكان برهاناً على جمال تراءى لهوندا في أحلامه.

وعلى الرّغم من أنه لم تكن لديه على الإطلاق نية في القيام بشيء من هذا القبيل، فقد أشار لكاتسومي بأنه ربّما كان من المتعين عليهما أن يخطرا الشّرطة. واستمتع بالتعبير المفعم بالانزعاج الذي ارتسم على محيا كاتسومي نتيجة لهذه الإشارة.

تخيّل هوندا بانفعال جثة ينج تشان طافية في المسبح الذي عكس زرقة السّماء. ومضى إلى الشرفة، وتطلّع إلى البريكات التي خلفها المطر في موقع الحفر، وأحسّ بأنّ الزجاج الذي يفصل الواقع عن المتخيّل قد تشظّى تماماً في تلك اللّحظة، وبأنّه في إمكانه أن يدلف بيسر على هذا النّحو إلى عالم المجهول. ولقد كان يمكن أن تكون الدّنيا أيّ شيء في ذلك الصّباح، فكلّ شيء محتمل الوقوع: الموت، القتل، الانتحار، بل وحتى الدّمار الشّامل، وسط هذه البانوراما النّافرة المشرقة.

وفيا كان وكاتسومي ينحدران، عبر الطّريق الضيّق الذي يحترق المرحة المبلّلة، أخذ يستمتع، محلّقاً على جناحي الخيال، بنذير يوحي بانهار مكانته الاجتماعيّة التي كانت ذات يوم شيئاً يعتدّ به، وذلك وسط مشادة هائلة، إذا ما قدّر لفضيحة انتحار أن تظهر في

الصحف. ولكن تلك كانت مبالغة تدعو للسخرية. فالحادثة وقعت بين كاتسومي وينج تشان وحدهما، ولم يدر أحد في الدنيا بشيء عن ثقب هوندا المخصّص للتلصّص.

وللمرّة الأولى منذ أيام عديدة، كان بمقدور المرء أن يرى فوجي فيما وراء الحديقة. كان جبلاً حلّ عليه الصيف بالفعل، وبدت جوانبه مشرعة عالياً، على نحو غير متوقّع، وتوهّج لون الأرض في شمس الصّباح كقرميد غمره المطر. ألقيا نظرة على الغدير، وبحثا في غابات الصنوبر.

وعندما غادرا الأراضي المحيطة بدارة هوندا اقترح الأخير أن يمضي كاتسومي إلى دار كيكو حيث قد يعثر على ينج تشان، ولكنّه رفض في عناد القيام بهذا، عارضاً بدلاً منه أن يمضي بالسيارة لبحث على امتداد الطريق، فقد كان يخشى مواجهة عمّته.

شعر هوندا نفسه بالتردّد فيما يتعلّق بزيارة كيكو في مثل هذه السّاعة المبكرة، ولكنّ الزيارة كانت أمراً لا سبيل إلى تجنّبه في هذه الحالة. وضغط على الجرس فظهرت كيكو على نحو مفاجئ، وقد استكملت زينتها وارتدت ثوباً بلون الزمرد وسترة.

قالت، على نحو عادي تماماً:

- صباح الخير. أتبحث عن ينج تشان؟ لقد جاءت إلى هنا والظلام ما يزال يحيم على الكون. وهي نائمة الآن في فراش جاك. ولم يكن جاك هنا لحسن الحظّ. ويا له من مشهد ذاك الذي كان يمكن أن يحدث لو أنّه كان هنا! وبما أنّها بدت منزعجة فقد قدّمت لها بعضاً من شراب الشرتروز، وتركتها تأوي إلى الفراش. وبعد ذلك جافاني

النوم فلم أعد للفراش . يا لك من رجل فظيع ! لكنني لم أطرح أسئلة
عما حدث . أتودّ رؤية محياتها الجميل وهي غافية؟

كبح هوندا، وهو ما يزال يتمسك بأهداب الصبر، جراح رغبته في
رؤية ينج تشان . فهي لم تتصل به ، ولا اتصلت كيكو .
أخذ ينتظر أن يتملك الجنون ناصيته .

وتهدّد قلق جائح عقله ، وكما قفز الثعلب العجوز في مسرحية
«صيد الثعلب» السّاخرة على طريدته رغم إدراكه التام خطر الوقوع
في فخّ ، أخذ هوندا ينتظر اللحظة التي سيُدفع فيها إلى التدمير
الأعمى للذّات ، بالرغم من خبرته ومعرفته وحذقه ومهارته وعقله
وموضوعيته - أو بالأحرى كان في انتظار اللحظة التي يؤدي فيها تراكم
هذا كله إلى الاندفاع للقضاء على الذّات .

وكما يتعيّن على فني في مقتبل العمر أن ينتظر النضج ، فقد كان
على رجل في السّابعة والخمسين أن ينتظر نضجه ، وكان ذلك النضج
بأتجاه الكارثة .

عندما تفقد كلّ الأشجار في أجمات تشرين الثاني (نوفمبر) الدّاوية
أوراقها، وتصفّر الوريقات المتساقطة على الأرض، وعندما يبدو المكان
في صفاء شمس الشّتاء أشهب وجافاً، كالأرض النقيّة، تظّل بقعة
قرميّة، واحدة، وسط الكرمات الميتة، مثل جحر حيّة . ويظّل ينتظر
مثلها نضجه ليصل إلى مرحلة الكارثة .

جعل عمر هوندا من الصّعب عليه أن يعرف ما إذا كان ما يسعى
إليه هو افتقار للفتنة يشبه اللّهب، أم أنّه الموت . وفي موضع لم يعرفه
على وجه التّحديد، كان ثمة شيء يُعدّ على مهل . والآن بدا أنّ
الشيء الوحيد اليقيني في المستقبل هو الموت .

غلب شعور حادّ بالوحدة عليه عندما سمع، في مكتبه ببناية مارونوتشي، محامياً شاباً يتلقّى اتصالاً هاتفياً خاصاً، محاولاً التستّر حتى لا يلحظ رؤسائه ذلك. وكان من الجليّ أنّ الاتصال من امرأة، وأخذ الشاب، في ضوء خشيته ممّن حوله، يفتعل التردّد، ولكن كان بمقدور هوندا أن يسمع على وجه التقريب في البعيد صوت الفتاة الرّائق الجذّاب.

ربّما كان الاثنان يتشاركان لغة سرّيّة، ويتواصلان باستخدام تعبيرات مشتقّة من أساليب رجال الأعمال. وأعدّ هوندا في ذهنه فجأةً خطّةً للتخلّص من الشابّ الذي كان شعره الجيّد التصفيف وعيناه الرومانسيّتان وشفثاته المفعمتان بالكبرياء أموراً لا تناسب جميعها مكتباً للمحاماة.

إنّ الوقت المناسب للاتّصال بكيكو التي تُمضي أيامها في الدّهاب لموائد الغداء وحفلات الكوكتيل ومآدب العشاء الرسميّة، هو الآن، أيّ الحادية عشرة من قبل الظّهر. وبعد استراقه السّمع لحديث المحامي الشابّ، كره هوندا إجراء اتّصال هاتفي بها بصوته العالي، من المكتب الصّغير فمضى إلى الخارج قائلاً إنّه ماضٍ للتسوّق.

كان ممرّ التسوّق المقنطر، في مبنى مارونوتشي، من الأماكن القليلة التي بقيت فيها أجواء طوكيو ما قبل الحرب. وقد استمتع هوندا بالتسوّق، عبر واجهات المحلّات التي تبيع السلع المخصّصة للرجال، وباختيار أوراق للممارسة فنّ الخطّ. ومضى سادة مهذبون، يبدو بوضوح أنّهم ينتمون إلى أنماط ما قبل الحرب، يسعون وراء صفقات معقولة، لا تثقل على جيوبهم، وأخذوا يسرون في حذر تجنّباً للانزلاق على

الأرضية الفيسفاسائية التي كانت زلقة بشكل خاص، عقب هطول المطر.

اتصل هوندا بكيكو من كشك للهاتف.

لم تردّ كعادتها في الحال، ولكنه كان على يقين من أنها في الدار، وقد تصوّر عجيزتها المكتنزة، الرائعة. لا بدّ أنها في قميصها التحتي تستكمل زيتتها، بعد أن اختارت الزي الذي سترتيده في مأدبة الغداء، وقد نسيت أمر الهاتف.

قالت بصوتها العذب، المترaxي:

- آسفة لجعلك تنتظر، فقد غاب عني أن اتصل بك. أكنت في

خير حال؟

- في خير حال. أشكرك. أتساءل عمّا إذا كان بمقدورنا تناول طعام الغداء معاً، في وقت قريب.

- آه. ما أطف هذا! ولكنك ترغب في رؤية ينج تشان، لا في

رؤيتي.

حار هوندا على الفور فيما عساه يقول، وقرّر انتظار مجيء المبادرة من كيكو، واكتفى بالقول:

- آسف لإزعاجك. وبالمناسبة، فهي لم تتصل بي قطّ بعد تلك

الليلة. هل رأيتها؟

- لا، لم أرها منذ ذلك الحين. أتساءل عمّا يشغلها. أليست

تحوض غمار امتحانات أو شيء من هذا القبيل؟

- لا أحسب أنها تدرس الكثير.

دهش هوندا لقدرته على مواصلة الحديث بمثل هذا الهدوء.

- ولكنك تريد أن تراها، على أيّة حال.

كان هذا هو ما شرعت كيكون في قوله، ثم فكّرت لحظة. ولم تكن فترة الصّمت ثقيلة الوقع، ولا موحية بالأهميّة. وربّما كان الدّور يتطاير عبر أشعة شمس الضّحى المنهّلة من نوافذ المخدع. وكان هوندا يعرف أنّها ليست من ذلك النّوع من النّساء الّذي يفتعل الغموض، ولذا مضى ينتظر تاركاً كلّ شيء لها.

قالت:

- أحسب أنّي سأضع شرطاً واحداً.

- ما هو؟

- لقد هربت ينج تشان إلى بيتي، وهي تثق بي تمام الثّقة؛ ولذا فإنّه إذا قلت لها إنّني سأكون حاضرة بدوري فإنّها لن ترفض على الفور دعوتك. أهذا يناسبك؟

- ما الّذي تعنيه بقولك أهذا يناسبك؟ لقد كنت بسبيلي إلى أن أطلب منك القيام بذلك، على وجه الدّقة.

- إنّني أريد تركك تراها وحدك، ولكن لبعض الوقت... أين أتصل بك لأبلغك بالردّ.

- في مكنتي؛ فقد قرّرت الدّهاب إلى هناك صباح كلّ يوم من الآن فصاعداً.

هكذا ردّ هوندا، وأعاد سمّاعة الهاتف إلى موضعها.

منذ تلك اللّحظة تحوّل العالم عمّا كان عليه. كيف يمكنه احتمال انتظار السّاعة التّالية، اليوم التّالي؟ راهن نفسه رهاناً صغيراً: إنّ وضعت ينج تشان الخاتم الزمردّي في يدها لدى مقابلتها إيّاه فمعنى ذلك أنّها قد ساعته، وإن لم تضعه يكن العكس.

كانت دار كيكو تقع في القسم الأكثر ارتفاعاً من أزابو، موعلة في الحَيِّ مع وجود ممشى يفضي إلى مدخله، وكان ثمة واجهة شبه دائرية على طراز ريجنسي، بناها والد كيكو تخليداً للذكرى شبابه في برايتون. وذات أصيل دافئ في أواخر حزيران (يونيو)، قبل هوندا دعوة لتناول الشاي، ودخل الدار بشعور العائد إلى يابان ما قبل الحرب.

في أعقاب إعصار ورعد ومطر، بدت فجأة في ضياء الشمس، وهو أمر غير مألوف في موسم المطر، الغابات الهادئة في الأراضي الواقعة أمام الدار وكأنها تحتزن ذكريات عهد بأكمله. وقد أصبح هذا النوع من الدور، وهو الآن الوحيد من نوعه تقريباً الذي ما يزال باقياً وسط الانقراض المحترقة، أكثر تميزاً وانغماساً في الخطيئة وأشد كآبة بفعل عزلته. كان الأمر كما لو أن الذكريات التي خلقتها الأزمنة وراءها قد زاد من تأثيرها، فجأة، كَرّ الأعوام.

كانت قد وصلتته دعوة رسمية مفادها أن دار كيكو قد أعادتها قوات الاحتلال الأميركية، وأنها ترغب في إقامة حفل لتقديم الشاي احتفالاً بهذه المناسبة، ولم تشر إلى موضوع ينج تشان. وقد أقبل هوندا حاملاً باقة من الزهور. وكانت كيكو تقيم طوال مدة مصادرة الدار، مع أمها في مسكن منفصل، كان من قبل سكناً لوكيل الدار، ولم تدع قط ضيوفاً لزيارتها في طوكيو خلال ذلك الوقت.

استقبله عند الباب خادم يضع يديه في قفازين أبيضين، وكان المدخل الدائري مقبباً مرتفع السقف، وقد رسمت على البابين

المصنوعين من خشب سرو اليابان، صوراً لطيور التّم على أحد الجانبيين، بينما كانا يفضيان على الجانب الآخر، إلى درج لولبي من المرمر يرقى إلى الطّابق الثاني. وفي منتصف الدّرج، وعند حلية معماريّة معتمة، تمثال برونزي لفينوس، بعينين منكّستين برزاة.

أفضى البابان، اللذان رسمت عليهما طيور التّم بأسلوب كانو، وكانا مواربين، إلى غرفة استقبال لم يجد أحداً بها.

كان النّور المنهلّ من صفّ من النّوافذ الصّغيرة يضيء الغرفة. وكانت لزجاج هذه النّوافذ أسطح بلوريّة عتيقة الطراز ينكسر الضّوء عليها مُصدراً ألوان قوس قزح. وإلى الدّاخل يتراجع أحد الجوانب إلى حلية معماريّة صوّرت على جدرانها سحب ذهبيّة، وتدلتّ منها لفائف من شرائح الورق المستطيلة تحمل ألواناً من إبداعات فنّ الخطّ. ومن السّقف المزخرف بالخشب على طريقة مومياما، تدلتّ ثريا. وكانت كلّ الموائد والمقاعد من قطع الأثاث الممتمة إلى طراز لويس الخامس عشر. وكان تصميم قماش التنجيد في كلّ مقعد مختلفاً عنه في الآخر، وتشكّل كلّها طاقماً احتفالياً من تصميم واتو.

وبينما كان هوندا يلقي نظرة فاحصة على المقاعد تناهى إليه عبق مألوف، وعندما التفت ألقى كيكو واقفة هنالك مرتدية ثوباً عصرياً للأصيل مزدوج التّورة من قماش البونجي الحريريّ بلون الخردل.

- ما رأيك في المقاعد؟ أليست عتيقة الطّراز؟

- يا له من مزج كامل الرّوعة بين الشّرق والغرب!
- يتّجه ذوق أبي إلى هذا النّوع في كلّ شيء. ولكن ألا تعتقد أنّها بقيت في حالة جيدة؟ لم يكن بالإمكان تجنّب مصادرة الدّار، ولكنّي تنقّلت هنا وهناك وبذلت ما بوسعي لأتجنّب تدميره على يد من

يجهلون قيمته . ولما كانوا قد استخدموا المكان للشخصيات المهمة في الجيش ، فقد أعادوه إليّ دون أن يلحقه كبير ضرر ، كما يمكنك أن ترى . وهناك ذكريات طفولة لي في كل ركن . ومن حسن الطالع أنه لم يعهد بإدارته إلى أجلاف ريفيين من أوهايو . وقد أردت أن تراه اليوم .

- وأين ضيوفك الآخرون؟

- إنهم جميعاً في الحديقة . الجو حار . ولكن النسيم يبعث السرور

في النفس . ألا تصحبي إلى هناك؟

ولم تأت كيكو على ذكر ينج تشان .

فتحت باباً في أحد أركان الغرفة يفضي إلى شرفة تؤدي إلى الحديقة . وفي ظلّ أشجار كبيرة تناثرت مقاعد وموائد خيزرانية صغيرة . وكانت السحب بديعة الجمال ، وألوان ثياب النساء تزيد في ثراء خضرة المرجة ، وأخذت القبعات التي تشبه الزهور تتحرك جيئة وذهاباً .

أدرك هوندا ، لدى اقترابه من المجموعة أنها تتألف من نسوة عجائز ، وأنه كان فضلاً عن ذلك الضيف الوحيد من الرجال بينهن . وأحسن لدى تقديمه بأنه ليس في المكان المناسب ، وفي كل مرة امتدت فيها الأيدي الحمراء الوردية المجددة المليئة بالعيوب كان يساوره إحساس بالتردد في مصافحتها . وقد أثار كاتبه تراكم الأيدي فجعل قلبه يسود كسحنة من الفواكه المجففة في عنبر سفينة .

وأخذت نسوة غريبات ، دونما وعي ، بسحابتهن المفتوحة على ظهورهن فيما يبدو ، يرجحن مؤخراتهن ، وينفجرن بالضحك ، وتركزت مآقيهن الغائرة البنية أو الزرقاء على أشياء لم يكن بوسعه

رصدها. ولدى نطقهنّ بكلمات معيّنة كنّ يفتحن أفواههنّ السّوداء على قدر من السّعة استطاع معه رؤية لوزاتهنّ، وقد انغمسن في الحديث بنوع من الحماس السّوقيّ. وقامت إحداهنّ، وهي تنتزع شطيرتين أو ثلاث شطائر رقيقة بأصابع صبغت أظافرهما بالحمرة، بالالتفات فجأة نحو هوندا، وأعلنت أنّها طلّقت ثلاث مرّات، وتريد أن تعرف ما إذا كانت اليابانيّات يطلّقن كثيراً بدورهنّ.

تريّضت الضّيقات ذوات الأثواب الملوّنة، في الأجمة لتجنّب الحرّ، وبَدُون للعِيان من خلال الأشجار. وأقبلت اثنتان أو ثلاث من المدخل إلى الأجمة، وحضرت ينج تشان وعند كلّ جانب من جانبيها امرأة غربيّة. هذا هو الأمر، كان ذلك الوجيب مهمّاً، ففضله لم تعد الحياة مادّة صلبة ميتة، وتحوّلت إلى السيولة بل إلى الحالة الغازيّة. كان مجرد رؤيتها أمراً طيباً بالنّسبة له. وذابت مكعبات السّكر في الشّاي، في لحظة هذا الوجيب. ولم تعد المباني كلّها مستقرّة على حالها، وانحنت الجسور جميعها، كما لو كانت مصنوعة من الحلوى، وغدت الحياة مترادفة مع البرق، أو مع زهرة خشخاش متراقصة في الرّيح، أو مع تموّج ستارة. وتداخل اغتباط يدور حول الذّات مع انكماش لا يبعث على السّرور، كما لو كان ذلك في نوبة من السكر، الأمر الذي انطلق بهوندا في رحاب اندفاعه إلى دنيا الأحلام.

برزت ينج تشان فجأة من الأجمة إلى ضوء الشّمس مصحوبة بامرأتين طويلتي القامة، وهي ترتدي ثوباً بلا أكمام أحمر وردياً بلون سمك السلمون، وقد تهدّل شعرها المتألّق الفاحم على كتفيها. وأحسّ هوندا بسعادة مضاعفة إذ جرى تذكيره على هذا النّحو بنزهة الأميرة في بانج با إن، عندما كانت الوصيقات المكتهلات يقمن على خدمتها.

كانت كيكو تقف إلى جواره، دون أن يلحظها.

وهمست في أذنه:

- ما رأيك في هذا؟ ألسنت أفي بعهودي؟

تدقق شعور طفولي بالافتقار إلى الأمن في أعماق هوندا، وخشي أن لا يكون بمقدوره اجتياز هذا المشهد، ما لم يعتمد اعتماداً كاملاً على المساعدة من كيكو. وخطوة خطوة دنت ينج تشان الباسمة من هذا الخوف الذي لا سبيل إلى فهمه. وأزعجه قلقه، فيما يتعلّق بالسيطرة على انفعاله، قبل وصول ينج تشان إليه، ولكن كان كلّما اقتربت منه تفاقم هذا القلق، وألقى نفسه مقيّد اللسان حتى قبل أن يحاول الكلام.

همست كيكو، في أذنه، من جديد:

- كأنه لم يحدث شيء قط. من الخير ألا تذكر أي شيء عن جوتوبا.

من حسن الحظ أن انقطع تقدّم ينج تشان في منتصف المرحلة، عندما استوففتها امرأة أخرى، لتثرثر معها. وبدا أنها لم تلحظ وجوده بعد، وعلى بعد عشرة أو خمسة عشر متراً، مضت تتأرجح على غصن الزّمن، وكأنها برتقالة جميلة يمكن الوصول إليها في ثوان، ناضجة مترعة بالعصير وبالعبق. مضى هوندا يتفحص كلّ شيء فيها، ويدقق في نهديا وساقياها وابتسامتها وأسنانها البيضاء. لقد تغدّى كلّ شيء تحت شمس حارقة، غير أنها - في أعماقها - كانت يقيناً باردة على نحو لا سبيل إلى اختراقه.

وعندما انضمت في النهاية إلى المجموعة الجالسة في حلقة المقاعد،

كان مايزال من غير المؤكّد ما إذا كانت لم تلحظ وجود هوندا حقاً، أم أنها كانت تتظاهر بذلك.

قالت كيكو، مشجعة :

- ها هو السيد هوندا .

- آه؟

نطقت ينج تشان ملتفتة بابتسامة مترخية تماماً . وبدا وجهها في الضوء الصّيفي متوهجاً بالحياة، وشفاتها مبتسمتين وأكثر تراخياً . وبدا حاجباها أقرنين، وفي الإشراق العنبري لمحيائها لاحت عيناها السوداوان النّجلاوان مضيئتين . وبدا وجهها مستمتعاً بفصله الأثير، فقد جعلها الصّيف تسترخي وكأنها متمددة عاكفة على ذاتها في حمّام رائع . وبدا الطابع العضوي لمظهرها كاملاً . وفيما أخذ يتّصور التّجويف بين نهديها متعرّفاً تحت مشد صدرها، وكأنها في حمّام بخار، استطاع الشّعور بالصّيف المختفي عميقاً في بدنها .

تجرّدت عيناها من أي تعبير عندما مدّت يدها، فأمسك بها هوندا مرتحفاً بعض الشيء . لم تكن متجملة بالخاتم الزّمردي . وعلى الرّغم من أنّ الرّهان الذي دخل فيه كان مع نفسه، إلّا أنّه أدرك الآن أنّه أراد أن يخسر الرّهان، وأن يتعرّض للنّبذ في فتور . وأدهشه أن يلاحظ أنّه حتّى النّبذ منحه شعوراً بهيجاً، ولم يؤدّ على الإطلاق إلى انقطاع أحلامه الجريئة .

التقطت ينج تشان قرح شاي فارغاً؛ ولذا مدّ هوندا ذراعه، ولمس مقبض إبريق شاي فضي أثري . ولكن سخونة المعدن جعلته يتردّد، وربّما كان دافعه إلى التردّد هو الخوف من أنّ اتّجاه حركته سيّعترضه ضباب من الشّعور بعدم الأمان، وسترتجف يده بالتأكيد، وقد يأتي شيئاً مرتبكاً على نحو فظيع . سارعت إلى إنقاذه على الفور يد خادم مكسوّة بقفاز أبيض، وأعفته من قلقه .

- تبدين في خير حال، مع مقدم الصيف .

أفلح في قول ذلك، أخيراً. ومن دون أن يدرك أصبحت طريقة حديثه معها أكثر تأدباً من المعتاد.

ردت ينج تشان، وكأنها تقرأ من كتاب مقرر في دراستها:
- نعم، فأنا أحب الصيف .

طلبت منه العجائز المحيطات بها، مفصحات عن اهتمامهن، أن يترجم الحوار لهن. وأثار عبق الليمون على المائدة ورائحة الأجساد المكتهلة والعطر توتراً في أعصاب هوندا، ولكنه ترجم الحوار، وضحكت العجائز، على نحو عبثي، معقبات بالقول إن الكلمة اليابانية التي تعني الصيف تجعلهن يشعرن بالدفء، على نحو حاسم، ورحن يحزرن ما إذا لم يكن هناك أصل استوائي لهذه الكلمة.

استشعر هوندا، من خلال الحدس، ضجر ينج تشان. وتطلع حوله فرأى أن كيكو قد ذهبت بالفعل. كان الضجر يزداد في نفس ينج تشان وكأنها حيوان صامت يحك نفسه حزيناً بالعشب الشديد الحرارة والرطوبة. وقد كان حدسه هذا هو الرابطة الوحيدة التي تصله بها. وتحركت في رشاقة مبتسمة ومتحدثة بالإنجليزية، ولكنه بدأ يشعر تدريجياً بأنها ربما أرادت أن تحدّثه عن ضجرها، وكان نوعاً من الموسيقى يحدّثه تراكم الكآبة الصيفيّة في لحمها من نهدبها الثقيلين إلى ساقبها الجميلتين الخفيفتين. وكانت تلك الموسيقى تتردّد بلا انقطاع في أذنيه، مرتفعة وخفيضة، شأن طنين الحشرات الواهن حين تطير محلقة في سماء الصيف.

ولكن ذلك لم يعن بالضرورة أنها شعرت بالضجر من الحفل، بل ربما كانت هالة الضيق الذي يملأ جسمها هي حالتها الطبيعيّة التي

أعاد الصّيف إحياءها. وقد بدا جلياً أنّها على سجيّتها في غمرة هذا الضّيق. وإذا ترجعت قليلاً إلى رحاب ظلّ شجرة فقد أخذت تتحدّث بحيويّة، ممسكة بقدح شايبا، وقد التفت حولها العجائز اللّاتي أخذن يخاطبنها بـ «سموك الموقرة». ونزعت فجأة فردة حذاء، وبإصبع حادّ يكسوه الجورب أخذت تحكّ على نحو عرضي ربله ساقها الأخرى بتوازن طائر البشروس الرّائع، دون أن تسكب قطرة واحدة في الطّبق من قدح الشّاي اللّذي أمسكته على نحو مكتمل الثّبات.

أحسّ هوندا، للحظة، بالثّقة في أنّ بمقدوره الانزلاق مباشرة، وفي نعومة إلى فؤادها، حتّى ولو لم تكن قد ساحتها.

وجد هوندا فترة انقطاع وجيزة في الحوار، فتحدّث باليابانيّة:
- كان ذلك مدهشاً.

- ماذا؟

رفعت ينج تشان عينيّن متسائلتين. ولم يكن ثمة ما هو أكثر جاذبيّة من فمها اللّذي كان يستجيب إذا ما طرحت عليها أحجية بـ «ماذا» فوريّة، شأن فقاعة طافية على سطح الماء، دون أن تبذل جهداً لكشف غوامض الأحجية. فلم تكن تكثرت بأن تبدو مفتقرة للمّاحية، ولذا كان عليه أن يتحلّى بالنوع نفسه من الشّجاعة. وكان قد أعدّ ملاحظة مكتوبة بالقلم الرّصاص على ورقة منترعة من مفكرة صغيرة.

كتب يقول: «أرجو مقابلتي على انفراد. سيكون مواتياً أن نلتقي نهاراً. وتكفي ساعة واحدة. ما رأيك في اليوم؟ هل يمكنك المجيء

إلى هنا». سلمها الورقة وقد كتب عليها الزمان والمكان المحددين للقاء.

تجنبت ينج تشان ببراءة عيون السيدات التي راحت ترمقها، وألقت نظرة على الورقة في الشمس. وأسعد هذا الجهد العابر في المراوغة قلب هوندا.

- ألدك وقت فراغ؟

- أجل.

- هل ستحضرين؟

- نعم.

كانت «نعم» التي قالتها ينج تشان بالغة الوضوح، على وجه التقريب، ولكنها صحبتها ابتسامه جميلة جعلت ردّها بالغ الرقة. وكان من الجلي أنها لا تفكر في شيء.

إلى أين يمضي الحب والكره؟ أين تختفي ظلال السحب الاستوائية والأمطار الهادرة التي تنصب كالأحجار؟ إن جعله يدرك عبث معاناته كان أقوى من جعله يدرك عبث سعادته العابرة.

عادت كيكو التي كانت قد اختفت، مصطحبة ضيفتين من غرفة الاستقبال إلى الحديقة، على نحو ما فعلت لدى وصول هوندا. ولدى رؤية إحدى العجائز اللقوامين الملتفين في كيمونوين جميلين، أحدهما أزرق اللون فاتحه، والآخر قاتم الزرقة، أحدثت بلسانها الذي يشبه لسان ببغاء، أصوات إعجاب ذات صريف مزعج للأعصاب. والتفت هوندا ليلقي نظرة. كانت الضيفتان ماكيكو والسيدة تسوباكيهारा.

كان هوندا يحدق منتشياً في شعر ينج تشان الفاحم السواد الذي

تطايير في الرّيح وكأنه شرّاع، وبدا هذا الوصول في غير وقته، على نحو خاصّ. وإذا اقتربت الضّيفتان فقد قامتا بتحيّة هوندا، أولاً.

قالت كيكو في فتور متطلّعة حولها إلى العجائز:

- ما أعظم حظّك اليوم فأنت الشّوكة الوحيدة في باقة من الورود!

وتّم بالطبع تقديم المرأتين للغربيّات، وتبادل عبارات المجاملة، ولكنّها سرّتا بالعودة إلى هوندا الذي تحدّثنا معه باليابانيّة.

عندما تحوّلت السّحب، وازدادت الظّلال عمقاً على شعر ماكيكو،

قالت:

- هل رأيت المظاهرة التي اندلعت في الخامس والعشرين من

حزيران (يونيو)؟

- لا، قرأت عنها في الصّحف فحسب.

- وكذلك أنا، لقد ألقى المتظاهرون بالقنابل الحارقة في كلّ مكان

في شينجوكو، واحترق عدد من سيّارات الشرّطة. وسمعت بأنّ الأمر

كان تظاهرة فظيعة وأتساءل، إذا ما مضت الأمور على هذا المعدّل،

عما إذا لم يكن الشّيوعيون بسبيلهم إلى الإمساك بمقاليد كلّ شيء.

- لست أظنّ ذلك.

- لكنّ الأمور تتفاقم كلّ شهر، بل ظهرت بنادق مصنّعة منزليّاً.

وأنصّور أنّ الشّيوعيين والكوريين سرعان ما يحولون طوكيو بأسرها إلى

بحر من اللّهب.

- ليس بمقدورنا القيام بالكثير في هذا الشأن. أليس كذلك؟

قالت ماكيكو:

- لسوف تحيا حياة مديدة لأنك لا تشعر بالقلق، ولكنّي عندما

أنظر للدّنيا هذه الأيام، أتساءل عما عسى كان سيحدث لو أنّ إيساو

عاش. لقد بدأت بكتابة سلسلة من القصائد بعنوان «الخامس والعشرون من حزيران (يونيو)». لقد أردت كتابة الشعر، عند أدنى المستويات، مستوى يستحيل الإبداع عنده، كنت أبحث عن مادة لا يمكن أبدا تحويلها إلى شعر، عندما صادفت هذا في نهاية المطاف.

- تقولين إنك صادفت هذا، ولكنك لم تمضي لرؤية المظاهرة بنفسك.

- للشاعر بصيرة بعيدة المدى، على عكس أناس مثلك.

كان من غير المألوف بالنسبة لماكيكو أن تتحدث على مثل هذا النحو من التراخي عن شعرها. ولكن موقفها كان نوعاً من تكلف الجذ والتأنق. ولقد تطلعت حولها وحدقت باسمه في عيني هوندا.

- سمعت أنك كنت متضايقاً للغاية، في جوتبا، في المدة الأخيرة.

وتساءل هوندا، دون أن يبدو عليه الاكتراث:

- من الذي أبلغك بذلك؟

قالت ماكيكو في هدوء:

- إنها كيكو.

واصلت حديثها:

- تأمل الأمر، لربما كانت في حالة طارئة، ولكن ينج تشان تتمتع بأعصاب قوية مكنتها من الاندفاع إلى دار أناس آخرين، في منتصف الليل، وطرق باب مخدع الخليل. وجاك فتى طيب، وقد عاملها برفق. إنه أميركي جذاب، وحسن التربية.

حار هوندا في الأمر، فهو على يقين من أن كيكو قد قالت في ذلك الصباح: «لم يكن جاك هنا لحسن الحظ، ويا له من مشهد ذاك الذي كان يمكن أن يحدث لو أنه كان هنا». والآن ها هي ماكيكو تتحدث

كما لو كان قد أمضى الليل في الدار. فإما أن تكون ماكيكو قد أساءت فهم الأمر، وإما أم تكون كيكو قد كذبت. ومنحه اكتشاف كذبة كيكو العبيثة شعوراً بالتفوق تردّد في أن تشاركه ماكيكو فيه، وأراد تجنّب عبث الانغماس في أحاديث النساء الفضولية. وفضلاً عن ذلك فإن ماكيكو لم تر شيئاً إداً في الكذب أمام القضاء. ولم يحدث أن كذب هوندا قط، ولكنّه كان من عادته في بعض الأحيان تجاهل حقيقة جديدة بالازدراء، وهي تنزلق أمامه كالفضلات المندفعة إلى مجرى صغير. وكانت تلك خطيئة هيئة تعود إلى الأيام التي كان فيها قاضياً.

وفي خلال محاولته تغيير الموضوع، أقبلت السيّدة تسوباكيهارا سائرة بصورة جانبية وكأنّها تسعى إلى حماية ماكيكو. وقد أدهشه أنّ وجهها غداً ناحلاً للغاية، في الفترة القصيرة التي انقضت منذ رآها آخر مرّة، وكان للتعبير الأسيف الذي علا محياها مظهر يوحى بالذبول، ولاحت عيناها غائرتين في محجريها. وأمّا شفتاها اللتان وضعت عليهما لمسات من اللون البرتقالي المتوهج إلى حد الإزعاج فقد جعلت مظهرها غريباً تماماً.

وبابتسامة في عينيها، رفعت ماكيكو فجأة بأحد أصابعها ذقن تلميذتها الأبيض المستدير وكأنها تربه لهوندا.

- إنها تجعلني أجتاز وقتاً عصيباً إذ تهدّني بأفكارها عن الانتحار.

تركت السيّدة تسوباكيهارا ذقنها يرتاح على أصبع ماكيكو وكأنّها ترغب في أن تظلّ إلى الأبد في ذلك الوضع، ولكن ماكيكو سحبت أصبعها في الحال. وتحدّثت السيّدة تسوباكيهارا إلى هوندا، بصوت تناهى بمشقة إلى سمعه، وقد شابه الثقل:

- ولكن بغير موهبة كيف يمكن للمرء أن يواصل العيش؟
وردت ماكيكو متفكّهة:
- لو أنّ غير الموهوبين كان ينبغي أن يلقوا حتفهم لمات الجميع في اليابان.
ولقد تابع هوندا هذا الحوار، وقد أخذته الرّعدة.

بعد يومين، وفي تمام الساعة الرابعة، وهي الساعة المحددة، أخذ هوندا ينتظر في بهو فندق طوكيو كايكان. وكان يعتزم إذا جاءت ينج تشان أن يصحبها إلى مطعم حديقة السطح الذي افتتح في ذلك الصيف.

كان البهو مكاناً ملائماً للانتظار، على نحو غير جليّ، ريثما يصل أحدهم؛ فقد رُتبت فيه على نحو رائع مقاعد وثيرة، مكسوّة بالجلد، وكان بمقدوره أن يفتح الصحيفة المطوية فيحجب بها وجهه. واحتفظ في جيب داخلي بثلاثة من سيجار مونت كريستو الكويّية، الملفوفة باليد، وكان قد حصل عليها بعد طول انتظار. ولاشك أن ينج تشان ستصل، قبل أن يكون بمقدوره تدخينها جميعها. وما إن غاص في أحد المقاعد حتى أعتمت التوافذ، وكان مصدر قلقه الوحيد أن ينهمر المطر مدراراً فيحول دون تمكّنها من تناول طعام العشاء في حديقة السطح.

على هذا النحو مضى ثريّ في السابعة والخمسين ينتظر فتاة تايلانديّة. وقد أنقذه من خوفه إدراك أمر ما بصورة مطلقة، فأحس بأنه عاد إلى رحاب الحياة العاديّة. إنّه بمثابة نوع من المرافئ وليس سفينة بطبعه. وقد أعيد إقرار الوضعيّة الطبيعيّة الوحيدة لوجوده، أي وضعيّة انتظار ينج تشان. وكان ذلك على وجه التقريب هو هيئته روحه ذاتها.

إنّه عجوز ثريّ لا يسعى وراء مسرّات الذكور الأكثر بساطة، وقد

كان مخلوقاً مشاغباً اتخذ دوغماً عناء قرار مبادلة الأرض بضره، ولكنه كان ظاهرياً تجسيدا للتواضع، وروحاً أثرت أن تنحني في بقعة جوفاء جردت من الحدود. وقد تبني الموقف ذاته حيال التاريخ والعصور والمعجزات والثورات. وإذا كان يجلس على هوة مغطاة، وكأنه يجلس فوق مرحاض، فإنه يمضي في تدخين سيجاره ويمضي في الانتظار. وهو يعتمد على إرادة خصمه في الوصول إلى قرار، وفي مثل هذه الظروف فحسب اتخذ حلمه للمرة الأولى شكلاً محدداً. ثم رأى، وإن كان ذلك من خلال ثقب للتلصص فحسب الشكل الملتبس للسعادة المطلقة. أيمن أن يحمله الموت إلى السعادة القصوى، في هذه الحالة. ولئن كان الأمر كذلك فلا بد أن تكون ينبج تسان هي الموت.

كان هوندا على استعداد للعب أوراق الخشية أو اليأس التي يسكها في يده. وبدا وقت الانتظار المفعم بالترقب هذا، مثل صقال اللك المطعم بعدد لا حصر له من قطع عرق لؤلؤ الشك.

تناهى من مطعم المشويات الإيطالي الذي يشبه ديكوره القبو، والواقع في الطابق نفسه رنين أدوات المائدة خلال إعداد الموائد تأهباً لساعة العشاء. واختلط العقل والعاطفة في أعماق هوندا شأن الشوك والسكاكين التي لم يفصل بعد بعضها عن بعض في أيدي النادلين. ولم تكن خطة واحدة، (والخطة ميل خبيث من جانب العقل) قد رسمت، وكانت إرادته ماتزال بعيدة عن المشاركة، فاللذة التي اكتشفها في ختام عمره تقتضي مثل هذا التخلي الكسول عن الإرادة. وفيها نحاها جانباً على هذا النحو فإن الإصرار على الانغاس بنفسه في التاريخ الذي تملك ناصيته منذ شبابه قد علق كذلك في الفراغ وترامى منفصلاً في الهواء.

كان ثمّة فتاة سيرك تحلّق شاهقاً على أرجوحتها، خلال الارتفاع
الذي يخطف البصر للساعات المظلمة التي تمتدّ منبّئة عن الزمن،
وتنوّرة ثوبها القصير الأبيض ترفرف . . . إنها لينج تشان .

وساد الظلام خارج النافذة . ومضى نزيلان وعائلة بتبادل التحيات
المتطاولة إلى حدّ السأم بجوار هوندا . وقد دامت هذه التحيات طويلاً
حتى أوشك أن يحسّ بأنه سيغمى عليه . ولزم فتى وشابّة في مقتبل
العمر تربطهما الخطوبة فيما يبدو، صمت الحجارة كشخصين كئيبين
إلى حدّ الجنون . وكان بمقدوره أن يلمح عبر النافذة تماوج أغصان
شجرة على امتداد الطريق، ولكن بدا أنّ المطر لم يهّل بعد . وأحسّ
بواقعي الصّحف الخشبي في يده وكأنّه عظمة ساق كبرى بالغة الطول،
ودخّن السّيجار الأوّل فالثاني فالثالث، ولم يظهر لينج تشان أثر .

تناول في نهاية الأمر وجبة بمزيد من التردّد، وشقّ طريقه إلى مركز
الطلاب الأجانب . وكان سلوكه في هذا الصدد مخالفاً لكلّ ما تفرضه
الفطرة السليمة .

دخل المبنى البسيط، ذا الطوابق الأربعة، الواقع في أزابو . وفي
قاعة المدخل كان قد عكف اثنان أو ثلاثة من الشبان ذوي البشرة
السّمراء والعيون الحادّة، وقد ارتدوا قمصاناً ذات أكمام قصيرة ونسيج
مربّع النقش، على قراءة مجلّات من جنوبي آسيا سيّئة الطّباعة .
وتوجّه هوندا إلى المكتب الكائن في مقدّمة القاعة وسأل عن لينج
تشان .

- إنها بالخارج .

قالها السّكرتير بشكل تلقائي، فبدا الردّ أسرع من أن يكون إجابة
حقيقيّة . وفيما كان هوندا يطرح سؤالين أو ثلاثة مضى الشبان ذوو

البشرة السّماء والعيون الحادّة يحدّقون فيه، وجعله هواء اللّيل الخائق يشعر وكأنّه في قاعة الانتظار بمطار استوائي صغير.

- هل يمكنك إبلاغي رقم غرفتها؟

- هذا مخالف للوائح، وليس بمقدورك مقابلة الطلاب إلّا في هذا البهو، وبناء على موافقتهم.

وإذ استسلم هوندا وغادر المكان فقد عاد الشّبّان إلى مجلّاتهم، فتتأت بحدّة من السيّقان كواحل سمراء وكأنّها أشواك.

كان بمقدوره السّير كيفما طاب له في الحديقة الأماميّة، ولكنها كانت خالية. وتناهى صوت قيثاره من غرفة باهرة الإضاءة في الطّابق الثالث، وكانت قد فتحت نوافذها في مواجهة الطّقس الرّطب. وتردّدت أغنية بصوت عالٍ، وإن ناعماً يحاكي فيولاً صينيّاً، حادّ النّغم ملتفّاً مثل كرمه مصفّرة حول أصوات الأوتار. وإذ أصغى هوندا للصدّوت المترع بالشّجن فقد تذكّر اللّيالي التي لا تنسى في بانكوك، قبل الحرب مباشرة.

لو أنّه كان بمقدوره فقط أن يتسلّل للدّاخل، فقد أراد أن يمضي عبر كلّ الغرف لأنّه لم يصدّق أنّ ينج تشان خارج المركز. كانت في كلّ مكان في الظّلمة المسائيّة الرّطبة لموسم المطر، في العرّف الواهن للزّهور التي ربّما زرعها الطلاب الأجانب، في زهرة الجلاديولا المتميّزة الصّفرة، أو في البنفسج الشّاحب لوريقة الزّوجر البرونزيّة المتداخلة في الظّلام. . . . واندجت تدريجياً عناصر ينج تشان الدّقيقة الطّافية في أرجاء المكان، متخذة شكلاً، وتجمّدت في كيانها. وكان بمقدوره أن يشعر بها حتّى في رفرفة أجنحة البعوض الواهنة.

كان معظم النّوافذ مظلماً، وألقت غرفة واحدة في ركن الطّابق

الثالث ضوءاً متوهجاً من خلال الستائر المخزّمة. وإذا استبدّ الفضول بهوندا فقد راح يحدّق في النافذة. ولاح شخص ما وافقاً داخل الغرفة، مطلاً على الحديقة، وداعت الرّيح أطراف الستائر محرّكة إيّاهما، فاستطاع أن يلقي نظرة عجلى إلى الدّاخل. كانت ينج تشان ترتدي قميصاً تحتياً. وانطلق يعدو على نحو تلقائي رغم إرادته باتجاه النافذة، ووصل إلى أسفل مصباح الشّارع مباشرة، وبدا أنّ ينج تشان قد صدمت لدى تعرّفها عليه، فقد أطفئ النّور في الحال وأوصدت النّافذة.

استند هوندا على ركن المبنى وانتظر طويلاً، وتساقطت اللّحظات كالقطرات ونبض الدّم في صدغيه. لقد تساقط الزّمن شأن قطرات من دم. وضغط بوجهه على أشنة زرقاء ناحلة نمت على الإسمنت، تاركاً إيّاهما تبرّد وجنتيه الحارّتين المكتهلتين.

بعد مرور بعض الوقت، تنهى صوت كالفحيح من نافذة الطّابق الثالث، فقد فتحت على مهل، وسقط منها شيء لدن أبيض اللّون عند قدمي هوندا فالتقطه، وألفاه قطعة ورق مكورة، ففتحها، ووجد بداخلها لفّة من القطن تملأ راحة يده، وقد بدا أنّها ضغطت لتتحوّل إلى كتلة مدججة، ذلك أنّه بمجرد إزالة الغلاف الخارجيّ انتفشت كشيء حيّ. وبحث هوندا في طيّات القطن، فوجد الخاتم الزّمردى تحميه الياكشا الذهبية.

ألقي نظرة عجلى على النافذة من جديد، ولكنها كانت محكمة الإغلاق ولم يكن هناك أيّ شعاع من نور.

أدرك عندما غادر مركز الطّلاب الأجنبي، وثاب إلى رشده، أنّه على بعد مجموعة من المباني من دار كيكو. ولم يكن من عادته أن ..

يستخدم سيارته في مواعيده الخاصّة . وكان بمقدوره استدعاء سياره
أجرة ، ولكنّه قرّر معاقبة نفسه بالسّير، على الرّغم من الألم الّذي كان
يحسّ به في ظهره ومفصلي وركبته . وحتىّ لو لم تكن كيكو في دارها فإنّه
لم يكن بمقدوره الدّهاب إلى داره مباشرة من دون أن يطرق بابها
أولاً .

لو أنّه كان في شرح الشّباب لصرخ عالياً خلال سيره . لو أنّه كان
في شرح الشّباب ! ولكنّه لم يكن يصرخ قطّ عندما كان في شرح
الشّباب ! لقد كان شاباً واعدأ ظنّ أنّ عليه أن يستخدم العقل ليحقّق
النّجاح لنفسه وللآخرين ، بدلاً من أن يهدر وقته في سفح الدّموع . يا
له من حزن دقيق ! يا له من يأس غنائي ! إنّهُ لم يسمح لنفسه بأن
يراوده هذا الشّعور إلّا في صيغة فعل ماضٍ مفترض . وبقيامه بذلك
محا كلّ الأوصال عن عاطفته الرّاهنة . آه ، لو سُمح للرومانسيّة العذبة
بأن تشقّ طريقها إلى إحدى سنوات عمره ! ولكن - لم يسمح له
تكوينه - لا الآن ولا في شرح الشّباب بشيء من العذوبة مع نفسه .
وكان السّبيل الوحيد أمامه هو الانغماس في أحلام اليقظة التي تدور
حول ذات من نوع آخر مختلف في الماضي . ذات مختلفة إلى أي حدّ ؟
لقد كان من المستحيل عليه أن يصبح كيواكي أو إيساو .

لو أنّ خيال هوندا تركه يحلم بأنّه سيغدو هذه الشّخصيّة أو تلك ،
لو أنّه كان شاباً فحسب ، إذن لخدمه بحايته عبر السنين ، عند كلّ
منعطف عاطفي خطر ، فربّما لم يكن تردّده في التعرف على حالته
العاطفيّة الرّاهنة إلّا نتيجة لمثل هذا الإنكار للذّات في شبابه . وعلى
آية حال ، فقد كان مستحيلاً عليه أن يصرخ عالياً خلال سيره - لا في
شرح شبابه ، ولا في الوقت الحالي . وكان هذا السيّد المهذب العجوز

في سترته من طراز بوربري سييدوفي عيني أي شخص سارياً ليلياً منفرداً أطلق العنان لمزاجيته .

وهكذا، وكتيجة للوعي الذاتي غير السار الذي جعله لا يشير إلى كل العواطف إلا بشكل غير مباشر، فقد أصبح آمناً للغاية، بحيث لم يعد مضطراً للشعور بالقلق حيال الوعي الذاتي . ولقد أصبح من الممكن بالنسبة له أن يتحرك بناء على أي دافع أو رغبة، مهما كان تجرّدها من الحياة . ولو أنّ المرء درس كل تصرف من تصرفاته لوصل إلى استنتاج يجافيه الصواب، قوامه أنّه إنسان يتصرف وفق نزواته . وقد كانت رحلته المتعجّلة إلى دار كيكو على امتداد هذا الدرب الليلي، وهي رحلة تتهدّدها زخات من المطر في آية لحظة، واحدة من نزواته البلهاء . وفيما هو يمضي قدماً، أحسّ بدافع يدعو إلى أن يدسّ يده في حلقه ويقوم، وكأنه يجتذب ساعة جيب من صدارته، بانترع قلبه .

كان من غير المحتمل أن تكون كيكو في الدار في مثل هذه الساعة من الليل، غير أنّها كانت هنالك .

أدخِل هوندا في الحال إلى غرفة الاستقبال الرائعة، وما كان يمكن للمقاعد من طراز لويس الخامس عشر أن تدعه بظهورها المستقيمة يشعر بالاسترخاء، وأحسّ بأنّه موشك على الإغناء من فرط الإجهاد .

كانت الأبواب المصنوعة من خشب شجر سرو اليابان مواربة، كعهدها في ذلك اليوم، وقد عزّز من العزلة الليلية في غرفة الاستقبال الضوء المتألق المنهل من الثريا . ومن خلال النافذة رأى أضواء المدينة تتوهج من خلال النهاية القصوى للأجمة في الحديقة، ولكنّه لم تكن لديه الطاقة للسير إلى النافذة والإطّلال منها إلى الخارج . وكان من

الأفضل تحمّل الحرّ الذي يشعر المرء بالانحطاط المعنوي، والتحلُّل في غمرة العرق.

تناهى إليه وقع قدمي كيكو وهي تهبط الدّرج اللّولبي الرّخامي إلى قاعة المدخل. كانت ترتدي ثوباً طويل الذّيل. ودخلت غرفة الاستقبال، وأغلقت وراءها الباب الذي نقشت عليه طيور التّم. كان شعرها الأسود المسترسل منتصباً، كأنّما في عاصفة، ومتطيراً ومنفوشاً دونما شكل محدّد، الأمر الذي جعل وجهها بزيتته الخفيفة يبدو صغيراً وشاحباً على نحو غير مألوف. ومضت وسط المقاعد فجلست بمواجهة هوندا أمام الخلية المعماريّة بسحبها الذهبيّة الجداريّة. وكان الكونيك قد وضع على المائدة الصّغيرة بينهما. ومن تحت طرف رداها أطلّت قدماها العاريتان، وقد اكتفت بدسّهما في خفين تّما يستخدم في المخدع زانتهما باقات من صور الفاكهة الاستوائيّة المجفّفة. وكان الطّلاء الأحمر الذي طلت به أطافر أصابع قدميها ينتمي إلى اللّون الذي تألّقت به زهور الحبّازي على رداها الأسود. ورغم ذلك فإنّ فيض الشّعر الأسود المنتصب على رأسها أمام السّحب الذهبيّة أضاف إلى الكآبة السّائدة ما لا سبيل إلى قياسه.

- أرجو أن تعذرني، فشعري يبدو موحياً بالجنون. وزيارتك المفاجئة يصل اقتحامها حتّى إليه. ومن سوء الحظّ أنّي غسلته لتويّ، وكنت بسبيلي إلى تصفيفه غداً. إنكم، معشر الرّجال، لا علم لكم بمثل هذه المحن. ولكن، أهنك ما يسوء؟ إنك تبدو شاحباً.

أبلغها هوندا بإيجاز ما حدث. ولكنّه شعر بالتقرّز حيال تحدّثه كمحام يدافع عن متّهم، فلم يستطع الهرب من عادة توصيف الأمور

بشكل منطقي استقرائي، حتى في مثل هذه الأمور البالغة التعجّل على نحو خارق. ولم تُفد كلماته إلا في ترتيب الأحداث في إطار نوعٍ من النّظام. وكان قد أراد أن يناشدها بصرخات طلبٍ للنّجدة تنطلقُ بلا كلمات ودوغما معنى. أو كان هذا على الأقلّ هو ما أراده حتى ولو وجه الدّار.

قالت كيكو:

- يبدو أنّ الدّرس المستفاد من هذه القصة هو أنّه ينبغي التروّي في الأمور، كما أنّي لا أعرف أيضاً ما ينبغي القيام به. ورغم ذلك فإنّ ينج تشان كانت شديدة الجلافة، وأتساءل عمّا إذا كان هذا هو النّحو الذي تمضي به الأمور في الجنوب الذي جاءت منه، ولكنّي أعرف أنّك مندهش من تقلّباتها المزاجيّة.

وقدّمت له بعض الكونيك، وقالت:

- وما الذي تقترح أن أقوم به؟

لم يبدُ عليها الضيق على الإطلاق، بل أفصحت عن حماسها الذي تشوبه الكآبة، والذي يبدو أنّه من سماتها.

أخذ هوندا يدسّ أصبعه في الخاتم وينتزعه. ثمّ قال:

- أودّ أن تعيدي هذا إلى ينج تشان، وأن تطلبي منها قبوله. فانفصاله عن جسمها يجعلني أشعر وكأنّ العلاقة بينها وبين الماضي الذي أنتمي إليه قد قطعت على نحو دائم.

لزمت كيكو الصّمت، وخشي هوندا أن تكون غاضبة منه. وأمسكت بكأس الكونيك عند مستوى النّظر وأخذت ترقب كيف انزلق السّائل الذي كان متموجاً نحو السّطح المقعّر للكأس، مكوّناً أشكالاً سحابيّة شفافة لزجة. ولاحت عيناها النجلوان تحت جبل

شعرها الأسود مخفيتين على وجه التقريب . وكان التعبير الجاد المرسم على وجهها طبيعياً للغاية بالنسبة لشخص يحاول أن يجمع ابتسامة ساخرة . وحدث هوندا نفسه بأن عينيها تشبهان عيني طفل شاهدتها سحقت غملة . قال مشجعاً :

- لقد جئت لكي أطلب منك هذا وذلك كل ما في الأمر .

كان يراهن على مبالغة تافهة للغاية . أين يمكن أن يجد السرور إلا في نوع من المبدأ الأخلاقي القائل بعدم إهمال المضحك من الأمور؟ كان قد التقط ينج تشان من هذا العالم الذي يشبه برميل القمامة ، وعلى الرغم من أنه تاق للاستحواذ عليها فإنه لم يصل حتى إلى وضع أصبح عليها . وكان يسعى لمفاجمة هذه البلاهة وصولاً إلى المدى الذي تتقاطع فيه شهوته مع مرارات النجوم .

قالت كيكو، أخيراً :

- لم لا تنسى الفتاة؟ لقد سمعت ، قبل أيام فقط ، أنها كانت تراقص طالباً سوقياً خدداً لخد في ملهى في ميئاتسو .

- أنساها؟ لست أستطيع ذلك ، وتركها وشأنها يعني السماح لها بالنضح

- وأحسب أن لك الحق في منعها من النضح . وماذا عن شعورك

السابق بأنك لا ترغب في أن تكون عذراء؟

- لقد حسبت أن ذلك سيغيرها بين عشية وضحاها ويحوّلها إلى

امرأة مختلفة تماماً . ولكن ذلك مُني بالفشل بفضل ابن أخيك الغبي .

- إنه أحق تماماً . أليس كذلك؟

قالتها كيكو مغربة في الضحك . ومضت تفحص أظافرها الطويلة

عبر كأسها في ضوء الثريا . كانت مطلية بالأحمر ، وأخذت تتألق عبر

الكأس متوهجة خلال التقعر، شأن شروق صغير غامض .

- الشمس مقبلة انظر!

قالتها كيكو مشيرة إلى الكأس . وكانت سكرى .

- شمس قاسية .

غمغم بها هوندا، متمنياً بحماس أن يغمر ضباب التهلهل والأعقلانية تماماً هذه الغرفة ذات الإضاءة المكثفة، حتى يغدو عاجزاً عن رؤية شيء أمامه .

- ماذا تفعل لو رفضت طلبك؟

- سيكون مستقبلي مظلماً تماماً .

- يالها من مبالغة!

قالتها كيكو ووضعت الكأس على المائدة، وفكرت في الأمر لحظة أخرى . ثم غمغمت بشيء ما عن كونها على الدوام في وضع تقديم العون للآخرين . وبعد قليل قالت :

- المشكلة الحقيقية في الأعماق الغائرة هي دائماً مشكلة طفولية .
وعندما يحسم رجل أمره فإنه ينطلق في رحلة إلى إفريقيا باحثاً عن طابع يحتوي على خطأ طباعي .

- أعتقد أنني واقع في هوى ينج تشان .

- آه، يا إلهي!

ضجّت كيكو بالضحك غير مقتنعة تماماً بما سمعت .

وعندما تحدّثت مجدداً كان في صوتها رنة حاسمة :

- الآن فهمت . إنك بحاجة الآن للقيام تَوّاً بشيء بسيط وسخيف

للمغاية .

ورفعت طرف رداؤها وأضافت :

- ما رأيك على سبيل المثال في تقبيل باطن قدمي؟ لسوف ينعشك ذلك... دراسة قدم امرأة لا تجبها على الإطلاق. لا تقلق، فقد أخذت حماماً لتوي، ونظفت قدمي تماماً. لن يضيرك ذلك.
- إذا كان هذا رداً على طلبي فسيسعدني الإذعان في الحال.
- ليكن، هلم! سيفيدك أن تحاول القيام بشيء كهذا لمرة واحدة... في ضوء كبرياتك المعروفة. وسوف يزيد الجانب الدائن في حساب سمعتك.

بدا جلياً أن كيكو قد غلبت عليها عاطفتها كمعلمة. ووقفت تحت الثريا الرائعة مباشرة، وأزاحت بكلتا يديها شعرها الوافر، الأمر الذي جعل الجوانب تترجرج كأذني فيل.

حاول هوندا عبثاً الابتسام، وتطلّع حوله وانحنى على مهل فتفانم الألم حاداً في مفصل وركه، ولذا جثا، ومدد نفسه على السجادة بعزم صارم. وأشبه خفا كيكو من هذا الموضع أدوات مقدسة تحرس قوسي قدميها المنغرستين في ثبات والمتوترين قليلاً، وتدلت مجموعات من الثمار المجففة البنية والبرونزية والأرجوانية، فوق أظافر الأصابع القرمزية. وإذ قرب هوندا شفتيه من القدمين المدسوستين في الخفين فقد ابتعدتا في حذق. وأدرك في النهاية أنه ما لم يرفع طرف التنورة المزخرفة بزهور الخبازي ويدس رأسه تحتها فلن يكون بمقدوره الوصول إلى قوسي باطني القدمين. ووضع رأسه في الداخل فألقى الرداء مترعاً بعرف العطر الخفيف الدافئ. وألقى نفسه فجأة في بلد مجهول. وعندما رفع عينيه، بعد أن قبل قدمي كيكو، كان الضوء كله يبدو أرجوانياً قائماً، وهو ينهل عبر الزهور المطبوعة، وانتصب أمامه عمودان أبيضان جميلان ترقشهما عروق شاحبة. وفي السماء

البعيدة، لاحت شمس صغيرة سوداء ترسل أشعة مشعثة فاحمة
السّواد.

تلوى هوندا خارجاً، ووقف بصعوبة:

- ها قد أدت دوري .

وقالت كيكو متقبلة الخاتم بابتسامة جادة تناسب سنوات عمرها:

- وأنا سأؤدي دوري .

صاحت رايني، من الدار، بزوجها الذي لم يحضر بعد لتناول
طعام إفطاره:

- ماذا تفعل؟

- أتأمل فوجي .

ردّ بها من الشرفة . ولم يكن الصوت موجّهاً ناحية الغرفة، وإنما
ناحية الجبل المترامي فيما وراء التعريشة، عند الحافة الغربية
للحديقة .

كانت الساعة السادسة من صبيحة يوم صيفي، وقد توهّج فوجي
بلون النّبيد وبدت خطوطه الخارجيّة مضيّبة . وشأن ذرور وضع على
أنف طفل استعداداً لمهرجان صيفي، لاحت لمسة، كضربة فرشاة من
الجليد، حول المحطة الثامنة^(١) .

خرج هوندا مرّة ثانية بعد تناول طعام الإفطار من دون أن يرتدي
إلا سروالاً قصيراً وقميص بولسو، ورقد إلى جوار المسبح تحت سماء
الصّباح المتألّقة . واحتفن، عابثاً، بعض الماء .

(١) المحطة الثامنة: هي إحدى المحطات التي يقسم إليها الطريق من سفح فوجي إلى
قمته، تسهيلاً للزوّار والسياح ومساعدة لهم على تسلّق الجبل الذي يعتقد كثيرون أنّ
زيارته واجب ديني ينبغي القيام به، ولو مرّة في العمر . وهناك كثير من التسهيلات في
هذه المحطات، كما أنّها تقوم بوضع علامات معيّنة على العصا التي تُعطى للزوّار في
سفح الجبل، بما يفيد وصولهم إليها في طريقهم إلى القمة . وقد كان ميشيسا ممّن
تسلقوا الجبل، وكتب عن رحلته هذه مطوّلاً .

- ماذا تفعل؟

هتفت به رايي مجدداً، وهي ترتب المائدة وتخليها من بقايا الإفطار. ولم تتلق رداً في هذه المرة.

وأخذت تتطلع من النافذة إلى هذا البرهان على جنون زوجها، البالغ من العمر سبعة وخمسين عاماً. ففي المقام الأول لم تعجبها طريقة اختياره لملابسه، فلا ينبغي لرجل يعمل بالمحاماة أن يرتدي سروالاً قصيراً. وها قد برزت منه ساقاه الناحلتان المتصلبتان البيضاوان. كما لم يعجبها قميصه أيضاً. وكأما عقاباً على ارتدائه قميص بولو، دون أن يمتلك امتلاء الشباب الرجولي، بدا الرदनان والظهر في حالة تهالك مزرية. وقد بلغ بها الفضول أن أصبحت مهتمة برؤية المدى الذي سيمضي إليه زوجها في حماقاته. وكان ذلك نوعاً من اللذة المرتكسة، تماماً كالاستمتاع بتحمل ضرس مؤلم.

أحس من دون أن يتطلع إلى الوراء بأن زوجته قد يثت، وتراجعت إلى غرفتها، فأخذ يحدق، كيفما طاب له، في جمال المشهد الصباحي المنعكس في المسيح.

شرعت زيزان الحصاد تصدر أصواتها في أجمة السرو. ورفع هوندا عينيه وكان جبل فوجي الذي اكتسى بوهج نبيذي، يتحول الآن إلى اللون الأرجواني الثري. وكانت الساعة قد بلغت الثامنة، وفي خضرة سفوح التلال المتدرجة طفت الخطوط الخارجية الواهنة التي تحدد الغابات الصغيرة والقرى. وفيها هو يتطلع إلى زرقة فوجي العميقة في الصيف، ابتكر لعبة صغيرة يستطيع الاستمتاع بها وحده. وقد تألفت من تصور جبل منتصف الشتاء وهو في الصيف. وبعد التحديق لبرهة في فوجي القاتم الزرقة، يحول نظرتة فجأة إلى السماء

الزرقاء على أحد الجانبين، فتحوّل بالتدرّج الصّورة البعدية المرتسمة على قرنتيه لتكتسي باللّون الأبيض كلّية، ويستطيع أن يرى للحظة جبلاً حليبيّاً نقيّاً في السّماء الزرقاء.

وبعد اكتشافه طريقة خلق هذا الوهم، وصل إلى الاعتقاد بأن هناك جبلين. فألى جوار فوجي الصّيفي كان هناك على الدّوام فوجي شتوي. وبالإضافة إلى الصّورة الحقيقيّة فقد كانت هناك كذلك خلاصة الجبل النقيّ البياض. وفيما هو ينقل نظرتَه المحدّقة إلى المسبح، رأى أنّ انعكاس جبل هاكوني قد احتلّ مساحة أكبر من تلك التي احتلّها انعكاس فوجي. وكانت الكتلة الجبلية المكسوة بالخضرة حارة وخانقة. وانعكست الطّيور المحلّقة في السّماء على الماء، وزارت قبرة مألوفة قفص إطعام العصافير.

نعم، لقد قتل أمس ثعباناً قرب التعريشة. وكان ثعباناً مخطّطاً يناهز طوله القدمين، وقد قتله بسحق رأسه بحجر، حتّى لا يُفزع الضّيوف القادمين اليوم. وقد شغلت المذبحة الصّغيرة يومه بأسره، وتداعت في ذهنه نوايض زرقاء - سوداء من الصّلب، ومنحته صورة الجسم الثّعباني النّاعم الذي كان يدفع الموت متخبّطاً، إدراكاً بأنّ بمقدوره بدوره أن يقتل شيئاً، وأكسبته شعوراً كثيباً بالقوّة.

والمسبح. مدّ هوندا يده من جديد، وداعب سطح الماء، فتشظى انعكاس السّحب الصّيفيّة متحوّلاً إلى نثار من الزّجاج المهشم. وكان المسبح قد اكتمل، منذ ستة أيّام، ولكن أحداً لم يستخدمه، ولم ينزل إليه هوندا مرّة واحدة، متدرّعاً ببرودة الماء، رغم وجوده مع رايمي في الدّارة لمُدّة ثلاثة أيّام.

لقد كان السَّبب الوحيد الذي حدا به لإقامة المسيح هو رؤية ينج تشان عارية، ولم يكن لغير ذلك أي أهمية.

دوى صوت المطارق في البعيد؛ فقد كان يجري تعديل دار كيكو، ومنذ أعادت إليها قَوَات الاحتلال دارها في طوكيو أصبحت أقلّ تردداً على جوتمبا، وفترت علاقتها بجاك بعض الشيء. وقد أثارَت دار هوندا الجديدة شعورها بالمنافسة، فشرعت في تعديل دارها على نطاق كبير، حتى أوشكت على الوصول إلى مستوى إقامة مبنى جديد. وذهبت إلى القول بأنه لن يكون بمقدورها سكنها خلال الصيف، وربما أمضت هذا الفصل في كارويزاوا.

غادر هوندا موضعه بجوار المسبح ليتجنّب الشمس التي اشتدت قوتها تدريجياً، وبصعوبة فتح مظلة الشاطئ المثبتة وسط المنضدة. واقتعد كرسياً في الظل، وحول نظرتَه المحدقة من جديد إلى سطح الماء.

كانت قهوة الصَّباح ماتزال تثير شعوراً بالخدر في مؤخرة رأسه. وفي قرار المسبح الممتدّ بعرض سبع وعشرين قدماً وطول ستين قدماً، لاحظ خطوط بيضاء من خلال تموجات الطلاء الأزرق، مذكرة إياه بالعلامات الجيرية ومرهم السارو ميثيل ذي الرائحة الشبيهة بالتعناع المرتبط على نحو لا سبيل إلى فصمه بالمسابقات الرياضية في شبابه البعيد. وقد رُسم خطّ أبيض نظيف باستقامة على كل شيء، ومنه بدأ شيء وانتهى آخر. ولكن الذاكرة خائته. فلم تكن له صلة بالمنافسات الرياضية في شبابه.

لقد ذكره الخطّ الأبيض، بالأحرى، بعلامة الوسط الممتدة في منتصف طريق سريع في الليل. وتذكر فجأة الرجل العجوز الضئيل

الجرم الذي كان يحمل على الدّوام عصا في جولاته الليلية بالحديقة . وكانت المرّة الأولى التي قابله فيها على ممشى جانبي تكتسحه أضواء السيّارات الباهرة . وكان الرّجل العجوز سائراً ، وقد دفع صدره إلى الأمام ، وتدلت على ذراعه عصا ذات مقبض من العاج . ولو أنّه كان يسير بطريقة عادية لسحب العصا على الأرض . كان قد رفع ذراعه المنحنية عالياً على نحو غير طبيعي ، بحيث بدا وضعها أكثر تصلّباً . وكانت غابات أيّار (مايو) المفعمة عطراً تقع على أحد جانبي الممشى ، وبدا الرّجل الضّئيل الجرم وكأنّه ضابط متقاعد بالجيش يخفي أوسمته التي لم تعد لها قيمة الآن ، في الجيب الدّاخلي لسترته .

والتقاءه في المرّة الثانية في ظلمة الغابات ، وكان قد لاحظ بالتفصيل الوظيفة التي تؤدّيها العصا .

لدى لقاء العشاق في الغابات ، يدفع الرّجل عادة بظهر المرأة إلى شجرة ، ويشرع في مداعبتها ، ونادراً ما كان العكس صحيحاً . ولذا فإنّه مع انهماك عاشقين ، على هذا النحو ، يحتلّ الرّجل الضّئيل الجرم موقعه ، على الجانب المقابل من جذع الشجرة .

وفي الظلام ، غير بعيد عن المكان الذي اتفق أن كان فيه هوندا ، كان بمقدوره أن يرى مقبض العصا الذي بشكل حرف (u) وهو عند حافة جذع الشجرة . وقد تطلّع في الظلام مراقباً الشكل الأبيض الطّافي عبر الهواء ، وعندما اكتشف أنّ المقبض من العاج ، عرف صاحبه في الحال . كانت ذراعا المرأة تلتفان حول عنق الرّجل ، بينما تشابكت ذراعه وراء ظهرها . والتمتع الشعر المدهون بالزيت ، على مؤخرة رأس الرّجل ، في أشعة السيّارات العابرة . وبدت يد العصا البيضاء تائهة للحظة في الظلام ، ثمّ مسّت ، وكأنّها حسمت أمر

مسارها، ذيل تنورة المرأة وما إن اشتبكت بالرداء حتى رفعته بمهارة وسرعة بدفعة واحدة، علواً حتى خصرها، فتعرت فخذا المرأة البيضاء، ولكنه لم يرتكب خطأ التعرض للانكشاف بلمسهما بالعاج البارد.

وعندئذ همست المرأة: «لا ، لا» وقالت أخيراً: «الجوّ بارد هنا». ولكن الرجل الذي كان يخلّق في السّماء السّابعة لم يجر رداً، وبدا أنّ المرأة لم تلاحظ أنّ ذراعيه مشغولتان تماماً باحتضانها.

لقد طالما دفع هذا الخبث الكلبي المتدنّي بصاحبه، هذا التعاون الدّؤوب التّاكر للذّات، الابتسامة إلى شفتي هوندا لدى تذكّره إيّاه. ولكنه عندما تذكّر الرجل الذي حادثه في ضوء النّهار، عند مدخل بي. إكس ماتسويا، حلّ محلّ الحافّة الرّقراقة للمرح شعور ثلجي بالخوف. فقد كان شيئاً لا يطاق أن تثير لذّته تقرّز الآخرين، وأن تعرّضه بالتالي لاشمئزازهم الذي لا يزول، ولا سيما أنّ هذا التقرّز قد ينمو ذات يوم فيغدو عنصراً لا غنى عنه من عناصر اللذّة.

امتزج هذا التقرّز الفاتر من النّفس بالفتنة العذبة... إنكار الوجود نفسه متداخلاً مع مفهوم الخلود الذي لا سبيل إلى سدّ الثّغرة بينه وبين إنكار الوجود. وكان هذا الوجود الذي تستعصي ثغراته على السدّ الجوهريّ الفريد للخلود.

عاد إلى حافّة المسبح، واغترف في يديه الماء المترجرج. وكان هذا هو الشعور بالثّروة التي أحرزها في نهاية حياته. وفيما هو يحسّ بالسّهام المنطلقة من شمس الصّيف، وهي تصيب عنقه المنحني، بدأ الأمر وكأنّه هدف للخبث والسّخرية الهائلين من فصول الصّيف السّبعة والخمسين التي ضمّتها حياته. لم يكن وجوداً تعسّياً، فكلّ شيء أُرشدّه

مجداف العقل، وتمّ في حذق تجنّب صخور الدّمار. والزعم بأنّه لم ينل لحظة سعيدة واحدة هو من قبيل الغلو المحض. ورغم ذلك فكّم كانت مضجرة تلك الرّحلة! سيكون أقرب إلى مشاعره الحقّة أن يجرؤ على المبالغة والقول بأنّ حياته قد انقضت في ظلام سادر.

بدا أنّ إعلان حياته سواداً حالكاً أمر يعبرّ عن تقمّص معينٍ حادّ نحوها (لم يكن ثمة تعويض، ولا متعة في ارتباطي بك. وعلى الرّغم من أنّي أطلبك مرّة واحدة فقد فرضت عليّ صداقتك العنيدة وأجبرتني على السّير الفطيع على جبل مشدود هذا السّير الذي يدعونه العيش. جعلتني مقتصداً في ما أنا مولع به، ومنحتني مقتنيات زائدة على نحوشير السّخرية، وحوّلت العدل إلى ورق جدير بسلة النّفايات، وقلبت العقل إلى مجرد أثاث، وقصرت الجمال على أشدّ أشكاله تلهلاً). فالحياة تجهد بقوة لتنفي استقامة الرأى، ولتعالج البدعة، ولتوقع الإنسانيّة في فحّ الغباء. لقد كانت تراكماً للأربطة المستخدمة التي لوّثتها طبقات من الدّم والصّديد. والحياة هي التّغيير اليومي لأربطة القلب التي جعلت المريض الذي لا براء له، شاباً وعجوزاً على السّواء، يصرخ من فرط الألم.

كان هوندا يعرف أنّه موضوعي بما فيه الكفاية حيال نفسه. وكان بالنّسبة للآخرين، في عداد أكثر المحامين ثراء، وفي وضع يتيح له أن يستمتع بكهولة مترفة. وكانت تلك مكافأة لرفعه لواء العدالة المطلقة. ولم يكن هناك سجلّ للكسب غير المشروع يشوب نقاء حياته الطويلة قاضياً ومحامياً. وهكذا نظر إليه، وإن كان ببعض الحسد، دوغما لوم أو انتقاد. وكانت تلك إحدى المكافآت المتأخّرة عن مواعدها التي يمنحها المجتمع أحياناً لمواطن مثابر. وعند هذا المنعطف في الحياة

فإن خطيئته الصَّغيرة إذا ما ظهرت للعلن تجاهلها النَّاس بابتسامه،
ناظرين إليها على أنها إحدى نقاط الضَّعف الإنسانيَّة التي لا ضرير منها
وهي موجودة في الجميع. وباختصار فإنَّه يحظى بكلِّ ما هو مرغوب
فيه في عيني الدُّنيا، باستثناء أنَّه لم ينجب أطفالاً.

لقد سبق أن تحدَّث مع زوجته عن تبني طفل، واستحثَّهما
الآخرون على القيام بذلك، ولكن رايي تزايد تردُّدها في مناقشة
الأمر، وفقد هوندا بدوره اهتمامه بالموضوع بعد وصوله إلى ثرائه
الرَّاهن. فقد ساوره الشكُّ في أنَّ النَّاس يسعون وراء ماله فحسب.

تناهت أصوات من الدَّار فأصاخ السَّمع، وتساءل عمَّا إذا كان
أحد الضِّيوف قد وصل، في هذا الوقت المبكر من الصُّباح، ولكنَّ
الأمر لم يتجاوز حديث رايي مع ماتسودو. وسرعان ما قدما إلى
الشَّرفة وأطلاَّ على تموجات المرجة.
قالت رايي:

- انظر، المرجة هناك متفاوتة في ارتفاع العشب. وعندما تنظر إلى
فوجي فإنَّ ذلك المنحدر وراء التَّعريشة يغدو المنطقة الأكثر روعة،
وسيكون منظر العشب غير المتساوي محرَّجاً لنا أمام الضِّيوف، وكما
تعلم فإنَّ أميراً سيزورنا.

- نعم، يا سيدي. هل أجزَّ العشب هناك ثانية؟
- أرجو ذلك.

مضى السَّائق الذي يكبر هوندا بعام واحد إلى نهاية الشَّرفة ليجلب
مجرَّة العشب من المخزن الصَّغير الذي أودعت به أدوات العناية
بالحديقة. وكان هوندا قد قام بتشغيل ماتسودو لا لأنَّه أحبَّه، وإنما

لأنه قدّر الخبرة التي حظي بها السائق في قيادة السيّارات الحكوميّة طوال سنوات الحرب، وحتى بعد ذلك .

كان كلّ شيء فيه يثير سخط هوندا - أسلوبه المتّسم بالكسل البالغ، وطريقته في الحديث التي تعكس صلفاً خفياً، والموقف المطلق الهدوء لرجل تقوم حياته اليوميّة بالكامل على مبدأ القيادة الآمنة للسيّارة (تحسب أن بمقدورك النّجاح في الحياة بمجرد حرصك حيال الأمور على نحو ما تفعل في قيادة السيّارة . أليس كذلك؟ طيّب . إنك مخطئ في هذا) . وبينما هو يرقب السائق العجوز، أدرك أنّ ماتسودو ربّما كان يعتقد أنّ الرّجل الذي يعمل عنده ينتمي إلى النّوعيّة التي ينتمي إليها هو من الأشخاص الحذرين . وأحسّ هوندا بالضيق، وكأنّ السائق يقوم برسم صورة كاريكاتوريّة له .

هتف هوندا برايي :

- تعالي اجلسي، فلديك الكثير من الوقت!
- نعم، ولكن رئيس الطّهاة والنّادلين سيصلون عمّا قليل .
- سيصلون متأخّرين كالمعتاد .

بعد أن تردّدت رايي قليلاً، شأن خيط يتفكّك في الماء، عادت إلى دخول الدّار لتجلب وسادة، فقد كانت تخشى أن تصاب كليتها بالبرد من ملاسة المقعد الحديدي .

قالت وهي تقتعد الكرسي المجاور لهوندا:

- رئيس الطّهاة والنّادلون . . . لا أستطيع احتمال هؤلاء النّاس وهم يلحقون الدّمار بالدّار .

- كم كنت ساستمتع بنمط الحياة هذا لو كنت أحبّ التألّق كالسيّدة كينكين!

- إنك تطرح موضوعات قديمة للغاية!

كانت السيدة كينكين زوجة أبرز المحامين في اليابان، بعد نهاية القرن بوقت قصير. وباعتبارها فتاة جيشاً سابقة فقد كانت مشهورة بجهاؤها وإسرافها. وغالباً ما كانت تشاهد وهي تمتطي صهوة جواد أشهب. وطالما أثارت الدهشة بارتداء كيمونوهات الجيشا الضافية الطول في الجنازات. وعندما مات زوجها انتحرت لياسها من استطاعتها مواصلة الحياة بالرّفاهية التي اعتادتها.

- إنني أسمع أنها كانت تربيّ ثعابين مدلّلة، وتحمل على الدوام ثعباناً صغيراً في حقيبتها. آه، لقد نسيت. قلت إنك قتلت ثعباناً أمس، وسيكون أمراً فظيماً لو ظهر ثعبان والأمير هنا.

قالتها رايبى وهتفت بماتسودو الذي كان يمضي مبتعداً بمجرّة العشب:

- ماتسودو! إذا عثرت على ثعبان فتخلّص منه، ولكن أرجو ألا تدعني أراه.

وفيا كان هوندا يرقب حركة بلعومها وهي تصبح هنالك حيث أضاء انعكاس البحيرة بلا رحمة الإيغال في العمر، تذكر فجأة ناديشينا التي كان قد قابلها، وسط أطلال شيبويا خلال الحرب، واستعاد ذكرى كتاب «سوترا ملك حكمة الطاووس» الذي أعطته إياه.

- إذا لدغك ثعبان، فما عليك إلا ترديد هذه الرقية: ما يا كيتورا تاي شا كا.
- حقاً؟

تراجعت رايبى بلا أدنى علامة على الاهتمام، بظهرها في الكرسي

من جديد. وسمع لها صوت محرّك المجرّة الذي بدأ للتوّ، باختيار الصّمت.

اعتبر هوندا أنّ من الأمور المسلّم بها سرور زوجته العتيقة التّفكير بزيارة الأمير الوشيكة، ولكنّه دهش حيال حدوثها فيما يتعلّق بوصول ينج تشان المتوقّع. وبدورها كانت رايني تأمل في أن تنتهي معاناتها الطويلة إذا ما قدّر لها أن ترى ينج تشان إلى جوار زوجها.

كان هوندا قد قال على نحو عرضي:

- غداً ستحضر كيكو ينج تشان معها لحضور افتتاح المسبح، وستقضيان اللّيلة معنا.

واستشعرت رايني سروراً ممتزجاً بوخز مؤلم، فقد كانت غيرتها مزوجة بعمق بالشكّ، حتّى إنّ أساها الذي أخذ يتبدّد مع كلّ ثانية كان يشبه انتظار الرّعد بعد رؤية لمع البرق. وتداخل ما خشيته مع ما انتظرته بقلق بالغ، وأسعدها إدراك أنّها لم تعد بحاجة إلى الانتظار.

شابّة فؤاد رايني نهراً ينساب ويبدأ عبر سهل فسيح مهجور، ناحتاً الصّفتين، وها هو الآن يُلقى راضياً وهو يوشك على بلوغ البحر المجهول، إرسابه الطّميّ عند المصبّ. وسيكفّ ها هنا عن كونه ماء عذباً ويتحوّل إلى بحر أجاج. وإذا زاد المرء من دفع عاطفة ما، لتصل إلى حدودها القصوى، فإنّ طبيعتها تتغيّر من تلقاء ذاتها، ولا يلبث تراكم المعاناة الذي بدا أنّه يقضي عليها، أن يتحوّل فجأة إلى قوّة على الحياة - مريرة على نحو متزايد، جهمة بصورة متفاقمة، ولكنها تغدو على حين غرّة قوّة زرقاء رحبة المدى.

لم يكن هوندا قد لاحظ أنّ زوجته مضت في التحوّل إلى امرأة شكسة وممرورة، على نحو يستحيل معه التعرّف عليها. ورايني التي

عذَّبته بسعيها الجهم الصّامت لم تعد، في حقيقة الأمر، أكثر من
حشرة في الطّور الذي يعقب البرقانة .
وفي هذا الصّباح المشرق كانت تشعر بأنّه حتّى حالة كليتها المزمنة
قد تحسّنت بصورة كبيرة .

جعل الصّوت المتواني البعيد الصّادر عن مجرّة العشب طبلتي أذني
كلّ من الزّوجين الصّامتين تتذبذب . كان صمتاً غريباً تماماً عن
الصّمت الذي يلزمه زوجان رائعان لم يعودا بعد في حاجة إلى
التّحاور . وفسّر هوندا الموقف مع بعض المبالغة على هذا النحو: إنّهما
حزمتان من الأعصاب تستند إحداهما على الأخرى، وبقيامهما بهذا
تفلهحان في تجنّب الانهيار إلى الأرض في اصطدام معدني الرّنين . بدا
الأمر وكأنّها يدعنان لوضعهما معاً، بصعوبة، وفي صمت . ولو أنّه
كان قد ارتكب جريمة متألّقة لكان بمقدوره على الأقلّ أن يشعر بأنّه
يحلّق عند مستوى أعلى بقليل من مستوى زوجته . ولكن كبرياءه
جرحت بعمق عندما أدرك أنّ لكلّ من معاناة زوجته ونشوته الحجم
نفسه .

كانت نوافذ غرفة الضّيوف الواقعة في الطّابق الثاني والمنعكسة على
سطح الماء قد فتحت لتجديد الهواء، وراحت السّتائر البيضاء المخرّمة
ترفرف أطرافها في الهواء . اللّيلة يتوقّع أن تكون ينج تشان وراء تلك
النّافذة، تلك التي تسلّقت منها ذات مرّة إلى السّقف في منتصف
اللّيل، وقفزت برشاقة إلى الأرض . وقد جعله هذا التّصرف يعتقد
أنّه ما كان هناك من سبيل إلّا أن تنمو لها أجنحة . ألم تحلّق بعيداً بالفعل
فيما كانت عيناه غافلتين عنها؟ وكيف يمكن أن يتيقن المرء من أنها لم
تنطلق ممتطية طاووساً ودون أن تقع عيناه عليها لتحرّر نفسها من قيد

هذا الوجود وتحوّل إلى كائن متجاوز للزّمان والمكان؟ وفتنه على نحو جليّ غياب أي دليل على أنّها لم تقم بذلك ، واستحالة التيقّن من أنّها لم يكن بمقدورها اجتراحه . وعندما بلغ هذا الاستنتاج أدرك الطبيعة الصوفيّة لهواه .

بدا سطح المسيح وكأنّ صياداً ألقى عليه شبكة من نور . وقد لزمت زوجته الصّمت ، ويداها الصّغيرتان المتورّمتان اللتان تشبهان إلى حدّ كبير يدي دمية يابانيّة ، ممدّتان على حافة المنضدة ، وقد غطّى ظلّ مظلة الشاطئ نصفهما .
كان بمقدوره الغرق في أفكاره .

وقد قيّدت واقعيّة ينج تشان بقيود من ينج تشان التي كان بوسعه أن يرصدها . إنّها فتاة ذات شعر أسود جميل وابتسامة لا تحتجب وولع بعدم الوفاء بالوعود ، ولكنها شابة قويّة الإرادة للغاية ولا سبيل إلى سبر أغوار عواطفها . وكان من المؤكّد أنّ ينج تشان التي تتراءى لعيني المرء ليست كلّ ما هنالك . وبالنسبة لهوندا فإنّ الحنين إلى ينج تشان التي لم يكن بمقدوره أن يراها هو الحبّ الذي اعتمد على المجهول ، والإدراك على نحو طبيعي وقد ارتبط بما هو معلوم . ترى هل في وسعه تحقيق حبّه؟ لا ، لن يستقيم الأمر على هذا النحو؛ لأنّ حبّه مضى يكافح للإبقاء على ينج تشان بعيدة ، بقدر الإمكان ، عن مخالب الإدراك .

منذ شباب هوندا ، كان كلب الصيد المتمثّل في إدراكه حاذقاً للغاية . وهكذا فإنّ ينج تشان التي عرفها بالرؤية تطابقت مع قدرات إدراكه . وما من شيء غير قدرته على الإدراك جعل وجودها ممكناً .
ومن هنا فإنّ رغبته في رؤية ينج تشان عارياً ، ينج تشان التي لا

يعرفها أحد، أصبحت رغبة لا سبيل إليها، وتتمزق على نحو متناقض بين الإدراك والحب. والرؤية تكمن بالفعل في رحاب الإدراك، وحتى إذا لم تكن ينج تشان واعية الأمر فإنها منذ اللحظة التي حدق فيها عبر الثقب المضيء في مؤخرة رف المكتبة غدت قاطنة في عالم خلقه إدراكها. وفي عالمها الذي لوته عالمه منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناه عليها، فإن ما أراد أن يراه حقاً لن يظهر أبداً. وما كان من الممكن تحقيق حبه. ومع ذلك فإنه إذا لم يرها فإن الحب سيظل مستبعداً دوماً.

أراد أن يرى ينج تشان مخلقة، ولكنها إذ قيدتها إدراكاته، لم تخلق. ومادامت قد ظلت مخلوقة من مخلوقات إدراكاته فليس بمقدورها انتهاك القوانين الطبيعية التي تحكم هذه الإدراكات. وباستثناء ما يترأى في الأحلام، فربما كان العالم الذي تخلق فيه ينج تشان على ظهر طاووس يمتد على بعد خطوة ولا يتجسد لأن إدراك هوندا نفسه أصبح ستاراً - وكان معيياً - هائلاً يمتد بلا انتهاء. فكيف يكون الأمر إذن لو أنه تخلص من هذا الحائل وغير الموقف؟ إن ذلك سيعني إزاحة هوندا من العالم الذي يتقاسمه مع ينج تشان، وبتعبير آخر موت هوندا نفسه.

غداً جلياً الآن أن رغبة هوندا المطلقة في ما أراد حقاً وصدقاً أن يراه، لا يمكن أن تكون إلا في عالم لا يكون هو فيه. ولكي يرى ما رغب فيه حقاً فإنه ينبغي أن يموت. وعندما يدرك متلصص أنه لا يمكن أن يحقق غاياته إلا بالقضاء على فعل المراقبة الأساسي ذاته، فإن هذا يعني موته باعتباره كذلك.

وللمرة الأولى في حياة هوندا، اكتسب مغزى الانتحار ثقلاً في عيني رجل عالم بالأمور مثله.

لو أنه أنكر الإدراك على نحو ما يوجهه إليه هواه، وجرب الهرب من الإدراك بصورة لانهائية، محاولاً أخذ ينج تشان إلى أرض يمكنه بلوغها فإن المقاومة التي تعني من جانب الإدراك انتحاراً مؤكداً، ستعني خروج هوندا من عالم لؤته الإدراك، تاركاً وراءه ينج تشان. ولكنها ستقف في لحظة رحيله ذاتها متألفة أمامه، وما من شيء كان قابلاً للتنبؤ به للغاية قدر هذا.

كان العالم الرّاهن عالماً من خلق إدراكات هوندا، وهكذا فقد سكنته أيضاً ينج تشان. ووفقاً لمفاهيم مدرسة اليوشيكى فإنه كان عالماً من خلق وعي الأليا عند هوندا. ولكن السبب في أنه كان مايزال عاجزاً أن يمنح نفسه بصورة كاملة لهذا المبدأ يرجع إلى أنه كان مرتبطاً أكثر مما ينبغي بإدراكاته، وكان عاجزاً عن الموافقة على اعتبار جذرها وعي الأليا الخارجي الذي ينهي العالم لحظة دوغما ندم ويجدّه في اللحظة التالية.

فكر هوندا، بالأحرى، في الموت على أنه لعبة، وفتنته عذوبته. وإذا أغوته إدراكاته فقد حلم بالقداسة المطلقة للحظة الانتحار، عندما تنجلى بكل تألقها ينج تشان التي لم يقع عليها طرف شخص آخر، وتبدو عربياً من عنبر نقي، مثل قمر لامع يشرق.

ألم يعن «تحقق الطاووس» على وجه الدقة هذا؟ فوفقاً لما جاء في «قواعد تصوير ملك حكمة الطاووس» فإن «السمايا - جايو، أو الرمز المميز الذي يمثل قسم الرب الرئيسي، يوصف بأنه هلال يعلو ذيل طاووس، وفوق ذلك فقد رسم بدرأ في ليلة تمامه. وكما أنّ الهلال يتحوّل إلى بدر فإن تعلم القانون يتحقق بصورة كاملة.

ربما كان ما أراده هوندا حقاً هو تحقق الطاووس هذا. وإذا كان

كلّ ما في الدّنيا من حبّ بعيداً عن الكمال كبعده الهلال عنه، فمنذا
الذي لن يحلم بيدري يشرق فوق ذيل الطاووس؟
توقّف صوت مجزة العشب، وسمع صوت يتناهى من بعيد:
- أهذا يكفي؟

التفت الزّوجان بارتباك، شأن زوج من الببغاوات الضّجيرة على
مجمّها، متطلّعين إلى مصدر الصّوت. وقد وقف ماتسودو هنالك في
زيّ عمله الخاكي اللّون، ولاح فوجي نصف محتجب بالفعل وسط
السّحب المترامية وراءه.
قالت رايمي لزوجها، بصوت خفيض:
- طيّب، ألا ترى أنّ ذلك كافٍ؟
ردّ هوندا:

- أحسب ذلك. فليس بمقدورنا أن نطالب العجوز بأكثر من
اللازم.

شكّل بذراعيه دائرة كبيرة تعني الموافقة، وإذ فهم ماتسودو ذلك
فقد مضى بمجزة العشب عائداً إلى الدّار على مهل. وتناهى صوت
محرك من ناحية البوابة الواقعة على جانب جبل هاكوني، ودخلت
سيارة ذات حقيبة أمتعة خلفيّة كبيرة إلى الأراضي الملحقة بالدّارة.
وكانت السيّارة الآتية من طوكيو، حاملة رئيس الطّهاة وثلاثة من
النّادلين ومؤونة وفيرة من الطّعام.

لم يكن هوندا قد دعا بعدُ أقدمَ السكّان في دُور الحِي، على الرّغم من الحقيقة القائلة بأنّه أحدث الوافدين إلى الدّارات التي يستمتع أصحابها بمشهد جبل فوجي في نينوكا. وكان أولئك السكّان القدامى قد ابتعدوا عن داراتهم إذ أخافتهم الشّائعات التي تردّدت عن تعرّض أخلاق الجمهور للفساد من خلال المشارب التي فتحت تلبية لاحتياجات الجنود الأميركيين قرب جوتوبا. وقد جلبت هذه المنشآت في أعقابها العاهرات الرّفيعات المستوى والقوادين والدّعاعات الوضيعات اللّاتي يضربن في أراضي التّدريب وقد تسلّحن بالبطانيات. وفي هذا الصّيف شرع ملاكو الدّارات بالعودة على مهل، وقد وجّه هوندا الدّعوة إلى بعضهم بمناسبة إنشاء المسيح.

كان أقدم مالكي الدّارات هم الأمير والأميرة كاوري وأرملة كانزايمون ماشيبا، مؤسس بنك ماشيبا، التي تقدّم بها العمر. وكانت السيّدة ماشيبا قد أعلنت أنّها ستصحب معها أحفادها الثلاثة. وكان هناك كثير من الضّيوف الآخرين من المنطقة. وبالإضافة إلى كيكو وينج تشان فقد كان من المتوقّع وصول إيمانيشي والسيّدة تسوباكيهارا من طوكيو، وقد ردّت ماكيكو في وقت مبكر للغاية بأنّها ستسافر إلى الخارج. وكانت ماكيكو تصحب في السّظروف العاديّة السيّدة تسوباكيهارا في رحلتها، ولكنها في هذه المرّة اختارت تلميذة أخرى، كمرافقة لها.

ما إن تصبح خادمةً ما من العاملين الدّائمين لدى آل هوندا حتّى

تجد رأيي نفسها قادرة، على نحو ما لاحظ هوندا متفكهاً، على طردها في قسوة بالغة، رغم أنها لم تتخلّ قطّ عن ابتسامتها العذبة في مواجهة المساعدة من الخارج، كتلك التي يقدّمها رئيس الطهاة والنادلين. وكانت تتحدّث في دماثة وتظهر التقدير لكلّ شيء حريصةً على أن تثبت لنفسها وللآخرين أنها محبوبة من الجميع.

سأل أحد النادلين، وقد ارتدى زيّه الرسمي الأبيض:
- سيّدي، ماذا نفعل بشأن التعريشة؟ هل أعدّ المشروبات هناك أيضاً؟

- أرجو أن تقوم بذلك!

- ولكن سيكون من الصّعب، بالنسبة لنا وحدنا نحن الثلاثة أن نقطع كلّ هذه المسافة. هل يكون مرضياً أن نترك بعض الثلج في الدلو المبرّد ونطلب من الضيوف أن يعدّوا المشروبات بأنفسهم.
- بالتأكيد. فالضيوف الذين يتعدون إلى التعريشة قد يكونون على آية حال أزواجاً من الشبان، وربما كان من الأفضل، على وجه الدقّة، عدم إزعاجهم. تأكّد، على نحو قاطع، من عدم نسيان طارد البعوض حينما يبدأ الظلام بإسدال ستره.

صدم هوندا، بصورة حقيقيّة، لسماع زوجته تتحدّث على هذا النحو، فقد كان صوتها مرتفعاً، بصورة غير طبيعيّة، وطفّت كلماتها محلّقة في الهواء. فالطّيش الذي كان يفترض أنها تزدريه أكثر من أيّ شيء آخر في العالم على امتداد سنوات طويلة امتزج الآن إلى حدّ كبير بكلماتها وصوتها بحيث جعله يشكّ في أنها تتعمّد السخرية.

بدا أنّ الحركات النشطة التي يقوم بها النادلون في ملابسهم الرسميّة قد شحنت الدار بخطوط مستقيمة، فستراتهم المنشأة جيّداً،

وكفاهم المترعة شباباً وحيوية في الحركة، والاحترام البادي عليهم، وتألقهم المهني، كل ذلك حوّل الدار إلى عالم غريب يبعث الانتعاش في النفس. وقد نحت كل الأمور الخاصة جانباً، وطارت في كل مكان الترتيبات والمشاورة والأوامر والتوصيات، وكأنها فراشات طويت مناديل المائدة على غرار شكلها.

وضعت مائدة حافلة بألوان الطعام بحوار المسيح لتسمح للضيوف بتناول طعامهم وهم في ملابس الاستحمام. وتغير في الحال مظهر الدار المألوف، واستخدم مكتب هوندا الثمين بعد تغطيته بمفرش مائدة كمشرب في الهواء الطلق. وعلى الرغم من أنه هو نفسه الذي أصدر التوجيهات بإجراء هذه التغييرات، إلا أنها تحولت بعد أن نفذت إلى نوع من الانقلاب العنيف.

وإذ دفعته إلى الوراء أشعة الشمس الآخذة بالاحتدام تدريجياً فقد أخذ يرقب كل شيء في دهشة. من الذي أعد كل هذا؟ ولأي هدف؟ لإنفاق المال؟ لدعوة ضيوف يتركون أثراً قوياً في النفس؟ للقيام بدور البرجوازي المجامل؟ للتباهي بالمسبح الذي اكتمل إنشاؤه؟ وفي حقيقة الأمر فإن هذا هو أول مسبح خاص في نينوكا سواء قبل الحرب أو منذ قيامها. وهناك في هذا العالم كثير من الكرماء الذين يغتفرون لشخص آخر ثراءه، إذا ما وجهت إليهم الدعوة لزيارة منزله.

- أرجو أن ترتدي هذه الملابس، يا عزيزي!

قالتها رايمي وقد أحضرت سروالاً من الغزل الصوفيّ البني القاتم، وقميصاً أبيض ورباط عنق على شكل فراشة مرقشاً بنقاط بيّنة دقيقة، ووضعتها على المنضدة تحت مظلة الشاطئ.

- أتريديني أن أبدل ثيابي هنا؟
- ولم لا؟ ليس هناك إلا النادلون. وبالإضافة إلى ذلك فسوف
أطلب منهم الآن أن يأخذوا فترة راحة ليتناولوا طعام الغداء.

التقط ربطة العنق التي أخذت أطرافها القصوى شكل ثمار
اليقطين، فأمسك أحد الأطراف بأصبعيه، ورفعها عالياً على نحو
عابث لتواجه ضوء المسبح. كانت قطعة غير رسمية وبائسة ومتهذلة
من النسيج، ذكرته بـ «الأمر العاجل» الذي تصدره محكمة التحقيق
«إخطار بإجراء عاجل واعتراض المتهم». لقد كان هوندا نفسه هو
الذي يمقت أشد المقت الحفل الوشيك الإقامة. . . باستثناء جوهر واحد
مطلق، نقطة واحدة تومض يأساً.

كانت السيّدة ماشيبا أوّل من وصل مع أحفادها الثلاثة، وهم فتاة
عزّية وشقيقان أصغر منها عاديان تماماً، يضعان العوينات ويبدو
عليهما الاجتهاد، وأحدهما طالب في السّنة الرّابعة بالكلية والثاني
طالب بالسّنة الثانية. وقد توجّه الثلاثة من فورهم إلى غرف تغيير
الملابس حيث ارتدوا ملابس الاستحمام. وأما الجذّة التي كانت
ترتدي كيمونو فقد بقيت تحت المظلة.

- خلال حياة زوجي، ولاسيّما بعد الحرب، كنّا نخوض غمار كلّ
الانتخابات واقترح دائماً - لمجرّد معارضته - للحزب الشيوعي. ثمّ
أعجبت أشدّ الإعجاب بكويتشي توكودا.

مضت العجوز ترتّب ياقات كيمونوها، بلا توقّف، أو تجذب في
عصبية ردي الرّداء وكأنّها جندب يخفض خطمه ويحكّ جناحيه.
وكانت قد اشتهرت بأنّها إنسانة غير تقليديّة ومسلية. وكانت عيناها
المحتجبتان وراء عوينات بنفسجيّة، والمتألفتان اللتان لا تكفّان عن

التمحيص، تمضيان في التحديق، في حين توغل صاحبتهما في التكهّن بالأحوال الماليّة للجميع . وكان الجميع يشعرون لدى التعرّض لنظرتها الفاحصة الباردة وكأنّهم تابعون لها .

كانت للفتاة والشابّين، وقد عادوا مرتدين ثياب الاستحمام، الأجسام التي تميّز أبناء العائلات الكريمة المحتد، والأطراف الرقيقة المعنى بها عيناها . وقفزوا إلى الماء واحداً بعد آخر، فشعر هوندا في المقام الأوّل بالأسف لأنّه لم يقدر لينج تشان أن تكون أوّل من ينزل إلى الماء في مسبحه .

سرعان ما عادت رايبى من الدّار مصطحبة الأمير والأميرة كاوري اللّذين كانا يرتديان ملابس الاستحمام بالفعل . واعتذر هوندا عن عدم إدراكه لوصولهما وعدم مجيئه لتحيّتهما، ولام رايبى على عدم تنبيهه إلى ذلك، ولكن الأمير اكتفى بهزّ رأسه طالباً تجاوز الأمر برمته، ومضى إلى الماء . وقد تابعت السيّدة ماشيا هذا الحوار بنظرة من بدا له الأمر طريفاً، وكأنّها ترقب أناساً يتصفّون بالجلافة . وبعد أن قام الأمير بدورة في المسبح، وصعد معتلياً الحافّة، حادثته من موضعها بصوتها الحادّ:

- ما أشدّ فتوتك ورجولتك، أيها الأمير! كان حريّاً بي قبل عشر سنوات أن أتحدّك لدخول سباق معي .

- قد لا أكون ندياً لك حتّى في الوقت الحالي، يا سيّدي! فقد جعلتني السّباحة لمسافة لا تتجاوز خمسين متراً ألهث، كما ترين . وعلى أيّة حال فما أروع أن نستطيع الاستحمام في مسبح في جوتمبا رغم أنّ الماء بارد قليلاً .

نثر قطرات الماء عن جسمه وكأنه يتخلص من التباهي فتناثرت
نقاط سوداء على الإسمنت .

لم يكن الأمير نفسه قد لاحظ أن الناس ينظرون إليه في بعض
الأحيان باعتباره مخلوقاً فاتراً بسبب جهوده الكبيرة للتصرف في كل
المناسبات باللامبالاة والطابع غير الرسمي اللذين حلّا بعد الحرب .
وعندما لم يعد من الضروري الحفاظ على المكانة، أصابته الحيرة فيما
يتعلق بالعلاقات الإنسانية . ولثقته، بسبب انتهائه إلى النخبة، بأن له
الحق في كراهية التقاليد أكثر من أي شخص آخر، فقد نظر
باستخفاف إلى من يقدرونها في هذا اليوم والعصر . وربما كان هذا أمراً
لا بأس به لو أنه كان يعني، وهو يشير إلى أن شخصاً ما لم يفصح عن
نزعة للتقدم، ما لم يكن يعنيه عندما كان يعقب في الأيام الخوالي بأن
شخصاً ما وضع المنبت للغاية . فقد كان الأمير يصف كل
التقدميين، كما يصف نفسه، على أنهم «المعدّبون في أغلال التقاليد» .
وهكذا كان من المحير أن تمضي به الخطوة التالية إلى النظر إلى نفسه
على أنه أحد عامة الناس .

عندما نَحَى الأمير عويناته، قبل الاستحمام، رأى هوندا وجهه من
دونها للمرة الأولى، فقد كانت بالنسبة إليه جسراً بالغ الأهمية إلى العالم،
وعندما أزيح هذا الجسر بدا محياه العادي مكتسباً بقدر من الكآبة
الغامضة . ويرجع ذلك في أحد جوانبه إلى وهج الشمس . ولقد
كانت كآبة يحيط الاضطراب في غمرتها بالهوة بين النبل الذي طال
العهد بذهابه والوقت الحاضر، فتبدو بعيدة عن بؤرة النظر .

وبالمقابل فإن الأميرة التي بدت بدينة قليلاً في ملابس استحمامها،
كانت تشعّ بالجاذبية الطبيعية . وعندما طفت على ظهرها، ورفعت

ذراعها، وابتسمت، بدت كظير ماء بري جميل يسبح بسعادة في خلفيّة صنعها جبل هاكوني. وما كان بوسع المرء إلا أن يفترض أنها واحدة من أناس قلائل عرفوا معنى السعادة.

أحسّ هوندا بالضيق، إلى حدّ ما، حيال أحفاد ماشيبا الذين التّفوا الآن بعد خروجهم من الماء حول جدّتهم ومضوا يتحدثون على نحو مهذب مع الأمير والأميرة. وكان موضوع حديثهم مقتصرًا على أميركا وحدها، فقد تحدّث الفتاة الكبرى عن المدرسة الخاصّة العصريّة التي كانت تدرس فيها، ولم يتحدّث شقيقها إلاّ عن الجامعات التي سيمضيان إليها فور إنهائهما دراستهما في اليابان. وكانت أميركا هي كلّ شيء. فالتلفزيون منتشر هناك... وما أجمل أن ينطبق ذلك على اليابان... ولكن، بالمعدل الحالي، قد يقتضي الأمر عشر سنوات قبل الاستمتاع بالتلفزيون هنا... وما إلى ذلك...

لم تكن السيّد ماشيبا تَمَنّ بحَيّون الأحاديث عن المستقبل، فقاطعت حديثهم على الفور.
- إنكم جميعاً تضحكون مني معتقدين أنّي لن أكون على أيّ حال موجودة لأراه. طيّب، إذن، لسوف أظهر في هيئة شبح على شاشاتكم وانتم تشاهدون التلفزيون كلّ ليلة.

كانت الطّريقة التي سيطرت بها الجدّة دونما هوادة على حديث الشبان غير مألوفة، تماماً كما كان أسلوب الشبان في التزام الصّمت والإصغاء إليها، في أثناء حديثها. وحدّث هوندا نفسه بأنهم يشبهون ثلاثة أرناب ذكيّة.

مضى المضيف باكتساب المهارة في تحيّة ضيوفه مع ظهورهم واحداً

إثر آخر في ثياب استحمامهم لدى مدخل الشرفة . وعلى الجانب الآخر من المسيح ، ووسط زوجين من أصحاب الدّارات المجاورة ، رفع إيمانيشي والسيدة تسوباكيهارا ، وقد ارتديا ملابس الخروج ، يديهما محيّن . وكان إيمانيشي يرتدي قميصاً مستوحى من أجواء هاواي ، ذا تصميم زخرفي مطبوع بدا مجافياً تماماً لطابعه ، بينما كانت السيدة تسوباكيهارا ترتدي كيمونوها الأسود المعتاد من النسيج الحريريّ الذي يشبه زيّ الحداد . وكانت تجاهد محاولة ترك تأثير محدّد: إنها بلّورة سوداء وحيدة موحية بالنّذر وسط تألق المسيح . وقد استشفّ هوندا ما في أعماقها على الفور ، واستنتج أنّ إيمانيشي قد ارتدى قميصه المثير للسخرية ليهزأ من خليلته الساذجة التي كانت تحاول على الدوام أن تلعب أدواراً لا تناسبها .

تخلّف إيمانيشي والسيدة تسوباكيهارا وراء الضيوف المفعمين بالحركة والنشاط في ملابس استحمامهم ، ومضيا على مهل سيران على امتداد حافة الماء الذي جعل انعكاس لوني ملابسهما ، الأصفر والأسود ، يترججان .

كان الأمير والأميرة يعرفان إيمانيشي والسيدة تسوباكيهارا معرفة جيّدة ، فقد شهد الأمير كثيراً من اجتماعات ما بعد الحرب التي عقدتها النخبة الثقافيّة ، كما كانت تُدعى ، وكان على علاقة وديّة بما فيه الكفاية بإيمانيشي ، علاقة تتيح له الحديث دونما التزام بالرسميّات معه .

قال محدّثاً هوندا :

- لقد وصل ذلك الرّجل المسليّ .

ما إن جلس إيمانيشي حتّى انتزع الغلاف المجعّد عن صندوق من

السّجائر المستورد، ، وألقاه بعيداً، واجتذب عليه جديدة. وبعد أن جرّدها من غلافها ربّت على أسفلها، واستلّ في حذق سيجارة، وقال، على نحو يفتقر للحماسة:

- لست أستطيع التّوم في هذه الليالي.

- هل هناك ما يثير قلقك؟

قالها الأمير متسائلاً، وقد وضع على المنضدة صحيفة كان يتناول الطّعام منها لتوّه.

- ليس بشكل خاصّ، ولكن لا بدّ لي من شخص أجاذبه أطراف الحديث في منتصف الليل، ونمضي في ذلك الحديث حتّى الصّباح، وعندما تشرق الشّمس نشعر بالرّغبة في الانتحار، ثمّ نتناول في جدّيّة الأقراص النّومّة، ولكننا نستيقظ، فنجد أنّ شيئاً لم يحدث، فالصباحات كلّها سواء.

- أيّ نوع من الأحاديث هو الذي تنغمس فيه ليلة بعد أخرى؟

- هناك الكثير ممّا يمكن الحديث عنه إذا علمت أنّ هذا سيكون آخر حديث لك. ونحن نتناول كلّ موضوع ممكن في الدّنيا، ما فعلناه، وما فعله الآخرون، وما عايشه العالم، وما اجتازته البشريّة، أو أشياء حلّمت بها قارة منسيّة على امتداد آلاف عديدة من السّنين. وسيكون أيّ شيء مناسباً، فهناك أنواع عديدة من الموضوعات، وسيتهي العالم اللّيلة.

بدا الأمير شديد الاهتمام، وواصل طرح الأسئلة.

- ولكن إذا ألفت نفسك حيّاً في اللّيلة التّالية، فعمّ تتحدّث إذن؟

لقد تناولت كلّ شيء.

- ذلك ليس مشكلة، فما عليك إلّا الحديث عنها جميعها من

جديد.

لزم الأمير الصّمت وقد أذهلته هذه الإجابة التي بدت وكأنها تشير إلى أنّ إيمانيشي يتلاعب به .

وقف هوندا جانباً مصغياً للحديث، ولم يدر مدى جدية إيمانيشي، ثمّ تساءل متذكراً حكاية إيمانيشي الغربية التي سمعها ذات مرّة .
- بالمناسبة، ماذا حدث لأرض الرّمّان؟

قال إيمانيشي، محوّلاً عينين باردتين إليه، وقد بدا وجهه موحياً بالانغماس في الذات أكثر من ذي قبل، وشكّل مفارقة على نحو غريب مع قميص هاواي الملّون والسّجائر الأميركيّة، معطياً الانطباع، فيما أحسّ هوندا، بأنّه مترجم يعمل مع قوّات الاحتلال:
- آه، لقد قضى عليها، ولم يعد لها وجود.

كانت هذه هي طريقتة العاديّة في الحديث، ولم يثر ما قاله في حدّ ذاته دهشة هوندا. ولكن إذا كانت الألف عام من الجنس التي دعيت ذات يوم بأرض الرّمّان قد فنيت في أوهام إيمانيشي، فإنها ينبغي كذلك أن تختفي في ذهن هوندا الذي كره هذه الصّور الخياليّة. لم يعد لها وجود. ارتكب إيمانيشي جريمة ذبح هذه الصّورة الخياليّة، وكان بمقدور هوندا تحيّل انتشائه بسفك الدّماء الفاتن في غمرة القضاء على المملكة التي أبدعها. كان بوسعه تصوّر المشهد المعذب تلك اللّيلة. لقد أبدع بالكلمات، ودمّر بالكلمات، وعلى الرّغم من أنّ المملكة لم تظفر قطّ بالواقعيّة، إلّا أنّها رغم ذلك تجلّت في موضع ما، والآن قضت عليها نزوة قاسية. وإذ رأى هوندا لسان إيمانيشي الذي خشنته المخدّرات وغدا لونه بنياً ضارباً إلى الصّفرة وهو يلحق شفّتيه، فقد تصوّر على نحو متوهّج جبلاً من الجثث وأنهاراً من الدّماء.

ولو قورنت رغباته برغبات هذا الضّعيف الشّاحب لبدت أكثر

هدوءاً وتواضعاً، غير أنها كانت بالمثل مستحيلة التحقيق . وإذ رأى إمانيشي الذي لم يظهر أدنى أثر للزعة العاطفية، وإذ سمعه يعلن بلامبالاته المصطنعة المميّزة دمار أرض الرمان فقد أحسّ بأن عبث الأمر يخترقه حتى النخاع .

ولكن استرسال خواطره قطعتة في الحال السيّدة تسوباكيهارا التي انحنت تهمس في أذنه . وأفصحت حقيقة همسها في أذنه بصوت خفيض على نحو خاصّ عن الحقيقة القائلة بأنها ليس لديها شيء مهمّ تفضي به .

- هذا حديث بيني وبينك وحدنا . إنك تعلم بأن ماكيكو في أوروبا . أليس كذلك؟
- هذا هو ما سمعته .

- إنني لا أتحدّث عن الرّحلة ذاتها . وإنما أردت إبلاغك بأنها لم توجّه لي الدّعوة للذهاب معها هذه المرّة، بل اصطحبت تلميذة سوقية مجردة من الموهبة معها . ولكنني، لا أنتقد ذلك بالطّبع . وكلّ ما في الأمر أنّها لم تخبرني بشيء عن رحيلها . هل يمكنك تصديق ذلك؟ لقد ذهبت لتوديعها في المطار، ولكن مشاعري غلبتني فلم أستطع التّلّفظ بكلمة واحدة .

- ترى لماذا لم تذكر الأمر . لقد كنتما لا تفصلان عملياً .

- إنّنا لم نكن بعيدتين عن الانفصال فحسب، وإنّما كانت معبودتي . وقد هجرتني معبودتي . والحكاية طويلة، ولكن عندما واجهت عائلتها صعوبة كبيرة بعد الحرب، وكان أبوها، وهو شاعر أيضاً، ضابطاً في الجيش، ساعدتها قبل أيّ مخلوق آخر . ولم أخف عنها شيئاً . وأظنّ أنّي قد عشت ونظمت الشّعْر على نحو ما أرادت

مَنِّي فحسب، وقد أبقاني على قيد الحياة الشّعور بالجسم والروح وقد ارتبطا بمعبودة، على الرّغم من أنّي كنت مجرد قوقعة بعد أن فقدت ولدي في الحرب. ومشاعري لم تتغيّر على الإطلاق، حتّى وإن طارت شهرتها، ولكن الأمر السيّء الوحيد هو أنّه كانت هناك هوة أوسع ممّا ينبغي بين موهبتها وموهبتي، أو بالأحرى أصبح أكثر وضوحاً من ذي قبل بالنّسبة لي، بعد أن تعرّضت للهجران، أنّي منذ البداية لم أحظ ولو بقسط ضئيل من الموهبة.

قال هوندا، تعبيراً عن مجاملته، وهو يضيّق عينيه في مواجهة الضّوء المرتدّ عن المسيح:

- إنّني على يقين من أنّ ذلك ليس صحيحاً.

- لا، إنّني أعلم ذلك تمام العلم الآن. ولا ضرر من مواجهة الأمر، ولكنّه من الجليّ بالنّسبة لي أنّها لا بدّ أن تكون قد علمت من البداية بجليّة الأمر. أيمنك أن تصوّر شيئاً أشدّ قسوة من هذا؟ كانت تعرف أنّي مجردة من الموهبة تماماً، وقد قادتني من خطمي، وجعلتني أذعن لكلّ أوامرها، وكانت تربّت في بعض الأحيان على كتفي، ولقد استغلّنتي كيفما طاب لها، ثمّ نبذتني كحذاء عتيق، ومضت إلى أوروبا مع تلميذة ثريّة أخرى متملّقة.

- دعينا نضع جانباً مسألة موهبتك. إنّ مايكو تحظى بقدرة متميّزة، وتعلمين أنّ ذلك تصحبه دائماً قسوة لا تعرف السّبيل إلى الرّحمة.

- تماماً كما أنّ العبادة قاسية... ولكن كيف يمكنني يا سيّد هوندا، مواصلة الحياة بعد أنّ هجرتي معبودتي؟ وبدون تلك التي كانت تعرف كلّ خلجاتي وأعمالي فما الذي أسطيع عمله؟
- ماذا عن الدّين؟

- الذين؟ لا طائل وراء الاعتقاد في كيان خفي لا يعكس مخاطرة الخيانة. لن يمضي الأمر قدماً إذا لم يكن بمقدوري أن يكون هناك من يرقبني، من يأمرني بأن أفعل هذا وأتجنب ذلك، من يمسك بيدي ويقودني إلى كل عمل أقوم به، من لا أستطيع أن أخفي عنه شيئاً، من أتطهر أمامه ولا يساورني الشعور بالخجل.

- لسوف تكونين على الدوام طفلة وأماً.

- نعم، يا سيد هوندا، لسوف أكون كذلك حقاً.

كانت الدموع تتألق في عيني السيدة تسوباكيهارا، بالفعل.

في تلك اللحظة كان في المسيح أبناء ماشيا وزوجان وصلاً حديثاً، وانضم إليهم الأمير كاوري، وأخذوا يتقاذفون كرة مطاطية كبيرة ذات خطوط طولية خضراء وبيضاء. وأضاف صوت الماء المتطاير والسيح والضحك المرح تألقاً إلى الضوء المنتشر في المسبح، وراح السطح الأزرق، المتأرجح يتقاذف متحولاً إلى دفق من الرؤوس البيضاء، والماء الذي كان يلحق بهدوء أركان المسبح، حفل الآن بظهور المستحمين الذين جعلوا يحدثون فتحات عميقة في سطحه لتعود فتلتئم في الحال وتتحول إلى موجات تعم المنتشرين في المسبح. والرّزاد الذي يعلو وسط المتصايحين في أحد الجوانب يفرز دوائر زيتية لا حصر لها من الضوء على الجانب الآخر فتشابه كلها، ويتسع نطاقها، على نحو متزايد.

تبدت الكرة المخططة باللونين الأبيض والأخضر وهي تعلو طائرة وسط السابحين، وقد تناهبا انقسام النور والظل. وكان لون الماء ودرجات ألوان ملابس الاستحمام، وحتى الناس الذين يلهون هناك، كل ذلك كان غير مرتبط بمشاعر إنسانية من أي عمق. غير أنّ هذا

القدر من الماء وحركته، والضحك، وصيحات الناس، أثار بشكل من الأشكال شعوراً بالمأساة في ذهن هوندا. وجعل يتساءل عن السرّ في ذلك.

هل يرجع الأمر إلى الشمس؟ تطلع إلى السماء، حيث بدا عمق الزرقة وكأنه يشوه الضياء، وشرع بالعطس. وعند ذلك على وجه الدقة خاطبته السيدة تسوباكيهارا بصوتها الباكي المؤلف الذي كتّمه المنديل الحتمي الوجود الذي غطت به وجهها:

- يا له من وقت جميل ذلك الذي يقضونه! منذا الذي كان يتخيّل خلال الحرب أنّ هذا سيكون ممكناً على الإطلاق، لقد أردت بشدة أن يعايش أكيو هذا... لمرة واحدة على الأقلّ.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عندما اصطحبت كيكو ينج تشان إلى الشرفة، وهما في ثوبي استحمامهما. وبعد أن انتظر هوندا وقتاً طويلاً جداً بصبر نافذ للغاية بدا له ظهور ينج تشان روتينياً أكثر مما ينبغي.

بدت كيكو عبر المسبح وهي ترتدي ثوب استحمام ذا خطوط رأسية سوداء وبيضاء مبهجة للحواس. وكان من المتعذر تصديق أنها في حوالي الخمسين من عمرها؛ فقد ساعدتها الحياة ذات الطابع الغربي التي عاشتها، منذ طفولتها، على أن تكون لها ساقان طويلتان، بديعتان، مختلفان تماماً عن سيقان النساء اليابانيات. كانت حركتها بدبعة، ولدى النظر إليها من منظور جانبي، وهي تتحدّث مع رايب بدت تقوساتها متدفقة بجلال تمثال شامخ. وبدا شموخ اللحم اللدن في تكامل وتناسق الثديين الناهضين والرذفين المترامين.

شكّلت ينج تشان مفارقة مثاليّة إلى جوارها، فقد كانت ترتدي

ثوب استحمام أبيض، وتمسك بإحدى يديها غطاء رأس مطاطياً أبيض مما يستخدم في السباحة، وتدفع شعرها إلى الوراء باليد الأخرى في استرخاء، وقد مدت ساقاً وراء أخرى. ولاح في طريقها الخاصّة بوضع ساق أبعد إلى الأمام قليلاً عن الأخرى، وقد بدت جليّة عن بعد، نوع من اللاتساوق الاستوائي فآثار الناس. ووشت فخذها القويّتان - رغم نحولهما - الممتدّتان اللتان تحملان جذعاً بالغ النضج، بشعور بالتقلقل. وقد كانت في هذا مختلفة أشدّ الاختلاف عن كيكو. وبالإضافة إلى ذلك فقد أبرز ثوب الاستحمام الأبيض سمرة بشرتها. وذكر هوندا النهدان المكسوان بالثوب، ونضجها الذي أوحى به البشرة القائمة، بالجداريّة المرسومة على جدران المعبد الكهفي في أجاتنا، وكانت تصوّر الراقصة المحتضرة. وكان بمقدوره أن يرى بوضوح من هذا الجانب من المسيح أسنانها المتألّقة أكثر بياضاً من ثوب استحمامها عندما تبتسم.

ولدى دنوّها نهض هوندا لتحيّتها، بعد أن انتظرها بشغف بالغ كلّ هذا الوقت.

- الجميع هنا الآن.

قالتها رايبى مسرعة، ولكنّه لم يحر ردّاً.
وحيت كيكو الأميرة ولوّحت للأمير في المسيح.

وقالت بصوتها الناعم المترع بالثراء، من دون أن يبدو عليها ما يشير إلى التعب:

- أشعر بالإرهاق، بعد هذه التجربة، إنني أقلّ إتقاناً للقيادة من أمضي بالسيارة من كاريوزاوا إلى طوكيو، وأقلّ نينج تشان وأقطع الطريق كاملاً إلى جوتوبا. نحن محظوظتان تماماً لوصولنا إلى هنا. ترى

لماذا تبتعد السيّارات كلّها بوضوح عندما أقود سيّارتي . الأمر يشبه قيادة السيّارة في أرض يتجنبها الجميع .
- من الواضح أنّهم قد تأثروا بمكانتك الرّفيعه .
قالها هوندا ، ولسبب غير واضح ضحكت رايني بعصبية .

وقفت ينج تشان في غضون ذلك لاهية عن الجميع ، وظهرها إلى المنضدة ، وهي تعبت بغطاء رأسها الأبيض ، منتشية بتلاطم الماء في النور . وتألّق السّطح الدّاخل بغطاء الرأس المطاطي الأبيض وكأنّه دهن بالزّيّت ، فيما كانت تعبت به . وافتنن هوندا تماماً بمراى جسدها ، وبعد وقت ليس قطّ بالقصير لاحظ شيئاً أخضر يتألّق في أحد أصابعها . وكان الخاتم الزمردي الذي تحيطه الياكشا الحارسة .

في لحظة رؤيته للخاتم حلّقت نشوته بلا حدود . فقد كان ذلك مؤشراً على أنّها ساحتته ، وأنّ ينج تشان التي تتحلّى بالخاتم قد أصبحت ينج تشان الأيام الخوالي : حفيف أوراق الغابة في مدرسة النّبلاء في يفاعه هوندا ، الأميران السّياميان ، والكآبة المرتسمة في أعينهما ، إعلان وفاة الأميرة تشانترابا الذي بلغهم في حوالي نهاية الصّيف في حديقة الدّارة الجنوبيّة ، التدفّق الطّويل للزّمن ، لقاء الأميرة الصّغيرة سنى البدر في بانكوك ، الاستحمام في بانج با إن ، الخاتم الذي عاود الظّهور في يابان ما بعد الحرب - لقد نسج الماضي بأسره ، متحوّلاً إلى سلسلة ذهبيّة ترتبط بحنينه إلى المناطق الاستوائية . وعندما تحلّت ينج تشان فقط بالخاتم شكّلت سلاسل من النّغمات الدّالة الحزينة المتألّقة التي أخذت تتقلّب على الدّوام في ذكرياته المتشابكة .

سمع طنين النّحلّات قرب أذنيه ، واشتمّ عبق النسيم الذي ذكره

بالخنطة المشوية، عَرَفَ الصَّيْفَ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى الْخَطَأِ بِشَأْنِهِ . لم يكن الزَّوجان هوندا مغرمين على نحو خاصَّ بالزَّهور، ولم تَسْمُ الحديثة بشيء من جمال سهول فوجي الصَّيفِيَّةِ الَّتِي تزدهر فيها الزَّهور الحمراء الوردية والجنطايان الصَّفراء الفاتنة . ولكن امتزج في الريح المترعة بالعبق عَرُفَ هذه الحقول على نحو رقيق بالغبار الَّتِي أثارتها مناورات الجيش الأميركي وصبغت السَّماء عند الأفق باللون الأصفر في بعض الأحيان .

تردَّدت أنفاس بِنج تشان إلى جوار هوندا . وجعل جسمها يرحَّب بالصَّيف وكأنَّه شديد الحساسِيَّة لعدواه الخاصَّة . ولقد اعترتها عدوى الصَّيْف من قَمَّة رأسها إلى أخمص قدميها . وشابهة نسيج بشرتها وهج ثمرة فاكهة تايلانديَّة غريبة بيعت في السُّوق في ظلِّ شجرة سنط . كان جسماً عارياً، نضج مع الوقت، واكتمل، مشيراً إلى إنجاز ما، أو وعد .

وفيما هوندا يتأمل الأمر أدرك أنَّ المرَّة الأخيرة الَّتِي رآها فيها عارية كانت وهي في السَّابعة من عمرها، أي قبل اثني عشر عاماً . وقد تسطح البطن الطَّفولي شبه الممتلئ الَّذِي يذكره على نحو متدفق بالحويَّة . ولكن، وكأنَّما في معرض التَّعويض، نما الصدر الصَّغير على نحو يبهج الحواس . وفيما كانت مشغولة بضجَّة المسبح وقد وقفت وظهرها إلى المنضدة، استطاع هوندا أن يلاحظ بالتفصيل الخيوط الَّتِي عقدت عند قفاها وتدلت إلى الجانبين، وربطت الوركين . فقد شكَّلت المساحة الممتدة بين هذين الحدين خطاً مستقيماً جميلاً من الظَّهر العاري إلى مفترق رديها . وإلى أعلى من ذلك مباشرة كان بمقدوره أن يرى المنحنى الهابط وهو يتردَّد قليلاً عن عصعصها، شأن

الحوض الهادئ لشلال صغير، وخطي الرّدفين المكسّوين باستدارة بدر ينهض وروعته. وبدت برودة الليل متضمّنة في اللحم المعرى، بينما لاح الألق مشعاً من اللحم المحتجب. وقد رقت المظلة النسائية الصغيرة بشرتها الناعمة بالنور والظلّ فبدت ذراع في الظلّ كالبرونز، وأمّا الأخرى التي في الشمس فكانت تشبه السطح المصقول الخشب السّفرجل الصّيني. ولم تكن البشرة التي تقاوم الهواء والماء معاً، ناعمة فحسب، وإنّما كانت لها طراوة بتلات زهور الأوركيد العنبرية. وكان التّركيب العظمي الذي بدا رقيقاً عن بعد، قوياً في حقيقة الأمر، ومتناسق الأبعاد، رغم صغره.

قالت كيكو:

- طيّب. هل نزل إلى الماء؟

- نعم، دعينا نزل.

قالتها ينج تشان وهي تنظر إلى الورا بمزيد من الحيويّة، وابتسمت، فقد كانت تنتظر هذه الكلمات.

ثمّ وضعت غطاء الرأس الأبيض على المنضدة، ورفعت ذراعيها، لتدفع بشعرها الجميل إلى أعلى. وأتاحت الحركة السريعة التي أدت بإهمال بالغ، الفرصة لهوندا الذي كان في وضع جيّد لكي يرى تحت ذراعيها الجزء الأسفل من جانبها. كان الجزء العلوي من ثوب الاستحمام مصمماً على غرار ميدعة، وفي الجزء الذي يعلو ثدييها خيط يمرّ من خلاله، ثمّ حول قفاها حيث يربط الطّرفان، ثمّ يعقد بأكثر من أنشودة عند الظّهر. وقد صمّم خطّ الصدر منخفضاً بما يكفي للكشف عن منبت الثديين، وحجب جانباها بالنهايات الضيقة التي تشبه الحزام، والتي شكّلت الأنشوطات للخيوط عند الظّهر.

ومن هنا فإنه على الرغم من أن أسفل الجانب كان بادياً للعيان على الدوام، إلا أنها عندما رفعت ذراعيها انتقلت شرائح النسيج الضيقة من موضعها، كاشفة تماماً عن أجزاء كانت محتجبة في السابق. ورأى هوندا أن الامتداد المتناسك للبشرة هناك لم يكن يختلف عن المساحات الأخرى، فلم تكن هناك شائبة أو نقيصة واحدة. ولم يبد أن هناك ما يعيبها، حتى في الشمس، وما من إشارة إلى شامة كان يمكن للعين أن ترصدها، فاندلعت النشوة في أعماقه.

دفعت ينج تشان بكتلة الشعر تحت غطاء الرأس الخاص بالسباحة، وانطلقت إلى المسبح مع كيكو. وفي الوقت الذي أدركت فيه كيكو أنها ماتزال ممسكة بسيجارتها فعدت إلى المنضدة، كانت ينج تشان قد نزلت عملياً إلى الماء. وبعد أن تأكد هوندا من أن رايبى ليست على مقربة، همس في أذن كيكو وهي تنحني لتسحق سييجارتها في منفضة السجائر.

- أرى أنها تتحلّى بالخاتم.

ولزمت كيكو الصمت، ولكنها أومأت إيماءة العارف بالخبايا، وقد بدت تجاعيد صغيرة، كانت خفية في العادة، عند ركني عينيها.

بينما كان يحدّق منتشياً في المستحمّين، عادت رايبى وجلست إلى جواره، وراحت ترقب عامدة ينج تشان وهي تتواكب كالدلفين، خارجة من الماء المتألق وتنغمس فيه من جديد، وقد علت شفيتها ابتسامة. وقالت رايبى وهي تصرف بأسنانها:

- بجسم كهذا ينبغي لها أن تنجب كثيراً من الأولاد.

لم يستطع هوندا في تلك الليلة الاهتمام بالكتب المعنادة في المكتبة .
وعثر في جارور بالمكتب، نادراً ما يفتح، على نسخة من «وقائع المحكمة». ولعدم وجود ما هو أفضل للقيام به فقد شرع في القراءة.
كانت المادّة تدور حول الحكم الذي صدر في يناير ١٩٥٠ وجعل من هوندا المالك القانوني لمقنياته الحاليّة .

وفتح الملفّ الضخم الذي يضمّ أوراقه خيط أسود على مكتب إنجليزي بجزء خاصّ بالكتب مكسو بالجلد المراكشي .

«البند الأساسي: يُلغى بمقتضى هذا الحكم القرار رقم ٩٠٦٥ الصادر في ١٥ آذار (مارس) ١٩٠٢ من قبل وزارة الزراعة والتجارة والغابات الوطنيّة، والقاضي بعدم جواز إعادة الأراضي المملوكة على المستوى الوطني. وعلى المدعى عليه أن يعيد إلى المدعي تلك الغابات الوطنيّة الموضحة في موضع آخر من هذه الأوراق، ويتحمّل المدعى عليه النفقات القانونيّة» .

لا شيء أكثر إعجازاً من الحقيقة القائلة بأن الغابات والجبال في منطقة بمقاطعة موشيا التي لا صلة لها أصلاً على الإطلاق بهوندا تشكّل الآن الجسم الأساسي لثروته وتدعم تحلّل شيخوخته. وعلى الرغم من أنّه أحرز الفوز على هذا النحو فإنّ ذلك لا علاقة له بالقضية الأصليّة التي أقيمت في عام ١٩٠٠ ورفضت في عام ١٩٠٢ ثمّ دفعت قُدماً بعناد على امتداد نصف قرن، بغضّ النظر عن تقلّبات التاريخ. فلقد كرّرت غابات أشجار سرو اليابان التي لا يطرّفها

الناس ليلاً قطّ والنباتات الرّطبة النّامية أسفلها دورة حياتها الطّبيعيّة مراراً وتكراراً لتتيح له نمط الحياة الّذي يعيشه الآن. تُرى كيف كان يمكن أن يكتشف غريب مار عبر الغابة في صدر هذا القرن، إذا ما أثر فيه نبل قمم الأشجار الطّالعة إلى السّماء، أنّ السّبب الوحيد لوجودها هو أن تدعم حماقات رجل بعد نصف قرن من الزّمان.

أصاخ هوندا السّمع. كانت أصوات الحشرات ماتزال نادرة. وقد أوت زوجته إلى فراشها، في الغرفة المجاورة، وتغلغلت في الدّار البرودة الّتي تتبّع فجأة حلول اللّيل.

كان الحفل الّذي أقيم لتدشين المسيح قد انتهى في حوالي السّاعة الخامسة، وكان من المقرّر أن يعود كلّ الضّيوف إلى بيوتهم، باستثناء كيكو وينج تشان. ولكن إيمانيشي والسّيّدة تسوباكيهارا رفضا في عناد الرّحيل، فقد جاءا عاقدين العزم على قضاء اللّيلة. وكنتيجة لهذا فإنّ ترتيبات طعام العشاء والإيواء جميعها تعيّن الإعداد لها من جديد، وكانت السّيّدة تسوباكيهارا غافلة عن الإزعاج الّذي خلقته.

شقّ الزّوجان هوندا وكيكو وينج تشان وإيمانيشي والسّيّدة تسوباكيهارا طريقهم إلى التّعريشة، حيث أمضوا بعض الوقت.

كان مشروع هوندا الأصليّ هو أن يخصّص لكيكو غرفة الضيوف الأبعد، ويحجز غرفة الضّيوف الأقرب المجاورة للمكتب، لينج تشان، ولكن تغيير الخطط اقتضى أن يخصّص الغرفة الأبعد لإيمانيشي، وأن يضع كيكو مع وينج تشان. وقد عاق ذلك خطّة استخدام ثقب التلصّص لرصد ينج تشان خلال نومها بمفردها. فمن المؤكّد أنّها ستكون أكثر تحفظاً بوجود كيكو هناك.

بدت كلمات واثق المحكّمة وعباراتها بلا معنى بالنّسبة له.

«سادساً: في الفقرة ١٥ من الأمر ٤ فإن عبارة «سيعترف بآخرين باعتبارهم المالكين الفعليين وفقاً للوائح حكومة توكوجادا ولوائح كل إقطاعية» تعني أنه بالإضافة إلى حالات الملكية المعترف بها والمحددة في الفقرات من ١ إلى ١٤، عندما يمكن التيقن من أن الملكية كان معترفاً بها، بصفة عامة، فإن العقار يمكن أن يعاد إلى المالك المعترف به. و«الاعتراف العام» يعني».

تطلّع إلى الساعة فأدرك أنها تشير إلى الثانية عشرة وخمس دقائق أو ست. وتوقف قلبه عن الخفقان فجأة وكأنه تعثر بشيء في الظلام. وبدأ وجيب حار عذب على نحو لا سبيل إلى وصفه.

كانت ضربات القلب تلك مألوفة له. وعندما كان يجثم في الحديقة ليلاً ويوشك ما كان ينتظره مترقباً على الحدوث أمام عينيه، فإن قلبه كان يأخذ بالخفقان المتسارع وكأنما غزته فرقة من النّمال الحمراء.

تيهور. تيهور قاتم من الشّهد كاسحاً كلّ شيء بحلاوته الخانقة، سحق أعمدة العقل، فاستحالت كلّ الانفعالات إلى هذه الخفقات الميكانيكية المتسارعة. وذاب كلّ شيء. وكان من العبث مقاومة الخفقات.

من أين جاء هذا التيهور؟ في موضع ما، هنالك يوجد مستقرّ الرّغبة الحسيّة المنزّل، وعندما يبعث بأوامر من بعيد فإنه أيّاً كانت الهوائيات قاصرة فإن الرّغبة تتحرّك بحسّاسيّة، ويستجيب المرء متخلياً عن كلّ شيء. فما أشدّ تشابه صوتي الرّغبة والموت! عندما يستدعى المرء فإن كلّ الأعمال تغدو بلا أهميّة. وكما هو الحال على سطح سفينة شبحيّة هجرها طاقمها، وسواء أكان العمل مداداً في دفتر

السفينة أو طعاماً لم يؤكل، أو أحذية نصف مملّعة، أو المشط المتروك أمام المرأة، أو حتىّ الجبال نصف المعقودة - فإنّ كلّ شيء يتنفّس بالرجال الرّاحلين، على نحو غامض، كلّ شيء كان قد ترك على ما هو عليه في عجلة الرّحيل.

كانت الخفقات المتداركة علامات على الرّغبة المنبثقة. فليس ثمة ما ينتظر بجلاء إلاّ القبح والعار، ومع ذلك فإنّ هذه الخفقات العجلى كانت تحطى بثناء قوس قزح وألقه، وثمة شيء لا يُميّز عن الجلال يتدفّق مندفعاً.

شيء لا يُميّز عن الجلال! ها هنا مربط الفرس. فلا شيء أبعد عن الجاذبيّة من الحقيقة القائلة بأنّ القوّة التي تدفع المرء قدماً نحو ما هو أكثر نبلاً وإنصافاً من الأعمال، وتلهم أشدّ الملذّات وضاعة وأكثر الأحلام قبحاً، إنّما تنبع من المصدر ذاته وتصحبها خفقات القلب المتداركة المحذّرة عينها. والرّغبات الوضيعة تلقي ظلالاً وضيعة لا غير. وإذا لم يلتمع إغواء الجلال والسّموّ في هذه الدقائق الأولى فإنّ بمقدور الإنسان مع ذلك أن يحتفظ بكبرياء هادئة في الحياة. وقد لا يكون جذر الإغواء في الرّغبة الحسيّة وإنّما في هذا الوهم الحافل بالادّعاء بالجلال أو السّموّ الفضيّ، هذه الدّروة الغامضة الملتبسة التي تجذب الغيوم جانباً منها. ولقد كان شرك «الجلال» هو الذي اجتذب الإنسان أولاً، ثمّ جعله يتوق بنفاد صبر لا يحتتمل إلى الضياع الرّحيب.

نهض هوندا واقفاً إذ عجز عن مواصلة احتمال الأمر. وحدّق في عتمة غرفة النّوم المجاورة ليتأكّد من غرق زوجته في النّوم. ووقف وحيداً في المكتب المضاء. فمنذ فجر التّاريخ كان وحيداً، في هذا

المكتب، وسوف يكون وحيداً فيه عند نهاية التاريخ .

أطفأ النور . وكان القمر متألقاً فأتخذ الأثاث أشكالاً غامضة ،
وتألق المكتب المصنوع من كتلة واحدة من شجر الزلكوفا، وكأتمما
سطحه مكسو بالماء .

مال على رفّ المكتبة، على الجدار الذي يفصل المكتب عن الغرفة
المجاورة، وأصاخ السمع ليرصد مؤشرات الحركة، فاستطاع سماع
شيء، ولكن لم يبد أنها مستيقظتان، وأنها تتبادلان الحديث . وكان
من المتصور أنهما، إذا عجزتا عن النوم فرّما انهمكتا في الحديث،
ولكن لم تتسرّب إليه كلمة واحدة واضحة .

نحى هوندا حوالي عشرة كتب غريبة من الرفّ ليخلي مجال ثقب
التلصص . وكان عدد الكتب والعناوين دونما تغيير على الدوام .
وكانت في كلّ الحالات المجلّدات العشرة التي ورثها عن أبيه في
القانون باللّغة الألمانية وهي مغلفة بالجلد وتحمل أحرفاً مذهبة . وكان
بمقدوره بالتلمّس أن يحدّد كلّ عنوان من خلال سمكه . ولم يكن
يختلف النظام الذي ينحّيها به قطّ . وكان بمقدوره أن يحدّد ثقل كلّ
مجلّد، وعبق رائحة الغبار الذي يصاحبه . وكان ملمس هذه
المجلّدات الجلييلة المؤثرة في النفس وثقلها ودقّة ترتيبها بمثابة شكليّات
لذّته التي لا سبيل إلى الاستغناء عنها . ولم يكن هناك احتفال أكثر
أهميّة من التّسمية المصحوبة بالسوقار لهذه الجدران الحجرية من
المفاهيم، وتحويل اللّذة الكايبية التي سيستشعرها في غمرة مطالعتها
إلى افتتانه التّمس . وأنزل بعناية، ودونما صوت، كلّ مجلّد إلى
الأرض . وازدادت مع كلّ كتاب دقات قلبه . وكان المجلّد الثامن

ثقيلاً، على نحو خاصّ، وعندما جذبه استشعرت يده خدرًا من الثقل الذهبيّ المترب للذّة التي عايشها.

أتمّ المهمّة، دوغما أخطاء، وعندئذٍ وضع عينه على ثقب التلصّص من دون أن يرتطم رأسه برفّ المكتبة. وكانت للبراعة في القيام بهذا تبعة كبيرة. فما أعظم الأهميّة التي بدت مكتسبة بها كلّ جزئية من هذه الأمور التافهة. وكما في طقس يؤديّ فإنّه لا سبيل إلى حذف آية جزئية لكي يستطيع الإطّلال على هذا العالم الآخر المتألق. لقد كان كاهناً وحيداً تُرك في الظلام، ملتزماً أشدّ الالتزام بالإجراءات المراسميّة التي تدربّ عليها كثيراً في ذهنه - غزاه الاعتقاد بأنّه إذا نسي أي جزء من الطّقس فإنّ البناء بأسره سينهار - وضع عينه اليمنى، في حرص على الثقب.

بدا أنّ أحد المصابيح المجاورة للفرّاش مضاء، ورقش الغرفة ضوء خافت. كان من الحدق بحيث جعل ماتسودو يحرّك الفرّاش المجاور للحائط بحيث كان الفرّاشان معاً في مجال رؤيته الآن.

تلوّت في الضّوء الخافت أطراف متشكّبة، على نحو لا سبيل إلى انفصامه، على الفرّاش، المتمدّد أمامه مباشرة. وامتدّ جسم أبيض ممثليّ، وآخر أسمر، والرأسان في اتجاهين عكسيّين، وهما يشبعان رغباتها الشّهوانيّة. كان وضعاً اتّخذ بصورة طبيعيّة، عندما حاول الدّهن المقيد إلى اللّحم والمخّ الذي يحدث الحبّ تحقيق التوازن بالامتداد إلى أقصى نقطة، لكي يرتشفا النّبيذ الذي عتقه ذلك الحبّ. وكان رأسان غرق شعرهما في الظلال السّوداء مُنضغطين على نحو حميمي إلى كتلتين من الشّعر العاني امتلأتا أيضاً بالظلال. كانت الخصلات الباعثة على الضّيق من الشّعر المهوش المتمدّد عبر الوجنات

قد أصبحت آيات حبّ. وامتدّت أفخاذ ناعمة متّقدة في اتصال حميم مع وجنات ناعمة متّقدة، بينما تراجع البطنان اللّدنان وكأنّهما باطنا هلالين وليدين. ولم يستطع سماع أصوات واضحة، ولكن نحيباً لا ينتمي إلى اللدّة، ولا إلى الحزن، راح يذبذب امتداد الجذعين. وحوّلت النّهود التي تخلّى عنها الطّرفان، حلماتها في براءة نحو الضّوء، مرتعشة، بين الفينة والأخرى وكأنّما بتأثير شحنة كهربية. شهد عمق اللّيل المختفي في الهالات المحيطة بالحلمتين وشوط اللدّة الذي جعل النّهود ترتجف على الحقيقة القائلة بأنّ كلّ ذرّة من ذرّات الجسدinan كانت ماتزال معزولة في الوحدة الباعثة على الجنون. وكانتا تجهدان على نحو محموم لتقتربا، لتتّجها نحو هميمة أكبر، لتنصهر إحداهما في الأخرى، ولكن بلا جدوى. وفي البعيد، راحت أصابع قدمي كيكو المطلية أظافرها بالحمرة تتلوّى وكأنّها ترقص على لوح من حديد ساخن، ومع ذلك فإنّها ما بلغت إلّا الخطو على غسق خاوٍ.

أدرك هوندا أنّ الغرفة مترعة بهواء جبليّ بارد، ولكنّه شعر وكأنّ مركز أتون يكمن فيما وراء ثقب التلصص. أتون متألّق. وأحسّ بالأسف لأنّ ظهر ينج تشان الذي فحصه بعناية خلال النهار عند المسبح كان باتجاهه والعرق يتدفّق ويبدأ على امتداد العمود الفقري. وسرعان ما تحوّل العرق عن مجراه وتقاطر على الجانب الأسمري إلى الفراش، وبدا كأنّ بمقدوره أن يشتمّ عقب فاكهة استوائية، غنيّة، ناضجة، فتحت لتوّها.

نقلت كيكو جسمها بخفة لتكون في وضع الاعتلاء، وحزمت ينج تشان عنقها، دافعة رأسها بين فخذيّ كيكو الملتمعتين. وكان من الطّبيعي أن يظهر نهداها واضحين. وأحاطت ذراعها اليمنى بورك

كيكو، بينما راحت يدها اليسرى تداعب بطنها بدقّة. وأمّكن سماع لعقات ليلية صغيرة على نحو متقطع، وهي تمسّ حافتي المرفأ.

كان إخلاص ينج تشان فيما تعكف عليه جميلاً للغاية، إذ كان هوندا يراه للمرّة الأولى، حتّى إنّ نسي أن يدع الشّعور بالدهشة يداهم إزاء هذه الخاتمة الخؤون لحبه.

كانت عيناها المغمضتان متجهتين نحو السّقف، وجبينها نصف مدفون بين فخذي كيكو المتقلّصتين بين الفينة والأخرى. وقد غطّى شعر كيكو الشّببيه بشجر السنط كليّة على وجه التّقريب خيشوميتها الجميلين الوديعين اللّذين لم يعودا باردين ولا ضيّقين. وبدت شقّة ينج تشان العليا الّتي تشبه القوس مفتوحة ومبلّلة، وامتدّت حركة امتصاص منهمكة من ذقنها الرّقيق إلى وجنتيها المتوهجتين بالسّمرة. وفي التّولّح هوندا خطّاً من الدّموع يسترسل وكأنّه حيوان حيّ من ظلّ أهدابها الوطفاء على امتداد عينيها المغمضتين بإحكام إلى وجنتها.

كان كلّ شيء خلال حركة الأمواج الممتدّة بلا حدود موجّهاً نحو ذروة ماتزال في غمرة المجهول. وبدت المرأتان وكأنّهما تجهدان، في يأس، للوصول إلى حدود قصوى، مطلقة، لم تحلم أيّ منهما، أو تأمل، ببلوغها. وأحسّ هوندا وكأنّ هناك قمة مستدقّة، مجهولة، في فراغ الغرفة المظلم، تنتصب، مثل تاج متألّق. وربّما كان التّاج التّايلاندي البديري معلّقاً هنالك فوق المرأتين المتلويتين، وكان بمقدور عينيّ هوندا وحدهما تصوّره.

أخذ كلا جسمي المرأتين ينقبضان وينبسطان على التّوالي، ثمّ يتداعيان، وهما تدفنان نفسيهما من جديد في التّنهّدات والتعرّق. وطفأ التّاج بلا مبالاة في الفضاء الّذي أوشتك أصابعها المتشبّثة أن تمسه.

وعندما تجلّت القمّة المتصوّرة، ذلك الحدّ الأقصى الذّهبي المجهول، تحوّل المشهد تماماً، واستطاع هوندا أن يرى المرأتين متشابكتين، تحت نظرتيه المحدّقة، في غمرة معاناتها وعذابها وحدهما. ولقد سحقهما عدم ارتواء اللّحم، وكانت حواجبهما المقعودة مترعة الماء، وبدت أطرافهما الحارّة كأنّها تتلوّى في غمرة محاولة للهرب ممّا يحرقها. ولم تكن لهما أجنحة، فواصلتا ارتطامهما العبيّ، للهرب من أغلالهما، من معاناتهما، ولكن لحمهما عرقلهما بقوة، وما كان يمكن إلاّ للنشوة أن تجلب الانعتاق.

غرق نهدا ينج تشان الجميلان الأسمران بالعرق، وقد بدا النهد الأيمن مسحوقاً، ومتلوياً، تحت جسم كيكو، بينما جثم النهد الأيسر الذي أخذ يرتفع وينخفض، بقوة، على نحو مبهج للحواس، على ذراعها اليسرى التي جعلت تداعب بها بطن كيكو. وعلى النهد المرتجف على الدوام سكنت الحلمة، ومع التعرّق توهّج السطح وكأنّه التمع بتأثير المطر.

في تلك اللحظة، قامت ينج تشان، وكأنّها أخذتها الغيرة من تمتع فخذ كيكو بحريّة الحركة، برفع ذراعها اليمنى عالياً، وأمسكت بها وكأنّها تعلن ملكيتها لها، ووضعتها بقوة على رأسها وكأنّ بوسعها الاستغناء عن التنفّس، فغطّت الفخذ الهائلة وجهها تماماً.

تعرّى جانب ينج تشان بكامله. وإلى اليسار من نهدا العاري، وفي منطقة كانت ذراعها تغطيها في السابق، بدت بوضوح ثلاث شامات بالغة الصّغر، كنجيمات الثريا في السّماء العسقيّة التي شكّلتها بشرتها السّمراء التي شابهت وهج المساء. صدم هوندا. وبدا الأمر وكأنّ أسهماً احترقت عينيه اختراقاً.

وما إن حتى رأسه، وأوشك على مبارحة رف المكتبة، حتى شعر
بنقرة خفيفة على ظهره. وعندما سحب رأسه اكتشف رايب وهي
تقف هناك، في منامتها، وقد شحب محياها على نحو مخيف.
- ماذا تفعل؟ لقد شككت في وصولك إلى هذا المدى.

لم يساور هوندا شعور بالذنب وهو يلتفت بجبينه المكسو بالعرق
إلى زوجته. فلقد رأى الشّامات بالفعل.
- انظري! انظري إلى الشّامات...
- أتقول إنّ عليّ أن أطلّ؟
- هلمّي! الأمر كما ظننت.

وإذ وقعت رايب بين الكبرياء والفضول فقد تردّدت لبعض
الوقت. وتجاهلها هوندا، ومضى نحو النّافذة النّائثة، وجلس هناك
على الأريكة الدّاخلية في التصميم المعماري للمكان. وضعت رايب
عينها على ثقب التلصّص. وإذ لم يكن في وسعة رؤية وضعه هو
عندما كان يفعل الشيء نفسه فإنّه لم يستطع تحمل مشاهدة الوضع
المتّقص من القدر الذي اتّخذته زوجته. ورغم ذلك فقد بلغا موضع
المشاركة في إتيان الفعلة ذاتها.

تطلّع من خلال الستار المعدنيّ في النّافذة النّائثة إلى القمر الذي
حجبته سحابة. ووراء السّحابة التي أخذ الضّوء بأكنافها، بعث القمر
بأشعته في كافّة الاتجاهات، ومضى حشد من السّحب مبتعداً بالبهاء
ذاته. وكانت النّجيمات قليلة العدد، ولم يرَ إلاّ نجيمة واحدة تتألّق
على نحو وهّاج حتى ليوشك سناها أن يمسّ قمم أشجار السرو.
عندما اكتفت رايب من التلصّص أضاءت النور في الغرفة، وقد
تألّق وجهها بالنّشوة.

ومضت إلى الأريكة فجلست. وكانت قد شفيت بالفعل ممّا بها .
قالت بصوت دافئ خفيض :
- إنّي مذهولة . . . أكنت تعلم ذلك؟
- كلا، لقد اكتشفته لتوي .
- لكنك قلت حالاً إنّ الأمر كما ظننت
- ليس هذا ما عنيت، يا رايبى، فقد كنت أتحدّث عن الشّامات .
فلقد نَقَبْتُ منذ بعض الوقت في مكتبي بطوكيو وقرأت مذكّرات
ماتسوجاي . ألم تفعل ذلك؟
- أنا، نَقَبْتُ في مكتبك؟
- لا يهّم . إنّي أسألك عمّا إذا كنت قد قرأت مذكّرات
ماتسوجاي .
- أنا . . . أنا لا أذكر . إنّي لست مهتمّة بمذكّرات أناس آخرين .
عندما طلب منها هوندا أن تحضر له سيجاراً من المخدع، نفذت
أمره بإذعان، بل أشعلته له، واقية إيّاه بكفّها من الرّيح التي جاءت
من ستارة النّافذة .
- المفتاح المفضي إلى التّناسخ في مذكّرات ماتسوجاي . لقد رأيتها
بدورك . ألم تريها؟ الشّامات الثّلاث السّوداء على جنبها الأيسر . لقد
كانت هذه الشّامات أصلاً على جنب ماتسوجاي .
لم تُعَرِّ رايبى التي انغمست في التّفكير بأشياء أخرى، اهتماماً لما
يقوله هوندا، وربّما ظنّت أنّ زوجها يبحث عن أعذار . وجعل هوندا
يلحّ عليها، راعباً في أن تكون لها هذه الذّكري معاً .
- طيّب . لقد رأيتها . ألم تفعل؟
- لا يمكنني القول . ولكن المشهد كان فظيماً . لا يمكنك العلم
ببواطن النّاس . أذلك ممكن!

- ذلك هو السبب في أنني أقول إن ينج تشان هي تناسخ
للمتسوجاي .

مضت رايا تحدد في زوجها بإشفاق . وكان من الطبيعي أن
تحاول امرأة تعتقد أنها قد شفيت التصرف باعتبارها لم تعرف العلة .
وكانت هذه المرأة التي أكدت الواقع بمثل هذه الضراوة البالغة على
استعداد الآن لأن توصل إلى زوجها العدوى بالخشونة التي حرقت
جلدها كالماء المالح . فراي لم تعد رايا الزمن القديم . وعلى الرغم
من أنها رغبت في تحويل الواقع فإنها تعلمت عن حكمة أن تؤمن به ،
تعلمت أنه يمكن تحويل العالم من خلال الملاحظة . وقد نظرت من
عل إلى عالم زوجها دون أن تدرك أنها في حقيقة الأمر قد أصبحت
شريكة في التآمر من خلال تحولها بدورها إلى متلصصه .

- ما كل هذا الذي تقوله عن التناسخ؟ كم هو مثير للسخرية! إنني لم أقرأ
أي مذكرات . وعلى أية حال ، فقد هدأت نفسي في نهاية المطاف . ولا بد أن
عينيك قد فتحتا بدورهما ، ولكنني كنت أعاني من شيء لا وجود له على
الإطلاق ، كنت أصارع وهماً . والآن وأنا أدرك جلية الأمر ، أشعر بالتعب
فجأة . ولكن كل شيء انتهى إلى الأفضل . ولم يعد ثمة ما يثير القلق .

جلس كل منهما على طرف من طرفي الأريكة ، وبينهما منفضة
سجائر . وأوصد هوندا النافذة إذ قلق من أن تشعر رايا بالبرد ،
فتصاعد الدخان من سيجاره ويبدأ تحت الضوء . ولزما الصمت ،
ولكنه لم يكن الصمت الذي ساد بينهما في الصباح .

لقد ربطت بين قلبيهما فظاعة ما رصدها ، وأحس هوندا للحظة
بأنه كم يكون أمراً طيباً لو أنها كانا مثل كثير من الأزواج الآخرين في

العالم، لو كان بمقدورهما استعراض استقامتهما الأخلاقية التي لا تشوبها شائبة، والجلوس إلى المائدة ثلاث مرّات يومياً وتناول الطعام على هواهما بفخار، لو كان بمقدورهما أن ينتزعا في مقت أشياء أخرى في العالم. ولكنهما كانا قد تحوّلا في الواقع إلى زوجين من المتلصّصين فحسب.

غير أنّ كلّاً منهما لم يكن قد رأى الشيء عينه، فحيثما اكتشف هوندا الواقع، لم تكتشف رايبى إلا أوهامها. وقد كانت العملية التي وصلها بها إلى هذه النقطة المشتركة واحدة بالنسبة لهما، من حيث أنّها لم يفيقا بعد من التعب، وأنّ عملهما كان عبثاً وبلا طائل. وكان ما بقي الآن هو العزاء المتبادل.

بعد قليل تشاءت رايبى، في مبالغة، حتّى ليوشك المرء أن يرى قرار فمها.

وقالت، على نحو موات للغاية، وهي تُرجع شعرها المشعث إلى الوراء:

- ألا تعتقد أننا ينبغي أن نجد في التفكير في تبني طفل؟

كان الموت قد حلّق بعيداً عن فؤاد هوندا، في اللحظة التي شاهد فيها كيكو وينج تشان معاً. والآن كان هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّه ربّما كان خالداً. وقال بإصرار، منحياً قطعة من الطباقي عن شفته:

- كلّاً، من الأفضل أن نحيا بمفردنا، إنني أفضل ألا يكون لي

وريث.

ما إن أيقظ طرق عنيف على الباب هوندا ورايبى حتّى اشتما رائحة الدخان.

- حريق! حريق!

راحت امرأة تصرخ محذرة. وعندما ضمَّ الزوجان أيديهما، واندفعوا،
عَدُوا عبر الباب، ألفيا رواق الطابق الثاني مليئاً بالدخان المتكاثف،
وقد اختفى من أيقظهما. وغطيا فميها بردني رداً فيهما واندفعا هابطين
الدرج وهما يسعلان ويوشكان على الاختناق. والتمع المسبح بمائه في
ذهن هوندا، فلن يكونا بأمن إلا إذا استطاعا بلوغه دوغماً تأخيراً.

وفيما هما يندفعان إلى الشرفة ويطلان على المسبح، شاهدا كيكو
ممسكة بينج تشان، وهي تصرخ بهما من الجانب البعيد. بدا جلياً أن
النار تكتسح الدار، فعلى الرغم من أن الأضواء لم توقد فإن انعكاس
شكلي المرأتين كان رغم ذلك بادياً للعيان بوضوح على سطح الماء.
وقد دهش هوندا حيال المظهر الشخصي لكل من كيكو وينج تشان،
فقد كان شعرهما مهوشاً، وكانتا ترتديان المبدلتين اللتين جلبتاها
معهما. ولم يكن هوندا مرتدياً إلا منامته، فيما كانت رايتي ترتدي
كيمونوها الليلي.

قالت كيكو:

- استيقظت وقد أخذ السعال بخناقى بسبب الدخان، لا بد أنه قد
تسرّب من غرفة السيد إيمانيشي.

- من الذي طرق بابنا؟

- أنا. وقد طرقت باب غرفة السيد إيمانيشي كذلك، ولكنه لم
يهبط. ماذا ينبغي علينا أن نفعل؟

- ماتسودو! ماتسودو!

صاح هوندا منادياً فأقبل السائق عدواً على امتداد حافة المسبح.

- السيد إيمانيشي والسيدة تسوباكيهارا في الداخل هناك. ألا

يمكنك الذهاب لمساعدتها؟

تطلّعوا إلى أعلى، وشاهدوا ألسنة اللّهب مندلعة من نوافذ الطّابق الثاني جنباً مع الدّخان الأشهب الكثيف.

قال السّائق، متمعناً في الموقف بعناية:

- ذلك مستحيل، يا سيّد هوندا؛ فقد فات الأوان الآن. لماذا لم يخرجوا؟

- لا بدّ أنّها قد تناولا أكثر ممّا ينبغي من الأقراص النّومة.

قالتها كيكو فدفنت ينيج تشان وجهها في صدر كيكو، وشرعت بالبكاء.

تداعى السّقف، فيما يبدو؛ ذلك أنّ ألسنة اللّهب اندلعت عالياً إلى عنان السّماء التي امتلأت بالشرر المتطاير.

- ماذا علينا أن نفعل بالماء؟

قالها هوندا، في عجز، ناظراً إلى المسبح الذي بدا محمراً للغاية بألسنة اللّهب والشرارات التي انعكست على سطح الماء، حتّى ليحسب المرء أنّه ما إن يمسه حتّى تحترق يده.

قال ماتسودو متسائلاً:

- نعم، أعتقد أنّ الوقت قد فات على إطفاء الحريق، ولكن ربّما كان علينا أن نضع بالماء القطع الثّمينة الموجودة في غرفة الجلوس. هل أحضر دلوّاً؟

كان هوندا يفكّر بالفعل في شيء آخر.

- ماذا عن دائرة الإطفاء؟ ترى كم السّاعة الآن؟

لم تكن مع أحد ساعة؛ فقد تركوا السّاعات كلّها وراءهم.

قال ماتسودو:

- إنَّهَا السَّاعَةُ الرَّابِعَةُ وَثَلَاثَ دَقَاقٍ . سرعان ما تشرق الشَّمْسُ .
- كم هو حكيم منك أن تفكر في إحضار ساعتك .
قالها هوندا ساخرًا، مستعيداً ثقته، فيما هو يكتشف أنه قادر على
السخرية حتى في مثل هذه الظروف .
قال ماتسودو بهدوء، وكان يرتدي ملابس على نحو لائق :
- إنَّهَا عادة قديمة، فأنا أنام ومعِي ساعتِي على الدَّوام .
جلست رايمي إذ شعرت بالدَّوار، في مقعد إلى جوار مظلة الشَّاطِئِ
المطويَّة .

شاهد هوندا ينج تشان وهي تبعد وجهها عن صدر كيكو، باحثة
بعجلة واضطراب في جيب الصِّدْر بمبذلتها، وأخرجت صورة وكانت
السنة اللَّهيب قد زادت من بريق الصُّورة، فألقى نظرة عجلى على
نحو شاردي إليها، ورأى أنَّهَا صورة لكيكو عارية تماماً وهي تنحني على
مقعد .
- إنَّني سعيدة لأنَّ هذه لم تحترق .

قالتها ينج تشان مبتسمة . وفيما هي ترفع ناظرها إلى كيكو التمتعت
ابتسامتها في ضوء السنة اللَّهيب . ودارت رحي ذاكرة هوندا وسط
حشد من الأفكار، فتذكَّر المشهد السَّابق مباشرة لدخول كاتسومي
غرفة نومها . لقد كانت هي نفسها الصُّورة الأثيرة الَّتِي جعلت ينج
تشان تنظر إليها وقتذاك .

قالت كيكو، وهي تَلْف ذراعاً، في رَقَّة، حول كتفها :
- يا للسَّخف ! ماذا فعلت بالخاتم ؟
- الخاتم ! آه ! لقد تركته في الغرفة .

سمع هوندا ذلك بوضوح فاستبدَّ به الخوف من أن يظهر شبها
صديقيه الملتفين باللَّهب من التوافذ البعيدة بالطابق الثاني، صارخين
في فرع. ومن المؤكَّد أنَّهما يحتضران الآن، ولربَّما لقيتا حتفهما بالفعل.
وربَّما كان ذلك هو السَّبب في أن توحى النَّار بالهدوء على الرَّغم من
الصَّريير والأزيز.

لم يكن قد ظهر أثر لعربة الإطفاء بعد. وفكَّر هوندا في الهاتف
الموجود في منزل كيكو الَّذي يجري تعديله، وبعث بامتسودو سريعاً
لاستدعاء فريق محطَّة إطفاء جوتبا الموجود في نيبياشي.

شملت المحرقة الطابق الثاني بأسره وامتلاً الطابق الأوَّل بالدخان.
وإذ اتَّفَق أن كانت الرِّيح تهب من فوجي إلى الشَّمال الغربيِّ فإنَّ
الدَّخان لم يزحف نحو المسبح. ولكن برد الفجر زحف حتَّى أصاب
نخاع الناظرين.

مضت النَّار تتغيَّر في كلِّ لحظة، وتناهى الصَّجيج المتقطِّع للأشياء
وهي تنفجر مختلطاً بأصوات تشبه خطوات عملاقة وسط اللَّهب.
وربط هوندا بكلِّ صوت شيئاً يحترق: الآن كتاب، الآن مكتب،
وأخذ يتصوَّر الصَّفحات تتقلَّب، وتنفِّث كالورود.

تزايد حجم النَّيران بالمقارنة بالدخان. وكان من الممكن الشُّعور
بالحرارة، حتَّى على هذا الجانب من المسبح، وحمل الهواء الساخن
المتصاعد الجمرات والشرَّر. وخلال الوقت السَّابق لتحوُّل الجمرات
إلى رماد كانت تبدو ذهبيَّة اللَّون، وتذكَّر المرء برفرة الأجنحة الذهبيَّة
لأفراخ تغادر عشَّها. وبدا كأنَّ الأشياء ترحل. وفي جانب من السَّماء
أضاءته ألسنة اللَّهب المحلَّقة عالياً، تحدَّدت الخطوط الخارجية لكتل
السَّحب المحتجبة في نور الفجر الوليد.

ارتفع من الدّار صوت يشبه الزّئير، صوت ربّما سببته عروق الخشب المتساقطة على الطّابق الثّاني، ثمّ صدّعت السنة اللّهب قسماً من الجدار الخارجيّ وسقط في المسبح إطار نافذة وقد عمّه اللّهب. وأضفت السنة اللّهب الزخرفيّة المراوغة على الجسم الأسود المتهاوي الوهمّ العابر المتمثّل في كون هذا الجسم نافذة في المعبد المرمريّ في سيام. واخترق الهواء أزيزاً فيما كان إطار النّافذة يغوص في الماء، فوثبوا متراجعين بعيداً عن المسبح.

اتّخذت الدّار التي شرعت تفقد جدرانها الخارجيّة تدريجيّاً، مظهر قفص طيور عملاق يحترق. وراحت السنة رقيقة من النّار تندلع من كلّ شقّ وصدع. وكانت الدّار تتنفس وكأنّ في قلب السنة اللّهب مصدر تنفس عميق قويّ. وبين الفينة والأخرى كان شكّل قطعة أثاث مألوفة، ظلّ يشبه حياة سابقة، يظهر وسط اللّهب، ولكنّه يتهاوى في الحال وقد كساه التّألق، ويعود إلى السنة اللّهب المتراقصة بانتشاء. ثمّ تندلع النيران المتصاعدة إلى أعلى فجأة وكأنّها لسان أفعى، لتعود إلى الاختفاء من جديد في غمرة الدّخان، بينما تبدو فجأة وجوه اللّهب الحمراء من الأدخنة السّوداء الكثيفة. وقد حدث كلّ شيء بسرعة لا تصدّق، واستعانت النّار بالنّار، والتفّ الدخان على الدخان، والكلّ يحاول الوصول إلى ذروة واحدة. وأسقطت الدّار المشتعلة علواً وسفلاً أخلاطاً من اللّهب إلى عمق المسبح، ولاحت السّماء، المتشحة بالفجر المتهافت، للعيان من خلال أطراف أصابع النيران.

غيّرت الرّيح اتّجاهها، واندفع الدّخان نحو المسبح فأبعد النّاظرين مسافة إضافية أخرى عن الماء. وعلى الرّغم من أنّه لم يكن بمقدورهم

أن يرصدوا بالتأكيد رائحة اللحم البشري المحترق فقد كانوا يعلمون علم اليقين أن هذه الرائحة ماثلة في الدخان، فغطّوا أنوفهم بأيديهم.

أشارت رايمي إلى أنه سيكون من الأفضل المضي إلى التعريشة حيث شرع ندى الفجر بالتساقط. وأدارت النسوة الثلاث ظهورهن إلى الحريق، وشرعن بالسّير إلى التعريشة عبر المرجة التي اجتزعشها أمس، وظلّ هوندا وحيداً.

ساوره شعور على نحو ملحّ بأنه سبق أن شاهد هذا في مكان ما. السنة هب تنعكس في الماء... جثث تحترق... بنارس! كيف تأتّى أن لا يحلم باستعادة المطلق الذي رآه في تلك الأرض المقدّسة؟

تحوّلت الدّار إلى كتلة من الضّرْم، وأصبحت الحياة ناراً. وعاد كلّ ما هو هامشي إلى الرماد، وما من شيء كان مهماً إلا الأكثر جوهرية، وتطلّع وجه خفيّ عملاق رافعاً رأسه فجأة من اللهب. الضحك، الصرّخات، النههات امتصّت كلّها في صخب اللهب، وقرقعة الخشب وألواح الزجاج المهشّمة، وصرير المفصلات - وتم احتواء الصّوت ذاته في هدوء مطلق. وتصدّعت أحجار القرميد المحترقة وهوت، وانحلت القيود واحداً إثر آخر، واستحالت الدّار إلى عري متألّق كان قد ظلّ مجهولاً حتّى الآن. وفجأة تجمّد الجزء الحليبيّ الشّاحب من الجدار الخارجيّ في الطّابق الأوّل الذي لم يكن قد احترق، واستحال إلى اللّون البني، واندفعت في الوقت نفسه النّار بعنف من خلال لسان خفيف من الدّخان. وكانت السّرعة النّاعمة للتحوّل إلى السنة هب وتقلّباتها في غمرة السّعي إلى منفذ شيئاً رائعاً على نحو لا يصدّق.

أزاح هوندا بضع شرارات عن كتفيه وردني رداًه . وبدا سطح
المسيح مكسوّاً ببقايا الجمر المنظف والرماد الذي تدقّ كالطّحلب .
ولكن ألق النّار تغلغل محترقاً كلّ شيء ، وانعكس تطهير غوط ماني
كارنيكا - كما على صفال مرآة - على هذه الرقعة الصّغيرة المحدودة من
الماء ، على هذا المسيح المقدّس الذي أنشئ لاستحمام ينج تشان . ما
الذي يختلف هنا عن المحارق الجنائزيّة المنعكسة على سطح نهر
الجانج؟ ها هنا أيضاً نار وحطب ، ولاشكّ أنّ الجثتين اللتين احترقتا
على مهل تتقلبان وتتلويان في اللهب . ما عادتا تحسان بالألم ، وإنما
اللحم يقلد ويكرّر فحسب أشكال المعاناة وهو يقاوم الدمار . وهكذا
كان حال الجثتين . وهذه النّار كانت هي ذاتها النّار الجليّة في المساء
العسقي عند الغوط الطّافي ، فكلّ شيء يتمّ تدنّيه سريعاً إلى العناصر
المكوّنة . وجعل الدخان يتصاعد إلى عنان السّماء .

كان الشيء الوحيد الغائب هو وجه البقرة الشّهباء المقدّسة التي
التفتت وأخذت تحدّق في هوندا مباشرة ، من الجانب الآخر للسنّة
اللّهيب .

وعندما وصلت عربة الإطفاء كانت النيران قد خمدت بالفعل .
ورغم ذلك فقد استجاب رجال الإطفاء لنداء الضّمير ، وغمروا الدّار
بالماء ، وتمّت محاولة إنقاذ ، ولكنهم عثروا على الجثتين وقد احترقتا
تماماً . ووصل رجال الشّرطة ، ووجهوا الأسئلة إلى هوندا للتأكد من
ملابسات الوفاة . ولكن لما كان الدّرج قد انهار ، فقد تعذّر الوصول
إلى الطّابق العلوي ، واستسلم هوندا للأمر الواقع . وبعد إبلاغ
الضّابط المنوّب بعادات إيمايشي والسيدة تسوياكيهارا ، سجّل أنّ
سبب الحريق ربّما كان قيامهما بالتدخين في الفراش . وإذا كانا قد

تناولا الأقراص المنومة في حوالي الساعة الثالثة، فإن وقت الفعاليّة القصوى للعقار سيزان مع وقت اندلاع الحريق الذي لاشكّ أنّه بسقوط سيجارة مشتعلة على الغطاء. ولم يتقبّل هوندا فكرة الانتحار. وعندما تحدّث الضّابط عن «انتحار مزدوج»، أغربت كيكو التي كانت تصغي للحديث في الضّحك.

كان يتعيّن عندما تهدأ الأمور بعض الشيء، أن يقدم هوندا نفسه إلى مخفر الشرطة للإدلاء بإفادة شاملة. وكان على يقين من أنّ اليوم سيكون حافلاً بالمشاغل، وأنّه لا بدّ له من أن يبعث ماتسودو لشراء طعام لوجبة الإفطار، ولكن لا بدّ أيضاً من الانتظار بعض الوقت لتفتح المتاجر أبوابها.

التمّ شمل الجميع في التعريشة إذ لم يكن هناك مكان آخر يتوجّهون إليه، وطرحت ينج تشان، بلغتها اليابانيّة المتعّرة، موضوع ثعبان كانت قد رأته وهي تجري بعيداً عن النّار. وكان قد ظهر في المرجة وتلوى مبتعداً بسرعة غير مألوفة، والنّار البعيدة تلتمع على حراشيفه البنيّة الزيتيّة.

وإذ راحوا يصغون إليها فقد شعروا جميعاً، ولاسيّما النّساء، ببرودة الهواء تزداد تغلغلاً في عظامهم.

عندئذ على وجه الدّقة، لاح لهم فوجي وقد كساه الفجر بلون القرميد الأحمر، وكانت لمسة متألّقة من الثلج الأبيض قرب قمّته. وحتىّ في هذه الظروف، انتقلت عينا هوندا، كأنّها رغماً عنه، من الجبل الأحمر إلى سماء الصّبح، إلى جواره مباشرة، فقد كانت هذه العادة تتمّ بغير وعي تقريباً. واستطاع أن يرى بوضوح الشّكل الحلبيّ لجبل شتائيّ.

في عام ١٩٦٧، اتفق أن وجهت إلى هوندا دعوة إلى حفل عشاء في السفارة الأمريكية بطوكيو. وهناك التقى برئيس المركز الثقافي الأمريكي في بانكوك. وكانت زوجته التي تجاوزت الثلاثين من العمر، تايلانديّة، وقد قال أناس إنها أميرة. وكان هوندا على يقين من أنها ينج تشان.

كانت ينج تشان قد عادت إلى بلادها، بعد وقت قصير من الحريق الذي شبّ في جومبا في ١٩٥٢، ولم يسمع هوندا شيئاً عنها، منذ ذلك الحين. وللحظة اعتقد بأنها عادت إلى طوكيو بعد خمسة عشر عاماً زوجة لأميركي. ولم يكن هذا بالأمر المستحيل، وسيكون سلوكاً يتوافق تماماً مع ما درجت عليه ينج تشان من التظاهر بأنها لا تعرفه على الإطلاق لدى تحيّيها له، عند تقديم أحدهما للآخر.

تطلّع إليها عدّة مرّات، خلال العشاء، ولكنها أصرت على عدم التحدث باليابانية. وكانت لغتها الإنجليزية لغة امرأة ولدت في أميركا. وإذ شغل الأمر هوندا بعمق فقد ردّ بإجابات لا قيمة لها على الإطلاق، في مرّات عديدة، على أسئلة المرأة التي جلست إلى جواره.

بعد تناول طعام العشاء، قدّمت المشروبات الروحية في قاعة أخرى، ودنا هوندا من السيدة التي كانت ترتدي ثوباً ورديّ اللون من الحرير التايلانديّ، وأتيحت له فرصة محادثتها على انفراد للمرّة الأولى.

سألها عمّا إذا كانت تعرف ينج تشان.

- إنني أعرفها حقّ المعرفة، فقد كانت شقيقتي التوأم. ولكنها ماتت.

قالت بالإنجليزية، على نحو متألق، فسألها باندفاع عن كيفية موتها، ومتى كان ذلك.

قالت السيّد إنه بعد عودة ينج تشان من دراساتها في اليابان، اكتشف أبوها أنها لم تستفد إلا قليلاً من إقامتها هناك، فحاول إرسالها إلى الولايات المتحدة للدراسة، ولكنها لم توافق على ذلك، واختارت الإقامة في مقرها المحاط بالزهور في بانكوك. وقد ماتت فجأة في الربيع، وهي في العشرين من عمرها.

قالت الوصيفة إن ينج تشان كانت واقفة بمفردها في الحديقة تحت شجرة فونيكس تميّز بزهورها القرمزية التي يشوبها لون الدخان. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أحد فقد سُمعت وهي تضحك. وحدثت الوصيفة نفسها بأنه من الغريب أن تضحك، وهي منفردة بنفسها. ثم ترددت أصوات صافية بريئة مرتفعة إلى السماء الزرقاء المشمسة. وتوقّف الضحك. واستحال فوراً على وجه التقريب إلى صرخات حادة. وهرعت الوصيفة لتجد ينج تشان على الأرض، وقد لدغت كوبرا فخذها.

انقضت ساعة قبل أن يحضر الطبيب، وفي غضونها تراخت عضلاتها، وفقدت السيطرة على كل حركاتها، وأخذت تشكو من نعاس مداهم، وازدواج في الرؤية. وجثم عليها شلل العمود الفقري، وانثال اللعاب من فمها، وأخذ تنفسها بالتباطؤ، في حين تسارع نبضها، وأصبح غير منتظم. وانغمست ينج تشان في تقلصات النهاية، وماتت قبل وصول الطبيب.

«معبد الفجر» هي الرواية الثالثة من رائعة ميشيما النادرة المثال، في الأدب العالمي كلّه، رباعيّة «بحر الخصوبة». وكما في «ثلج الرّبيع» و«الجياد الهاربة»، نجد أنّ البطل لا يعدو أن يكون البطل الأوّل نفسه، ولكن بعد انتقاله من خلال تناسخ الأرواح، ليبدأ دورة وجودٍ جديدة، وليتاح له «هوندا» وحده أن يعرف الرابطة التي تصل أبطال الرباعيّة، وذلك من خلال عنصرين محدّدين: هما ثلاث شامات يحملها الأبطال جميعاً، ومجموعة الأحلام العجائيّة . . .

إنّ ميشيما على يقين من أنّ رباعيّته إنّما هي نقطة الوصول لكلّ ما تعلّمه بوصفه كاتباً. فقد لفت انتباه أصدقائه إلى أنّه عندما ينتهي من كتابتها، لن يبقى له سوى عمل شيء واحد: «الانتحار»، وهو ما حدث بالفعل.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر



دار
هاتف ٨٠٣٧٨
ص ب ٤١٢٣

علي مولا